التفسير الموضوعي
لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد الثامن

الحديد - المرسلات

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

هاتف: (+٩٧١-٦-٥٠٥٠٥٥٠)، فاكس: (+٩٧١-٦-٥٠٥٠٥٥٥)

E-mail: pb@sharjah.ac.ae

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

هاتف: (+٩٧١-٦-٥٥٨٥٠٠٠) فاكس: (+٩٧١-٦-٥٥٨٥٠٩٩)

Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ. د. مصطفى مسلم رئيسًا

أ. د. عيادة الكبيسي عضوًا

أ. د. أحمد البدوي عضوًا

أ. د. عبد الله الخطيب عضوًا

د. محمد عصام القضاة عضوًا

د. قاسم أسعد عضوًا

د. عواد الخلف عضوًا

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ.د. مصطفى مسلم محمد
أ.د. عيادة أيوب الكبيسي
أ.د. أحمد محمد الشرقاوي
أ.د. ناصر سليمان العمر
أ.د. أحمد عباس البدوي
أ.د. محمد أحمد عيد الكردي
أ.د. مساعد مسلم آل جعفر
أ.د. شحادة احميدي العمري
أ.د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناصر الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكبيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحديد

الإيمان وآثاره في سورة الحديد

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

سميت سورة (الحديد) بهذا الاسم لورود لفظ «الحديد» في قوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾[الحديد:٢٥](١).

والحديد في كل العصور هو القوة التي تحمي العدل، ويجاهد بها أعداء الدين، وتصان الحقوق، وبه يذود الإنسان عن عرضه وماله، وهو عدته في كثير من أمور معيشته، وعمدته في السلم والحرب؛ فمنه تقام الجسور، وتشاد العمائر، وتُنشأ الموانئ، ومنه تصنع الدروع والسيوف والرماح والصواريخ والبارجات والبواخر والطائرات.....، فمنافع الحديد لا تحصى، وما من صناعة إلا وهو آلة فيها(٢).

(١) قال ابن عاشور: وهذا اللفظ وإن ذُكر في سورة الكهف في قوله: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [الكهف:٩٦]، وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار، فلم تسمّ به؛ لأنها سميت باسم الكهف للاعتناء بقصة أهل الكهف؛ ولأن الحديد الذي ذكر هنا مراد به حديد السلاح من سيوف ودروع وخُوذ، تنويها به إذ هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته، وإلهام الناس صنعه لتحصل به منافع لتأييد الدين، ودفاع المعتدين. التحرير والتنوير: ٢٧٠٣٢٠.

(٢) وللحديد منافع جمة للكائنات الحية؛ فمركباته تدخل في عملية تكوين الكلوروفيل، وهو المادة الأساسية في عملية التمثيل الضوئي التي ينشأ عنها تنفس النبات، وتكوين البروتوبلازم الحي، وعن طريقه يدخل الحديد جسم الإنسان والحيوان. ويدخل الحديد في تركيب بروتينات النواة (المادة الكروماتينية) في الخلية الحية، كما أنه يوجد في سوائل الجسم مع غيره من العناصر، وهي إحدى مكونات الهيموجلوبين (المادة الأساسية في كرات الدم الحمراء)، ويقوم بدور هام في عملية الاحتراق الداخلي للأنسجة والتمثيل الحيوي بها، والحديد يوجد كذلك في الكبد والطحال والكلى والعضلات والنخاع الأحمر، ويحتاج الجسم إلى كمية من الحديد، فإذا نقصت تعرض الإنسان لعدة أمراض أهمها فقر الدم. المنتخب=

ب. مكان نزول السورة:

اختُلف في مكان نزول هذه السورة على قولين:

الأول: أنها نزلت بالمدنية، قال ابن الغرس: الجمهور على أنها مدنية[1]، وقال ابن عطية: «ولا خلاف أنَّ فيها قرآناً مدنياً، لكن يشبه صدرها أن يكون مكيا»[2].

والثاني: أنها نزلت بمكة[3].

والظاهر أنَّ أغلب آياتها مدني، وفيها ما هو مكي، قال ابن عاشور: « وفي كون هذه السورة مدنية أو مكية اختلاف قوي، لم يختلف مثله في غيرها، والذي يظهر أن صدرها مكي كما توسَّمه ابن عطية، وأن ذلك ينتهي إلى قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد:٩].

وأنَّ ما بعد ذلك بعضه نزل بالمدينة، كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين وبعضه نزل بمكة مثل آية: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحديد:١٦]، كما روي عن ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد:١٦] إلا أربع سنين[4].

وعبد الله بن مسعود ﷺ من أول الناس إسلاماً، فتكون هذه الآية مكية.

ويشبه أن يكون قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد:٢٥] نزل بالمدينة، وألحق بهذه السورة بتوقيف من النبي ﷺ في خلالها أو في آخرها، وفيها آية: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ

= في تفسير القرآن الكريم: ٨٠٨.

(١) الإتقان، السيوطي ١/ ٣٣.

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٢٥٦.

(٣) بحر العلوم، أبو الليث السمرقندي ٣/ ٣٢١، التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٥/ ١٧٩.

(٤) صحيح مسلم، الحديث رقم (٣٠٢٧).

أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَـٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ ﴾[الحديد: ١٠].

وسواء كان المراد بالفتح في تلك الآية فتح مكة أو فتح الحديبية، فإنه أطلق عليه اسم الفتح، وبه سميت سورة الفتح، فهي متعينة لأن تكون مدنية، فلا ينبغي الاختلاف في أن معظم السورة مدني(١).

ج. عدد آيات السورة:

قال أبو عمرو الداني: « وهي عشرون وتسع آيات في الكوفي والبصري، وثمان وعشرون في عدد الباقين، اختلافها آيتان:

﴿ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ [الحديد:١٣]، عدها الكوفي، ولم يعدها الباقون.

﴿ وَءَاتَيۡنَـٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ ﴾ [الحديد:٢٧]، عدها البصري، ولم يعدها الباقون»(٢).

هـ. محور السورة:

تقدم أنَّ هذه السورة فيها ما هو مكي وما هو مدني؛ ومن ثَمَّ فقد جمعت الكثير من خصائص المكي والمدني ومميزاتها الموضوعية؛ فعُنيت بالتشريع والتربية والتوجيه، وبناء المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية، والخلق الكريم، والتشريع الحكيم(٣)، وإلى جانب ذلك عالجت الموضوعات الآتية:

الأول: دلائل الإيمان وآثاره.

والثاني: الدعوة إلى خشية الله.

والثالث: وحدة الرسالات السماوية.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٣٢٠، ٣٢١.

(٢) البيان في عد آي القرآن ٢٤١.

(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣١٨.

وأهم موضوع سعت السورة إلى إبرازه هو الدعوة إلى **الإيمان وبيان آثاره**، ودليل ذلك:

١ - ما افتتحت به السورة من التذكير بجلال الله وعظمته وسعة ملكه، ومقتضى ذلك تمجيد الله تعالى وتنزيهه، وإفراده بالألوهية، فإذا كان الكون بما حواه من السماوات والأرض ومَن فيهن قد نزَّه الله وأفرده بالألوهية، فإنَّ على الإنسان أن يتجه بكليته إلى الله الذي خلقه، فيؤمن به ويوحده؛ لأنه جزء من هذا الكون المسبِّح.

٢ - استطراد السورة في الحديث عن أسماء الله الحسنى وصفات كماله، وأن الكون كله لله جل وعلا؛ لأنه خالقه ومبدعه والمتصرف فيه، وكل ذلك من موجبات الإيمان.

٣ - دعوة السورة المؤمنين إلى الإنفاق في سبيل الله، والتسابق إلى تحصيل المغفرة والجنة له تعلق بموضوعها؛ لأن امتثالهم دليل الإيمان ومقتضاه.

٤ - حديث السورة عن أحوال المؤمنين في اليوم الآخر، وما هم فيه من نور، وبيانها لحال المنافقين، وما هم فيه من ظلمة في مشهد الحشر، وتحذيرها المؤمنين من سلوك طريق أهل النفاق، ونهيهم عن التشبه بأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم؛ دليل على أن مقتضى الإيمان أن يخلص المرء قلبه لله تعالى في السر والعلن وفي الظاهر والباطن.

٥ - حديث السورة عن الإيمان بالقضاء والقدر، وبيانها أن ما أصاب المرء من مصيبة في الأرض ولا في النفس إنما هو بقدر، ومقتضى ذلك الإيمان والتسليم بأمر الله تعالى والرضى بقضائه وقدره، وذلك ثمرة من ثمار الإيمان.

٦ - إن لفظ « آمن» وما اشتق منه قد تردد في تضاعيف هذه السورة (١٤) مرة.

إذن فكل ما سبق يؤكد لنا أنَّ محور السورة الرئيس وركنها الركين هو: « **الإيمان وآثاره في سورة الحديد**».

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

الحديد هو اسم هذه السورة، وهذا الاسم يتناسب تماما مع محورها الرئيس **الإيمان وآثاره**؛ لأنه ورد في سياق الآية التي تحدثت عن الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب والميزان معهم، وعطف على ذلك بذكر إنزال الحديد، وهذا يُلقي بظلال واسعة حول سر الاقتران بينه وبين إنزال الكتاب والميزان.

ويظهر لنا أن أبرز دلالات ذلك الاقتران الإيحاء العميق بأهمية الحديد، وأنه الضمانة لتنفيذ أحكام الشريعة، وكفالة الحقوق، وتأديب المعتدين، واستعماله في تحقيق هذه الغاية أثر من آثار الإيمان وبرهان من براهينه؛ فبه ينصر دين الله ورسله، واستعماله من واجبات الأمة لنشر رسالة الإيمان، والذود عنها، وحماية الحقوق والحريات.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت سورة الحديد بالدعوة إلى الإيمان بالله وبرسوله، وبيان أجر المؤمنين، قال تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾[الحديد:٧]، وختمت كما بدأت بالدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، مبينة أجر الإيمان، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[الحديد:٢٨].

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الحديد وخاتمة سورة الواقعة:

ختمت سورة الواقعة بالأمر بتنزيه الله تعالى عما أنكره الكفرة من أمر البعث، قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٩٦]، وافتتحت سورة الحديد بتقرير ذلك التنزيه، وتبيينه بالدليل والبرهان، فقال كالتعليل لآخر الواقعة: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الحديد:١]، إلى قوله:﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ

تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ ﴾«[الحديد:٥].

وتفصيل ذلك: أنَّ الله تعالى لمَّا ردَّ على منكري البعث بقوله: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الواقعة:٥٧]، وفيه من التقريع والتوبيخ ما لا خفاء به، ثم أتبعه بقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[الواقعة:٥٨]، إلى قوله: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الواقعة:٧٣] وقال تعالى بعد ذلك: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[الواقعة:٨١]، واستمر في توبيخهم إلى قوله: ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[الواقعة:٨٧].

فلما أشارت هذه الآيات إلى قبائحهم أعقب ذلك تنزيهه عز وجل عن سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه، فقال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾[الواقعة:٧٤]، أي نزهه عن عظيم ضلالهم، وسوء اجترائهم، ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾[الحديد:١]، أي سبح باسم ربك فهي سنة العالم بأسرهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[آل عمران:٨٣][1].

٤. المناسبة بين مضمون سورتى الحديد والواقعة:

بين مضمون هاتين السورتين تناسب من وجوه، أهمها:

أولا: عنيت سورة الواقعة بتقرير يوم البعث، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾[الواقعة:٤٩- ٥٠]، وفي سورة الحديد تأكيد لوقوع ذلك اليوم، وبيان لحال الخلائق فيه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾[الحديد:١٢]، وقال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[الحديد:١٥]، وقال: ﴿ وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾[الحديد:٢٠].

ثانيا: في سورة الواقعة تنويه بالقرآن، وبيان أوصافه، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ

---

(١) نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٤٣٣، ٤٣٤، تناسق الدرر، السيوطي ١٣٠.

كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الواقعة:٧٧- ٨٠]، وفي سورة الحديد بيان لحكمة إنزاله، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد:٩].

ثالثا: تحدثت سورة الواقعة عن الجنة، وما حوته من ألوان النعيم، وفي سورة الحديد بيانٌ لسعتها، وذكرٌ لصنوف أُخر من النعيم لم تذكر في سورة الواقعة.

رابعا: بينت سورة الواقعة النزل الذي أُعد لأصحاب الشمال، وهو النار وما فيها من الزقوم والحميم، وفي سورة الحديد وصف لتلك النار، وذكر لصنف آخر من أهلها، وهم المنافقون.

خامسا: في السورتين بيان لأسباب دخول المشركين والمنافقين النار؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[الواقعة:٤٥ – ٤٨]، وقال: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحديد:١٤].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

الإيمان بالله ودلائله وآثاره

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[الحديد: ١- ١٥].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع يتناسب مع محور السورة « **الإيمان وآثاره** »؛ فهو يقرر أن الوجود الإلهي

حق لا مرية فيه، ويقدم الدلائل على ذلك في خمس آيات تتحدث عن عظمة الله وقدرته وإحاطة علمه وحكمته ورحمته وتدبيره وملكه، وأن مرد الأمور إليه، وكلها من مظاهر كماله وموجبات استحقاقه للعبودية وإفراده بها.

كما يتجه المقطع في بقية آياته إلى الحديث عن آثار « تحقيق حقيقة الإيمان في السلوك وذلك أن الإيمان حينما تستقر حقيقته في الأفئدة تخلص النفوس لهذه الحقيقة فلا تضن عليها بشيء ولا تحتجز دونها شيئاً، من الأرواح أو الأموال، أو خلجات القلوب، أو ذوات الصدور وتستحيل النفوس ربانية، فتخشع لذكر الله، وتفر إليه، وتخلص له، وتتجرد لتقواه، وتبذل من أجلـه»[1].

ثانياً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يتناول هذا المقطع ثلاث قضايا:

الأولى: تسبيح الكون لله تعالى وإفراده بالألوهية.

والثانية: دلائل الإيمان بالله تعالى.

والثالثة: آثار الإيمان، وهي الإنفاق في سبيل الله.

* نَزَّهَ اللهَ عز وجل عما لا يليق به، وأَقَرَّ له بالربوبية والوحدانية والقدرة كلُّ ما في السماوات وما في الأرض من ملك وإنسان ونبات وجماد عقلاء وغير عقلاء[2]، قال تعالى:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء: ٤٤]، وقال:﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٧٥.

(٢) قال الشوكاني: والتسبيح المسند إلى ما في السماوات والأرض من العقلاء وغيرهم والحيوانات والجمادات هو ما يعم التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجن، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم، فإن كل موجود يدل على الصانع. فتح القدير: ٥/ ١٦٥.

﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾[النور:٤١].

* وهو سبحانه القوي الغالب القاهر فوق عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله، وفي تدبير شؤون خلقه، وتصريف أمورهم.

* وهو وحده مالك السماوات والأرض، ولا شريك له في ملكه، يتصرف فيه كيف يشاء، يهب الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء.

* وهو سبحانه المحيي والمميت، يخلق الموت والحياة، ويقدرهما، فلا يكون إلا ما قدره وقضاه. فيحيي من يشاء ويميت من يشاء.

* وهو سبحانه قدير تام القدرة، فعال لما يريد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء كائنا مَن كان، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فيعز مَن يشاء ويذل مَن يشاء.

* وهو سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، وله ميراث السماوات والأرض، قال تعالى:﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾[القصص:٨٨]، وهو الظاهر العالي الذي ليس فوقه شيء، الغالب على كل شيء، وهو الباطن الذي ليس دونه شيء، والعالم بما بطَن، وعلمه تعالى محيط بكل شيء، فلا يعزب عنه شيء، قال تعالى:﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ [يونس:٦١]، وعن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»[(١)].

* وهو سبحانه الذي أوجد السماوات والأرض في ستة أيام، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[ق:٣٨].

* ثم استوى سبحانه وتعالى على العرش استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته وكماله.

---

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٧١٣).

* وهو تعالى يعلم كل شيء يدخل في الأرض من مطر وأموات وغيرها، ويعلم كل شيء يخرج من الأرض؛ من نبات وزرع وثمار ومعادن وغيرها، قال تعالى:﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾[الأنعام:٥٩].

* وهو تبارك وتعالى يعلم ما ينزل من السماء من مطر وأرزاق وأقوات وملائكة وغيرها، وما يصعد إليها من الملائكة والأعمال والدعوات، وغيرها.

* وهو سبحانه شهيد على أعمالكم أينما كنتم، يعلم متقلبكم ومثواكم، فأنتم في علمه سواء.

* وهو تعالى رقيب على خلقه، الكل تحت بصره وسمعه، يرى مكانهم، ويسمع كلامهم، في السر والنجوى، قال تعالى:﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾[يونس:٦١]، وقال ﷺ لجبريل عليه السلام لما سأله عن الإحسان: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)] وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل		خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة		ولا أن ما تخفي عليه يغيب[(٢)]

* وهو سبحانه مالك السماوات والأرض، وما فيهما، والمالك للدنيا والآخرة، لا شريك له في ذلك، قال تعالى:﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾[الليل:١٣]، وقال:﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[القصص:٧٠].

* وإلى الله وحده لا إلى سواه ترجع جميع الأمور يوم القيامة، فيحكم بين خلقه بما شاء.

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٥٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢٦.

* وهو سبحانه يقلِّب الليل والنهار، ويقدرهما بحكمته كما يشاء؛ فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، وتارة يتركهما معتدلين.

* وهو سبحانه عليم بالسرائر وإن دقت وخفيت، عليم بنوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شر، قال تعالى:﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾[الرعد:١٠].

* صدقوا بوحدانيته تعالى وبرسالة رسوله ﷺ، وداوموا على ذلك، وأنفقوا مما جعلكم الله خلفاء في التصرف فيه من الأموال، فإنما هي أمواله، فأنفقوا منها في مرضاته.

* الجامعون بين الإيمان بالله ورسوله ﷺ، وبين الإنفاق في سبيل الله لهم ثواب عظيم وهو الجنة.

* أي شيء يمنعكم أيها الناس من الإيمان بالله ؟ والرسول يدعوكم إلى الإيمان، ويسوق لكم البراهين عليه، وقد أخذ الله ميثاقكم بأن تؤمنوا وأنتم في عالم الذر، قال تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، ونصب لكم الأدلة على وحدانيته في الكون كله[١].

* إن كنتم حقاً مصدقين بربكم فبادروا إليه.

* آمنوا بالله واتقوه؛ فهو الذي ينزِّل على رسوله ﷺ آيات القرآن الواضحات ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، قال تعالى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [الطلاق:١٠، ١١].

* استيقنوا أن الله كثير الرأفة والرحمة بكم في إنزاله الكتب وإرساله الرسل، وتمكينكم من النظر في الأنفس والآفاق لتهتدوا إلى معرفته فتؤمنوا وتفوزوا، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

(١) فسر ابن كثير الميثاق ببيعة الرسول ﷺ. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٢٧.

﴿ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[البقرة:١٤٣].

* ما الذي يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله حين يدعوكم ؟! أنفقوا فإن الله سيخلف عليكم قال تعالى:﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[سبأ:٣٩]، فقدموا لأنفسكم الخير قبل أن تموتوا فبعد الموت لا تقدرون على ذلك. إن ميراث السماوات والأرض راجع إلى الله تعالى، وما استخلفكم فيه سيؤول إليه مهما طالت آجالكم.

* لا تساوي في الفضل بين مَن أنفق وقاتل أعداء الله قبل فتح مكة(١)، والعقيدة مطاردة والأنصار قلة، وبين مَن أنفق وقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثير.

* الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح أعلى درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا.

* وكِلا الفريقين موعود بالجنة، وإن تفاوتوا في الدرجات.

* والله عليم بأحوالكم، لا يخفى عليه إنفاقكم وقتالكم وعدمهما، ولا تخفى عليه نيّاتكم ولخبرته تعالى بكم فاوت بين ثواب مَن أنفق قبل الفتح وقاتل وبين ثواب مَن فعل ذلك من بعد الفتح.

* مَن ذا الذي ينفق أمواله في سبيل الله محتسبا أجره عند ربه بلا مَنٍّ ولا أذى، فيضاعف الله له ذلك أضعافا مضاعفة، وله المغفرة والثواب الجزيل، قال تعالى:﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ ﴾[التغابن:١٧](٢).

---

(١) عند الطبري المراد بالفتح: صلح الحديبية، قال: « وأولى الأقوال بالصواب عندي أن يقال: لا يستوي منكم أيها الناس من أنفق في سبيل الله من قبل فتح الحديبية «. جامع البيان: ٢٢/ ٣٩٥.

(٢) عن ابن مسعود ﷺ لمَّا نزل قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١ ﴾ [الحديد:١١]، جاء أبو الدحداح الأنصاري ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله: أوَ يريد الله منا القرض ؟ ! قال: " نعم يا أبا الدحداح "، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل، قالت له: ربح بيعك =

* المقرضون اللهَ من المؤمنين والمؤمنات لهم أجر كريم حين تنظرهم يوم القيامة، ولهم نور يسعى بين أيديهم، يضيء لهم الصراط إلى الجنة، كل حسب عمله، وكتبهم بأيمانهم، كما قال تعالى:﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[التحريم:٨].

* ويتلقون البشارة من قبل الله وملائكته: لكم جنات تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً، قال تعالى:﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[التوبة:٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فصلت:٣٠].

* ذلك ربح وفلاح لا ربح أعظم ولا غُنم أدوم منه.

* في هذا اليوم ينادي المنافقون المؤمنين قائلين: أمهلونا وانتظرونا لننال من نوركم ما نمشي به فنخرج من هذا الظلام وننجوا من العذاب[1].

* فيأتيهم الجواب في نبرة تهكم واستهزاء: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا، فالتمسوا النور من هناك بما التمسناه به من الإيمان والأعمال الصالحة.

* ثم يفصل بينهم بحاجز باطنه الذي يلي المؤمنين وهو الجنة فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي الكافرين وهو النار فيه العذاب.

= يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، فقال رسول الله ﷺ: «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح». صحيح مسلم، الحديث رقم (٩٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٨.

(١) هذا المعنى على مجموع القراءتين في قوله: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد:١٣]؛ قرأ حمزة: " أَنظِرونا "، بهمزة قطع وكسر الظاء، والمعنى: أمهلونا، وقرأ الباقون: " انظُرونا " بوصل الألف وضم الظاء، والمعنى: انتظرونا. حجة القراءات، ابن زنجلة ٦٩٩، الكتاب الموضح، ابن أبي مريم ٣/ ١٢٤٦.

* فينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الدنيا نوافقكم في أعمالكم، نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونؤدي معكم سائر الواجبات.. ؟.

* فيجيبونهم: بلى قد كنتم معنا في الدنيا على الطاعات في الظاهر، ولكنكم: فتنتم أنفسكم بالنفاق فوقعتم في الهلاك والمحنة، وتربصتم بالمؤمنين الدوائر، وشككتم في دين الله الحق، وفي أمر البعث، ولم تصدقوا ما نزل به القرآن، وخدعتكم الأماني والآمال والأطماع الباطلة أن سيغفر لكم، وما زلتم على ذلك حتى جاءكم الموت.

* وخدعكم الشيطان أن لا بعث ولا حساب، وبأن الله عفو كريم لا يعذبكم، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ﴾ [فاطر:٥-٦].

* فاليوم لا سبيل إلى خلاصكم، ولا أمل لكم في النجاة من النار، ولا قبول لبدل تفدون به أنفسكم، ولا من الكافرين الجاحدين بالله وبآياته، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ ﴾[المائدة:٣٦].

* منزلكم جميعا النار هي ناصركم وسندكم وعونكم، ويا له من مصير بائس.

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الله تعالى مستغن في ذاته وصفاته عن جميع ما خلق، وإليه سبحانه تفتقر كل المخلوقات في جميع أحوالها.

* في خلق الله تعالى السماوات والأرض في ستة أيام وهو القادر على خلقهما بقوله تعالى: «كن» تعليم لعباده التأني في الأمور وعدم العجلة.

* معية الله تعالى نوعان؛ خاصة وعامة، فالخاصة معيته بنصرة أوليائه، والعامة علمه بكل

عباده وسائر خلقه، وقدرته عليهم وعلمه بهم.

* شعور المسلم بأن كل أمر مرجعه إلى الله يحرس قلبه من كل لفتة لغير الله تعالى.
* الله عز وجل خبير بما وراء أعمال خلقه من نيات، وهو مجاز كل واحد منهم بما نوى.
* الإيمان والإنفاق في سبيل الله سببان للنجاة في يوم الحساب.
* المؤمنون لا تنالهم أهوال يوم القيامة.

المقطع الثاني

الدعوة إلى خشية الله تعالى

قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحديد: ١٦ - ٢٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع له مناسبة مع محور السورة **الإيمان وآثاره**؛ فقد بدأ بتحذير أهل الإيمان من طول الأمل المؤدي إلى الغفلة عن ذكر الله، ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب الذين أدمنوا المعاصي فقست قلوبهم، ثم حث على الصدقة، وعرض لذكر ثمرة من ثمار الإيمان، وهي أن المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، كما كشف عن حقيقة الحياة الدنيا لكيلا تطول آمال المؤمنين فيها، ودعا إلى المسابقة لنيل مغفرة الله وجنته، وبين أنَّ طريق ذلك هو الإيمان بالله ورسله، وختم بالحديث عن الإيمان بالقضاء والقدر، مبينا ثمرته وهي الوقاية من الاختيال والفخر اللذين ينشأ عنهما البخل والتبخيل، ومن ثَمَّ ترك الإنفاق في سبيل الله.

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

عقد المقطع السابق مقارنةً بين حال المؤمنين وحال المنافقين في مشهد يوم القيامة، وبينت الآيات أن للمؤمنين نوراً يوصلهم إلى طريق الجنة، وأن المنافقين يطلبون منهم أن يؤتوهم قبساً من نورهم يهديهم إلى سبيل النجاة، فيردونهم خائبين.

وفي هذا المقطع أردف بعتاب قوم من المؤمنين فترت هممهم عن القيام بما ندبوا إليه من الخشوع، وحذَّرهم من أن يكونوا كأهل الكتاب الذين قست قلوبهم لطول العهد بينهم وبين أنبيائهم، وبيَّن أن القلوب القاسية تحيا بالذكر وتلاوة القرآن كما تحيا الأرض الميتة بالمطر.

ثالثاً: سبب نزول الآيات:

هذه الآيات نزلت عتابا للمؤمنين، روي عن ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية:﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا

نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[الحديد:١٦] إلا أربعُ سنين»[(١)].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تضمن هذا المقطع أربع فقرات تسلسلت أحداثها في تناسق بديع:

الأولى: تدعو المؤمنين إلى خشية الله.

والثانية: تكرر الدعوة إلى الإنفاق.

والثالثة: تقارن بين حقيقة الدنيا والآخرة.

والرابعة: تقرِّر عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر.

* أما آن للمؤمنين أن تَرِق قلوبهم وتلين أفئدتهم لذكر الله، وآيات القرآن الحق النازل من السماء، وتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه.

* ولا يكون حالهم شبيها بحال اليهود والنصارى؛ لَّما تطاول عليهم الزمن بلا تذكير قست قلوبهم وأصبحت كالحجارة فبدلوا كتاب الله، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وصاروا لا يتأثرون بوعد ولا وعيد، وكثير منهم خارجون عن حدود الله، قال تعالى:﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾[المائدة:١٣].

* اعلموا معشر الخلق أن الله يحيي الأرض بعد موتها؛ فتهتز وتنبض بالحياة وتنبت فتمنح الأكل والثمر، وفي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تحيا الأرض، فكم من قلوب قست ثم دبت فيها الحياة من جديد بقدرته تعالى.

---

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٣٠٢٧). وهذه الصيغة ليست صريحة في السببية إلا أنَّ المفسرين قد أطبقوا على أنَّ السبب هو أن المسلمين لَّما ملُّوا عوتبوا بهذه الآية، واستأنسوا لذلك بما رواه مسلم، = =وغيره من أهل الحديث. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣٢.

* أوضحنا لكم الآيات والحجج كي تتدبروها، وتعقلوا ما فيها من المواعظ وتعملوا بذلك.

* المُصَدِّقون من الرجال والنساء بالله ورسوله، المُتَصَدِّقون بأموالهم على ذوى الحاجة والفقر والمسكنة ابتغاء وجه الله، ولا يريدون جزاءاً ممن أعطوه ولا شكوراً، إنما هم يقرضون الله ويتعاملون معه(١)، هؤلاء يضاعف الله لهم الأجر، الحسنةُ بعشر أمثالها، ولهم ثوابٌ جزيلٌ ومآبٌ كريمٌ.

* والذين صدقوا بوحدانية الله وبما جاءتهم به الرسل أولئك في حكم الله بمنزلة الصديقين.

والذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمته ودينه، ورفع راية الحق، لهم الثواب العظيم عند ربهم، والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في يوم القيامة(٢).

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ﴾ قراءتان؛ فقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف: " المُصَدِّقين والمُصَدِّقات " والمعنى: إن المؤمنين من الرجال والمؤمنات من النساء، وهذه القراءة أعم من قراءة التشديد الآتية؛ لأن معنى قراءة التشديد مقصور على الصدقة، و" المُصَدِّقين " بالتخفيف يعم التصديق والصدقة؛ لأن الصدقة من الإيمان، وقرأ الباقون بالتشديد:﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ﴾، ومعناها: المتصدقون والمتصدقات بأموالهم، وحجتها أن في حرف أبي بن كعب: " إن المتصدقين والمتصدقات " بتاء، وحجة أخرى، وهي قوله: ﴿ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾، وذلك أن القرض أشبه بالصدقة من التصديق. التيسير، الداني ١٦٩، حجة القراءات، ابن زنجلة ٧٠١.

(٢) هذا المعنى على الوقف على: ﴿ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد:١٩]، ثم استأنفت الآية: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾، وقيل إن قوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ ﴾ معطوف على: ﴿ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾، فيكون المعنى: إن الذين أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسله هم الصديقون والشهداء، فلهم الأجر والنور الموعودان لهم، واختلف القول في قوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ ﴾؛ فأحد الأقوال: الشهداء المعروفون، وهم الذين استشهدوا في سبيل الله، والقول الثاني: أنهم النبيون، والقول الثالث: أنهم جميع الناس، فعلى هذا القول يكون ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ ﴾ معطوفا على قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾، وعلى القولين الأولين تم الوقف والكلام على قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾،

* والذين أنكروا وجود الله وجحدوا وحدانيته، وكذبوا بآياته وبراهينه الدالة على ألوهيته وصدق رسله أولئك هم الأشقياء الخاسرون.

* اعلموا أيها الناس أنما هذه الحياة الدنيا:

لعب لا ثمرة له؛ فهو كلعب الصبيان.

ولهو يفرح به المرء فيلهيه ويشغله عما يهمه من أعمال الآخرة.

وزينة تبهج العين، وتسر النظر ثم يذهب بهاؤها ورونقها، فهي كزينة النساء.

وتفاخر يتباهى بعضكم فيها على غيره بالأحساب والأنساب والمال والولد.

ومغالبة في الكثرة في الأموال والأولاد، وتطاول بكثرة العدد والعدة.

تلك هي حقيقة الحياة الدنيا، حين توزن بموازين الآخرة تبدو شيئاً زهيداً إنها أشبه بلعب الأطفال إذا ما قورنت بما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة.

* الدنيا شبيهة بمطر أصاب أرضا فأعجب الزُّرَّاعَ(١) النباتُ الحاصل به، كما قال تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح:٢٩]، ثم ما لبث هذا النبات أن يبس وجف بعد خضرته، وصار مصفر اللون بعد أن كان زاهياً ناضراً، ثم تحطم بعد يبسه وجفافه، وأصبح هشيماً متكسراً، تعصف به الريح، كذلك حال الدنيا.

وقوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ابتداء كلام. تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٧٤، تفسير حدائق الروح، محمد الهرري ٢٨/ ٤٨٢.

(١) وسر التعبير عنهم في الآية بلفظ: « الكفار» أنه كناية؛ لأن الكفر في اللغة يعني التغطية، ولهذا سمي الكافر كافرا؛ لأنه يغطي الحق بالباطل، فسمى الزراع كفاراً؛ لأنهم يغطون الحب تحت الأرض، وليس ذلك الكفر الذي هو ضد الإيمان، وقيل: إن هذا اللفظ على معناه الحقيقي؛ لأن الكفار أشد إعجابا بزينة الدنيا من المؤمنين. بحر العلوم، أبو الليث السمرقندي ٣/ ٣٢٨.

* ذلك هو حال الدنيا وقيمتها، أما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن، شأن يستحق أن يحسب حسابه، ويستعد له، فهي لا تنتهي كما تنتهي الحياة الدنيا في لمحة، وهي لا تؤول إلى حطام كالنبات حين يبلغ أجله؛ إنما هي حساب وجزاء.

* الناس في الآخرة إما في عذاب شديد أليم دائم، وهم أعداء الله، وإما في مغفرة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، وهم أولياء الله وأهل طاعته.

* ما الحياة الدنيا في حقارتها وسرعة زوالها إلا متاع ينخدع به كل غافل ويغتر به كل جاهل قال ﷺ: " موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»[1].

* دعوا معشر الناس التسابق إلى إحراز ما يلهي، وينتهي بأهله إلى غرور خادع من لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في هذه الحياة، وبادروا بالتوبة، وسارعوا مسابقين بعضكم بعضا بالأعمال الصالحة، إلى مغفرة من ربكم وجنة فسيحة، عرضها مثل عرض السماوات السبع والأرضين السبع خلقت وهيئت للذين آمنوا بالله ورسله.

* هذا الجزاء الموعود وهو المغفرة والجنة محض فضل الله، يتفضل به على مَن يشاء من عباده من غير إيجاب ولا إلزام، والله ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل.

* إن كل ما يحدث في الأرض والأنفس من صغير أو كبير من بلايا ومصائب من جدب وقلة الثمرات وفساد زرع، ومرض وخوف وجوع وموت ولد...

* كل ذلك كائن بقضاء الله وتقديره، مسطر في اللوح المحفوظ من قبل إيجاد الخلق، قال تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:١٥٥]. « إن هذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل في تصميمه، محسوب في كيانه، لا مكان فيه للمصادفة، ولا شيء فيه جزاف وقبل خلق الأنفس كان في علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق في

---

(١) سنن الترمذي بشرح المباركفوري ٩/ ١٢٨.

وقته المقدور...

وهذا الكون وما يقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله، لا حدود فيه، ولا فواصل من زمان أو مكان، ولكل حادث موضعه في تصميمه الكلي المكشوف لعلم الله، فكل مصيبة من خير أو شر تقع في الأرض كلها، وفي أنفس البشر هي في ذلك الكتاب الأزلي من قبل ظهور الأرض والأنفس في صورتها التي ظهرت بها»[١].

* إن تقدير ذلك وإثباته في الكتاب سهل على الله؛ لإحاطة علمه وكمال قدرته.

أخبرناكم بذلك بعد قضائنا به أزلا لئلا تحزنوا على ما فاتكم مما تحبون من الخير، ولا تفرحوا بما جاءكم من عند الله وأعطاكموه[٢] فَرَح بطر على الناس.

* والله تعالى يبغض كل متكبر فخور مباهٍ بماله وجاهه، ولا يرضى عنه ويعاقبه.

* هؤلاء هم الذين عظمت الدنيا في أعينهم فأمسكوا أموالهم، ولم يؤدوا حق الله فيها، ولم يكفهم ذلك بل أمروا غيرهم بالبخل، ورغبوهم في الإمساك.

* فمَن ينفق في سبيل الله فإنما ينفق لنفسه، ومَن يعرض عن ذلك فالله سبحانه هو الغني فما به من حاجة إلى العباد المحاويج، وهو تعالى المحمود في ذاته في السماء والأرض، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر:١٥].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٩٣.

(٢) هذا المعنى على مجموع القراءتين في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[الحديد:٢٣]؛ قرأ أبو عمرو: " بما أتاكم " بالقصر، وأتى بمعنى جاء، أي: ولا تفرحوا بالذي جاءكم من الخير، وقرأ الباقون: " بما آتاكم " بالمد، وآتى بمعنى أعطى، والمعنى: لا تفرحوا بما آتاكم الله. الكشف، مكي بن أبي طالب ٢/ ٢١١.

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* من صفات أهل الإيمان خشية الله وطاعة أوامره واجتناب نواهيه.
* تحذير المؤمنين من أن يكونوا عند سماع القرآن غير متدبرين مواعظه كأهل الكتاب الذين قست قلوبهم، لما طال العهد بينهم وبين أنبيائهم.
* الله قادر على أن يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى ببراهين القرآن ودلائله.
* الإنفاق ابتغاء مرضاة الله سبب لمضاعفة الأجر ودخول الجنة.
* كل مؤمن بالله ورسله حق الإيمان صِدِّيق وشهيد، ولا يكون المنهمك في الشهوات، الغافل عن الطاعات صِدِّيقاً وشهيداً.
* ينبغي أن تتخذ الحياة الدنيا وسيلة للنعيم الدائم في الآخرة، ووقاية من العذاب الشديد وما عدا ذلك فهو متاع قليل زائل.
* المبادرة والتنافس إلى تحصيل مغفرة الله وفضله مطلوب شرعي، أما المسارعة إلى تحصيل متاع الدنيا وحطامها فمذمومة.
* الجنة سلعة غالية، ولا تنال إلا برحمة الله تعالى وفضله، والله صاحب الفضل.
* علم المسلم بأن كل ما يصيبه من خير أو شر إنما هو كائن بتقدير الله يسكب في نفسه «السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث، فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعا وتذهب معه حسرات عند الضراء، ولا تفرح الفرح الذي تستطار به، وتفقد الاتزان عند السراء»[١].
* « ليس أحد إلا وهو يفرح عند منفعة تصيبه، ويحزن عند مضرة تنزل به، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً، والحزن صبراً، وإنما يذم من الحزن المنافي للصبر، ومن الفرح الأشر

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٩٣.

المطغي الملهي عن الشكر»[1].

* الله سبحانه وتعالى محمود إلى خلقه بما أنعم به عليهم من نعمه، ولا يضيره الإعراض عن شكره.

المقطع الثالث

وحدة الرسالات السماوية

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[الحديد:٢٥ - ٢٩].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

موضوع السورة الرئيس هو تحقيق حقيقة الإيمان في القلوب، وبيان مقتضياته وآثاره في السلوك الفردي والمجتمعي، وهذا المقطع يتعانق مع هذا المحور؛ فقد عرض طرفاً من تاريخ رسالة الإيمان، الواحدة في رجالها ومنهجها وخط سيرها.

كما أوضح أنَّ من آثار الإيمان اتباع الرسل وما جاءت به الكتب وتحقيق العدل في واقع الحياة، ونصرة الله باستعمال الحديد كلما حدث انحراف عن أمره وشرعه ومنهجه.

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي ٤/ ٢٢٨.

وأشار المقطع إلى بعض ما كان عليه أهل الكتاب من انحراف تنبيهاً لأهل الإسلام لتسيير خطاهم في الطريق الصحيح؛ طريق التقوى والإيمان بالله ورسله، ودعاهم إلى الإيمان، فبه تنال الأجور الكريمة، ويفوز صاحبه بالنور والمغفرة.

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

حثَّ المقطع السابق على خشية الله، وحذَّر من مشابهة أهل الكتاب في قسوة قلوبهم، وبيَّن جزاء المؤمنين المنفقين، ومآل المكذبين بآيات الله ورسله، وحقَّر حال الدنيا، ووصفَ كمال حال الآخرة، وأتبعه بالحديث عن الإيمان بالقضاء والقدر، حتى إذا استقرت هذه المعاني أعقب في هذا المقطع ببيان وحدة الرسالات في الدعوة إلى الإيمان، وجزاء مَن آمن بالرسل السابقين من أهل الكتاب، ثم أكمل إيمانه بمحمد ﷺ، ثم فنَّد زعم اليهود اختصاص النبوة فيهم.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع حول ثلاث قضايا:

الأولى: الغاية من بعْث الرسل، وجزاء المصدقين بهم.

والثانية: تأكيد الدعوة إلى الإيمان برسالة النبي الخاتم ﷺ، وبيان أجر ذلك.

والثالثة: تسفيه زعم اليهود اقتصار النبوة عليهم.

* لقد أرسلنا رسلنا إلى أممهم بالمعجزات البيِّنة، والحجج القاطعة الدالة على صدقهم(١).
* وأنزلنا على كل رسول منهم كتابا، ليسعد الناس بتطبيق شريعة الله ومنهجه.
* وأنزلنا معهم العدل - وهو الحق الذي تشهد به العقول السليمة - لتقوم حياة الناس عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾[النساء:٥٨].

(١) فسَّر الزمخشري الرسل بالملائكة، والمعنى عنده: لقد أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء بالحجج والمعجزات، وأنزلنا معهم الوحي والميزان. الكشاف: ٤/ ١٢٢٣.

* وأنزلنا الحديد، وجعلنا فيه قوة شديدة؛ ليكون رادعا لَمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه(١)، وفيه منافع للناس في معاشهم كأدوات الطعام، ومرافق المنازل، وتشييد المباني، وصناعة آلات الزراعة والصناعة، وغيرها(٢).

* أنزل الله الحديد ليراكم ناصري دينه ورسله باستعماله في مجاهدة أعدائه، وإنَّ الله قوي لا يعجزه شيء، قادر على الانتصار من أعدائه، لا يفتقر إلى نصرة أحد، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض.

* لقد بعثنا نوحا ﷺ إلى طائفة من الناس، ومن بعده إبراهيم ﷺ إلى طائفة أخرى، وجعلنا النبوة في نسلهما، وأنزلنا على الرسل من ذريتهما الكتاب - التوراة والإنجيل والزبور والفرقان - لهداية الناس، فمن نسلهما مَن اهتدى إلى الحق، وآمن بالرسل والكتاب، وكثير منهم خارجون عن طاعة الله.

* ثم أتبعنا بعدهم برسلنا رسولا بعد رسول، حتى عيسى بن مريم ﷺ الذي أرسلناه وأعطيناه الإنجيل، وجعلنا في قلوب أتباعه، وهم الحواريون الرقة والخشية والمودة والشفقة؛ فيعطفون على بعضهم، ويدفعون الشر عنهم، ويجلبون الخير لهم، كما قال عز وجل في أصحاب محمد ﷺ: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح:٢٩].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ معجزة قرآنية علمية؛ فقد اكتشف العلماء من التحليل الطيفي للحديد أنه عنصر من عناصر النجوم، ومنها الشمس التي انفصلت عنها الأرض انفصالا، كما أشار إليه القرآن= = الكريم في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنبياء: ٣٠]، فإن الله سبحانه وتعالى أنزل الحديد من الشمس مع الأرض لينتفع به الإنسان في اختراعاته، كما ينتفع به في دمه، الموسوعة الذهبية لإعجاز القرآن والسنة النبوية. د/ أحمد مصطفى، ٢٦٠.

(٢) يمتاز الحديد وسبائكه بخواص متعددة ومتفاوتة الدرجات في مقاومة الحرارة والشد والصدأ والبلى، وتقبل المغناطيسية وغيرها، ولذلك كان أنسب الفلزات لصناعة أسلحة الحروب وأدواتها، وأساسا لجميع الصناعات الثقيلة والخفيفة، ودعامة للحضارات. المنتخب في تفسير القرآن الكريم: ٨٠٨.

* وابتدعت أمَّة من النصارى رهبانية[1] ما شرعناها لهم، ولم نلزمهم بها، وإنَّما التزموها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضواننا، والزلفى إلينا، فما قاموا بما التزموه حق القيام.

* فأعطينا الذين آمنوا منهم بمحمد ﷺ ثوابهم الذي يستحقونه، وكثير منهم فسقوا عن أمر ربهم، وخرجوا عن حدوده وطاعته.

* يا مَن صدقوا بوحدانية الله وربوبيته، وصدقوا رسوله - من أهل الكتاب - خافوا الله تعالى بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، وآمنوا برسوله ﷺ، ولكم ضعفان من الأجر؛ لإيمانكم بالرسل والأنبياء قبل محمد ﷺ، ثم لإيمانكم به ﷺ، ويجعل الله لكم نوراً في الدنيا يهديكم إلى الحق، ونوراً تمشون به على الصراط، ويغفر لكم ما سبق من المعاصي والآثام، وهو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم.

* بيَّنا لكم فضل مَن آمن بالله واتقاه، وآمن برسوله محمد ﷺ ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالله ولم يتقوه، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ أنَّهم لا يمنعون هذا الفضل على مستحقيه من عباد الله، وأنهم لن ينالوا شيئا منه ما لم يؤمنوا به ﷺ[2].

* إن النبوة فضل من الله يعطيه مَن يشاء من عباده، فكما بعث في بني إسرائيل أنبياء فكذلك بعث محمداً ﷺ في العرب، وهو تعالى واسع الفضل كثير العطاء، يمنحه مَن شاء من عباده، لا يخص به قوما دون آخرين، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر:٢].

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع

* الكتب السماوية وما فيها من البينات الواضحة هي أساس الشرائع، ومنهجها هو التزام

(١) الرهبانية هي الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، وتعني المبالغة في العبادة بالرياضة، والانقطاع عن الناس. المقتطف من عيون التفاسير، مصطفى المنصوري ٥/ ١٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٨٠٥، بتصرف.

الحق والعدل في الحكم، والقوة الحامية لذلك هي الحديد؛ فهو أداة احترام الحقوق وكفالتها، وتأديب المعادين لشرع الله، وحفظ حرمات أهل الإسلام وأوطانهم.

* الرسالات السماوية واحدة في مصدرها ومنهجها ورجالها وغاياتها.

* من رحمة الله وفضله على الناس إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والميزان، وإنزال الحديد لما فيه من بأس شديد، ومنافع للناس.

* « ذمَّ الله النصارى من وجهين (أحدهما): الابتداع في دين الله ما لم يأمر به، (والثاني): في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموه أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل»(١).

* الرهبانية ليست من الإسلام في شيء.

* من سنن الله في الناس أنه إذا أرسل الرسل لهدايتهم يهتدي بعضهم ويضل بعض.

* إنَّ إيمان أهل الكتاب بالتوراة والإنجيل، وبموسى وعيسى عليهما السلام لا يكفي، ولا ينفعهم شيئا ما لم يؤمنوا بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

* الإيمان والتقوى هما طريق ولاية الله في الدنيا والآخرة.

* النبوة محض فضل الله يؤتيه مَن يشاء من عباده، وليست مختصة بقوم دون آخرين، وليس لأحد أن يحصرها في قوم مخصوصين.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣٨.

سورة المجادلة

أولا: بين يدي السورة

أ. اسم السورة

سميت السورة بسورة «المجادلة» بكسر الدال وفتحها، وتسمى بسورة قد سمع «وذلك لافتتاحها بقوله تعالى﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾[1] وتسمى بـ(سورة الظهار)[2] وذلك لأنها افتتحت بقضية امرأة أوس بن الصامت التي جاءت لدى النبي ﷺ تجادله في شأن مظاهرة زوجها لها وبينت السورة حكم الظهار.

ب. عدد آياتها

عدد آيات سورة المجادلة عند أهل المدينة ومكة إحدى وعشرون، وفي عد أهل الشام والبصرة والكوفة اثنتان وعشرون[3] واختلافهم في آية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[4] فمن اعتبرها آية منفصلة عد اثنتين وعشرين ومن اعتبرها جزءاً من الآية التي تليها عدها واحداً وعشرين.

ج. مكان نزولها:

قال ابن عطية: سورة المجادلة نزلة بالمدينة فهي مدنية بالإجماع[5].

---

(١) أ. د وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٥/ ٢٨.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٥ .

(٣) انظر الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسع المثاني، دار التراث العربي، بيروت، (٢٨/ ٢)، وانظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٦).

(٤) الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (٩/ ٣١٤).

(٥) انظر: أبي محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ٥/ ٢٧٢.

وروي عن الكلبي أنه قال كلها بالمدينة إلا الآية السابعة [١] وهي قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ والمرجح أن السورة مدنية لما روي عن خولة بنت ثعلبة قالت: والله فيَّ وفي أوس بن صامت أنزل الله ـ عز وجل ـ صدر سورة المجادلة قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي: قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني على نفسي، قالت: فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ، وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه... ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ﷺ ما ألقىٰ من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقِى الله فِيهِ» قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سُرِّي عنه، فقال لي: «يا خُوَيْلَةُ قَدْ أَنْزَلَ الله فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ» ثم قرأ عليّ ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فقال لي رسول الله ﷺ: «مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً» قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: «فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ» قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: «فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً وَسَقاً مِنْ تَمْرٍ» قالت: قلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده، فقال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ» قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر، قال: «قَدْ أَصَبْتِ وَأَحْسَنْتِ فَاذْهَبِي فَتَصَدَّقِي عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْراً، قالت: ففعلت»[٢].

---

(١) أ. د وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٥/ ٢٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، أحمد بن حنبل، المسند، رقم الحديث: ٢٦٩٠٩.

د- فضائل السورة:

مما جاء في السنة في فضل هذه السورة ما روي عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾[1].

ه. محور سورة المجادلة

جاءت هذه السورة تبين تمام علم الله وقدرته، ومن عظم هذه القدرة أن وسع سمعه سبحانه الأصوات كلها، ففيها إشارة إلى تمام العلم اللازم عنه تمام القدرة اللازم عنه الإحاطة بصفات الكمال [2] لذا تميزت هذه السورة باشتمالها على لفظ الجلالة الله في كل آية من آياتها لتربية المهابة منه بالنفوس، وعدم التجرؤ على مخالفته [3]

و. المناسبات في السورة

أولا: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

اسم السورة «المجادلة»، و«قد سمع»، و«الظهار»، وهي أسماء ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمحورها فمن جلال قدرة الله سماعه الأصوات كلها كما في حديث عائشة رضي الله عنها السابق، وكذلك تشريعه للأحكام الشرعية التي تصلح أحوال الخلق ومنها الظهار وهذا لا يكون إلا ممن أحاط علمه وقدرته بالأمور.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب وكان الله سميعا بصيرا، أحمد بن حجر، فتح الباري، (٦/ ٢٧٠١).

(٢) انظر: أبي الحسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٧/ ٤٧٤).

(٣) أ. د وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٥/ ٢٨).

ثانيا: المناسبة بين افتتاحية سورة المجادلة وخاتمتها

من جمال المناسبة بين البدء والخاتمة أن الله ذكر في بداية السورة أمر المجادلة وأنه رحم شكواها لأنها من حزبه، وسمع لها، ومن سمع له فهو مرضي عنه وختم السورة ببيان أن من تعدى حدوده فعاود أحوال الجاهلية، فهو محاد لله سبحانه وهو من حزب الشيطان(1).

ومن ذلك أيضا أن السورة قد بدأت بتصوير رعاية الله وعنايته بالناس من خلال ذكر واقعة المرأة الفقيرة التي سمع الله لها وهي تجادل رسول الله في شأن زوجها، ودل ذلك على إخلاصها وحرصها على رباط أسرتها، وختمت السورة ببيان أن هناك طائفة مؤمنة، والتي منها المجادلة قد أخلصت نفسها لله، فرقت إلى مقام المفاضلة فهي لا تواد من حارب الله ورسوله.

ثالثا: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

- لما ختم الله سورة الحديد بذكر فضله على من يشاء من عباده بقوله ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٩٢]، افتتح سورة المجادلة بما هو من ذلك بذكر بيان فضله في إجابة الدعوة، فأجاب دعاء تلك المرأة وفرج كربها فقال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (2).

-ومن المناسبة في ذلك أيضا: أنه لما ختمت سورة الحديد بعد إثبات عجز الخلق ببيان عظيم فضله سبحانه على خلقه، كان سماع أصوات جميع المخلوقات من غير أن يشغله صوت عن صوت، وكلام عن كلام من ذلك الفضل العظيم (3).

---

(١) أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، (٧/ ٥٠٨).

(٢) انظر: الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية بيروت، (٩/ ٣١٤).

وانظر محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، (١٥/ ٣).

وانظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، بيروت، (١٤/ ٨٠٦).

(٣) البقاعي، نظم الدرر، دار الكتب العلمية، بيروت، (٧/ ٤٧٤).

رابعا -المناسبة بين مقاطع السورة بعضها ببعض وارتباطها بمحورها

تنقسم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

أما **المقطع الأول من الآية (١-٤)** فقد ذكر الله في هذا المقطع عظيم قدرته فكان سماع أصوات جميع الخلائق من ضمنها، ومنه سماعه لمجادلة خوله لرسول الله -ﷺ- في شأن زوجها أوس وبيانه لحكم الظهار وكفارته، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ (١-٤).

ولما ذكر سبحانه وتعالى في المقطع الأول حدوده، فحوى ضمنا البشارة لمن حافظ عليها والتهديد الصريح لمن تجاوزها أتبع ذلك في **المقطع الثاني في (الآيات من ٥-١٩)** ببيان خسارة من عادوه ممن تعدى حدوده، بسبب استحواذ الشيطان عليهم، وفصّل ببيان عاقبتهم بالخسران والعذاب المهين لهم بالكبت لهم في الدنيا والخزي والذل لهم في الدنيا والآخرة(١).

ثم جاء المقطع الثالث في (الآيات ٢١-٢٢) يبين ما وصل إليه حال أعدائه الذين استحوذ الشيطان عليهم، فنسوا بسببه ذكر الله، فاستحقوا بذلك الذل والخسارة في الدنيا والآخرة وختم السورة بمدح أوليائه لعدم موالاتهم لهؤلاء الأعداء.

خامسا: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما سبقها

أرشدت سورة الحديد إلى المعاني الإيجابية للهداية فجاءت سورة المجادلة تحرر الإنسان

(١) انظر سعيد حوى، الأساس في التفسير، ١٠/ ٥٧٨٨.

من المعاني السلبية، حيث أرشدت سورة الحديد إلى خصائص المتقين، أما سورة المجادلة فقد جاء فيها ما يدعو الإنسان إلى التحرر من أخلاق الفاسقين، وهو من التكامل الذي لا يخفى فتتكامل سورة الحديد وسورة المجادلة فالسورتان تفصلان بصفات الفريقين المتقابلين، لتحققا التقوى وتحررا من الفسوق[١].

ثانيا: المعنى الاجمالي لمقاطع سورة المجادلة

المعنى الاجمالي للمقطع الأول:

قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

ابتدأت السورة ببيان قصة المجادلة وهي خولة بنت ثعلبة في أرجح الآراء التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت كعادة أهل الجاهلية بتحريم الزوجة بالظهار في قول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي، يقصد تحريم معاشرتها تشبيها لها بالأم[٢].

حيث أخذت المظاهرة بعد محاورتها لرسول الله ﷺ تشكو إلى الله عز وجل وتتضرع إليه بأن يفرج كربها رأفةً بها وبولدها وزوجها، فابتدأت السورة بـ «قد» التي تفيد التحقيق بعد

(١) انظر نفس المرجع السابق، (١٠/ ١٩٧٨-٥٧٧٩).

(٢) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت (٣/ ٣٣٦).

الفعل الماضي، والمقصود من التحقيق إجابة دعائها وإلا فسماع الخالق لخلقه قضية متحققة[١] والمراد من هذا الخبر التنويه بشأن هذه المرأة وتطييب خاطرها، وفي قوله تعالى «تجادلك في زوجها» إشارة إلى احترام الشريعة للإنسان -ذكراً كان أم أنثى -وإعطائه حقه كاملاً في استعمال عقله ومراجعته لغيره فيما يعرض له من قضايا وهذا واضح في محاورة المرأة للنبي ﷺ.

وفي إضافة المرأة إلى زوجها في قوله تعالى﴿ فِي زَوْجِهَا ﴾ إشارة إلى أن المرأة المظاهر منها لا زالت زوجة لزوجها لم تحرم عليه حرمة مؤبدة بل ما زال هنالك سبيل إلى وصل هذه العلاقة [٢].

ويخبر المولى تبارك وتعالى بأنه قد سمع حديثها [٣] ومراجعتها في الكلام معللا ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ فهو سبحانه سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه بصير بأعمال العباد وفي الآية إشارة إلى أن سمع الله يحتوي كل شيء في الوجود [٤] ومنهج السلف عليهم رضوان الله في الصفات إثبات الصفات لله تعالى ومنها صفتا السمع والبصر لله سبحانه بما يليق بجلاله وعظمته.

ثم ذم سبحانه وتعالى فعل الظهار بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾

والظهار: هو قول الرجل لامرأته أنت عليّ كظر أمي، وكان العرب في الجاهلية يقولون هذا القول للمرأة يريدون بذلك تأبيد تحريم نكاحها [٥] وقد قرأ عاصم «يظاهرون» بضم الياء،

---

(١) الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٤٩٢).

(٢) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر، بيروت، (٢٨/ ٨١١).

(٣) وقد عبر بلفظ السماع دون الاستماع لأن السماع يكون من غير طلب، على حين لا يكون الاستماع إلا بطلب، انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨١١).

(٤) انظر محمود الآلوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، (١٥/ ٥).

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ١١).

وتخفيف الظاء والهاء وكسرها وألف بينهما، وقرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزه والكسائي وخلف بفتح الياء وتشديد الطاء وألف بعدها «يظّاهرون» والباقون «يظَّهَّرون» بتشديد الظاء والهاء دون ألف بينهما[١].

فبين الله أن هؤلاء المظاهرين يقولون قولاً منكراً تنكره الحقيقة، وينكره الشرع زور وبهتان، لأن الزوجة ليست أما في الحقيقة، فأمهاتهم من قمن بولادتهم من أرحامهن، فكان هذا القول منكراً لأنه يضع الزوجة في صورة الأم، والزوجة لا تكون أماً لزوجها أبداً، فمن قال هذا القول ينبغي عليه العودة عنه، فيحظى بعفو الله ومغفرته، فالله واسع العفو والمغفرة بالرغم مما يقع من عباده من منكر وزور.

وقد بين الله عز وجل صفحه وعفوه عن المظاهرين، وغفر لهم بإيجاب الكفارة عليهم[٢] وفي هذه الفاصلة القرآنية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إشارة إلى أن الله سبحانه وسع بعفوه ومغفرته ما يقع من عباده من منكر وزور إذا تابوا وأنابوا وفي تسمية القرآن للظهار بالمنكر والزور ما يدل على تحريمه.

ثم يبين القرآن بعد هذا الإنكار للظهار حكمه وجزاءه بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ فمن قال لزوجته هذا القول ثم عاد[٣] وندم على ما صدر منه ورغب بإعادة زوجته فعليه عتق رقبة -عبداً أو أمةً- من

(١) ابو الخير محمد بن محمد بن الجزري، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، دمشق، (٢/ ٣٨٥).

(٢) انظر: أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في التفسير والتأويل، دار الفكر، بيروت، (٥/ ٣٢٣).

(٣) وانظر إلى جمال النظم في إيقاعه العود على القول لا على النساء المظاهر منهن لأنه أصبح حائلا بين الرجال وبين نسائهم فإذا أردوا أن يدفعوا هذا الحائل لا بد من كفارة، أنظر عبد الكريم الخطيب،

قبل معاشرتها فمن لم يجد الرقبة التي يعتقها فعليه صيام شهرين متتاليين من قبل الجماع ولو أفطر يوما منها انقطع التتابع ووجب عليه الاستئناف للصيام من جديد فمن لم يستطع الصيام لكبر سن أو مرض دائم يمنع منه فعليه أن يطعم ستين مسكينا «ولا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير»[١].

ويختم القرآن بفاصلة الآية ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مبينا علة بيان الأحكام بأنها لأجل أن يزداد المؤمن إيمانا بعظمة التشريع فلا يلتفت إلى أحكام الجاهلية ويحذر من الاستخفاف بحدود الله وذلك لأن من يتعدى حدود الله من بعد هذا البيان فقد عرّض نفسه للعذاب الأليم.

التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٢).

(١) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي، بيروت، (١٧/ ٢٧٧).

المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ
إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ
يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا
عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ
فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ
(٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ
لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن
لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ
عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا
فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ
فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾

ولما ذكر الله حال المؤمنين الوقافين عند حدود رب العالمين، أتبعه بذكر حال المحادين المخالفين لأمر الله ورسوله من المنافقين الذين كانوا يتآمرون على المؤمنين مع اليهود في المدينة مبينا عاقبة تآمرهم وما يؤول إليه حالهم فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ وهذه الآية نزلت في المنافقين وقوم من اليهود كانوا في المدينة يتآمرون على رسول الله ﷺ والمؤمنين، ويتربصون بهم الدوائر ويدبرون عليهم ويتمنون لهم المكروه ويتناجون بذلك، فنزلت هذه الآيات [١] فيخبر الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء المنافقين الذين حادوا الله ورسوله [٢] وذلك بمخالفة حدوده وفرائضه وأصل المحادة المعاداة، لأن كلا من المتعاديين في حد غير حد الآخر [٣] وفي هذا الخطاب وعيد عظيم لكل الذين وضعوا أموراً خلافاً لما حد الشرع [٤].

فالذين عاندوا شرع الله كبتوا ويقال كبت الرجل إذا بقي خزيان يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه [٥] فهم قد أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم فالله قد أنزل آيات

(١) أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت .

(٢) وقد عبر القرآن مع المنافقين بالمحادة دون المشاقة التي جاءت في سورة الحشر في سياق الحديث عن بني النضير، وذلك لأن المشاقة أن يكون كل من الفريقين في شق غير الذي فيه الآخر ففيها معنى البعد أما المحادة فليس فيها هذا المعنى إذ المتحادان يفصل أحدهما عن الآخر حد -أي علامة- توضع بين الفريقين كحد الأرض، فالمنافقون يزعمون الإسلام بألسنتهم فتجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر وليس كذلك الكفار من يهود ومشركين لذا استعملت المشاقة في جانب الكفار وكلمة المحادة في جانب المنافقين لأن المنافقين يدّعون الإسلام بألسنتهم، أنظر أ. د فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم دار الفرقان، عمان، ص١٨٩.

(٣) انظر محمد جمال الدين القاسمي، تفسير القاسمي "محاسن التأويل "، دار الفكر، بيروت، (٩/ ٧٠).

(٤) الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٢٠).

(٥) عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، (٣/ ٣٤٤).

واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر، وفي ختم فاصلة الآية بقوله ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ وهي تتحدث عن المنافقين إشارة بينة على كفر المنافقين وإن أظهروا الإيمان في العلن.

ثم يذكّرهم الله عز وجل بذلك اليوم العظيم الذي يقفون فيه بين يديه لعلهم بذلك يعودون إلى جادة الطريق بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فيخبرهم جل وعلا في ذلك اليوم بما ارتكبوا في الدنيا من جرائم وآثام، حفظها عليهم وجمعت لهم في صحائف أعمالهم ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ فأحاط سبحانه بما عمل كل منهم كما وكيفا وزمانا ومكانا، بينما هم نسوا تلك الجرائم وغابت عن أذهانهم لكثرتها ولاعتقادهم أن لا حساب عليها أو لقلة اكتراثهم بالمعاصي [1] فالله سبحانه لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافيه. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فلا يغيب عنه أمر من الأمور، وهذه الفاصلة مقررة لإحصائه تعالى للأعمال [2].

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ وهذه الآية مقررة لما سبق ذكره من كمال علم الله وقدرته في كونه لا يغيب عنه سبحانه أمر من الأمور، فالله مطلع عليهم يسمع كلامهم وكلام غيرهم من البشر مطلع على سرهم ونجواهم، أما رسله من الملائكة الكرام فهم أيضاً يكتبون ما يتناجى به الخلق مع علم الله به.

والتناجي مأخوذ من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض لأن المتسارين يخلوان بنجوة من

(١) انظر القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، مكتبة ومطبعة الحلبي، مصر، (٢٨/ ١٤).
(٢) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٢٣).

الأرض، أو لأن السر يصان فكأنه رفع من حضيض الظهور إلى أوج الخفاء[١].

فما يكون من نجوى ثلاثة في أنفسهم إلا الله عز وجل رابعهم يشاركهم في الاطلاع عليها وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال، وقد قرأ أبوجعفر بالتاء على التأنيث «ما تكون»، وقرأ الباقون بالياء على التذكير «ما يكون»[٢] فقراءة التذكير (ما يكون) أفادت عموم الجنس فيصبح المعنى ما يكون من نجوى ثلاثة كقولك ما جاءني من امرأة،، أما قراءة التأنيث «ما تكون» يصبح المعنى ما تكون نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم[٣] فكأنها جاءت للحديث عن حدث معين يتعلق بنجوى ثلاثة.

أما قوله ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ فالمعنى: لا نجوى خمسة إلا هو سادسهم وتخصيص العددين بالذكر إما لبناء الكلام على أغلب عادات المتناجين بأن يكونوا ثلاثة أو خمسة وإما لخصوص الواقعة التي هي سبب النزول في متناجين كانوا ثلاثة في موضع وخمسة في موضع آخر[٤]، وقد عمم الحكم بعد ولا أدنى من ذلك مما ذكر كالواحد والإثنين، ولا أكثر كالستة وما فوقها إلا هو معهم يعلم ما يجرى بينهم[٥] وقد قرأ يعقوب «ولا أكثر» بالرفع وقرأ الباقون بالنصب على محل «من نجوى»[٦].

فالمراد بهذه الآية بيان معية الله تعالى لخلقه وعلمه بهم، ولا شك في إرادة ذلك، وسمعه أيضاً مع علمه سبحانه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فالله تعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء[٧] أينما كانوا في أي مكان من الأماكن ولو كانوا تحت الأرض، فإن علمه

(١) المرجع السابق.
(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٥).
(٣) انظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣١٨).
(٤) انظر، الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ١٨٩).
(٥) أبو السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢١٨).
(٦) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٥).
(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٤١٣).

تعالى بالأشياء ليس مرتبطا بقرب أو بعد مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأماكن[١] روي عن الضحاك في معنى المعية الإلهية في الآية أنه قال: «هو فوق عرشه، وعلمه معهم أينما كانوا»[٢] فمعيته سبحانه معية علم وهو مذهب السلف عليهم رضوان الله، ولذلك افتتح الله الآية بالعلم واختتمها بالعلم [٣].

وبعد الإخبار عن شمول علمه سبحانه وتعالى يخبر عن أحوال اليهود والمنافقين الذين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم فقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾.

قرأ حمزة بنون ساكنة بعد الياء وضم الجيم من غير ألف عن يفتعلون «وينتجون» وقرأ الباقون بتاء ونون مفتوحتين وبعدها ألف وفتح الجيم عن يتفاعلون [٤]وهما يجريان بمعنى واحد، فالنجوى هي إسرار ما يرفع كل واحد للآخر [٥].

والآية في اليهود والمنافقين حيث كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، يريدون بذلك أن يغيظوهم، فنهاهم رسول الله ﷺ فعادوا لمثل فعلهم، وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته. [٦]وكان اليهود، يأتون النبي ﷺ فيقولون السام عليك: أي الموت فيحيوه بما لا يليق بجنابه ﷺ فنزلت الآية، يدل على ذلك

(١) تفسير أبي السعود، أبو السعود، (٩/ ٢١٩).
(٢) القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ٢١٩).
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٤١٤).
(٤) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٥).
(٥) انظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣١٨).
(٦) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل، دار الفكر، بيروت، (٤/ ٤٩٠).

ما روي «عن أنسَ بن مالك يقول: مرَّ يهوديٌّ برسولِ الله ﷺ فقال: السامُ عليك فقال رسول الله ﷺ: وعليك. فقال رسولُ الله ﷺ «أتدرون ما يقول؟ قال: السام عليك، قالوا: يا رسول الله ألا نقتله؟ قال: لا، إذا سلمَ عليكم أهلُ الكتاب فقولوا: وعليكم»[١]،. وما روي عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: «استأذنَ رهطٌ من اليهود على النبيِّ ﷺ فقالوا: السامُ عليكَ، فقلتُ: بل عليكم السامُ واللعنة. فقال: يا عائشة إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفقَ في الأمر كله. قلتُ: أوَ لم تسمَعْ ما قالوا؟ قال: قلتُ وعليكم»[٢].

ويخبرنا القرآن عما كان يدور في خلجات نفوس هؤلاء المتناجين من قولهم بأنفسهم لو كان محمد نبيا حقا لعذبنا الله على هذا الكلام وعجل عقابنا في الدنيا وذلك في قوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ فرد الله عليهم أن هنالك ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة وهو دخول جهنم يصلون حرها بقوله ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾وجهنم مكان يذم داخله ويصيبه من الأهوال ما لا يخفى فبئس المصير، وإنما لم يعجل لهم الله العقوبة الدنيوية من باب الإمهال.

ثم ينهى القرآن المؤمنين عن أن يتناجوا فيما بينهم كما كان يفعل المنافقون واليهود فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ فنهى الله المؤمنين عن التحدث سرا بما فيه إثم ومعصية من القول وأجاز لهم أن يتحدثوا سرا بما فيه خير وطاعة وإحسان، وقد نبه الرسول ﷺ إلى أدب التناجي في ذلك فقال: « إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ. حَتَّى تَخْتَلِطُوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرّض الذميُّ وغيرُه بسبِّ = =النبي ﷺ ولم يُصرِّح، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، رقم الحديث ٦٧٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرّض الذميُّ وغيرُه بسبِّ النبي ﷺ ولم يُصرِّح، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، رقم الحديث ٦٧٧٦.

بِالنَّاسِ. مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْزِنَهُ»[١].

وبدأ الخطاب بأداة النداء يا التي للبعيد للدلالة على علو منزلة المنادى ووصفوا بأجمل الأوصاف «الذين آمنوا» وعبر بأداة الشرط إذا التي تفيد الجزم بوقوع فعل الشرط بعدها للدلالة على أن التناجي مجزوم بوقوعه بين المؤمنين لذا وجهوا لأن يكون التناجي على أساس البر والتقوى وذلك لأن التقوى هي الدافع إلى فعل الخير واجتناب الإثم.

والنجوى بالسوء من تزيين الشياطين وذلك ليحزن المؤمنين وهو ما نبه إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾بحيث يتناجى البعض والبعض ينظر إليهم بالحزن بسبب فعلهم، لاستثنائهم بما يقولون، والحزن ألم يصيب النفس على ما فات، فبين القرآن أن ذلك التناجي من أتباع الشيطان ليس بضار المؤمنين شيئاً إلا بإذن الله وبمشيئته ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ﴾فهم قوم يكلون أمرهم إليه، ويفوضون جميع شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر، فهو الذي سلط الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحاناً ولو شاء لصرفه عنه[٢] ولذا ختمت فاصلة الآية بقوله تعالى:﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ليخُصّوا من بيده الضر والنفع بالتوكل عليه دون غيره وهو ما يفيده تقديم الجار والمجرور ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾.

ولما نهى الله عباده المؤمنين عما يكون سببا للتباغض والتنافر أمرهم بما يكون سببا لزيادة المحبة والمودة والتوافق وهو التوسيع في المجالس [٣]فقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

(١) أخرجه البخاري في كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث، بغير رضاه، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، رقم الحديث ٥٦٥٠.

(٢) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٧/ ٢٩٥).

(٣) الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٢٧).

فقد جاء الخطاب بأجمل وصف وأحسن عبارة﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾مقرونا بالأمر بضرورة أن يوسع المؤمنون لبعضهم في مجلس النبي ﷺ ليتمكن الجميع من أخذ العلم عنه حيث كان القوم يتنافسون على الجلوس بالقرب من سيدنا رسول الله ﷺ وذلك بأن يفسح ويوسع البعض للآخر ليحظوا بذلك بتوسيع الله لهم في رحمته، وفي الآية دليل على أن من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسع الله عليه من خير الدنيا والآخرة (١).

وقد قرأ عاصم «في المجالس» بألف على الجمع، وقرأ الباقون بغير ألف على التوحيد «في المجلس» (٢)فأفادت قراءة الجمع كثرت مجالسة القوم لرسول الله ﷺ وحرصهم على الانتفاع بما عنده، وأما قراءة الإفراد فدلت على أن المجالس مع كثرتها إلا أنها كانت كأنها مجلس واحد لتألف هذه الجماعة المؤمنة بالأخذ عن النبي الكريم فجميع هذه المجالس مع تعددها أصبحت كأنها مجلس واحد لتساويها بالانتفاع منها وبعدها عن اللهو والهزل.

وكذلك حالهم عند صدور الأمر لهم بالنشور من حيث الاستجابة ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ وأصل النشز: المرتفع من الأرض، ومن المعلوم أن من يريد التوسعة في المجلس لقادم فإنه غالبا ما يرتفع إلى فوق فيتسع الموضع، أو لأن النهوض نفسه ارتفاع، والمعنى إذا دعيتم أيها المسلمون إلى القيام في مجلس النبي ﷺ للتوسعة لقادم أو لرغبته ﷺ بالانفراد وأحيانا ليقوم بوظائفه فقوموا، ويمكن أن يكون المعنى إذا دعيتم أيها المسلمون إلى النشوز إلى فعل الخيرات من الصلاة والجهاد وسائر الطاعات فأجيبوا (٣) وقد قرأ المدنيان ابن عامر وحفص بضم الشين في قوله تعالى﴿ ٱنشُزُواْ ﴾ وقرأ الباقون بكسرها (٤) وهما لغتان من لغات العرب.

ثم يبشر الرحمن من استجاب لأمر الله وأمر رسوله بالإيمان والاتباع برفع الدرجات في

---

(١) انظر محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، (٣/ ٣٤١).

(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٥).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٣٩).

(٤) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٥).

قوله تعالى ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾، وجمع القرآن الدرجات لتعددها وتنوعها في الدنيا والآخرة، وخص أهل العلم بالذكر مع أنهم جزء من المؤمنين من باب عطف الخاص على العام تعظيما له وكأنه جنس آخر [١] ولا شك أن من أراد أن يرفع قوما دون قوم لا بد من أن يكون عليما بمختلف أحوالهم، خبيراً بها لذا جاءت فاصلة الآية ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

وبعد أن وجه القرآن المؤمنين إلى أدب المجالس فيما بينهم بين لهم بعض آداب المجالس عند سيدنا رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾فقد أمر الله المؤمنين بتقديم الصدقات في قوله تعالى ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾قبل مناجاة النبي ﷺ تعظيماً لمقامه ﵇، ونفعا للفقراء، وتمييزاً للمخلص من غيره، وبين محب الدنيا من محب الآخرة [٢] وفيه أيضاً تخفيف على رسول الله ﷺ، قال ابن عباس: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك كف كثير من الناس. ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها[٣].

والأمر في ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾للوجوب والتعبير بـ «بين يدي» يفيد أن الإنفاق مطلوب منهم قبيل المناجاة بقليل، ويوضح القرآن حكمة تشريع الصدقة قبيل المناجاة بقوله ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ ولا شك أن التصدق بالمال خير لهم من إمساكه وأطهر لقلوبهم وأزكى، أما من لم يجد ما يتصدق به قبيل المناجاة والسؤال فإن الله غفور رحيم يغفر لمن لم يجد ما يتصدق به ويرحمه. فأعذر الله العاجزين عن تقديم الصدقة بقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لأن من ينوي فعل الخير لو قدر عليه كان له أجر على نيته، ومن المعلوم أن مناجاة النبي ﵇

(١) انظر القاسمي، محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت، (٩/ ٧٩).

(٢) تفسير الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٣٠).

(٣) انظر تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٧/ ٣٠١) .

لتحصيل علم في أمر من أمور الدين من الواجد ومن غير الواجد أمر لا بد منه[١] لذا كانت هذه المغفرة لغير الواجد.

ثم جاء العتاب من الله في القرآن على بعض المؤمنين الذين كانوا يخافون الفقر بسبب هذه النفقات، وهم قادرون على الصدقة، **فقال تعالى:**﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

والخطاب في الآية لطائفة من المؤمنين قادرين على تقديم الصدقة قبل المناجاة وشق عليهم ذلك أو ثقل عليهم، والإشفاق توقع حصول ما لا يبتغيه الإنسان، والاستفهام في ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ ﴾ مستعمل في العتاب على تجاهلهم تلك الصدقة مع ما فيها من فوائد لنفع الفقراء والمعنى إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى فاثبتوا على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما تؤمرون به وتنهون عنه، **وقد** جمع الله الصدقات هنا باعتبار المخاطبين[٢] وفاصلة الآية ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾جاءت للتحذير من التفريط في طاعة الله [٣] والترغيب بما عنده من ثواب.

وفي هذه الآية بين سبحانه عفوه ومغفرته لمن قدر على الصدقة فأشفق على إخراجها ثم نسخ الحكم برفع وجوب هذه الصدقات قبل المناجاة، وفتح المجال لمناجاته ﷺ من غير تقديم هذه الصدقات.

وبعد توجيه القرآن العتاب لبعض المؤمنين لعدم تقديمهم للصدقات قبل المناجاة للرسول ﷺ مع القدرة على ذلك أتبعه ببيان حال المنافقين الذين اتخذوا المناجاة وسيلة لموالاة أعداء الله من اليهود **فقال تعالى:**﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ

---

(١) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٤٦).

(٢) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، مصر، (٥/ ١٩٠).

(٣) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٤٧).

وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

فبدأت الآيات بالاستفهام التعجبي من حال هؤلاء المنافقين الذين يوالون اليهود ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ حيث كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم[1] وكان المنافقون يحلفون على الكذب، وهم يعلمون كذبهم فيما حلفوا عليه، ولا سيما في مثل حالهم، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا جاءوا الرسول ﷺ حلفوا له بالله إنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم كاذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه،، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك.[2]

وقد عبر القرآن بالمضارع «ويحلفون» للدلالة على تجدد الحلف الكاذب من المنافقين والمولاة لأعداء الأمة اليهود[3] والكذب هو الخبر المخالف للواقع، والخبر الكاذب هو الذي يكون مخالفا للمخبر عنه مع أن المخبر يعلم المخالفة، والمقصود ما كان المنافقون يخبرون به عن أنفسهم أنهم لا يصدر عنهم ما فيه إيذاء للمؤمنين[4] وحقيقة الأمر خلاف ذلك.

ولذا استحقوا العذاب الشديد بسبب سوء أعمالهم، فقال تعالى ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾فهم حين دخلوا الإسلام دخلوه حماية لأموالهم واشتغلوا بصد الناس عن سبيل الله وعن الإسلام بإثارة الشبهات وتقبيح حال المسلمين، وكانوا قد تولوا اليهود الموصوفين بغضب الله عليهم، وقد اتخذ المنافقين أيمانهم غطاء لكذبهم عن علم ومعرفة فقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾فقد كانوا يحلفون كذبا بأنهم من المسلمين توقياً من القتل، فجعلوا هذه الأيمان وقاية وسترة دون دمائهم كما يجعل المقاتل المجن وقاية له

(١) الزمخشري، الكشاف (٤/ ٤٩٥).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٤١٩) .

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٤٨).

(٤) النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٧/ ٢١).

من أن يصاب بسيف أو رمح أو سهم[١] والغاية الأخرى من هذه الأيمان ليتمكنوا من صد الناس عن الدخول في الإسلام بإثارة الشبه حوله وتنفير الناس منه. فاستحقوا بذلك العذاب المهين ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ بذلهم في الدنيا وعقابهم يوم القيامة.

ثم يبين المولى تبارك وتعالى أن أموال هؤلاء الأعداء وأولادهم لا تنفعهم في الآخرة، ولن تدفع عنهم عذاب الله، بل لقد استحقوا الصحبة والملازمة للنار بسبب تلك الأفعال، فقال تعالى: ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ لقد كان المنافقون يتمتعون بكثرة الأموال والأولاد فبين الله أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم شيئا ولا تحميهم مما توعدهم الله به من الذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة[٢] فاستحقوا بسبب أفعالهم صحبة النار وملازمتها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ والخلود فيها فلا يفارقونها ولا يخرجون منها أبدا[٣].

ثم يبين الله حال هؤلاء المنافقين يوم يبعثهم الله يوم القيامة بأنه لا يختلف عن حالهم في الدنيا من الحلف الكاذب فقال تعالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ فيحلفون لله يوم القيامة على الكذب كما كانوا يحلفون للمؤمنين في الدنيا، فتجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب، وظنوا أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب بين يدي الله عز وجل كما كانت تروجه عند المؤمنين[٤]، وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم، ففي يوم القيامة قد انكشفت الحقائق وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة فكيف يجترئون على أن يكذبوا في ذلك الموقف ويحلفون على الكذب ويحسبون في الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضرراً كما كانوا يحسبون ذلك

---

(١) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ١٩٢)، وانظر: الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٩٥).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٥١).

(٣) انظر أبو السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٢٢).

(٤) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٣٣).

في الدنيا «فهم قوم كاذبون متهالكون على الكذب بالغوا فيه إلى حد لم يبلغ غيرهم إليه بإقدامهم عليه وعلى الأيمان الفاجرة في موقف القيامة بين يدي الرحمن[١]».

ولا غرابة أن يقع منهم ذلك فقد سيطر الشيطان عليهم، وتمكن منهم فصدر عنهم ما صدر قال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

والأحوذ هو المشمر عن الأمور القاهر لها الذي لا يشذ عنه منها شيء، ومعنى استحوذ الشيطان على قلوبهم ملكهم الشيطان واستولى عليهم حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل [٢] والمقصود من النسيان هنا الغفلة والترك [٣] ويطلق الذكر على نطق اللسان وعلى التذكر بالعقل والمعنى أنساهم الشيطان توحيد الله بكلمة الشهادة والتوجه إليه بالعبادة ولا شك أن الذي لا يتذكر شيئاً لا يتوجه إلى واجباته [٤]وإنما عبر بالنسيان للدلالة على مدى إهمالهم لهذا الذكر.

ويشير القرآن للمنافقين بـ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الذي للبعيد في قوله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾ للدلالة على بعدهم عن الله، وحزب الشيطان طائفته وأنصاره وجنده ورهطه فخسروا بناء على ذلك السعادة في الدارين لأنهم باعوا الجنة بجهنم وباعوا الهدى بالضلالة [٥] ولذا أكد القرآن خسارتهم بإن وإلا التي للتنبيه وعمم القرآن خسارتهم دون تحديد للخسارة في جانب دون جانب لإفادة شمول خسارتهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

(١) فتح القدير، الشوكاني، (٥/ ١٩٣).
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٤٢٠).
(٣) انظر القرطبي الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٣٠٥).
(٤) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٥٥).
(٥) انظر القرطبي الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٣٠٦).

المعنى الإجمالي للمقطع الثالث

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وهذه الآيات في هذا المقطع عبارة عن استئناف لبيان علة خسارة حزب الشيطان، وذلك أنهم حادوا الله ورسوله فعادوه وخالفوا أمره فهم في ناحية والهدى في ناحية أخرى لأنهم في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة.

والإشارة بأولئك الذي للبعيد في قوله «أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ» للدلالة على انحطاط منزلتهم والمعنى أنهم أذل الخلق وأرذلهم «وذلك لأن ذلة أحد المتخاصمين تكون بمقدار عزة الآخر وحيث كانت عزة الله عز وجل غير متناهية كانت ذلة من عاداه كذلك[1].

والتعليل الآخر لخسارة حزب الشيطان بينه الله في قوله ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ ﴾وذلك أن الله عز وجل حكم وكتب في اللوح المحفوظ وفي قدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة وكتابة الغلبة في اللوح المحفوظ لله ولرسله قد تكون بالحجة أوالسيف. أو بهما معا[2].

وهذا لا يمنع من أن يغلب الأعداء في الدنيا فترة من الزمن لكن العاقبة في النهاية للمؤمنين فدولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، والفاصلة القرآنية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ تعليل لهذه الغلبة[3] فالله قوي صاحب قوة غير متناهية عزيز قاهر لا يغلب.

---

(١) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٢٣)، وانظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٣٤).

(٢) الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٤٩٦).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرر والتنوير، (٢٨/ ٥٧).

وإذا كان هذا حال المنافقين في موالاتهم لأعداء الله فإن هنالك الصفوة المؤمنة الذين لا يمكن أن يوالوا من عادى الله ورسوله وخالف أمره، قال تعالى﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وهذه الآية دليل على أنه لا يمكن الجمع بين الإيمان الخالص بالله وموالاة من عاداه ولو كان هؤلاء المعادون من الأقربين [1].

وقد بدأ بالآباء في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ ﴾ لأنهم الواجب على الأولاد طاعتهم فنهاهم عن موادتهم. ثم ثنى بالأبناء في قوله تعالى ﴿ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ لأنهم أعلق بالقلوب، ثم أتى ثالثاً بالإخوان في قوله ﴿ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ ﴾ لأنهم بهم التعاضد، ثم بالعشيرة في قوله تعالى ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ لأن بها التناحر والمقاتلة والتغلب على الأعداء [2] فالمؤمنون الخلّص لا يوادّون المحادّين ولو كانوا من الأقربين، لذا تأتي الإشارة لهم في القرآن بـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الذي للبعيد في قوله تعالى ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ للدلالة على علو منزلة هذه الطائفة من المؤمنين ومعنى كتابة الإيمان والتأييد بروح من الله في قوله تعالى:﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ﴾أي استكملوا أجزاء الإيمان بحذافيرها وأيدهم الله بالإيمان والقرآن وسمي روحا لأن به حياة القلوب [3] ولأن به يحيا أمرهم [4]ويعلو به شأنهم، ويكون التأييد للمؤمنين في الدنيا بالنصر على عدوهم، وأما في الآخرة فيدخلهم الله جنات تجري من

---

(١) انظر النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٨/ ٢١).

(٢) أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، (١٠/ ١٣١).

(٣) انظر النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٨/ ٢٢).

(٤) انظر الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ١٩٣).

تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها بحياة سعيدة دائمة أبدية جزاء على هذا الوفاء والمولاة لله ورسوله دون غيرهم، وقد جمع القرآن الجنات والأنهار في قوله تعالى﴿ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ وذلك لتعددها وتنوعها، ثم يبين الرحمن علة هذا الجزاء بقوله ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ فجرى هذا النص من الآية مجرى التعليل لما أفاض عليهم الله من آثار رحمته العاجلة والآجلة [١]فهم قوم أسخطوا القريب والعشائر لأجل الله فعوضهم الله بالرضا عنهم بما عملوا وقدموا فأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم [٢]وهذا يدل على ابتهاجهم بما أوتوا عاجلا وآجلا [٣].

وقدم الله رضاه على رضاهم في قوله تعالى:﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾لأن رضا الله هو الأصل الذي بني عليه إرضاؤه لهم.

ويشير لهم الرحمن باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذي للبعيد في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ ﴾ للدلالة على علو مقامهم ورفعتهم، وجيء بـ ﴿ أَلَآ ﴾التي للتنبيه في قوله تعالى:﴿ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾بقصد تنبيه المسلمين لفضلهم وتنبيه من يسمع من المنافقين إلى ما حبا الله به المسلمين من خير الدنيا والآخرة لعلهم بذلك يحسن حالهم ويخلصوا للإسلام [٤] وشتان بين حزب الله وحزب الشيطان فحزب الله هم أولياؤه ونصراؤه، وهم المفلحون الفائزون بسعادة الدارين الدنيا والآخرة، وهذا ما يدل عليه تعميم القرآن لذكر فلاحهم بلا تحديد في جانب من الجوانب في قوله تعالى:﴿ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ جعلنا الله من هؤلاء المفلحين في الدنيا ويوم الدين.

(١) انظر الآلوسي روح المعاني، (٢٨/ ٣٦).

(٢) انظر القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ٩١).

(٣) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٢٤).

(٤) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٦١).

سورة الحشر

بين يدي السورة

أ. اسم السورة

اشتهرت هذه السورة بسورة الحشر وهو ما أرشدت إليه الأحاديث الصحيحة الدالة على فضلها، وقد سماها عبد الله بن عباس بسورة النضير فعن سعيد بن جُبَير قال: «قلتُ لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل سورة النَّضير» [١].

وبهذا الحديث أراد ابن عباس أن يبين أن لها اسمين، فقول ابن عباس لابن جبير قل سورة النضير للتخيير [٢].

ب. عدد آياتها

عدد آياتها أربع وعشرون آية بالإجماع [٣] فلا خلاف بين العلماء في هذا العدد .

ج. مكان نزولها:

سورة الحشر هي سورة مدنية بإجماع العلماء [٤] .

د. فضائل السورة:

أما فضائل السورة فقد ورد في فضلها أحاديث منها:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، صحيح البخاري، رقم الحديث ٤٩٣٢ .

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ٦٢).

(٣) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣٢٧)، وانظر الآلوسي، روح المعاني، (١٥/ ٥٤).
وانظر: أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، (٥/ ٢٨٣).

(٤) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٥/ ٥٤)، وانظر، أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي (٢٨/ ٣٠)، وانظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣٢٧)،، وانظر سعيد حوى، الأساس، (١٠/ ٥٨١١).

١-عن مَعْقِلِ بنِ يَسَارٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. وَقَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الحَشْرِ وَكَّلَ اللهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ»(١).

٢-وعنِ الحسنِ،، قالَ: مَنْ قرأَ ثلاثَ آياتٍ مِنْ آخرِ سورةِ الحشرِ إذا أصبَحَ، فماتَ مِنْ يومِهِ ذلِكَ طُبِعَ بطابعِ الشهداءِ، وإنْ قرأَ إذا أمسَى فماتَ في ليلتهِ طُبِعَ بطابعِ الشهداءِ(٢).

٥. محور سورة الحشر

تُعرّفُنا سورةُ الحشر على الله وعظيم قدرته من خلال أفعاله وذلك نوع تفصيل لمقدمة سورة البقرة، وفي هذا الجو تعرفنا على صفات المتقين والكافرين والمنافقين، والتفصيل لهذا التنوع في الوجود دليل على شمول علمه سبحانه وعظيم قدرته.

إذن فقد جاء تفصيل سورة الحشر في مقدمة سورة البقرة لذلك تجد فيها كلاما عن المؤمنين والكافرين والمنافقين وذلك في سياق التعرف على الله عز وجل وأفعاله وأسمائه الدالة على عظيم قدرته، ومن المعلوم أن الإيمان بالله هو الركن الأول من أركان الإيمان بالغيب ومن خلال ذلك ندرك سر وحدة السورة وسر اتصالها بمحورها (٣).

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن،، محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي دار الكتب العلمية، بيروت، رقم الحديث ٣٠٠١، قال فيه أبوعيسى الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) أخرجه الدارمي في باب في فضل حم الدخان والحواميم، أبومحمد عبدالله بن عبد الرحمن بن بهرام، سنن الدارمي، دار الكتب العلمية، بيروت رقم الحديث ٣٤٢١ .

(٣) انظر سعيد حوى، الأساس في التفسير، (١٠/ ٥٨١٢).

و. المناسبات في السورة

أولا: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

اشتهر لهذه السورة اسمان الأول الحشر، والثاني بنو النضير، ومحورها بيان صفات الله شمول علمه، وجلال قدرته، وعظيم صفاته، ولم يتم الحشر لبني النضير وقد كانوا بحصون مشيدة محاطة ببساتين من نخيل عظيم إلا عن طريق قادر عليم بخلقه وكذلك تسميتها بني النضير فقد كان الحدث الأعظم فيها بيان تحقق الحشر لبني النضر مع شدتهم وصلابتهم، وهو ما بينه قوله تعالى: ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

ثانيا: المناسبة بين افتتاحية سورة الحشر وخاتمتها

بدأت سورة الحشر بالتسبيح وبذكر اسم الله العزيز والحكيم في قوله تعالى:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ وختمت بالتسبيح وبذكر اسمي العزيز الحكيم في قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فتناسب بذلك البدء والختام مع موضوع السورة التي جاءت تدل على جلال قدرة العزيز وسعة علمة وقدرته، الموجبة لدعوة المؤمنين للتقوى والخشوع والتفكر في تدبير صفات الله الحكيم [(١)].

ثالثا: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

في آخر سورة المجادلة -التي سبقت سورة الحشر في ترتيب المصحف -بين الله غلبته ورسوله لأعدائهم وامتناع المؤمنين من موالاتهم مهما كان قربهم وفي أول سورة الحشر ذكر ما يدل على هذه الغلبة بإخراج بني النضير من ديارهم وقذف الرعب في قلوبهم لذا ابتدأت سورة الحشر بالتسبيح الذي يدل على التنزيه عن النقائص تأييدا للوعد بنصرهم فقال تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾.

وفي آخر سورة المجادلة أيضا بين الله حال من حاد الله ورسوله، وفي أول سورة الحشر بين

---

(١) انظر سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٥٢١).

حال من شاق الله ورسوله [١].

ويمكن القول أيضا لما ختم الله سورة المجادلة بذكر حزب الشيطان وحزب الله افتتح سورة الحشر ببيان قهره سبحانه لحزب الشيطان، وما نالهم بالجلاء من خزي وهوان ونصره لحزبه من أهل الإيمان [٢].

رابعا - المناسبة بين مقاطع السورة بعضها ببعض وارتباطها بمحورها

المقطع الأول يعرفنا بالله من خلال أفعاله، والمقطع الثاني يقرر حكم الفيء الذي أفاءه الله في هذه الواقعة وما يماثلها، والمقطع الثالث يعرفنا بالله من خلال ذكر أسمائه [٣] فنجد المقاطع الثلاث تدور حول التعريف بالخالق جل وعلا وأفعاله وأحكامه وأسمائه، وكلها توقفنا على جلائل قدرته وعظيم علمه.

خامسا: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما سبقها

قال البقاعي: «مقصود سورة الحشر بيان ما دل عليه آخر المجادلة من التنزيه لله عن شوائب النقص بإثبات القدرة الشاملة لله تعالى وإقامة دليل مشاهد على أنه الغالب هو ورسُلُه عليهم السلام، وأن من حادهم في الأذلين، لأنه الله القوي العزيز، والقوة والعزة مستلزمة للعلم التام المستلزم للحكمة البالغة المستلزمة للحشر، المظهر لفلاح المفلح وخسارة الخاسر على وجه الثبات الكاشف أتم كشف لجميع صفات الكمال وأدل ما فيها على ذلك قصة بني النضير المعلم بأول الحشر المؤذن بالحشر الحقيقي القدرة الإلهية عليه» [٤].

وفي سورة المجادلة أيضا ذكر القرآن حال من حاد الله ورسوله من المنافقين وتناجيهم

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ٥٨١).

(٢) انظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣٢٧).

(٣) سعيد حوى، الأساس، (١٠/ ٥٨١٣).

(٤) البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ٥٠٩).

مع اليهود الذين يكيدون للإسلام وهنا في سورة الحشر يعرض على المنافقين بعض ما لقي أحلافهم من اليهود ممن شاق الله ورسوله من خزي وذل ونكال وأنهم إن هم ضلوا على نفاقهم سيصيبهم ما حال بحلفائهم [1] .

وفي سور المجادلة أيضا كان المدح للمؤمنين بعدم موالاتهم لمن حاد الله ورسوله وفي سورة الحشر بين الله أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض [2].

---

(١) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر، بيروت، (١٤/٨٤٨)، وانظر احمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٢٨/ ٣٠).

(٢) د وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٦٣).

ثانيا: المعنى الإجمالي لمقاطع سورة الحشر

المعنى الإجمالي للمقطع الأول

قال تعالى:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

افتتحت سورة الحشر بالإخبار عن تسبيح ما في السماوات والأرض لله رب العالمين فقال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾.

وقد جاء التسبيح بصيغة الماضي في سورة الحشر بقوله ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ وجاء بصيغة المضارع ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ في سورة الجمعة، وجاء بصيغة الأمر في سورة الأعلى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ وفي هذا ما يشير إلى أن جميع أوقات الزمان ولحظاته مملوءة بذكر الله والتسبيح بحمده من عوالم الوجود في السموات والأرض جميعا فمن لم يسبح اختياراً سبح اضطراراً[1] ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾(الإسراء: ٤٤).

وفي هذا الافتتاح للسورة في قوله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ تذكيرٌ للمؤمنين بتسبيحهم لله تسبيح شكر على ما أنالهم من فتح بلاد بني النضير فكأنه قال سبحوا لله كما سَبح له ما في السماوات والأرض فهو تذكير بنعمة الله على المسلمين وإيماء إلى أن يشكروا الله على ذلك وتمهيد للمقصود من السورة وهو قسمة أموال بني النضير، وهذا التسخير العظيم من آثار عزّته وحكمته ولذا جاءت فاصلة الآية ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾(الحشر: ١).

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٤٥).

ومما يؤكد أن هذه الآيات نزلت في بني النضير ما أخرجه البخاري في صحيحه «عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ سُورَةُ التَّوْبَةِ قَالَ التَّوْبَةُ هِيَ الْفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ، وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا قَالَ قُلْتُ سُورَةُ الْأَنْفَالِ قَالَ نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ قَالَ قُلْتُ سُورَةُ الْحَشْرِ قَالَ نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ»(١).

فالله سبحانه بعزته وحكمته أخرج يهود بني النضير من أهل الكتاب من المدينة المنورة وقد كان هذا أول إخراج لليهود من ديارهم .

ولما نزه سبحانه نفسه بالتسبيح ذكر ما يدل على هذا التنزيه وعلى تلك العزة بدليل مشاهد وذلك بإنفاذ ما كتب من أنه يغلب هو ورسله، بكبت المنافقين وإذلال من تولوهم وهم اليهود وطردهم من المدينة، فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

فأشار بذلك إلى النصر على الأعداء بإجلاء يهود بني النضير وطردهم (٢).

والإخراج:هو الإبعاد فإخراجهم من ديارهم في المدينة المنورة إبعادهم عنها (٣) وفي التعبير عن أهل الكتاب بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾دليل على كفرهم لعدم اتباعهم لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم إذ لا عذر للأحياء بعدم اتباعه.

والحشر جمع الناس من كل ناحية ومنه الحاشر الذي يجمع الناس إلى ديوان الخراج (٤)وقد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب الجلاء الإخراج من أرض إلى أرض، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، رقم الحديث: ٤٨٨٢ .

(٢) د. وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٦٣).

(٣) انظر الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٧٦٩).

(٤) انظر:أبوعلي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (٩/ ٣٢٨).

سمي الإجلاء لبني النضير حشرا لأنه أشبه بالحشر الموعود يوم القيامة فقد وقع عن قهر ولم يقع عن رغبة، ثم إن هذا الإجلاء كان عاما لم يدع أحدا منهم كما لم يدع الحشر أحدا في القبور[١].

وهذا الإخراج لليهود من حصونهم ما كان في ظن وحسبان المؤمنين واليهود لذا قال تعالى﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وذلك لشدة الحصون وقوتها وقد كان اليهود أيضا يحسبون أنهم بهذه الحصون في مأمن من كل يد تنالهم، فبطلت حساباتهم حيث امتلأت قلوبهم بالرعب والفزع وجاءهم عذاب الله من حيث لم يخطر ببالهم[٢] قال تعالى ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ ﴾ولما كان القوم في حصون مشيدة لا بد من رمي الرعب وقذفه في القلوب بقوة، والرعب هو الخوف الذي يستوعب الصدر[٣] وترتب على هذا الرعب أن يخرب القوم بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، والتخريب:الإفساد بالنقض والهدم حيث كان بنو النضير يخربون بواطنها والمسلمون يخربون ظواهرها فأراد الله أن لا يبقي لهم دار ولا منهم ديار [٤].

وقد قرأ أبو عمرو بالتشديد «يخرّبون» وقرأ الباقون بالتخفيف يخربون[٥] وفرق بين الإخراب والتخريب، فالإخراب أن يترك الموضع خربا، والتخريب الهدم [٦].

وكانت النتيجة أن فتح يهود بني النضير معاقلهم أمام ضربات جند الرحمن وتركوا المسلمين يدخلونها بعد أن حاولوا أن يأخذوا منها ما يستطيعون حمله وأفسدوا ما استطاعوا كي لا يستفيد المسلمون منه فكان هذا التدمير لتلك الحصون المشيدة عبرة لمن يعتبر [٧]لذا جاءت فاصلة الآية

(١) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٥٠).
(٢) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، (١٥/ ٢٨٠).
(٣) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (٩/ ٣٢٨).
(٤) انظر الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٨٠).
(٥) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ١٨٦).
(٦) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (٩/ ٣٢٩).
(٧) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٧٠).

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾أي قيسوا الأشباه بالنظائر وهذا دليل على أن القياس حجة [١]، إذ معنى الاعتبار: النظر في الأمور ليصرف بها شيء آخر في صفها [٢]. والمعنى اعتبروا واتعظوا بما دبر الله ويسر أمر إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال [٣].

وكان أول حشر ليهود بني النضير لأنهم أول من أجلي من اليهود في جزيرة العرب [٤].

ثم يبين القرآن لبني النضير أن ما حل بهم من خروج أهون مما كان سيحل بهم من عذاب استئصال في الدنيا أو قتل وسبي، والذي حصل من بعد ذلك لبني قريظة فقال تعالى:﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ﴾ولئن نجوا من عذاب الدنيا الأشد وهو الجلاء بدلا من القتل فما ينتظرهم يوم القيامة من عذاب النار أشد وأصعب.

ثم يبين القرآن علة هذا العذاب الدنيوي الذي حل بهم والأخروي الذي ينتظرهم بقوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾وذلك إشارة إلى ما تقدم من ذكر الجلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة، فعلة العذاب الحال في الدنيا والعذاب المنتظر يوم القيامة أنهم كانوا على شقاق وخلاف مع الله ورسوله بعدم الطاعة والميل للكفار ونقض العهد[٥] مع علمهم بصدقه ﷺ فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، حيث «غَدَا رسول ﷺ عَلَى بَنِي النَّضِيرِ بِالْكَتَائِبِ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى الْجَلَاءِ فَجَلَتْ بَنُو النَّضِيرِ وَاحْتَمَلُوا مَا أَقَلَّتْ الإِبِلُ مِنْ أَمْتِعَتِهِمْ وَأَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ وَخَشَبِهَا، فَكَانَ نَخْلُ بَنِي النَّضِيرِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَاصَّةً أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهَا وَخَصَّهُ بِهَا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يَقُولُ بِغَيْرِ قِتَالٍ فَأَعْطَى النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَهَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَقَسَمَهَا بَيْنَهُمْ وَقَسَمَ مِنْهَا لِرَجُلَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ كَانَا ذَوِي حَاجَةٍ لَمْ يُقْسِمْ لأَحَدٍ مِنَ الأَنْصَارِ غَيْرِهِمَا، وَبَقِيَ مِنْهَا صَدَقَةُ رَسُولِ

---

(١) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، (١٥/ ٢٨٢).

(٢) انظر: الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ١٩٦).

(٣) انظر الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٨١).

(٤) البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ١١).

(٥) انظر الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ١٩٦).

الله ﷺ الَّتي في أيْدِي بَنِي فَاطِمَةَ رَضيَ الله عَنْهَا». [١] فكان اليهود بذلك عبرة لمن شاق الله ورسوله ﴿ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فمن يخالف الله ورسوله فإن الله يعاقبه على مشاقته أشد أنواع العقاب [٢] وقد عبر القرآن مع اليهود بالمشاقة دون المحادة التي جاءت في سورة المجادلة مع المنافقين في سياق الحديث عن بني النضير، وذلك لأن المشاقة أن يكون كل من الفريقين في شق غير الذي فيه الآخر ففيها معنى البعد أما المحادة فليس فيها هذا المعنى إذ المتحادان يفصل أحدهما عن الآخر حد -أي علامة- توضع بين الفريقين كحد الأرض، فالمنافقون يزعمون الإسلام بألسنتهم فتجري عليهم أحكام المسلمين في الظاهر وليس كذلك الكفار من يهود ومشركين لذا استعملت المشاقة في جانب الكفار وكلمة المحادة في جانب المنافقين [٣].

ثم يبين القرآن وسيلة من الوسائل التي أدت إلى خراب تلك الحصون وهو قطع النخيل الذي كان يمدهم اقتصادياً فقال تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾ وإنما سميت النخلة لينة لأنها من اللين الذي يدل على الرخاء والنعمة ولين العيش تماماً كما أطلق على الخيل خيراً [٤]، ففي أثناء الحصار لحصون بني النضير أمر الرسول ﷺ بقطع النخيل وإحراقه، حتى لا يبقى لليهود تعلق بالأموال فبين الله أن ما قطعه المسلمون من النخيل أو تركوه على أصله ولم يتعرضوا له فهو بأمر من الله سبحانه، وكان هذا القطع لنخيل بني النضير لأمرين بينهما الله في قوله ﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فهو تنفيذ أمر الله أولاً، وخزي ليهود بني النضير الذين خرجوا على طاعة الله ورسوله، وذلك بأن يتحكم المسلمون بأموالهم وحصونهم ثانياً [٥] .

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الخراج والفيء الإمارة، باب خبر بني النضير،، أبوداود، سنن أبي داود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم الحديث ٣٠٠٦.

(٢) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (٩/ ٣٣١).

(٣) انظر أ. د فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان، عمان، ص١٨٩ .

(٤) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٧٢).

(٥) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (٩/ ٣٣١).

المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ
ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ
ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ
حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ
سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ
وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ
مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ
رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى
مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا
يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ
إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ
عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فيقرر هذا المقطع من السورة -وهو المقطع الثاني -حكم الفيء فقد شرع القرآن ببيان حال ما أخذ من يهود بني النصير من أموال بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل وما ينتظرهم من العذاب الآجل فقال تعالى﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ ﴾ والفيء ما أخذ من أموال الكفار من غير قتال أما الغنيمة فهي ما أخذ بحرب وقتال[١] فما نيل من الكفار عنوة والحرب قائمة هو الغنيمة وما نيل من الكفار بلا قتال فهو الفيء [٢]فكان حكم أموال الفيء التي أخذت من بني النضير أنها لله ورسوله، فقد أخرج البخاري عن عمرَ رضيَ اللهُ عنه قال: «كانت أموالُ بني النَّضيرِ ممّا أفاءَ اللهُ على رسولِه ﷺ ممّا لم يُوجِف المسلمون عليه بخَيلٍ ولا رِكاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصةً، وكان يُنفِقُ على أهلِه نَفَقةَ سَنَتِه، ثمَّ يجعلُ ما بقيَ في السلاحِ والكُراعِ عُدَّةً في سبيلِ الله»[٣].

فأخذت أموال بني النضر وحصونهم من غير وجف ولا ركاب، والوجف: هو سرعة السير ومعنى أوجفتم حركتم وأتعبتم السير فيه [٤] والركاب هو ما يركب من الإبل، والعرب لا يطلقون لفظ الراكب إلا على راكب البعير ويسمون راكب الفرس فارسا [٥] وعلة ما أكرم به المسلمون من هذا الفيء والنصر بينها الله بقوله﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ ﴾ والتسليط من السلطان أي أن هذا النصر الذي وضعه الله بين أيديكم بتأييده لرسوله ليمكن لكم من السلطان والغلبة على من يشاء من عباده، فالله يؤيد رسله بنصره، ويجعل لهم سلطانا على الناس بما يضع بين أيديهم من معجزات، وبما يمدهم به من جنود لا يعلمها إلا هو تحارب

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٧٧).
(٢) الآلوسي، روح المعاني، (١٥/ ٦٦).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، صيح البخاري، محمد بن اسماعيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم الحديث ٢٨٣٧.
(٤) الآلوسي، روح المعاني، (١٥/ ٦٤).
(٥) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٨٥).

معهم وتلقي الرعب في قلوب عدوهم[١] ولما كانت قدرته سبحانه على التسليط وغيره عامة وشاملة جاءت فاصلة الآية للإشارة إلى هذا بقوله ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴾ فهو سبحانه المختص بالقدرة الشاملة، وهو ما يفيده تقديم الجار والمجرور ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ ﴾ على كلمة ﴿ قَدِيرٌ ﴾.

ثم يبين القرآن حكم ما أفاء الله على رسوله من قرى الكفار عامة بعد بيان حكم فيء بني النضير فقال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ ﴾.

ففي هذه الآية بيان لمصارف الفيء بعد الرسول وهو أن كل ما رده الله على رسوله من كفار أهل القرى من غير قتال ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب -وهو ما يركب من الإبل- يحكم به الله بما شاء، ثم يكون ملكا للرسول في حياته ثم في مصالح المسلمين من بعده فينفق فيه على قرابة النبي ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب فهم ممنوعون من أخذ الصدقة والزكاة وهم المقصودون بقوله ﴿ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ فجعل لهم حق في الفيء، كما يشير النظم في قوله تعالى ﴿ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ بأن ينفق منها أيضا على اليتامى والفقراء والمساكين ذوي الحاجة وأبناء السبيل المنقطعين أثناء السفر وهم الغرباء الذين نفذت نفقتهم «فيكون الفيء مقسوما خمسة أقسام سهم لله والرسول في حياته ثم يصرف في مصالح المسلمين بعد وفاته، وسهم ذوي قرابة النبي وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وسهم اليتامى وسهم المساكين وسهم ابن السبيل»[٢] .

«وانظر إلى جمال الترتيب لهذه الأسهم فبدأ ترتيب الأسهم بالله أولا لأنه الملك الأعلى الذي بيده الأمر كله ثم برسوله لأنه أعظم الخلق ثم ذوي قرابة رسول الله ﷺ لأنهم يلونه

---

(١) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٥٧).

(٢) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٨١).

بالرتبة وهم بنو هاشم وبنو المطلب ثم اليتامى الذين هم أحق الناس بالعطف جبرا لوهنهم فهم أحق الناس بالعطف ثم المساكين وهم بالضعف على أثر اليتامى، ودخل فيهم الفقراء فإنه إذا انفرد لفظ الفقير أو المسكين دون الآخر دخل كل منهما في معنى الآخر وإنما يفرق إذا جمع بينهما»[١].

ويبين الله في كتابه علة هذا التقسيم بقوله ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾.

وقد قرأ أبو جعفر «تكون» بالتأنيث و«دولة» بالرفع، وقرأ الباقون بالتذكير «يكون» وبنصب «دولة»[٢] والدولة: التداول فهو اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم[٣] والمعنى حتى لا يبقى المال متداولا بين الأغنياء على حين يبقى الفقراء على فقرهم ويقيم المحرومون على حرمانهم[٤] فيكون المال بذلك متداولا بين الأغنياء والفقراء.

ثم تختم الآية بالتوجيه إلى ضرورة الالتزام بأمر النبي ﷺ ونهيه في قوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ لأنه لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، ثم ينتقل القرآن من الغيبة إلى الخطاب في فاصلة الآية في حال توجيه المؤمنين أنهم ينبغي أن يكون ولاؤهم وطاعتهم لرسول الله ﷺ بكل ما يقضي به النبي ﷺ في المؤمنين، وبناء على ذلك فحق الرسول على المؤمنين الامتثال والطاعة من غير مراجعة ولا توقف ولا ريبة لقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب: ٣٦).

ولما كانت الطاعة بالتنفيذ للأمر والانتهاء عن المنهي الدافع عليها تقوى الله جاءت فاصلة الآية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وفي هذه الفاصلة وعيد لمن تحدثه نفسه بالخروج عن

---

(١) البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ٥٢١).

(٢) ابن الجزري، النشر، (٢٣٨٦).

(٣) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٨٦).

(٤) انظر: عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٢٥٨).

أمر الله ورسوله بعقاب شديد في الدنيا والآخرة.

وبعد بيان مصارف الفيء فيما سبق يبين الله تعالى حال الفقراء المستحقين له فقال تعالى ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

وفقراء المهاجرين هم الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج منها فتركوا أموالهم وديارهم فيها طلبا لمرضاة الله وفضله ورزقه في الدنيا وثوابه في الآخرة ونصرة الله ورسوله بمجاهدة الكفار وإعلاء كلمة الله وبين أن هؤلاء المهاجرين رسخوا بالصدق فصدقوا قولهم بفعلهم وقرنوا إيمانهم بالعمل الصالح المخلص «وفيه تنويه بفضل المهاجرين الأولين وأنهم كانت هجرتهم لله ولرسوله لا لمغنم أو متاع دنيوي [1] وقد وصف الله المهاجرين بأوصاف ستة هي: أول: أنهم فقراء وثانيا: أنهم مهاجرون، وثالثا: أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ورابعا: أنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا، والفضل ثواب الجنة، والرضوان رضا الله، وخامسا: أنهم ينصرون الله ورسوله بأنفسهم وأموالهم، وسادسا: أنهم صادقون في دينهم وتحملهم للشدائد، وهجرهم لذات الدنيا [2].

ثم مدح الله الأنصار وأبان فضلهم وشرفهم، وعدم حسدهم، وإيثارهم المهاجرين مع الحاجة ورضاهم بإعطاء الفيء لهم بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

والذين تبوءوا الدار هم الأنصار الذين استقبلوا إخوانهم المهاجرين في مدينتهم، حيث كانوا أهلها وسكانها قبل قدوم المهاجرين إليها، حيث لم يجدوا في أنفسهم حاجة وضيقا أو ألما،

---

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٦١).

(٢) انظر وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٩).

بسبب أخذ المهاجرون من غنائم بني النضير «وبهذا العطاء الذي ناله المهاجرون خف العبء عن الأنصار الذين قاسموا المهاجرين أموالهم وديارهم [١] وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ بَاتَ بِهِ ضَيْفٌ. فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِلاَّ قُوتُهُ وَقُوتُ صِبْيَانِه. فَقَالَ لاِمْرَأَتِه: نَوِّمِي الصِّبْيَةَ وَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَقَرِّبِي لِلضَّيْفِ مَا عِنْدَكِ. قَالَ فَنَزَلَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩)»[٢].

فبين القرآن الكريم أن من صفات الأنصار الإيثار وهو تقديم حاجة الغير على حاجة النفس سخاء وتفضلا وهذا جانب من التضحية، فالخصاصة الحاجة، فهؤلاء الأنصار من طبيعتهم السماحة والبذل وإيثار إخوانهم المهاجرين على أنفسهم.

هؤلاء الذين تبوءوا المدينة التي هي الدار وهي الإيمان لأنها محل تمكن الإيمان وانتشاره وظهوره في سائر البلدان [٣]، فقد كان انفراد الأنصار بالإقامة والإيمان في المدينة قبل قدوم المهاجرين عليهم، فالأنصار جمعوا التمكن بالإضافة إلى الإيمان أي التمكن في الدار(المدينة) من قبل أن يقدم إليها المهاجرون وهو المقصود بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فمن صفاتهم أنهم لا يجدون في صدورهم حسدا وغيظا مما أعطي المهاجرون دونهم من مال بني النضير علما بأن إيثارهم لم يكن عن غنى من المال ولكن عن حاجة فيكون ذلك أعظم أجرا[٤]، وفي التعبير عن السلامة من شح النفس وبخلها وحرصها في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ بلفظ الوقاية منه للإشارة إلى أن الشح عدو راصد يتربص بالنفس الإنسانية في أية لحظة يغفل فيها الإنسان عن حراسة نفسه منه، فإذا غفل الإنسان عن هذا العدو دخل على نفسه، واستولى عليها[٥] فمن يوق بمعونة الله وتوفيقة شح النفس حتى يخالفها

(١) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (١٤/ ٨٦١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، رقم الحديث ٥٣١٦.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ٢٥٢).

(٤) انظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣٣٤).

(٥) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (١٤/ ٨٦٢).

فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه (١) ومن ذلك الفوز بثواب الجنة والنجاة من النار .

وبعد الحديث عن المهاجرين والأنصار في السورة يأتي الحديث عن الصنف الثالث من المؤمنين وهم الخلف التابعون للسلف بإحسان إلى يوم القيامة، فقال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ فالذين جاءوا من بعدهم هم التابعون للمهاجرين والأنصار بإحسان ممن جاءوا بعدهم إلى يوم القيامة (٢) فهؤلاء الخلف التابعون للسلف بإحسان متبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة بالسر والعلن، والآية دليل على التضامن والتكافل بين آخر هذه الأمة وأولها وأجيالها، وفيها دليل على وجوب محبة الصحابة رضي الله عنهم والحث على الدعاء لهم بخير وعلى صفاء القلوب من أمراض الحقد والحسد لأي مؤمن (٣).

فهم يدعون لمن سبق من السلف طالبين من رب العالمين المغفرة والرحمة لأنفسهم أولا وكما يطلبون من الله أن لا يجعل في قلوبهم حسدا وبغضا لأحد من المؤمنين ووصفوا السلف بالسبق بالإيمان اعترافا بفضلهم (٤).

وأصل الغل هو ما يجده الإنسان في داخله من حرارة العطش ومعناه العداوة والحقد حيث تغلي الصدور وتحترق القلوب بنار الحقد والعداوة، وفي جعل الغل في القلوب إشارة إلى أن القلوب هي مستودع المشاعر من حب أو بغض أو مودة أو جفاء وأن هذه المشاعر هي التي تتولد منها الأقوال والأفعال (٥) ووصفوا الرحمن بقولهم «ربنا إنك رؤوف رحيم»

---

(١) الآلوسي، روح المعاني، (١٥/ ٧٧)، وانظر: الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٨٤).
(٢) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٨٩).
(٣) انظر وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٨٥).
(٤) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٢٩).
(٥) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٦٤).

مبالغ في الرأفة والرحمة، وخص القرآن استدعاء هاتين الصفتين الكريمتين من صفات الله وهما الرأفة والرحمة ليستشعر بهما المؤمن مشاعر الرأفة والرحمة بإخوانه من المؤمنين، ومن كانت هذه صفاته فحري به أن يجيب دعاء هؤلاء المتبعين بإحسان.

ولما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين الصادقين أعقبه بذكر أوصاف المنافقين المخادعين الذين تركوا نصرة أهل الإيمان، وحالفوا اليهود وناصروهم موضحا أنهم لا يستوون بالحال ولا المآل فقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

وهذا تعجيب للسامع من حال هؤلاء المنافقين، وهم الذين أظهروا الإيمان وأخفوا الكفر[١] حيث طلب المنافقون بقيادة عبد الله بن سلول من يهود بني النضير الثبات في حصونهم، لكونهم سيكونوا معهم كيف ما تقلبت الأحوال ولن يطيعوا أمر الرسول ﷺ في قتالهم، ولن يسمعوا كلام أحد كائن من كان في أمر خلانهم، وقد سمى الله المنافقين إخوانا لليهود في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾لأنهم مثلهم في الكفر[٢] فبين القرآن كذب المنافقين بهذا الادعاء في قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فإذا أخرج اليهود فلن يخرج المنافقون معهم، ولئن قوتلوا من قبل المسلمين فلن يقاتل المنافقون إلى جانب اليهود، وقد تم ما أخبر الله عنه « وفي هذا دليل على صحة نبوة المصطفى ﷺ من جهة علم الغيب، لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا، وقوتلوا فلم ينصروهم» [٣] فتحقق قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي في قولهم وفعلهم[٤].

---

(١) انظر وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٨/ ٩٥).

(٢) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ٣/ ٣٥٣.

(٣) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، (٢٨/ ١٠٠).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٧/ ٢٧٨).

ويزيد القرآن في توضيح حال المنافقين موضحا مدى فزعهم وخوفهم من المسلمين بقوله تعالى:﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) ﴾ .

ومعنى الآية: أنتم يا معشر المسلمين أشد خوفا وخشية في قلوب المنافقين واليهود من الله فهم يرهبون ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله لأنهم لا يفقهون قدرة الله وعظمته[١] والإشارة بذلك:إلى ما ذكر من كون رهبتهم منكم أيها المسلمون أشد من رهبتهم من الله بسبب أنهم قوم لا يفقهون عظمة الله فيخشونه حق خشيته [٢]، والفقه:العلم بمفهوم الكلام ظاهره الجلي وغامضه الخفي بيقظة وقريحة [٣].

ثم ذكر القرآن أسلوب اليهود والمنافقين في مقابلة المؤمنين، في قول تعالى﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) ﴾.

فهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق أو من وراء الحيطان ليستتروا بها لفرط جبنهم وهلعهم، فالمنافقين واليهود من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة[٤].

وقد قرأ ابن كثير وأبوعمرو «جدار» بكسر الجيم وفتح الدال وألف بعدها على التوحيد وقرأ الباقون بضم الجيم والدال من غير ألف «جدر» على الجمع [٥] فعلى الإفراد المعنى لا يقاتلونكم حتى يكون بينكم وبينهم حاجز من حصن أو سور، وعلى الجمع لا يقاتلونكم إلا في

(١) انظر الزمخشري، الكشاف، (٤/ ٨٥).
(٢) انظر أبوالسعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٣١).
(٣) انظر البقاعي، نظم الدرر، (٧/ ٥٣٠).
(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء التراث، بيروت، (٤/ ٥٤) .
(٥) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، (٢/ ٣٨٦).

قرى محصنة، فكما أن القرى جماعة كذلك الجدر جماعة متعددة [١]، ويشهد لذلك حال الأحفاد من يهود اليوم حيث يقاتلون بحصون مشيدة من الطائرات والدبابات والسيارات المصفحة، فإن كانوا في ساحة الوغى بسلاح المشاة فروا لجبنهم، والأحداث المعاصرة تشهد لذلك.

واليهود بالإضافة إلى هذا الجبن تجد ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ فعداوة بعضهم لبعض شديدة فهم ليسوا سليمي الصدور والقلوب فيها الضغناء والحقد لبعضهم، وإن كانوا بالظاهر متوادين متحابين، وتحسبهم أيها الناظر لأول وهلة مؤتلفين وهم في الحقيقة مختلفون غاية الاختلاف ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾.

فالمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض كما نرى تجمع المنافقين أحيانا في معسكر واحد، ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم، إنما هو مظهر خارجي خادع وبين الحين والحين ينكشف الستار، وفي الآية درس للمؤمنين أيضا فإنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب من المسلمين عندما تتفرق قلوب المسلمين [٢].

ويبين القرآن الكريم علة هذا التفرق والتشتت بأنه عدم استعمال العقول استعمالاً صحيحاً يوجههم إلى دين الله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ وذلك إشارة إلى ما ذكر من عدم سلامة قلوبهم وتفرقهم، فهم لا عقل لهم، ولو عقلوا لعلموا أن السلامة في اجتماعهم عند الخطر، وأن تفرقهم هو الذي يجعل الخطر مبسوط عليهم، وقد جاءت فاصلة الآية هنا ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ فوصفهم القرآن بأنهم قوم لا يعقلون، على حين وصفهم في مقام خوفهم من الناس أشد من خوفهم من الله بأنهم قوم لا يفقهون في الآية السابقة، وذلك لأن مجرد العقل كاف في تقدير السلامة من الخطر، ومعرفة أن السلامة رهن الاجتماع لا التفرق، أما في مقام الخشية لله فإنها لا تكون عن عقل مجرد بل لا بد من عقل معه فقه وعلم [٣].

---

(١) انظر الطبرسي، مجمع البيان، (٩/ ٣٣٦).

(٢) انظر سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٥٢٩).

(٣) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٣).

وبعد أن يعرض القرآن للمؤمنين أن أعداءهم مشتتين في حقيقة الأمر وإن بدوا متحدين في الظاهر يهون عليهم من شأنهم ويرفع من نفوسهم هيبة هؤلاء الأعداء وبذلك يحقق تعبئة روحية ترتكز على حق ثابت، فيبين أن ما حدث لبني النضير لم يكن الأول من نوعه بل سبقه حادث في بدر مع الذين كفروا ومن بعد بدر ما وقع لبني قينقاع [١]فقال تعالى:﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾ والمعنى مثل هؤلاء اليهود من بني النضير كمثل أهل بدر من كفار مكة، وكمثل بني قينقاع ذاقوا عاقبة كفرهم في زمن قريب من عصيانهم فلم تتأخر عقوبتهم، فعوقبوا في الدنيا إثر عصيانهم [٢].

والوبال أصله وخامة المرعى المستلذ به للماشية، تهش به الإبل فيمرضها أو يقتلها، فشبه إقدامهم على حرب المسلمين وخيانتهم مع الجهل بعاقبة تلك الحرب بإبل ترامت على مرعى وبيل فهلكت، وأمرهم هو شأنهم وما دبروه وذلك أنهم أوقعوا أنفسهم بالجلاء وترك الديار وما فيها، والعطف بالواو بين ذوق الوبال والعذاب الأليم يدل على التغاير والاشتراك بينهما وعليه فذوق الوبال كان في الدنيا والعذاب الأليم كان في الآخرة[٣] والتعبير بالذوق للدلالة على أن العذب لم يكن لما ظهر من الجسد فحسب بل يشمل البواطن أيضا، والعذاب مأخوذ من أعذبه إذا أزال عذوبته لأنه به تزول حلاوة العيش فينسي العذاب ما حال بالإنسان من نعيم سابق، وفي الحديث «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «يُؤْتَىٰ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ النَّارِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً. ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ. وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَىٰ بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْساً فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ. فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ:

(١) انظر سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٥٢٩).
(٢) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٥٨).
(٣) انظر أبو السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٢٣١).

لاَ. وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ. وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»(١) ووصف العذاب بالأليم للدلالة على شدته وهوله.

ثم يضرب القرآن مثلا آخر لحال اليهود وحال المنافقين الذين أغروهم بالمقاومة فانتهوا بها إلى تلك النهاية اليائسة بحال الشيطان مع الإنسان الذي يستجيب لإغرائه فينتهي وإياه إلى شر مصير (٢)فقال تعالى:﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

فمثلهم-أي اليهود والمنافقون - في تسبيبهم لأنفسهم عذاب الآخرة كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بأن يكفر بالله ثم يتركه ويتبرأ منه في الآخرة فلا ينتفع أحدهما بصاحبه ويقعان معا في النار (٣) فكان عاقبة اليهود ومن شايعهم من منافقين مثل عاقبة الشيطان حيث صارا في جهنم.

والمقصود من ذلك بيان أن الشيطان وأتباعه من البشر لن يضروا المؤمنين بهذا الكيد الذي يكيدونه لهم وأن ما قد يقع للمؤمنين من ضر فهو مما قدر الله لهم وشاء فيهم وقد يجيء هذا الضر عن طريق الشيطان وعن طريق غيره ولكن لا الشيطان ولا غيره يستطيع أن يضر أحدا إلا من شاء الله له هذا الضر (٤) وللنظر كيف عبر القرآن بالجزاء فهو عذاب مقابل فعل قد صدر جوزي عليه الإنسان (٥)، ولا شك أن كل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به حيث عرّضها للخلود بالنار بسبب فعله لذا جاءت فاصلة الآية ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة يوم القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، وصبغ أشدهم بؤساً في الجنة، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، رقم الحديث: ٧٠٣٧.

(٢) انظر سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٥٣٠).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٠٩).

(٤) انظر عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (٢٨/ ٨٣).

(٥) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٩١).

المعنى الإجمالي للمقطع الثالث

قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

فبعد أن امتن القرآن على المسلمين بما يسر من فتح لقرية بني النضير بدون قتال وما أفاء على رسوله منهم وصف ما جرى من خيبة أملهم ومن الإيذاء بأن عاقبة أهل القرى الباقية كعاقبة أسلافهم انتقل إلى أمر المؤمنين بتقوى الله شكرا له على ما فتح وما وعد من صادق الوعد فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ فاتجه ليدعوهم إلى التقوى والنظر فيما أعدوه للآخرة واليقظة الدائمة، فأمر بالتقوى وقرن ذلك بالنظر لما أعد ليوم القيامة واتبع ذلك بالأمر بالتقوى مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾ .

وذلك لأن تقوى الله جماع الأمر كله وهي الأساس في الإعداد لتلك الدار ونكر النفس ليفيد العموم في سياق الأمر في قوله تعالى ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ ﴾ أي لتنظر كل نفس [(١)]، وذكر الأمر بالتقوى مرة أخرى يفيد أن الأمر الأول بالتقوى كان لأداء الواجبات والأمر الثاني على ترك المعاصي والمنكرات [(٢)] ثم علل الأمر بالتقوى بفاصلة الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(١) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٠٩).

(٢) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٩١).

فالله لا تخفى عليه طاعة الطائعين ولا معصية العاصين.

وبعد أن أمر القرآن المؤمنين بالتقوى والإعداد للآخرة أتبعه بتحذيرهم من نسيان الله كالذين نسوه من قبل ممن رأوا مصيرهم فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ وذلك تحذيراً من الإعراض عن الدين والتغافل عن التقوى، والمقصود من النسيان هنا الترك وقد أطلق القرآن على الترك والإعراض عن عمد بالنسيان ممن وقع منهم في قوله ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ للدلالة على مدى إهمالهم لأوامر الله ودينه ونهيه حيث أعرضوا عن الهدى بكسبهم وإرادتهم فكانت نتيجة هذا الإعراض إهلاك أنفسهم ونسيان طلب نجاتها يوم القيامة فجعلهم ناسين لها فلم يشتغلوا بالأعمال التي تنجيهم من العذاب ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه، فأنساهم حظوظ أنفسهم [1] فمن نسي ربه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه بل نسي ما به صلاحه وفلاحه [2] والتعبير بأولئك للبعيد للدلالة على بعدهم عن الحق وانحطاط منزلتهم فقد خرجوا بفسقهم عن الدين الحق وخانوا وغدروا ونبذوا عهد الله وراء ظهورهم فخسروا .

ثم يقرر القرآن في الآية التالية بأن هؤلاء الذين تركوا أمر الله والانتهاء عن نهيه هم أصحاب النار الملازمون لها مبينا أن طريقهم غير طريق المؤمنين أصحاب الجنة الملازمون لها فقال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ واكتفى القرآن ببيان أن أصحاب الجنة هم الفائزون في قوله تعالى: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ وترك مصير أهل النار مسكوتا عنه لكونه معروفا [3] فهو استئناف مبين لكيفية عدم الاستواء بين الفريقين لكون أصحاب الجنة هم الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه [4] وهو ما

(١) انظر الشوكاني، فتح القدير، (١٥/ ١٠١).

(٢) انظر القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ١١٠).

(٣) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٥٣١).

(٤) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٣٢٣).

يدل عليه تعميم الفوز وعدم تحديده بجانب من الجوانب في فاصلة الآية .

ولما حذر القرآن المسلمين من الوقوع في مغبة نسيان أوامر الله ونهيه وتوعد من نسوا الله بالنار وبين حالهم مع الشيطان الذي زين لهم الكفر وكان القرآن دليلا لهم على سبل الخير ومسلكه محذرا من مسالك الشر، فضرب لهم هذا المثل تعجباً من تصلبهم في الضلال فقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

وذلك أن القرآن له ثقل وأثر كبير، والمراد بالجبل حقيقته، فالجبل مثال لأشد الأشياء صلابة، والمعنى لو كان المخاطب بالقرآن جبلا وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثيراً ناشئاً من خشية الله، أما هؤلاء الذين أعرضوا قست قلوبهم فلم يتعظوا بمواعظ القرآن، فقلوبهم أشد قسوة من الجبل، وقد ضرب التصدع في القرآن مثلا لشدة الانفعال والتأثر لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تشقق وتتصدع ولا يحصل ذلك بسهوله [١].

وهذا مثل خليق بأن يوقظ القلوب والعقول للتأمل والفكر لذا جاءت فاصلة الآية ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾وأريد بهذا المثل توبيخ الإنسان على قساوة قلبه وعدم خشوعه عند تلاوة القرآن، وقلة تدبره فيه [٢] .

وبعد أن ذكّر الله بالقرآن العظيم الدال على الخير المعروف بعظمة الله المقتضية للخشية أعقب ذلك بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا المناسبة لغرض السورة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية لخشيته[٣] وهي أثر من آثار القرآن في كيان الوجود كله فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(١) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١١٦).

(٢) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٣٢٣).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١١٨).

فبدأ باسم الجلالة الله الذي يجمع جميع صفات الكمال لأن أصله الإله، ومدلول الإله يقتضي جميع صفات الكمال وثنى بصفة عالم الغيب لأنها الصفة التي تقتضيها صفة الألوهية وفي هذا البدء تقرير للتوحيد ودفع للشرك، ومعنى عالم الغيب:عالم ما غاب عن الإحساس وما حضر وعالم السر والعلن، وقدم القرآن علم الغيب على علم الشهادة لكونه متقدما في الوجود[١] ولأن العلم به كالدليل على العلم بالشهادة [٢].

ثم عقب صفة عموم العلم بصفة عموم الرحمة لأن عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته ويمهل المعاندين إلى عقاب الآخرة فهو رحمن بهم في الدنيا وقد كثر اتباع لفظ الجلالة بهاتين الصفتين في القرآن ومن ذلك ما في سورة الفاتحة [٣].

ثم كرر القرآن ذكر الألوهية في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لكون التوحيد حقيق بهذا التكرار للتوكيد والتقرير [٤] في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ والملك:هو المتصرف بالأمر والنهي المالك لجميع الأشياء الذي له التصرف بها [٥].

والقدوس المنزه عما لا يليق بجلاله [٦] وهو الذي له الكمال في كل وصف اختص به [٧].

والقدوس اسم يشع القداسة والطهارة ويلقي في ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور

(١) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٠٧).
(٢) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٢٦).
(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٢٠).
(٤) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٠٧).
(٥) انظر أبي السعود، تفسير أبي السعود، (٩/ ٣٢٣).
(٦) القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ١١٣).
(٧) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٢٦).

فينظف قلبه ويطهره ليصبح صالحا لتلقي فيوض الملك القدوس[١].

وفي الحديث أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ». [٢]قال الإمام النووي: «ومعنى سبوح المبرأ من النقائص والشريك وكل ما لا يليق بالإلهية، وقدوس المطهر من كل ما لا يليق بالخالق» [٣].

وإنما اتبع القرآن الكريم وصف الملك بوصف القدوس للإشارة إلى أنه منزه عن نقائص الملوك المعروفة من الغرور والاسترسال بالشهوات ونحو ذلك من نقائص النفوس [٤].

والسلام: هو السالم من الآفات والعاهات والنقائص، المعطي للسلامة، فهو الذي ترجى منه السلامة [٥]وهو المسلم على عباده في الجنة [٦].

والمؤمن: هو الواهب الأمن والمصدق لأنبيائه بالمعجزات [٧]الذي أمن أولياؤه عذابه [٨] وأمن خلقه من ظلمه[٩].

وذكر وصف المؤمن عقب الأوصاف التي قبله إتمام الاحتراس من توهم وصفه تعالى بـ «الملك» أنه كالملوك المعروفين بالنقائص فأفاد نزاهة ذاته بوصف القدوس ونزاهة تصرفاته المغيبة عن الغدر والكيد بوصف «المؤمن»، ونزاهة تصرفاته الظاهرة عن الجور والظلم بوصف

(١) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٥٣٣).
(٢) أخرجه مسلم في كتاب، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، رقم الحديث ١٠٤٣.
(٣) يحيي بن شرف النووي، صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، دار الفكر، بيروت (٥/ ٢٤٥).
(٤) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٢٠).
(٥) انظر النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٨/ ٣٥).
(٦) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٠٧).
(٧) انظر: النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٨/ ٣٥).
(٨) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٩٣).
(٩) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٠٧).

السلام [١].

أما المهين في قوله تعالى «المؤمن المهيمن»: فهو الرقيب الحافظ لكل شيء [٢].

والعزيز هو القوي القاهر الذي لا يغلب[٣]، والجبار هو الذي جبر خلقه على ما أراد قسرهم عليه، ومنه جبرت العظام فانجبرت وهو الذي جبر أحوال خلقه أي أصلحها، أو هو المنيع الذي لا ينال [٤].

المتكبر: الشديد الكبرياء والعظمة الذي لا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه [٥] وهو المتعاظم عما لا يليق به من صفات الذم [٦].

ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾عقب صفة المهيمن أن جميع ما ذكر من صفات يؤذن باطمئنان العباد لعناية ربهم بهم وإصلاح أمورهم وأن صفة المهيمن تؤذن بأمر مشترك متصل بصفة العزيز ليعلم الناس أن الله غالب لا يعجزه شيء وأتبعه بصفة الجبار الدالة على أنه مسخر المخلوقات لإرادته ثم صفة المتكبر الدالة على أنه مختص بالكبرياء فيصغر كل شيء دون كبريائه فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت تلك السابقة في جانب الإطماع [٧].

وختم فاصلة الآية بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإن من اتصف بهذه الصفات من الجلال والعظمة بحيث ينبغي أن يتعجب من حال من أشرك به غيره فالتسبيح

---

(١) انظر ابن عاشور التحرير والتنوير، (٢٨/ ١٢١).

(٢) انظر الآلوسي، روح المعاني، (٢٨/ ٦٣).

(٣) انظر القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ١١٣).

(٤) انظر الآلوسي، روح المعاني، ().

(٥) انظر القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ١١٣).

(٦) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٨/ ٤٧).

(٧) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٢٣).

التنزيه والمعنى تنزه الله عن شرك من أشرك به.

ثم تختم السورة بلفظ الألوهية وصفات الجلال بعد ذكر التنزيه في فاصلة الآية السابقة بقوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ والخلق هو التقدير والمعنى أنه سبحانه يقدر أفعاله على وجوه مخصوصة[1]، والخلق أيضا هو إيجاد شيء على صورة مخصوصة، ويكون ذكر البارئ والمصور بعد الخلق تنبيها على أمور خاصة من الخلق [2]. والبارئ الموجد للأشياء بعد أن كانت عدما.

قال ابن حجر في الفتح « فإن ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ﴾ من الخلق، وأصله التقدير المستقيم ويطلق على الإبداع وهو إيجاد الشيء على غير مثال، و﴿ ٱلْبَارِئُ ﴾ من البرء، وأصله خلوص الشيء عن غيره على سبيل التقصي منه، و﴿ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ مبدع صور المخترعات ومرتبها بحسب مقتضى الحكمة، فالله خالق كل شيء بمعنى أنه موجده من أصل ومن غير أصل، وبارئه بحسب ما اقتضته الحكمة من غير تفاوت ولا اختلال، ومصوره في صورة يترتب عليها خواصه ويتم بها كماله، والثلاثة من صفات الفعل إلا إذا أريد بالخالق المقدر فيكون من صفات الذات، لأن مرجع التقدير إلى الإرادة.

و﴿ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ معناه المهيئ قال تعالى ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ والصورة في الأصل ما يتميز به الشيء عن غيره»[3]، والتصوير الذي هو التشكيل والتخطيط مترتب على الخلق والبراية تابع لهما [4]والمصور مصور الصور ومركبها على هيئات مختلفة [5]وقدم البارئ

(١) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٩٤).

(٢) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٢٣).

(٣) انظر أحمد ابن حجر، فتح الباري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٣/ ٣٣٣).

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٢٠٨).

(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٨/ ٤٨).

على المصور لأن إيجاد الذوات مقدم على إيجاد الصفات [1].

والصواب في هذه الأسماء والصفات أن ما كان منصوصا عليه في الكتاب والسنة الصحيحة وجب الإيمان به وما نزل عن هذه المرتبة أو مختلف في صحته لم يصح استعماله فإن الله أجل من يسمى باسم لم يتحقق أنه سمى به نفسه أو سماه به رسول الله ﷺ [2] «وإنما ذكرت هذه الصفات متتابعة لأن مجموعها يحصل تصور الإبداع الإلهي للإنسان فابتدأ بالخلق الذي هو الإيجاد الأصلي ثم البرء الذي هو تكون جسم الإنسان ثم التصوير الذي هو إعطاء الصورة الحسن، ووجه ذكرها عقب الصفات المتقدمة أي هذه الصفات الثلاثة أريد منها الإشارة إلى تصرفه في البشر بالإيجاد على كيفية بديعة ليثير شكرهم على ذلك وعبر عن الصفات بالأسماء لأنه متصف بها على السنة خلقه فصارت كالأعلام على ذاته تعالى»[3].

ومعنى ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي الأسماء الدالة على محاسن المباني [4] والمعاني الحسنة ومن اتصف بهذه الصفات وتلك المسميات حري بالتسبيح والتنزيه من الموجودات في السموات والأرض وفي غيرها ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وانظر كيف عبر القرآن في هذه الآية عن التسبيح بالفعل المضارع «يسبح» الذي يفيد التجدد والحدوث فالتسبيح له سبحانه من المخلوقات متجدد في كل وقت وحين.

وختمت فاصلة الآية بـ ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ لأن من عزته كان منزها عن النقائص أهلا للتسبيح، ومن حكمته أمر المكلفين في السموات والأرض بأن يسبحوا له ليربحوا [5].

---

(١) -انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٥/ ٢٩٥).

(٢) القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ١١٥).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٣/ ١٢٣).

(٤) انظر: الآلوسي، روح المعاني (٢٨/ ٣٥).

(٥) القمي النيسابوري، غرائب القرآن، (٢٨/ ٣٥).

ونلاحظ أن السورة بدأت بالتسبيح وختمت بالتسبيح فتلاقى المطلع والختام في تناسق والتئام[١].

وتوالي هذه الصفات المترابطة يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة حسب التصوير الإنساني[٢].

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٥٣٤).

(٢) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٥٣٣).

سورة الممتحنة

قيمة العقيدة في ضوء سورة الممتحنة

أولاً: بين يدي السورة

أ. تسمية السورة:

ذكر المفسرون أربعة أسماء لهذه السورة(١)، هي: «الممتحِنة» بكسر الحاء، و«الممتحَنة» بفتح الحاء، و«المودة»، و«الامتحان»، وكل اسم من هذه الأسماء يشير إلى بعض مقاصد السورة وأغراض نزولها.

فأما التسمية الأولى «سورة الممتحِنة» بكسر الحاء فهي اسم فاعل أي المختبِرة، أُضيف الفعل إليها مجازاً، كما سميت «براءة» المبعثِرة والفاضِحة، لما كشفت من عيوب المنافقين، وعلى هذا فالإضافة بيانية، أي السورة الممتحِنة(٢)، التي امتحنت المؤمنات المهاجرات من مكة إلى المدينة.

وأما التسمية الثانية «سورة الممتحَنة» بفتح الحاء فهي اسم مفعول، أُضيف إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ [الممتحَنة: ١٠]، وكانت امرأة عبد الرحمن بن عوف ﷺ، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف(٣)، وعلى هذا فليست الإضافة بيانية، ويحمل التعريف على العهد، ويكون المعهود أول امرأة امتحنت في إيمانها، والمعنى: سورة المرأة المهاجرة التي

(١) ينظر على سبيل المثال: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤٩، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٠٩، روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ٩٥، فتح البيان، القنوجي ٩/ ٣٦٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٥.

(٢) روح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي ٩/ ٣٦٩.

(٣) غوامض الأسماء المبهمة، السهيلي ١٩٣، بتصرف.

نزلت فيها آية الامتحان[١]، التي امتحنها المسلمون عندما هاجرت. وهذا هو الاسم المشهور للسورة[٢].

قال ابن عاشور: « ولك أن تجعل التعريف تعريف جنس، أي النساء الممتحَنة»[٣]، ووجه ذلك أن الصيغة وردت بالجمع في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾[الممتحَنة: ١٠].

وأما التسمية الثالثة «سورة المودة»[٤] فسببها ورود لفظ «المودة» ثلاث مرات في السورة؛ الأولى والثانية كانتا في أول آية منها، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله تعالى:﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾[الممتحنة: ١] والثالثة في قوله تعالى:﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾[الممتحنة: ٧].

وأما التسمية الرابعة «سورة الامتحان»[٥] بالمصدر، فعلتها ما ورد في السورة من وجوب امتحان النساء المهاجرات، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾[الممتحَنة: ١٠].

ب. مكان نزول السورة:

سورة الممتحَنة مدنية، في قول الجميع[٦]، والآية الأولى منها نزلت في شأن كتاب حاطب

(١) روح البيان، القنوجي ٩/ ٣٦٩.
(٢) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٦٣٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٥.
(٤) جمال القراء وكمال الإقراء، علم الدين السخاوي، تحقيق: د/ عبد الحق القاضي ١/ ٢٠٠، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٥٨.
(٥) المصدران السابقان.
(٦) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ٢٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤٩، الدر المنثور، السيوطي ١٤/ ٤٠٢.

ابن أبي بلتعة ﷺ إلى قريش، ووقع الخلاف في الوقت الذي نزلت فيه تلك الآية على قولين:

الأول: أن كتاب حاطب بن أبي بلتعة ﷺ إلى قريش كان عند تجهز النبي ﷺ للحديبية، روي ذلك عن قتادة، وذكره ابن جرير الطبري من رواية الحارث عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: « لمَّا أراد النبي ﷺ أن يأتي مكة أفشى في الناس أنه يريد خيبر، وأسرَّ إلى أناس من أصحابه فيهم حاطب بن أبي بلتعة أنه يريد مكة، فكتب حاطب إلى أهل مكة أن رسول الله ﷺ يريدكم..»[1].

فقوله: « أفشى أنه يريد خيبر» يدل على أن إرادته ﷺ مكة إنما هي إرادة عمرة الحديبية، لا غزو مكة؛ لأن خيبر فتحت قبل فتح مكة[2].

والثاني: أن كتاب حاطب إلى أهل مكة كان عند تجهز النبي ﷺ لفتح مكة[3].

وبعض الروايات ليس فيها تعيين ما قصده النبي ﷺ من تجهزه إلى مكة أهو لأجل العمرة أم لأجل الفتح ؟[4].

فعلى القول الأول تكون السورة نازلة في مدة متقاربة؛ لأن امتحان أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كان عقب صلح الحديبية، ومن ثَمَّ يكون نزولها مرتبا على ترتيب آياتها، وعلى القول الثاني يكون صدر السورة نازلاً بعد آيات الامتحان[5]، ويكون آخر ما نزل منها. والله أعلم.

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٠، لباب النقول، السيوطي ٧٣٠ على هامش تفسير الجلالين.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٠.

(٣) ينظر على سبيل المثال: الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٢٣٨، التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٠/ ٥١٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٥٠.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٦.

ج. عدد آيات السورة:

عدد آيات هذه السورة ثلاث عشرة آية، ليس فيها اختلاف[1].

د. محور السورة:

هذه السورة الكريمة كنظيراتها من السور المدنية تعنى ببيان الأحكام التشريعية، ومن أهمها تحديد معالم علاقة أهل الإيمان بغيرهم على المستوى المحلى والعالمي، وقد تناولت عددا من المواضيع، وهي:

أولاً: التحذير من موالاة أعداء الله.

ثانياً: إبراهيم ﷺ ومَن معه خير قدوة في الولاء والبراء.

ثالثاً: الموالاة المباحة والموالاة المحرمة .

رابعاً: امتحان المؤمنات المهاجرات .

خامساً: مبايعة النساء للرسول ﷺ.

سادساً: التحذير من موالاة أعداء الله .

وسوف نوضح الارتباط بين هذه المواضيع وبين محور السورة عند تحليلنا لمقاطع السورة إن شاء الله.

والمحور الذي سعت السورة لإبرازه هو الكشف عن أثر العقيدة في حياة الفرد والمجموع فبينت أنَّ العقيدة هي الأساس الذي ترتكز عليه كل علاقة أو تذوَى، والمتأمل في مقاطعها سوف يرى بوضوح كيف تكون العقيدة قيمة وميزاناً لكل ولاء أو رابطة؛ فقيم أهل الأرض كلها من قرابة وزوجية وقبيلة وجنس لا اعتبار لها إلا بحسب قربها وبعدها من هذا الميزان ويعضد هذا الآتي:

---

(١) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ٢٤٤.

١ - إن الثلاث عشرة آية التي تشكل قوام هذه السورة تمثل أنموذجا تربويا فريدا في تربية النفوس المؤمنة؛ فكل آية تنشئ في تلك النفوس « صورة جديدة، وقيماً جديدة، وموازين جديدة، وفكرةً جديدة عن الكون والإنسان والحياة، ووظيفة المؤمنين في الأرض، وغاية الوجود الإنساني، وكان القرآن بنزوله مفرقاً؛ يهدف إلى أنْ يجمع المؤمنين في كنف الله، ليعلمهم الله ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته، وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد، وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه، وأنه يريد بهم أمراً ويحقق بهم قدراً ومن ثمَّ فهم يوسمون بسمته، ويحملون شارته، ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقوام جميعاً، في الدنيا والآخرة، وإذن فليكونوا خالصين له منقطعين لولايته، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته في عالم الشعور وعالم السلوك»[1].

٢ - وأسباب النزول الواردة في مقاطع السورة كلها تشير إلى قيمة العقيدة، وتحدد للفرد المسلم والدولة المسلمة الميزان الذي ينبغي أن يقيموا به كل شئونهم.

٣ - وأهداف السورة الأخرى تسلسلت من المطلع حتى الختام لتنظم عددا من جوانب العلاقة بين الفرد والفرد في المجتمع المسلم، وبين المجتمع المسلم والمجتمعات الأخرى مبرزة قيمة العقيدة في كلٍ منها، وداعية إلى تقوية أواصر المودة بين المسلمين.

٤ - وما دعت إليه السورة من الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام له دلالات عميقة على قيمة العقيدة في حياة الأنبياء وأتباعهم؛ فقد رسمت الآيات لكل مسلم مثلا أعلى وقدوة حسنة في شخص إبراهيم عليه السلام ومن معه، حين آمنوا بالله وأخلصوا له، وتجردوا لعقيدته وحدها متبرئين من كل وشيجة تنافي وشيجة العقيدة.

وما ضُرِبَ المثل بإبراهيم عليه السلام هنا إلاَّ لأنه مرَّ بنفس التجربة التي كان يعانيها المسلمون المهاجرون عند نزول هذه السورة، فكأنَّ الآيات تقول لهم: ليس الأمر جديدا ولا تكليفا يشق

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٣٩، بتصرف يسير.

عليكم انظروا إلى من مضى من أهل العقيدة فاقتدوا به، واعتبروا.

وفي التمثيل بحال إبراهيم عليه السلام ومَن معه « وصل لآخر هذه الأمة بأولها، فهو ومَن آمن معه أسوة في العقيدة وفي السيرة وفي التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ثم خلص منها هو ومَن آمن معه وتجرد لعقيدته وحدها، فإذا انبتت الروابط بين المسلم وبين أعداء عقيدته، فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال غرسها أول المسلمين إبراهيم عليه السلام»[1].

فقضية العقيدة ليست خاصة بمسلمي اليوم، ولكنها قضية الماضي والحاضر والمستقبل بل هي قضية الوجود كله.

ومن خلال ما تقدم رأينا أن يوسم محور السورة بـ «**قيمة العقيدة في ضوء سورة الممتحنة**».

هـ. المناسبات في السورة:

١ . المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

تتناسب أسماء السورة الأربعة المذكورة سابقا مع محورها تناسبا بديعا يلمح من خلال النظر في علل تسميتها بتلك الأسماء.

فأما تسمية السورة «الممتحِنة» بالكسر فيبدو ارتباطها بمحور السورة عند حديث الآيات عن صنف من أعداء المسلمين في العقيدة وهو مَن ترك العناد واستسلم وأقبل معلنا إسلامه وهنَّ النساء المهاجرات.

فهذه التسمية تأخذ مدلولها من إرشاد هذه السورة إلى امتحان النساء المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام لمعرفة الباعث لهن على الهجرة، والتحقق من صدق إيمانهن، وحقيقة

(١) (١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٢ .

ما يظهرنه من معتقد، وذلك مناسب لمحور السورة لأن من يعلن انضواءه تحت لواء العقيدة لابد من العلم بصدقه فيما يدعيه، فكانت هذه السورة هي «الممتحِنة» والكاشفة عن إيمان تلك المهاجرات.

وأما تسمية السورة «الممتحَنة» بالفتح فوجه ارتباطه بمحور السورة لا يخفى على ذي نظر حصيف، ذلك أن المقصود بالممتحَنة المرأة أو النساء اللاتي أمر الله بامتحانهن إذا قدمن مهاجرات؛ لأن الغرض من ذلك الامتحان هو التأكُّد بما يغلب على الظن أنهنَّ صادقات في إيمانهنَّ، فيترتب عليه حكم آخر؛ وهو عدم حل ردهن إلى أزواجهن الكفار؛ لأن الله تعالى لا يبيح مؤمنة لمشرك، فلا يعتد بهذه الزوجية لانفصام العصمة بينهما بسبب الكفر واختلاف المعتقد، وهذا يدل على قيمة العقيدة في كل رابطة، وقد كان ذلك بعد صلح الحديبية.

أما تسميتها «سورة المودة» فلورود لفظ المودة في الآية الأولى من السورة بعد النهي عن اتخاذ الكفار المعاندين أولياء، وهذا له تعلق بمحور السورة؛ لأن علة النهي هي أن هؤلاء عادوا دين الله ومنهجه وأخرجوا الرسول ﷺ وصحابته من مكة كراهة لما هم عليه من العقيدة السليمة، قال تعالى:﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾[الممتحنة: ١].

فمن كان هذا شأنه تجب مقاطعته، ولا تلقى إليه أخبار النبي ﷺ؛ لأن الإلقاء لا يكون إلا بسبب المودة، ومن علامات الإيمان وأسس العقيدة: بغض أعداء الله لا مودتهم.

وقد ذكرت المودة في تضاعيف السورة ثلاث مرات، الأولى والثانية في سياق النهي عن اتخاذ الكفار المعاندين أولياء وأحباء، والثالثة مع مَن يرجى أن يترك عناده ويستسلم، قال تعالى:﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الممتحنة: ٧].

وأما تسميتها «سورة الامتحان» بالمصدر فبينها وبين محور السورة علاقة تلازم قوية؛ لأن صورة الامتحان تتفق تماما مع محورها الرئيس، فقد روىَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يستحلف المرأة فيقول: « بالله الذي لا إله إلا هو، ما خرجت من بغض زوج ! بالله

ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ! بالله ما خرجت التماس دنيا ! بالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله، فإذا حلفت على ذلك أعطى زوجها مهرها، وما أنفق عليها ولم يردها»[1].

٢ . المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بين مطلع هذه السورة وختامها علاقة وثيقة وارتباط متين سواء حُملا على العموم أو الخصوص.

فتكون المناسبة إذا حُملت الآيتان الأولى والأخيرة من السورة على العموم أن الأخيرة تأكيد، فإنه لما افتتح هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ختمها بمثل ذلك النهي تأكيدا لترك موالاتهم وتنفيرا للمسلمين عن توليهم وإلقاء المودة إليهم[2].

وتكون المناسبة إذا حملت الآية الأخيرة من السورة على الخصوص؛ وأريد بها اليهود والمنافقين أنَّه « لما نهى أولا عن موالاة الأعداء وأمر بتقطيع الأواصر بين ذوي الأرحام، جاء بعدها بما يشبع الأمل بقوله تعالى:﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ ﴾ [الممتحنة: ٧]، و ﴿ عَادَيۡتُم ﴾عامة باقية على عمومها. ولكن اليهود والمنافقين لم يدخلوا في مدلول ﴿ عَسَى ﴾، فنبه تعالى عليهم بخصوصهم لئلا يطمع المؤمنون أو ينتظروا شيئا من ذلك، فأَيْأَسهم من موالاتهم ومودتهم، كإياس اليهود والمنافقين في الآخرة، أي بعدم الإيمان الذي هو رابطة الرجاء المتقدم في ﴿ عَسَى ﴾، وفعلاً كان كما أخبر الله، فقد جعل المودة من بعض المشركين ولم يجعلها من بعض المنافقين ولا اليهود، فهي إذاً مؤسسة لمعنى جديد»[3]، حيث تَمَّ فيها استيفاء بقية أصناف المعادين للمسلمين في الدين الذين تحرم موالاتهم[4].

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ . ٦٢

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ . ١٥٦

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٣٠، ٣٣١. والكلام لمتممه الشيخ/ عطية محمد سالم.

(٤) ومن لطائف التناسب بين المطلع والختام أن كلاهما قد بدئ بالنداء:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثم أعقب ذلك بأداة النهي "لا"، ثم عبر عن النهي في المطلع بالافتعال "الاتخاذ"، وفي الختام بالتفعُّل﴿ تَتَوَلَّوۡاْ ﴾=

٣ . المناسبة بين افتتاحية سورة الممتحنة وخاتمة سورة الحشر:

اشتمل آخر سورة الحشر على إبراز أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، فقال تعالى:﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾«[الحشر: ٢٢- ٢٤].

وأول هذه السورة مشتمل على حرمة موادة مَن لم يعترف بتلك الأسماء والصفات التي تليق بجلاله عز وجل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾[الممتحنة: ١].

٤. المناسبة بين مضمونيْ سورتيْ الممتحنة والحشر:

بين مضمونيْ هاتين السورتين ارتباط من وجهين:

الأول: لما كانت سورة الحشر في المعاهدين من أهل الكتاب، عقبت بهذه لاشتمالها على ذكر المعاهدين من المشركين، لأنها نزلت في صلح الحديبية.

والثاني: أن الله تعالى لَمّا ذكر في سورة الحشر موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، ثم موالاة الذين نافقوا الكفار من أهل الكتاب فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾[الحشر: ١١].

افتتح هذه السورة بنهي المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء لئلا يشابهوا المنافقين في ذلك[1]،

=بصريح النهي، وسر ذلك أنه لما كان الميل عن الطريق الأقوم على خلاف ما تأمر به الفطرة الأولى فلا تكون العودة إليه إلا بعد المعالجة بالتكرار والتأكيد عبر بالتَّفَعُّل «التَّوَلي» كما عبر أول السورة بالافتعال «الاتخاذ»، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ ﴾ أي لتعالجوا أنفسكم أن تتولوا. نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٥٢٩، بتصرف.

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٥٠ .

فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾[الممتحنة: ١] وكرر ذلك وبسطه، إلى أن ختم السورة به، فكانت غاية في الاتصال بتلك، ولأجل هذا التعلق فُصِل بهذه السورة بين سورتيْ الحشر والصَّف مع تآخيهما في الافتتاح بـ﴿ سَبَّحَ ﴾[1].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

النهي عن موالاة الكفار

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾[الممتحنة: ١ - ٦].

---

(١) تناسق الدرر، السيوطي ١٣٣ .

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

لمحور هذه السورة - قيمة العقيدة في ضوء سورة الممتحنة - علاقة بفاتحتها؛ فقد اشتملت فاتحة السورة على نهي كل من اتصف بصفة الإيمان عن موالاة أعداء دين الله، وإلقاء المودة إليهم، وبيّنت سبب ذلك، من كونهم أخرجوا المؤمنين من مكة لإيمانهم بالله ربهم، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١].

ثم ضربت الآيات المثل للمؤمنين بأبي الأنبياء إبراهيم ﷺ ومَن معه من المؤمنين حين تبرؤوا من أعداء الله حتى يؤمنوا بالله وحده.

فتناسب مطلع السورة مع محورها من حيث إنَّ كلاً منهما يجعل العقيدة أساساً لكل رابطة؛ فالولاء لله وأحبائه يقتضي البراء من أعدائه، إذ ليس من الشرع أن يجمع المؤمن في قلبه بين محبة الله ومحبة أعدائه، لأنَّه جمع بين النقيضين، ومن لوازم محبة الله بغض أعدائه وإعلان البراءة منهم.

ثانياً: سبب نزول هذا المقطع:

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، قال: فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عِقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا» ؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي، ولم أفعله

ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّه صدقكم». فقال عمر ﷺ: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال ﷺ: إنَّه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على مَن شهد بدرا، قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل الله السورة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾إلى قوله تعالى:﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾(١).

ثالثاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

عُرِض هذا المقطع من السورة في ثلاث فِقرات:

الأولى: ورد النهي فيها عن تولي المعادين لله ولرسوله وللمؤمنين.

والثانية: بيَّنت علة النهي عن تلك الموالاة.

والثالثة: دعت إلى التأسي بإبراهيم ﷺ وأتباعه المؤمنين حين أعلنوا البراءة من قومهم الكفار حتى يؤمنوا بالله وحده لا شريك له.

* يا من صدقتم بالله ربا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولاً: لا تتخذوا عدوي وعدوكم من الكفار أنصارا وأعوانا، سواء كانوا من أهل مكة أو من غيرهم، ترسلون إليهم أخبار رسول الله ﷺ التي لا ينبغي أن يكونوا على علم بها بسبب المودة التي بينكم وبينهم، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النساء: ١٤٤]، وقال تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[المائدة: ٥٧].

ثم تذكر الآية علتين للنهي عن موالاة هؤلاء:

- الأولى: أنَّ هؤلاء قد كفروا بما جاءكم من الحق الذي هو دين الإسلام بكتابه ورسوله

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٩٠)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٣٠٠٧).

وعقائده وشرائعه.

- **والثانية:** أنَّهم أخرجوا الرسول ﷺ وصحابته من مكة إلى المدينة كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله سبحانه، ولم يكن للرسول ﷺ وصحابته من جرم سوى إيمانهم بالله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾[البروج:٨].

ثم تُهيِّج الآية المؤمنين على ترك تلك المودة:

* إنْ كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي؛ فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، فتنقلون إليهم الأخبار وتسرون إليهم بمودتكم، وأنا العالم بالسرائر والضمائر وبما تخفون وما تعلنون. - فلا يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاته مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله.

* إنَّ من يتخذ أعداء الله أولياء يكون قد انحرف عن طريق الحق، وحاد عن السبيل التي توصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى.

* إنَّ هؤلاء الكفار لو سنحت لهم فرصة للإيقاع بكم - معشر المؤمنين - وكان لهم الظفر عليكم، فتمكنوا منكم لكانوا لكم في غاية العداوة، ولن يبالوا بمودتكم، أو يقيموا لها وزنا، ولمدوا إليكم أيديهم بالضرب وألسنتهم بالسب والشتم، وتمنوا لو تكفرون بربكم وترتدون عن دينكم، لتكونوا على الذي هم عليه، فعداوتهم لكم ظاهرة، قال تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾[النساء: ٨٩].

* إنَّ رابطة الدين والإيمان أنفع لكم من رابطة القرابة والولد؛ لأنها لا تفيد يوم القيامة من يوالي الكفار لأجلها، ففي الآخرة يفرق الله بينكم، لأن العروة التي تربطكم مقطوعة وهي العروة التي لا رباط بغيرها عند الله، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾[عبس: ٣٤- ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ

﴿يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[الزخرف: ٦٧].

* إنَّ المودة لا تنفع يوم القيامة إن لم تكن فيما يرضي الله حبا ومعاداة، لانفصال كل اتصال يومئذ، واعتماد كل إنسان على ما قدم لنفسه.

* والله مطلع على أعمالكم، لا يخفى عليه شيء منها، فهو محيط بجميعها، ومجازيكم عليها وهو خير الفاصلين.

* لقد كان لكم أيها المؤمنون في فعل أهل الإيمان الصادق والاستقامة القويمة كإبراهيم عليه السلام ومن معه قدوة صالحة وأسوة حسنة في الولاء والبراء، فقد تجلى موقفهم إزاء أعدائهم في الدين في الآتي:

* إعلان التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان، «فلا يجوز مطلقاً موادَّة من حاد الله ورسوله وعباده المؤمنين مهما كانت درجة قرابته ومكانته»[١].

* جحد ما هم عليه من الكفر وإنكاره عليهم.

* إظهار العداوة والبغضاء، فليست عداوة في القلب مكنونة، بل هي عداوة واضحة معلنة.

* وسيكون هذا دأبنا معكم لا نترككم بحال حتى تتركوا ما أنتم عليه من الشرك، وتؤمنوا بالله وحده فحينئذ تنقلب معاداتنا لكم موالاة. قال الفراء: « يقول - الله - ألا تأسيت يا حاطب بإبراهيم عليه السلام فتبرأ من أهلك كما برئ إبراهيم»[٢].

إنَّ إبراهيم عليه السلام قدوة حسنة للمؤمنين في البراءة من أعداء دين الله إلا في استغفاره لأبيه فليس للمؤمنين في ذلك أسوة.

(١) مباحث في التفسير الموضوعي، د/ مصطفى مسلم ٦٢٠.
(٢) معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٤٩.

وسر ذلك أن بعض المسلمين كان يجد في استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو مشرك ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين، فجاءت آي القرآن لتشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم عليه السلام في قوله لأبيه:﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة:٤].

فما طلب إبراهيم عليه السلام المغفرة لأبيه إلا قبل أن يستيقن من إصراره على الشرك، استغفر له وهو يرجو إيمانه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤].

وتلك الموعدة من إبراهيم عليه السلام كانت في بادئ دعوته؛ حين قال له أبوه مرغباً ومرهباً: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾[مريم: ٤٦- ٤٧]، فكان قد وعده ووفى بها وعد، فلما تبين له أن أباه عدو لله تبرأ منه.

إذاً فمحل التأسي المطلوب في إبراهيم عليه السلام هو ما جاء في قوله تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾... «[الممتحنة: ٤]، وما فصلته أيضا آيات أخرى في قوله سبحانه:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾[الزخرف: ٢٦- ٢٧].

لقد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه ترغيبا له لئلا يترك السعي في طلب النجاة، وقد أشار بنفسه إلى أن ليس في وسعه سوى الاستغفار، قال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الممتحنة: ٤]، أي لا أستطيع أن أنفعك بأكثر من هذا، فإن أراد الله عقوبتك على كفرك فلا أدفعها عنك.

وهذا دأب رسل الله فقد قال محمد ﷺ لفاطمة ابنته: « يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً »[١].

ثم أخبرت الآيات عن مناجاة[٢] إبراهيم عليه السلام والذين معه ربهم حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم، وأعلنوا تسليمهم المطلق لله، وهذا التسليم هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم عليه السلام فأبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين.

* ربنا اعتمدنا عليك لا على سواك في جميع أمورنا، سلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ورجعنا إليك بالتوبة مما تكره إلى ما تحب وترضى، ومصيرنا إليك يوم تبعثنا من قبورنا وتحشرنا إلى موقف العرض والحساب.
* ربنا لا تظهر الكفار علينا فيفتنوننا في ديننا ويردونا إلى الكفر، أو يُفتنون بنا فيرون لَمَّا غلبونا أنَّهم على حق ونحن على باطل، فيزدادون كفراً ولا يؤمنون.
* واغفر لنا يا ربنا ما فرطنا من الذنوب فأنت الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه، وأنت الحكيم في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك[٣].

ثم تُكرِّر الآية الحث على التأسي بإبراهيم عليه السلام ومَن معه[٤]:

---

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٣٤٨).

(٢) من لطائف التعبير في الآيات عند التمثيل لحال المسلمين مع رسولهم ﷺ بحال إبراهيم عليه السلام والذين معه إجراء العطف بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾، وفي هذا حث للمسلمين أن يكونوا تابعين لرضى رسولهم ﷺ كما كان الذين مع إبراهيم عليه السلام.

(٣) هذا الابتهال والضراعة هو مما قاله إبراهيم عليه السلام، وحمله بعض المفسرين على أنه إرشاد من الله للمؤمنين أن يقولوه تقوية لإيمانهم، وتثبيتا لهم عليه كما فعل إبراهيم عليه السلام ومَن معه.

(٤) لما كان من شأن البشر التفاوت في الاستجابة للتذكير والموعظة، فمنهم مَن يرده أيسر وعظ، ومنهم مَن يحتاج إلى أكثر من ذلك كي تتحرك همته لتأخذ به، أعاد الله سبحانه التأسية تأكيدا لها على وجه بلغ الذروة من جمال الترغيب وجلال الترهيب.

* إن لكم أسوة في إبراهيم ﷺ والذين معه، ولا يتمثلها إلا مَن كان يرجو لقاء الله وثوابه والنجاة في اليوم الآخر، هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي خاضها هذا النبي ﷺ ومن معه، ويتخذونها قدوة تتبع، فأما من أعرض عن الائتساء بهم، ومال إلى مودة الكفار؛ فإن الله مستغن عن إيمانه وولايته التي استبدلها بولاية غيره.
* والله سبحانه محمود بآلائه وإنعامه عن الخلق أجمعين، قال الله سبحانه وتعالى حكاية عن قول موسى ﷺ لقومه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾[إبراهيم: ٨].

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان.
* حرمة موالاة الكافرين بالنصرة والتأييد والمودة.
* فضيلة أهل بدر على سائر المؤمنين.
* لا يُكَفَّر من اطَّلع على عورات المسلمين وأسرارهم الحربية، ونقلها إلى الكفار إذا كان فعله لغرض دنيوي، وكان اعتقاده سليما، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد، ولم ينوِ الردة(١).
* شأن الكافرين دائما أنهم إذا تمكنوا من المسلمين التعرض لهم بأنواع الأذى.
* قرابة المسلم الكافرة لا تنفعه يوم القيامة إن عصى الله من أجلها، وإنما الذي ينفعه هو الإيمان الصحيح والعمل الصالح.
* من وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر، ولا ينفعه عند الله أحد من قرابته ولو كان القريب نبياً من الأنبياء.

---

(١) الأحكام الصغرى، ابن العربي ٢/ ٨٧٦.

* أنبياء الله هم القدوة الصالحة لكل مسلم في التبرؤ من الكفار.
* الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام في فعله يصحح القول بأن شرع من قبلنا شرع لنا فيما أخبر الله ورسوله، ولم يكن مخالفا لما جاء في شرعنا.
* لا يجوز الاقتداء في غير المعروف، فإذا أخطأ العبد الصالح فلا يتابع على الخطأ.
* فضل نبينا محمد ﷺ على سائر الأنبياء؛ لأن الله حين أمرنا بالاقتداء به أمرنا أمرا مطلقا، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر: ٧]، وحين أمرنا بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام استثنى بعض أفعاله.
* يجوز الاستغفار لمن يُظن أنه أسلم.
* سبب عداوة المسلم للكافر والبراءة منه هو كفره بالله، فإن أعلن إيمانه بالله وحده لا شريك له فحينئذ تنقلب العداوة موالاة.
* التوكل والإنابة والاستغفار عبادات مأمور بها المسلم.
* الالتجاء إلى الله والضراعة إليه بالدعاء دأب الأنبياء والصالحين.

المقطع الثاني

الموالاة المباحة والموالاة المحرمة

قال الله تعالى:﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الممتحنة: ٧- ٩].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

ورد النهي عن موالاة الكفار على العموم في مطلع السورة، وفي هذا المقطع تفصيل لحكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم، وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وآذوهم، فقال تعالى:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[الممتحنة: ٨].

وهذان الحكمان يتفقان مع « اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة، وجعلها الراية الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون، فمَن وقف معهم تحتها فهو منهم، ومَن قاتلهم فيها فهو عدوهم، ومَن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم، ولم يصد الناس عنها، ولم يحل بينهم وبين سماعها ولم يفتن المؤمنين بها، فهو مسالم لا يمنع الإسلام من البر به والقسط معه»[(١)].

ثانياً: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

لهذا المقطع تعلق بسابقه من وجهين:

الوجه الأول: كونه أنزل تسلية للمؤمنين، فإنه تعالى لَمَّا نهاهم في مطلع السورة عن موالاة أعداء دينه وأعدائهم، ودعاهم إلى التأسي بإبراهيم عليه السلام ومَن معه؛ حملهم ذلك على أن يظهروا

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٥.

البراءة من قراباتهم المشركة والتشدد في معاداتهم، غير أن ذلك لم يدفع الحنين والرغبة في زوال حالة العداء والجفوة، فكانوا يتمنون أن يجدوا مخلصا، فأردف بهذه الآيات التي تحمل نسمة الأمل بقرب الفرج تسلية لهم على تحمل ما نهوا عنه، ولمَّح بأنه سيغير من طباع المشركين، ويغرس في قلوبهم محبة الإسلام، فتزول تلك الجفوة، ويتم الود.

والوجه الثاني: في المقطع السابق ورد النهي عن موالاة الكفار على العموم، وفي هذا المقطع تفصيل لأنواع الأعداء وحكم كل نوع، فأباحت الآيات للمؤمنين صلة المسالمين الذين لم يقاتلوهم، ولم يخرجوهم من ديارهم، أو يعاونوا على إخراجهم، وقصرت النهي عن الموالاة على حالة العدوان على المؤمنين، وإخراجهم من ديارهم، ومعاونة غيرهم على ذلك.

ثالثاً: سبب نزول المقطع:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبة وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فسألت رسول الله ﷺ أأصلها ؟ فأنزل الله تعالى:﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾[١].

وعن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن تسأل رسول الله ﷺ عن هذا، فسألته فأنزل الله تعالى:﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ الآية، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها[٢].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع من السورة حول فقرتين:

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٢٦٢٠).

(٢) المسند، أحمد بن حنبل ٥/ ٤٥١، المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري ٢/ ٥٢٧. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الأولى: فيها وعد من الله للمؤمنين بزوال الوحشة والنُّفرة بينهم وبين قراباتهم الكافرة.

والثانية: فيها بيان لأحكام الموالاة.

* الإسلام دين مودة وسلام يسعى لأن يظلل العالم بنظامه، ويجمع أشتات الناس تحت لوائه، وليس ثمة ما يمنع من تحقيق ذلك سوى عدوان أعدائه عليه وعلى معتنقيه.

* إنَّ هذا الدين - وهو حتى في حالة العداء - يستبقي أسباب المودة في النفوس أملا في أن يأتي اليوم الذي يقتنع خصومه فيه بعدالة منهجه، ويدركوا أن الخير فيه لا سواه.

لقد قاطع المسلمون قراباتهم من أجل الله، فأرهقتهم مرارة المقاطعة فجاء الفرج من الله فنفَّس عن تلك النفوس المتعبة فقال تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ ﴾ [الممتحنة: ٧].

أي فربما أسلم أعداؤكم، وصاروا من أهل دينكم، فتتحول العداوة إلى مودة.

ولقد تحقق ذلك فكان فتح مكة، حيث دخل الناس في دين الله أفواجا، وألف الله بين القلوب بعد العداوة، وكانت المودة بعد البُغضة والألفة بعد الفرقة.

* والله سبحانه قدير لا يعجزه شيء فألَّف بين القلوب فأصبحت مجتمعة بعد تفرقها، قال تعالى:﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى:﴿ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾[الأنفال: ٦٣].

* مَن لم يقاتل المسلمين لأجل دينهم من الكفار، ولم يخرجهم من ديارهم، أو يعاون غيرهم عليهم ولا ظاهر على إخراجهم، فتجوز موالاتهم، ولم يمنع الله عز وجل من البر بهم، والإقساط إليهم، بأداء ما لهم من الحق كالوفاء لهم بالوعود والعهود، وأداء الأمانة، وإيفاء أثمان المشتريات كاملة غير منقوصة.

* والله يحب العادلين في كل شئونهم حتى مع أعدائهم، ويرضى عنهم ويمقت الظالمين

ويعاقبهم، وفي الحديث: «إنَّ المقسطين على منابر من نور عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا»[(١)].

* ومَن قاتل المؤمنين في دينهم من الكفار كمشركي مكة أو غيرهم، وناصبوهم العداوة وأخرجوهم من ديارهم، وعاونوا على إخراجهم، فهؤلاء ينهى الله عز وجل عن موالاتهم، ويأمر بمعاداتهم.

* ومَن أعرض عن هذا الأمر الرباني، ووضع الولاية في غير موضعها، فهو من الظالمين لأنفسهم المتعرضين لعذاب الله ونقمته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ويتبادر سؤال بخصوص هذه الآية؛ هل هي محكمة ؟ ومن ثَمَّ يجوز للمسلم المعاصر أن يبر ويقسط إلى المسالمين من الكفار، أم أن حكمها منسوخ ؟.

والجواب: اختُلِف فيها على قولين:

الأول: إنها منسوخة، وقد اختُلف في معناها وناسخها:

فقيل: إن هذه الرخصة بالإحسان إلى المسالمين كانت في أول الإسلام زمن الموادعة، وترك الأمر بالقتال، ثم نسخت بآية: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقيل: كانت في أهل الصلح فلما زال الصلحُ زال حكمها، وانتهى العمل بها بعد فتح مكة.

وقيل: هي في أصحاب العهد حتى ينتهي عهدهم أو ينبذ إليهم؛ أي أنها كانت مؤقتة بوقت ومرتبطة بقوم.

---

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (١٨٢٧)، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٦. وقال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط الصحيح.

وقيل: إنها كانت في العاجزين عن القتال من الصبيان والنساء من المشركين.

وقيل: إنها في ضَعَفَةِ المؤمنين عن الهجرة حينما كانت واجبة، فلم يستطيعوا، وعلى كل هذه الأقوال تكون قد نسخت، بفوات وقتها وذهاب من عنى بها.

والثاني: إنها محكمة[١]، بدليل سبب نزولها المتقدم.

والكلام في هذه الآية طويل، ونكتفي فيها بما رجحه إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، قال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال عنى بذلك قوله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم أن الله عمَّ بقوله: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ جميع من كان من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه، إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح»[٢].

« وهذا الذي صوبه ابن جرير تقتضيه روح التشريع الإسلامي؛ فالمسلمون اليوم لهم مصالح مشتركة بعضهم ببعض ومرتبطة بمجموع دول العالم وتشابكها من مشركين وأهل كتاب، ولا يمكن لأمة اليوم أن تعيش منعزلة عن المجموعة الدولية لتداخل المصالح وتشابكها، ولا سيما في المجال الاقتصادي من إنتاج وتصنيع وتسويق، فعلى هذا تكون الآية مساعدة على جواز التعامل مع أولئك المسالمين ومبادلتهم مصلحة بمصلحة، إذا لم يكن في ذلك ضرر بأهل الإسلام كما نصت الآية، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم وجود تلك المصلحة عند المسلمين أنفسهم، أي أن العالم الإسلامي يتعاون أولا مع بعضه، فإذا أعوزه أو بعض دوله حاجة عند غير المسلمين ممن لم يقاتلوهم ولم يظاهروا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٥٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٣.

عدوا على قتالهم فلا مانع من التعاون مع تلك الدولة في ذلك، ومما يؤيد هذا معاملة النبي ﷺ وخلفائه من بعده لليهود في خيبر»(١).

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* المسالمون من أهل العهد من الكفار لا ينهى الله عن موالاتهم ومبرَّتهم، وفعل الخير لهم والعدل معهم.
* يرعى الإسلام حقوق المعاهَدين، ويدعو إلى البر بهم؛ لأنه دين العدل والإنصاف.
* لا يجوز اتخاذ الأولياء والأنصار من الذين يقاتلون المسلمين في الدين ويخرجونهم من ديارهم ويظاهرون على إخراجهم.

المقطع الثالث

امتحان المهاجرات

قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[الممتحنة: ١٠- ١١].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

وجَّهت هذه الآية نداءاً إلى أهل الإيمان تأمرهم فيه بامتحان المؤمنات اللاتي خرجن من

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٢٤ - ٣٢٦ بتصرف، والكلام لمتممه وهو الشيخ/ عطية محمد سالم - رحمه الله - الذي لازمه أكثر من عشرين عاما كما أفادنا.

دار الكفر يعلنَّ إسلامهن وانضواءهن تحت راية الإسلام، وأمرت بعدم ردهن إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكوافر.

وهذا له صلة كبيرة بمحور السورة - **قيمة العقيدة في ضوء سورة الممتحنة** - فإذا غلب على الظن أن صحة إيمانهن ثابتة فلا يجوز للمؤمنين ردهن إلى دار الكفر، لأن القطيعة متحققة لاختلاف المعتقد.

وأمرت الآية كذلك بالتخلص من عصمة كل كافرة، وعلة ذلك أن « الزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار، ولا يمكن أن تستمر إذا انبتَّت هذه الوشيجة، والإيمان هو قوام حياة القلوب الذي لا تقوم مقامه عاطفة أخرى، فلا رابطة إلا رابطة الإيمان، ولا وشيجة إلا وشيجة العقيدة، ولا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله»[١].

ثانياً: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

تظهر المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله من ثلاثة وجوه:

الأول: في المقطع السابق بيان لأحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم في حالتي السلم والحرب، وقد كان بين المسلمين والمشركين عقود نكاح ومصاهرة؛ ولم تفصل أحكامها في المقطع السابق، فقد يكون المسلم زوجا لمشركة وتكون المسلمة زوجا لمشرك، فتحدث في ذلك حوادث لا يستغني المسلمون عن معرفة حكم الشريعة في مثلها، فناسب أن يعقب ذلك ببيان تلك الأحكام.

الثاني: أنه لما أمر الله تعالى بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة؛ فبين أحكام مهاجرة النساء[٢].

الثالث: أن هذه الآية فيها استيفاء للحالة الثالثة من أحوال المعاندين. وقد أشار الفخر

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٦١.

الرازي إليها بقوله: « في نظم هذه الآيات وجه حسن معقول، وهو أن المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة؛ إما أن يستمر عناده، أو يرجى منه أن يترك العناد، أو يترك العناد ويستسلم، وقد بين الله تعالى في هذه الآيات أحوالهم، وأمر المسلمين أن يعاملوهم في كل حالة على ما يقتضيه الحال؛ فقوله تعالى:﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾[الممتحنة:٤] إشارة إلى الحالة الأولى. وقوله تعالى:﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [الممتحنة:٧] إشارة إلى الحالة الثانية. ثم قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ ﴾[الممتحنة: ١٠] إشارة إلى الحالة الثالثة، وقد ناسب أن يذكر هذه الحالة بعد الحالتين السابقتين، ثم فيه لطيفة وتنبيه وحث على مكارم الأخلاق، لأنه تعالى ما أمر المؤمنين في مقابلة تلك الأحوال الثلاث بالجزاء إلا بالتي هي أحسن، وبالكلام إلا بالذي هو أليق»[1].

ثالثاً: سبب نزول هذا المقطع:

وردت في سبب نزول هذه الآية روايات منها:

عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: « لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أن لا يأتيك منا أحد، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فرد يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة، وإن كان مسلما. وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبه بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ، وهي عاتق. فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾»[2].

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٠/ ٥٢١، مع اختلاف يسير في اللفظ.
(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٢٧١١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن مشركي مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب، والنبي ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجها - وكان كافرا - فقال: يا محمد أردد عليّ امرأتي، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد، فنزلت هذه الآية[1].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تتحدث آيات هذا المقطع عن قضيتين:

الأولى: فيها الأمر بامتحان المهاجرات لمعرفة صدق إيمانهن، وتفصيل لأحكام هجرة النساء.

والثانية: تحدثت عن حكم الله فيما إذا لم يدفع الكفارُ للمسلم مهر زوجته التي فرت إلى دار الشرك.

* يا من صدقوا بالله ربا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا: إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإيمان، فراراً بدينهن، فاختبروهن على إيمانهنّ، لتعرفوا سبب هجرتهنَّ.

وقد اختلف في كيفية امتحانهن على أقوال:

الأول: كانت تستحلف بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقا لرجل منا، بل حبا لله ورسوله، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك، أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها، فذلك قوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾[2]. قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) أسباب النزول، الواحدي ٣٣٤، لباب النقول، بهامش تفسير الجلالين: ٧٣٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٦٣.

والثاني: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله(١).

والثالث: بما بينه الله في السورة بعد في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾.

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ إلى قوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك، كلاما، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: « قد بايعتك على ذلك»(٢).

* وهذا الامتحان يعتمد على ظاهر حالهن أما خفايا الصدور فأمرها إلى الله، ولا سبيل لكم إليها؛ لأن حقيقة الإيمان لا يمكن أن يعلمها أحد غيره تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾.

* فإن غلب على ظنكم – أيها المؤمنون – أنهن مؤمنات واطمأنت قلوبكم على إيمانهن بما بدا لكم من ظاهر حالهن وإقرارهن مع الحلف بالله فلا تردوهن إلى أزواجهن من الكفار، لأن الله لا يبيح مؤمنة لمشرك، وعلة ذلك أن إسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها، وكذلك لا تحل المؤمنات للكفار.

وبعد الأمر بالامتحان شرعت الآية في بيان أحكام تسوية زواج المسلمة المهاجرة:

* على المؤمنين أن يعطوا المشركين الذين هاجرت زوجاتهم ما غرموه عليهن من المهور، فإن المهر في نظير أصل العشرة ودوامها، وقد فوتتها المهاجرة فلا يجمع عليه خسران الزوجية والمالية. وهذا الأمر يدل على أن عهد الصلح اقتصر على الرجال دون النساء، و«أكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان ﷺ عاهد عليه قريشا، من أنه يرد إليهم من جاء منهم

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٤.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٩١).

مسلما، فنُسخ من ذلك النساء، وهذا مذهب مَن يرى جواز نسخ السنة بالقرآن، وقال بعض العلماء: كله منسوخ في الرجال والنساء، ولا يجوز أن يهادن الإمام العدو على أن يرد إليهم مَن جاءه مسلما، لأن إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز، وهذا مذهب الكوفيين، وعقد الصلح على ذلك جائز عند مالك.

وقد احتج الكوفيون لما ذهبوا إليه بحديث خالد بن الوليد ﷺ أن رسول الله ﷺ بعثه إلى قوم من خثْعم فاعتصموا بالسجود فقتلهم، فوَداهم رسول الله ﷺ بنصف الدية، وقال: «أنا بريئ من كل مسلم أقام مع مشرك في دار الحرب لا تراءى نارهما»(١)، قالوا: فهذا ناسخ لرد المسلمين إلى المشركين، إذ كان رسول الله ﷺ قد برئ ممن أقام معهم في دار الحرب، ومذهب مالك والشافعي أن هذا الحكم غير منسوخ(٢).

* لا إثم ولا حرج على المؤمنين في الزواج من هؤلاء المؤمنات المهاجرات، إذا أعطوهن مهورهن، بشرط انقضاء عدتهن، وكون الزواج من الولي.

* يحرم على المؤمنين بعد نزول هذه الآية التمسك بعلاقة الزوجية بينهم وبين نسائهم المشركات من غير أهل الكتاب الباقيات في دار الكفر، فمن كانت له امرأة كافرة مشركة فليست له بامرأة، لانقطاع عصمتها باختلاف الدين.

* على المؤمنين أن يطلبوا مهور نسائهم اللاتي ارتددن وذهبن إلى الكفار، وليطالب الكفار كذلك بمهور نسائهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين، وعلى المؤمنين أن يؤدوا لهم ذلك.

* كل هذه الأحكام من استثناء النساء من الدخول في بنود صلح الحديبية، والأمر بإرجاع المهور من الجهتين هي حكم الله يحكم به بين خلقه، فاتبعوه ولا تخالفوا أمره، فالله سبحانه عليم بما يصلح عباده حكيم في أقواله وأفعاله، فلا يشرع إلا ما تقتضيه حكمته.

---

(١) جامع الترمذي، الترمذي ٤/ ١٥٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٦٣.

* وإن ذهبت أزواجكم - أيها المؤمنون - مرتدات إلى الكفار، ولم يعطوكم المهور التي دفعت لهن، فغزوتموهم وظفرتم بهم وأصبتم منهم غنيمة، فأعطوا لمن فرت زوجته مثل ما أنفق عليها من المهر، من الغنيمة التي بين أيديكم.
* ولا تصدنكم - أيها المؤمنون - معاملة المشركين لكم بالجور وعدم الإنصاف، عن أن تؤدوا لإخوانكم مهور نسائهم اللاتي فارقنهم إلى دار الكفر، ولم يرض المشركون بإعطائهم مهورهن.
* وخافوا الله الذي أنتم به مصدقون في تنفيذ حكمه، أما المشركون فلمّا لم يؤمنوا بها أمر الله انتفى منهم وازع الإنصاف، فلم يعطوا من فرت زوجته ما أنفق عليها من مهر، فينبغي عليكم أن لا تكونوا مثلهم.

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* وجوب امتحان النسوة اللاتي هاجرن من دار الكفر إلى دار الإسلام ليعلم صدق إيمانهن.
* إنْ عُلم صدق إيمان المهاجرات فلا يحل إرجاعهن إلى أزواجهن الكفار؛ لأن إسلام المرأة يقطع الصلة بينها وبين زوجها المشرك، فتحرم عليه، ويعطى ما أنفق عليها من المهر، ويجوز بعد ذلك نكاحها للمسلمين بمهر وولي وشاهدين، إن كانت مدخولاً بها بعد انقضاء عدتها، فإن أسلمت قبل الدخول بها فلها التزوج في الحال إذ لا عدة عليها.
* حرمة المسلمات على المشركين الوثنيين، وقد كان جائزا في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، كزواج أبي العاص بن الربيع بزينب ابنة النبي ﷺ[(١)].
* الشريعة الإسلامية تحكم بالظواهر، وتكل السرائر إلى الله عز وجل.
* حرمة نكاح المشركات من غير أهل الكتاب اللاتي لا يؤمن بالله، أو الإبقاء على عصمتهن.
* وللزوج الذي بقيت زوجته على الكفر أو ارتدت بعد إسلامها أن يطالب المشركين بها

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٥.

أنفق عليها من مهر.

* للزوج الكافر إن أسلمت زوجته وهاجرت إلى المسلمين أن يطالبهم بما أنفق عليها.
* مَن ذهبت زوجته من المسلمين لدار الشرك، ولم يرد عليه شيء مما أنفق عليها، ثم غزا المسلمون تلك البلاد، وفتحها الله عليهم يعطى ما أنفقه عليها من الغنيمة قبل قسمتها وإن لم تكن ثمة غنيمة فجماعة المسلمين وإمامهم يساعدونه ببعض ما أنفق عليها من باب التكافل والتعاون.
* الشريعة الإسلامية تكفل حقوق البشر دون تفريق بين مسلم وكافر.
* وجوب تقوى الله تعالى بتطبيق شرعه، وإنفاذ أحكامه والرضا بها، والتحذير من التشبه بالكفار في عدم الإنصاف.

المقطع الرابع

بيعة المؤمنات

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الممتحنة: ١١-١٣].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

بُدئ هذا المقطع من السورة بنداءٍ موجهٍ للنبي ﷺ، متضمنا الأمر له بمبايعة النساء المؤمنات على الطاعة، ثم شرعت الآيات في ذكر أركان البيعة، وعادت بالخطاب إلى المؤمنين

ناهية عن تولى الكفار من اليهود وغيرهم، فتناسب كل ما سبق ذكره مع خط السورة العام ومحورها الرئيس؛ الذي يجعل العقيدة ميزانا لكل علاقة وولاء؛ فالأركان التي ارتكزت عليها بيعة النساء في هذا المقطع هي قواعد العقيدة، وأسس الإسلام.

وكذلك فالموالاة من أوثق عرى الإيمان، فنهي المؤمنون أن يصرفوها إلى من يخالفهم في العقيدة، وبهذا يظهر التناسق البديع بين هذا المقطع الأخير من السورة وبين محور السورة.

ثانياً: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

خاطب الله سبحانه في الآية السابقة عباده المؤمنين بامتحان المهاجرات حتى يعلم إيمانهن، فلما استبان وعرف، عاد بالخطاب للنبي ﷺ بعد الحكم بإيمانهن فأمره بمبايعتهن فقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾.

والمقتضي لهذه البيعة بعد الامتحان أنهن دخلن في الإسلام بعد أن استقرت أحكام الدين في مدة لم يشهدن فيها ما شهده الرجال من اتساع التشريع، فكانت هذه الآية تكملة لامتحان النساء المتقدم في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وفيها بيان لآثاره، فكأنه يقول: فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار، وبينوا لهن شرائع الإسلام[(١)].

ثالثاً: سبب نزول هذا المقطع:

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه بهذه الآية:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾. فمَن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: « قد بايعتك» كلاما، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما بايعهن إلا بقوله: « قد بايعتك على ذلك»[(٢)].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٦.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٩١).

وعن أُميمة بنت رقية قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن، ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ حتى بلغ ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقال: فيما استطعتنَّ وأطقتنَّ، قلنا الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله: ألا تصافحنا ؟، قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة»(١).

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

هذا المقطع الأخير من السورة يشتمل على فقرتين:

الأولى: وتتضمن الأمر للنبي ﷺ بأخذ البيعة من النساء على الإسلام والطاعة، وذلك بعد أن جاءه - بعد الفراغ من فتح مكة - جمعٌ منهن لمبايعته.

والثانية: وتتضمن النهي عن موالاة الكافرين.

* يا أيها النبي إذا جاءك النساء المؤمنات بالله ورسوله يقصدن مبايعتك على الإسلام والطاعة، فبايعهن على:
* عدم الإشراك بالله سبحانه وتعالى شيئا كائنا من كان من صنم أو حجر.
* ألا يسرقن من مال الناس شيئا.
* ولا يرتكبن جريمة الزنى التي هي من أفحش الفواحش، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[الإسراء: ٣٢].
* ولا يقتلن أولادهن بأي وجه من الوجوه سواء بالوأد كما كان يفعل أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، أو بواسطة الإجهاض.
* ولا يلحقن أولاد الأجانب بأزواجهن كذبا وبهتانا، قال ﷺ: « أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله الجنة، وأيما رجل جحد ولده وهو

---

(١) المسند، أحمد بن حنبل ١٠/ ٢٨٧.

ينظر إليه احتجب الله منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين»(١).

* ولا يعصينك فيما تأمرهن به أو تنهاهن عنه كالنوح وتمزيق الثياب، وخَمْش الوجوه، وشق الجيوب، أو أن تخل إحداهن بغير ذي رحم محرم(٢).

* فإن وافقن على هذه الشروط فبايعهن على ذلك، وعلى سائر أحكام الإسلام، واطلب لهن من الله المغفرة والرحمة لما سلف من الذنوب، فإن الله واسع المغفرة لمن تاب رحيم بمن استقام وأناب.

* يا مَن صدقتم بالله ربا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا: لا تتخذوا اليهود والنصارى والمنافقين وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم، واستحقوا الطرد من رحمته أولياء وأنصارا.

* لقد يئس هؤلاء من ثواب الآخرة وأصبحوا لا يوقنون بها ولا يعتقدون ببعث ولا نشور بسبب كفرهم وعنادهم، فانقطع رجاؤهم ويئسوا من نعيم الآخرة كما يئس الكفار من بعث موتاهم(٣).

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* مشروعية أخذ البيعة لإمام المسلمين ووجوب الوفاء بها.

* حرمة الشرك بالله، والسرقة، والزنى، وقتل الأولاد، ووأد البنات، وإلحاق اللقطاء بغير آبائهم، وعصيان شرع الله فيما أمر ونهى.

* حرمة مصافحة النساء في البيعة.

* الطاعة لولي الأمر تكون في حدود الشرع.

* حرمة موالاة اليهود بالنصرة والمحبة لكفرهم بالآخرة، ويأسهم من ثوابها.

---

(١) سنن أبي داود، الحديث رقم (٢٢٦٣)، المستدرك، الحاكم النيسابوري ٢/ ٢٢٠، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥١.

(٣) ويجوز أن يكون المعنى: أو كيأس الكفار الذين هم في القبور من كل خير.

سورة الصَّف

الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة

أولاً: بين يدي السورة

أ. تسمية السورة:

أورد المفسرون لهذه السورة اسمين هما: الصَّف، الحواريين[1]، وزاد الألوسي اسما ثالثا لها هو سورة عيسى بن مريم عليه السلام[2].

فأما وجه تسميتها بـ «سورة الصف» فلوقوع لفظ﴿ صَفًّا ﴾ فيها، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾ ﴾[الصف:٤]، وهذا هو الاسم المشهور للسورة.

وأما وجه تسميتها بـ «سورة الحواريين» فلورود لفظ «الحواريين» فيها مرتين في آية واحدة، هي قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾[الصف:١٤].

---

(١) غوامض الأسماء المبهمة، السهيلي ١٩٥، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٥٨، روح المعاني ٢٧/ ١٢٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٥٣.

(٢) روح المعاني: ٢٧/ ١٢٣، قال ابن عاشور: ولم أقف على نسبته لقائل. وأصله للطبرسي فلعله أخذ من حديث رواه في فضلها عن أبي بن كعب بلفظ سورة: عيسى عليه السلام، وهو حديث موسوم بأنه موضوع، والطبرسي يكثر من تخريج الأحاديث الموضوعة، فإذا ثبتت تسميتها سورة عيسى عليه السلام، فلما فيها من ذكر عيسى عليه السلام مرتين، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم ﴾ [الصف:٦]، وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [الصف:١٤]. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٥٣.

ب. فضائل سورة الصف:

عن عبد الله بن سلام ﷺ قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجلَّ لعملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾[الصف:١- ٣]، قال عبد الله بن سلام ﷺ: فقرأها علينا رسول الله ﷺ[(١)].

ج. مكان نزول السورة:

اختُلف في المكان الذي نزلت فيه سورة الصَّف على قولين:

الأول: إنها نزلت بالمدينة، وقد رُوي ذلك عن عبد الله بن الزبير وابن عباس، وعن مجاهد وعكرمة والحسن البصري وقتادة[(٢)].

وقال الماوردي: مدنية في قول الجميع[(٣)].

ورجَّح هذا القول ابن عطية؛ لأن معاني السورة تعضده[(٤)].

وقال السيوطي: المختار أنها مدنية[(٥)].

ويؤيد كونها مدنية حديث عبد الله بن سلام ﷺ المتقدم في فضائل هذه السورة.

---

(١) جامع الترمذي ٥/ ٤١٢، سنن الدارمي ٢/ ٦٤٥، المستدرك، الحاكم النيسابوري ٢/ ٧٨، وقال: وروى هذا الحديث مسلسلا بقوله: « يقرؤها علينا»، وهو حديث صحيح على شرط الشيخين، وقال السيوطي: قال ابن حجر: هو أصح مسلسل يروى في الدنيا، قل أن يقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوه. (الدر المنثور ١٤/ ٤٤٢).

(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٥٨.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥٢٧.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٥/ ٣٠١.

(٥) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ٣٣.

والثاني: إنها نزلت بمكة، وهو قول ابن عباس أيضاً، وروي عن مجاهد وعطاء بن يسار[1].

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات سورة الصف أربع عشرة آية ليس فيها اختلاف[2].

هـ. محور السورة:

سورة الصَّف هي إحدى السور المدنية في قول جمهور أهل العلم، ومعلوم أن من أهم خصائص السور المدنية العناية بالأحكام التشريعية، وقد تناولت السورة إلى جانب ذلك عددا من الموضوعات:

أولاً: التحذير من مخالفة القول العمل، والتحريض على الجهاد في سبيل الله، والثبات على نصرة دينه.

ثانياً: موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام .

ثالثاً: سنة الله في إظهار دينه، ورد كيد أعدائه .

رابعاً: الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة في الدنيا والآخرة .

خامساً: دعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الله .

وكل هدف من الأهداف الآنفة الذكر يشغل حيزا مهما من السورة، ويشكل موضوعا تدور بعض أحداثها حوله، وسنبين علاقة كل هدف بمحور السورة عند المعنى الإجمالي لمقاطعها إلا أن أهم غرض من أغراض السورة هو الحديث عن القتال وفضيلته وشرف المقاتلين، وما ينتظرهم من الجزاء الدنيوي والأخروي، وتدل على هذا المحور عدد من الشواهد أهمها:

---

(١) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ٢٤٥، البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٥٨.

(٢) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ٢٤٥.

١ - آيات السورة الأربع عشرة تشير في مجملها إلى أن هذا الدين هو خاتمة الأديان، وأن الجهاد في سبيل إعلائه هو خير عمل وأربح تجارة.

٢ - سبب نزول السورة - وهو أوضح دليل - يكشف لنا عن محورها؛ فقول الصحابي عبد الله بن سلام ﷺ: «فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها»؛ يعني أنها نزلت دفعة واحدة بالمدينة في شأن الجهاد، وهذا دليل على أهميتها، وأن الجهاد يمثل أهم أغراض نزولها.

وكذلك ما روي من أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا! فلما فرض الله الجهاد كره بعضهم فأنزل الله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ ﴾[1].

٣ - ما جزم به كثير من المفسرين المتقدمين والمتأخرين من أن محور هذه السورة هو القتال[2].

كل ما تقدم كان دافعاً لنا لتسمية محور السورة بـ« **الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة**» ومن خلال هذا العنوان سنمضي في تفسيرها تفسيراً موضوعيا.

و. المناسبات في سورة الصف:

١ . المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لكل اسم سميت به السورة علاقة وطيدة بالمحور الذي تدور أحداثها حوله التي تحض على الجهاد في سبيل الله والاستبسال في الدفاع عن دينه ومنهجه.

فتسميتها بـ»سورة الصف» ترتبط بمحورها ارتباطاً وثيقاً، وهي أدل تسمية على محورها فهي تبين كيفية القتال المرضية والمشروعة عند لقاء العدو.

فالله عز وجل يرضى عن المقاتلين حين يقاتلون في سبيله صفاً واحداً، ككتلة متراصة لا

---

(١) الدر المنثور، السيوطي ١٤/ ٤٤٣.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٢٠/ ٤٤، تناسق الدرر، السيوطي ١٣٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٥٣، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣٦٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ١١٥.

تتزحزح من موقعها كأنها بنيان راسخ.

وأما تسميتها بـ «سورة الحواريين» فقد تكرر هذا اللفظ مرتين في الآية الأخيرة منها والغرض من ذلك هو الإشارة إلى طرف من منهج القرآن في تربية المؤمنين على الجهاد باستخدام المثل لاستنهاض هممهم، كونهم الأمناء على منهج الله في الأرض وورثة العقيدة، فكأنه يقول لهم: دوموا على نصرة الله ودينه واستجيبوا لأمره كما استجاب الحواريون من خُلَّص أصحاب عيسى عليه السلام حين قال لهم: مَن الذي ينصرني ويعينني في الدعوة إلى الله ؟ أو مَن منكم يتولى نصري وإعانتي فيما يقرب إلى الله ويعلي دينه ؟[1].

٢ . المناسبة بين افتتاحية سورة الصف وخاتمتها:

بُدِئَت هذه السورة بتنزيه الله سبحانه وتعالى، وبذكر صفاته من كونه مالك ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم، واختتمت ببيان ما يقتضيه هذا التنزيه من النصرة لدين الله تعالى.

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الصف وخاتمة سورة الممتحنة:

اختتمت سورة «الممتحنة» بالنهي عن مولاة أعداء الله، وافتُتِحت هذه السورة - الصف - ببيان ما يقتضيه التخلي عن تلك الموالاة وهو التنزيه لله عز وجل.

٤. المناسبة بين مضمونيْ سورتيْ الصَّف والممتَحَنة:

يمكننا تلمس المناسبة بين مضمونيْ سورتي «الممتحنة» و«الصف» من عدة وجوه

(١) وتكون مناسبة تسميتها بسورة «عيسى بن مريم» لمحور السورة - إذا ثبتت هذه التسمية - أنه سبحانه وتعالى لما ذم المخالفين من المؤمنين في شأن القتال، ذكرهم بقوم عيسى عليه السلام الذين كفروا به وردوا ما جاء به ونسبوه إلى السحر، ونبههم إلى أن لا يكونوا مثلهم. ثمّ إنه لما حث على الجهاد في الآيات قبل الأخيرة من السورة وبين الجزاء الأخروي والدنيوي عليه عاد بالذكر إلى المخلصين والأصفياء من قوم عيسى عليه السلام حاثا للمؤمنين على البذل والجهاد كما خرج الحواريون في أنحاء بابل والشام وفارس ناشرين لدين الله ومجاهدين في سبيله وهذا له ارتباط لا يخفى بمحور السورة.

أبرزها:

أولاً: في سورة الممتحنة ذُكر الجهاد في سبيل الله والترغيب فيه، قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[الممتحنة/ ١]، وبُسط في سورة الصف أبلغ بسط، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾[الصف/ ٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[الصف: ١٠- ١١]»[1].

ثانياً: ورد في سورة الممتحنة ذكر الفتح الأعظم، وما كان من أمر الصحابي الجليل حاطب ابن أبي بلتعة ﷺ، وجعلت هذه السورة منابذة الكفار دليل صحة الهجرة والإيمان ومناط التجرد لجهاد أعداء الله، وفيها كذلك إشارة إلى ما أثاب الله به المجاهدين في سبيله من الفتوح القريبة والتي كان منها فتح مكة.

ثالثاً: نهى الله تعالى في سورة الممتحنة المؤمنين بطريق النصح والوصية والإشفاق عن موالاة أعداء دينه، وفي هذه السورة جاء الأمر بصريح الإنكار على من يخالف قوله عمله من المؤمنين ليكون بعد ما تمهد في سورة الممتحنة أوقع في الزجر.

---

(١) تناسق الدرر، السيوطي ١٣٤.

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

مطابقة القول العمل في شأن الجهاد

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ ﴾[الصف: ١- ٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

محور هذه السورة - كما مر معنا - هو «**الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة**» وكل فقرات هذا المقطع تتناسب معه ابتداء من الافتتاحية وانتهاء بآخر آية فيه.

فالتقرير لحقيقة التنزيه المطلقة لله تعالى من كل ما في الوجود يدفع إلى صدق العمل مع الله، فيؤدي المسلم ما أنيط به في هذا الوجود بتناغم تام مع كل ما في الكون فلا يشذ عن نواميسه، باعتباره جزءاً من هذا الكون المسبح لله، وهذا يحمله على المضي في نصرة منهج الله في الأرض والاستبسال في الدفاع عنه فيتحمل أمانة الجهاد بتسليم ويقين بالجزاء.

والتحذير الشديد للمؤمنين الذين تشوقوا للجهاد ثم تركوه، وحثهم على مطابقة القول العمل، يحمل كل من ألزم نفسه شيئا على الوفاء به ومن ذلك أمر الجهاد.

والتعليم للمؤمنين كيف يكونون في حال القتال، يدفعهم إلى لقاء العدو دون رهبة لما ينتظرهم من رضا الله وحبه.

ثانياً: سبب نزول هذا المقطع:

عن عبد الله بن سلام ﷺ قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا، فقلنا: لو

نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ ﴾فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها»[1].

ثالثًا: المعنى الإجمالي للمقطع:

تتحدد ملامح هذا المقطع من السورة في ثلاث فقرات:

الأولى: كل ما في الوجود ينزه الخالق جل وعلا.

والثانية: التحذير الشديد للمؤمنين من إخلاف الوعد والالتزام بواجبات الدين.

والثالثة: ما يحبه الله من المؤمنين من التوحد والثبات في ساحة القتال نصرة لدينه.

* نزه الله عز وجل عما لا يليق به كل ما في السماوات وما في الأرض من ملك وإنسان ونبات وجماد عقلاء وغير عقلاء بلسان الحال والمقال كما قال تعالى:﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء: ٤٤].

* وتنزيهه الله تعالى يعني الشهادة له بالربوبية والوحدانية والقدرة، فهو القوي الغالب القاهر فوق عباده، وهو الحكيم في أفعاله وأقواله، وفي تدبير شئون خلقه وتصريف أمورهم.

* يا معشر من صدقتم بالله عز وجل ربا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا: لم تقولون بألسنتكم شيئا ولا تفعلونه ؟.

* لقد عظم جرما أن تقولوا قولا وتفعلوا غيره، أو تعِدوا بشيء ثم لا تفون بها وعدتم؛ لأن الوفاء بالوعد لله سبحانه على القتال في سبيله، أو لخلقه فيما وعدتموهم به دليل على كريم الشيم وجميل السجايا.

* إن الله يرضى عن المقاتلين ويجزل لهم الثواب حين يقاتلون في سبيله صافين أنفسهم صفا واحدا، وكتلة متراصة لا تتزحزح من موقعها، كأنهم بناء راسخ يشد بعضه بعضا، دون

(١) جامع الترمذي ٥/ ٤١٢، المستدرك، الحاكم النيسابوري ٢/ ٧٨، سنن الدارمي ٢/ ٦٤٥.

فُرَج فتزيد قوتهم المعنوية، ويتنافسون في القتال والكرِّ والفرِّ، مما يدخل الفزع والروع في نفوس الأعداء، ويعجل بالنصر.

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* اختصاص الله عز وجل وانفراده بالتسبيح والتمجيد من كل ما في السماوات والأرض دليل على ربوبيته ووحدانيته واتصافه بكل صفات الكمال .
* من أخلاق المؤمنين الراسخة موافقة القول العمل، فمن ألزم منهم نفسه عملا فيه طاعة لله وجب عليه الوفاء به .
* خلف الوعد مذموم شرعا، ومستوجب للإثم والمؤاخذة .
* ما شرعه الله من العبادات والشرائع والتي منها الجهاد إنما هو لفائدة عباده وصلاح حالهم في المعاش والمعاد؛ كالثبات عند لقاء العدو فإنه سبب لمحبة الله لعباده .
* الإسلام دين النظام والتلاحم في شتى جوانب الحياة .

المقطع الثاني

موقف الكفار من دعوة الأنبياء

قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الصف: ٥ - ٩].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

في هذا المقطع من السورة بيان لموقف المخالفين من دعوة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

ومناسبة الحديث عن هذه المواقف لمحور السورة هنا تتضح من خلال النظر في سياق الآيات التي يحتوي عليها هذا المقطع، فقد تضمنت الآيات:

- التذكير للمؤمنين بعد أن أمروا بالجهاد بأن لا يكون موقفهم تجاه الدعوة إلى التضحية كموقف أهل الكتاب من دعوتي موسى وعيسى عليهما السلام، فقد أبى قوم موسى ﷺ القتال معه، وأنكر بنو إسرائيل ما جاءهم به رسولهم عيسى ﷺ من البينات والبشارة بالنبي الخاتم محمد ﷺ وأعرضوا عن دعوته لهم إلى الإيمان.

- والوعد من الله بتمكين دينه وإظهاره على سائر الأديان يزرع في نفوس المؤمنين الصادقين الثقة بالله، وينمي روح البذل فيجعلهم يسترخصون كل غال من أجل إعلاء دين الله.

وما تقدم له تعلق ظاهر بموضوع السورة ومحورها الرئيس. والله تعالى أعلم.

ثانيا: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

بعد أن حث الله على الجهاد وأنَّب المتخلفين عنه في الآيات السابقة ذكَّر المؤمنين في هذا المقطع بقصة قوم موسى وعيسى عليهما السلام، وهذا التذكير مناسب لما تقدم من الآيات لما فيه من حث للمؤمنين على أن لا يكونوا مثل أولئك القوم، وألا يفعلوا فعلهم.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تسلسلت أحداث هذا المقطع في فقرتين:

الأولى: تتحدث عن موقف أهل الكتاب والمشركين من دعوة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

والثانية: تتضمن الوعد من الله بإعلاء دين الإسلام وإظهاره على سائر الأديان.

* أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى قومه لينقذهم من بطش فرعون وملائه، وليخرجهم من ذل العبودية، ودعاهم إلى قتال الجبارين، فقال تعالى:﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[المائدة: ٢١]، فرفضوا ما أمرهم به نبيهم، قال تعالى:﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[المائدة: ٢٢].

* فتطاول القوم على رسولهم، وألحقوا به الأذى، ونالوا منه، فقال: يا قوم لم تتعرضون لي بالأذى وتخالفون أمري في قتال أعدائكم ؟ وأنتم تعلمون يقينا أني رسول الله وأني صادق فيما جئتكم به من البينات والهدى.

* إن من شأن الرسل أن تعظم وتصدق وتسلم من الأذى، لكن القوم مردوا على الكفر وتكذيب الأنبياء، وعدلوا عن الحق الذي جاء به رسولهم مع علمهم بصدقه وأصروا على مخالفته، وانحرفوا عن سبيل الاستقامة.

* فجازاهم الله على كفرهم ومخالفة نبيهم، فأمال أفئدتهم عن الهدى، وصرفها عن الحق،

وأسكنها الشك والحيرة، فلم تنظر بعين بصيرتها ما تشاهده أمامها من أدلة ولم تبصر ما ترى من براهين كما قال تعالى:﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى:﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[النساء: ١١٥].

* إن الله عز وجل لا يوفق للهداية وإصابة الحق من تمرد عليه، واختار الكفر، ونبذ طاعته وطاعة رسوله.

لقد خففت هذه الآية آلام رسول الله ﷺ حين نالته قريش بالأذى، فقال مترحما على نبي الله موسى عليه السلام ومشيدا بموقفه: « رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(١).

فعلى أهل الإيمان ألا يكونوا كهؤلاء قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾[الأحزاب: ٦٩].

ومع ما آل إليه حال بني إسرائيل إلا أن عناية الله لم تتركهم دون إرسال منقذ جديد فجاءهم عيسى عليه السلام، وكان لهم معه موقف يقرب من موقفهم السابق مع موسى عليه السلام.

* قال لهم عيسى عليه السلام: يا قوم إني مرسل إليكم من الله، ومعجزتي الإنجيل، ولم آتكم بشيء يخالف التوراة، وإنما يصدقها ويعترف بأحكامها ويؤيدها ويكملها.

* وبشّرهم عيسى عليه السلام بمجيء رسول من بعده اسمه أحمد، وكانت كتبهم قد أشارت إلى قرب بعثته، لكنهم كانوا يرغبون أن يكون الرسول المنتظر من طينتهم ومن نفس جنسهم كي يخلصهم من براثن المتسلطين عليهم، كما قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

(١) المسند، أحمد بن حنبل ٢/ ١٨.

﴿إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف: ١٥٧]، وقال ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى.......»(١).

وما نبههم عيسى عليه السلام على تصديق ما جاءهم به للتوراة إلا ليقرب إجابتهم، ويوجد لنفسه مساحة ملائمة للبلاغ، إذ هو يعلم أن القوم شديدو التمسك بالتوراة.

* لكن هيهات فلم تعد قلوبهم صالحة للهدى، بعد أن ضلوا ضلالاً بعيداً، فانتهت قوامتهم على دين الله فلم يعودوا يصلحون لهذا التشريف والاصطفاء.

* والرسول المبشر به هو أحمد ﷺ النبي الأمي الذي يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد سواه وهو خاتم النبيين، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد(٢)

عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»(٣).

* فلما جاء أحمد ﷺ المبشر به بالأدلة والمعجزات القاطعة قال الكفرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين: هذا الذي جئت به سحر واضح لاشك فيه(٤).

* وأي الناس أشد ظلما ممن يدعوه ربُّه على لسان نبيه إلى الإسلام - الذي فيه سعادة

(١) رواه ابن إسحاق بسند جيد. السيرة النبوية، ابن هشام ٤/ ١٦٦، جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٤. قال ابن كثير عن إسناد هذا الحديث: وهذا إسناد جيد، وروي له شواهد من وجوه أخر.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ١٢٧.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٩٦).

(٤) ويحتمل أن يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على عيسى عليه عليه السلام، فيكون المعنى: فحين جاء عيسى عليه السلام قومه بالمعجزات نكصوا على أعقابهم وقالوا: ما جئت به هو السحر الظاهر.

الدارين.

* فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله لكلامه: هذا سحر.

لقد ظلموا الرسول بنسبته إلى ما ليس فيه إذ قالوا: إنه ساحر.

وظلموا ربهم إذ افتروا عليه الكذب، فقال عن المشركين: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾[آل عمران: ٨١].

وظلموا ما جاءهم به رسولهم من هدى وحجج فنسبوها إلى ما ليس منه فسموها سحرا.

وظلموا الناس بحملهم على التكذيب، وكتمان الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل مثبتة صدق رسول الله، فقال تعالى عن أهل الكتاب:﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾[الأنعام: ٩١].

ثم كمَّل الله لهم الظلم بقوله:﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[البقرة: ١٤٠].

* إنَّ الله سبحانه لا يرشد الظالمين المتجاوزين إلى ما فيه خير أنفسهم لأنهم دسوها باجتراح السيئات فختم الله على قلوبهم فلم تعرف الهداية إليها طريقا.

ثم صورت الآيات ما يُظهرونه من جد واجتهاد في إبطال دين الله فقال الله:﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وكأنه مشهد حقيقة، والصورة التي يظهرون عليها صورة بائسة تحمل على السخرية منهم، حين يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم الضعفاء.

* إنَّ مثل هؤلاء في مقاومتهم لهذا الدين وجدهم في إخماد وهجه مثل من ينفخ في الشمس بفيه ليطفئ نورها ويحجب ضياءها، وأنَّى له ذلك ؟

* فكما أن ذلك مستحيل فإبطال دعوة الإسلام مستحيل !! ولهذا قال الله:﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ

ﭐللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾.

* إنَّ دين الله نور، ولا يمكن أن يحجبه طغيان المتجبرين، أو تذهب بحقيقته الراسخة في الأفئدة أفواه الحاقدين، فسيعليه على غيره من الأديان، ولو كره الكافرون.

* وإن كل محاولات المشركين لدفع دين الإسلام مستحيلة؛ لأن قدر الله المحتوم اقتضى إظهار هذا الدين؛ لأنه الهدى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الصف: ٩].

* فالله هو الذي أرسل محمدا ﷺ بالهدى الكامل ودين الحق الواضح المتمثل بالقرآن والسنة النبوية ليعليه على جميع الأديان المخالفة ولو كره المشركون[١].

رابعاً: الهدايات المستنبطة من هذا المقطع:

* مخالفة أوامر الأنبياء والمرسلين موجبة للعقاب.

* إرادة الله الخير لعباده، فهو سبحانه لا يضل أحدا بغير موجب، فلا يضل المهتدين، وإنما يضل الظالمين والفاسقين، ولما مال بنو إسرائيل عن الحق أمال الله قلوبهم عن الهدى وعن الطاعة والإيمان والثواب.

* رسالات الله يكمل بعضها بعضا، ويصدق بعضها بعضا، فقد أنزل الله الإنجيل على عيسى عليه السلام متمما للتوراة التي أنزلها سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام، وقد بشر عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ فمصدر تلك الرسالات واحد.

---

(١) من لطائف التعبير هنا أنه قال أولا: ﴿ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ وهم اليهود والنصارى والمشركون، ثم قال: ﴿ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ لأنه ذكر أولا النور وإطفاءه، فكان اللائق به الكفر: وهو الستر والتغطية، ثم ذكر الرسول والإرسال ودين الحق، وكان الاعتراض عليه من المشركين، ولأن أكثر الحاسدين للرسول ﷺ من قريش، وهم المشركون. ولما كان النور أعم من الدين والرسول ﷺ، ناسبه ذكر الكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام، ولفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، والرسول والدين أخص من النور، فناسبه ذكر المشركين الذين هم أخص من الكافرين. التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٠/ ٥٣٠ بتصرف.

* طبيعة الكفر واحدة وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة، فقد جاء موسى ﷺ قومه بالبينات فآذوه، وجاء عيسى ومحمد عليهما السلام بالمعجزات الدالة على نبوتهما فنسبها الكفار إلى السحر، فكانوا بذلك أظلم الناس على الإطلاق.
* البشارات بمحمد ﷺ في الكتب المتقدمة دليل على نبوته.
* كل محاولات الكفار لإبطال دين الله ومقاومة دعوة الإسلام، والتكذيب بها خائبة خاسرة.
* الله سبحانه وتعالى متم نوره بقدرته وتدبيره، وهو مظهر دينه ولو كره الكافرون.
* أرسل الله محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليعليه على جميع الأديان.

المقطع الثاني

التجارة الرابحة

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[الصف: ١٠-١٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة:

لهذا المقطع من السورة علاقة وطيدة بمحورها «**الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة**»، فهو يهتف بالمؤمنين إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة؛ تجارة الإيمان بالله والجهاد في سبيله.

فبعد أن ضربت السورة للمؤمنين الأمثال، وانتقلت بهم من مجال إلى مجال، أعيد خطابهم هنا بمثل ما خوطبوا به في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ فقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ ﴾، أي هل أدلكم على أحب الأعمال إلى الله لتعملوا به ؟ كما طلبتم إذ قلتم: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به.

فخلصت الآيات هنا إلى الغرض الذي افتتحت به السورة، وهو التحريض على الجهاد في سبيل الله، والثبات فيه وصدق الإيمان، وهذا هو الموضوع الذي تدور آيات المقطع حوله، وهو عين محور السورة. والله تعالى أعلم.

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله:

تظهر المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله من وجهين:

الأول: لمَّا كانت السورة قد افتتحت بخطاب الله للمؤمنين متضمنة الإنكار عليهم على مخالفة القول العمل بقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الصف: ٢- ٣]، وانتقلت بهم إلى موقف أعداء الله من دينه، عادت بالخطاب إليهم هنا بمثل ما خوطبوا به في مطلعها:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ ﴾، أي هل أدلكم على أحب الأعمال إلى الله لتعملوا به. فأرشدتهم هذه الآيات إلى ما يجب فعله ليتقربوا إلى الله بأحب الأعمال إليه.

والثاني: أنَّه لمَّا بين الله تعالى في الآيات السابقة أن المشركين يريدون إطفاء نور دينه، دعا المؤمنين هنا إلى مجاهدة أعداء هذا الدين، وحثهم على التضحية بالمال والأنفس جهادا في سبيل الله، وبين لهم أنها التجارة الرابحة لمن أراد سعادة الدارين.

كما أشارت الآيات إلى أن إظهار دين الله وإعلائه على سائر الأديان، يتحقق حين يكون المؤمنون أنصاراً لله تعالى.

ثالثاً: سبب نزول هذا المقطع:

أولاً: سبب نزول قوله سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ﴾.

عن أبي صالح قال: قال المسلمون: لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله وأفضل. فنزلت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ﴾ الآية، فكرهوا الجهاد، فنزلت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[1].

ثانياً: سبب نزول قوله سبحانه:﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

عن سعيد بن جبير رحمه الله قال: لمَّا نزلت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ قال المسلمون: لو علمنا ما هذه التجارة، لأعطينا فيها الأموال والأهلين ؟ فنزلت:﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[2].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يدور هذا المقطع حول فقرتين:

الأولى: تتحدث عن فضيلة الجهاد.

والثانية: فيها الدعوة لنصرة دين الله.

وأول ما يستوقفنا في هذا المقطع ذلك الحشد الكبير من أساليب التعبير المشوقة:

فمن نداء:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

إلى استفهام﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ﴾.

ثم تقديم وتأخير ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. حيث قدَّم الربح قبل ذكر نوع التجارة ليكون ذلك أكثر تشويقا وجذبا. وما ذلك إلا لأن القضية خطيرة.

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٥.

(٢) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي ٢١٣.

* ينادي الله سبحانه وتعالى عباده المصدقين به ربا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا: هل أدلكم على عمل تربحون فيه أعظم مما تربحون في التجارة ؟.

* إنه ربح لا يعدله ربح آخر؛ إنه النجاة من عذاب النار الشديد الإيلام، ودخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[التوبة: ١١١].

* هذه التجارة - المدلول عليها من قبل الله - تجمع بين الإيمان بالله ورسوله، والجهاد بالمال والنفس من أجل إعلاء كلمته، ونشر دينه.

* هذا الجهاد خير لكم -أيها المؤمنون - من النفس والمال ومن كل تجارة، إن كنتم من أهل العلم والإدراك بوجوه المنافع، وفهم المقاصد؛ فإن الأمور إنما تتفاضل بغاياتها ونتائجها.

* فإن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه نلتم الفوائد الأخروية والدنيوية. ففي الآخرة:

* يستر الله عليكم خطاياكم ويمحوها بفضله، وهذه الفائدة وحدها تكفي « فمن ذا الذي يضمن أن يغفر ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء ؟ أو يدخر في سبيلها شيئا ؟ ولكن فضل الله ليس له حدود»[1].

* يدخلكم حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة.

* ويسكنكم مساكن تطيب لدى النفوس، مع درجات عالية في جنات الإقامة الدائمة التي لا تنتهي بموت ولا خروج منها.

* وهذا الجزاء هو الفوز الذي لا يعدله فوز، إنه الفوز العظيم؛ لأنكم آثرتم الجهاد ومفارقة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٥٩.

مساكنكم في الدنيا فنلتم مساكن أبدية، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[التوبة: ٢٤].

* وإنَّ لكم جزاءاً في الدنيا إضافة إلى جزاء الآخرة؛ وهو النصر على الأعداء، وفتحكم البلاد، وتمكينكم منها، فتدين لكم مشارق الأرض ومغاربها.

* فهو تعالى لما وعدهم الجنة على طاعته وطاعة رسوله والجهاد في سبيله علم أن منهم مَن تتوق نفسه إلى عاجل النصر لقاء رغبة في الدنيا فوعدهم بها تقوى به الرغبة فقال عز وجل:﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[الصف: ١٣]. أي وأزيدكم زيادة أخرى تحبونها وهي النصر والفتح القريب.

* وبشِّر ـ يا محمد ـ المؤمنين بالنصر في الدنيا وبالجنة في الآخرة، قال عزَّ وجل:﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٤٠]، وقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾[محمد: ٧].

* يا من آمنتم بالله ربا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً: كونوا أنصار دين الله، واستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون من أصفياء عيسى عليه السلام وخلصائه، حين قال لهم: من ينصرني ويعينني في الدعوة إلى الله، أو من يتولى نصرتي فيما يقرب إليه ؟.

* فأجابوه قائلين: نحن أنصار الله وأنصار دينه، فثبتوا معه ولم تزعزعهم الفتن، ولم يوهن عزمهم التعذيب، وتفرقوا في البلاد دعاة إلى الله.

فكونوا مثلهم – يا أهل الإيمان – مناصرين لله؛ فإن أرفع مقامات العبد حين يكون داعياً إلى الله ونصيراً لدينه.

* فاهتدت طائفة من بني إسرائيل، وآمنت بعيسى عليه السلام على حقيقته أنه عبد الله ورسوله،

وضلت طائفة أخرى؛ إما جحودا لنبوته، وإما مغالاة برفعه فوق ما أعطاه الله من النبوة.

* فأمد الله المؤمنين بنصر من عنده على من عاداهم، وقوى المحقين بالحجة والبرهان على المبطلين فأصبحوا عالين غالبين، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر: ٥١].

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس أعظم تجارة.
* الجهاد أنواع: جهاد بالمال وجهاد بالنفس، وقد يقدم أحدهما على الآخر بحسب الظروف والأحوال.
* من ثمرات الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله في الآخرة مغفرة الذنوب ودخول الجنات.
* للإيمان والجهاد ثمرة دنيوية هي النصر على الأعداء، وتمكين المؤمنين في الأرض وفتح البلدان أمامهم.
* تحقق بشرى المؤمنين التي أمر الله رسوله محمدا ﷺ أن يبشرهم بها دليل على صحة الإسلام وسلامة دعوته.
* نصرة المؤمنين لدين الله وللرسول هي نصرة لله، وعاقبتها الظهور على الأعداء.

سورة الجُمُعَة

أحكام صلاة الجُمُعة

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

لم يعرف لهذه السورة اسم سوى «الجُمُعَة»[١]، وسميت بذلك لاشتمالها على الأمر بإجابة النداء لصلاة الجمعة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ٩].

«ويحتمل أن يكون لفظ الجمعة الذي في اسم هذه السورة معنيا به صلاة الجمعة؛ لأن في هذه السورة أحكاما لصلاة الجمعة، ويحتمل أن يراد به يوم الجمعة لوقوع لفظ يوم الجمعة في السورة، في آية صلاة الجمعة»[٢].

ب. فضائل سورة الجمعة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين[٣].

وروى الإمام مسلم أن الضحاك بن قيس كتب إلى النعمان بن بشير ﷺ يسأله: أي شيء

---

(١) وفيها لغة أخرى «الجُمْعة» بالتخفيف، وسميت بذلك لاجتماع المسلمين فيها للصلاة، وقد كان يوم الجمعة يسمى في الجاهلية يوم العروبة، ومعناه الرحمة، وأول من سماه «جمعة» كعب بن لؤي، وأول من صلى بالمسلمين الجمعة أسعد بن زرارة، صلى بهم ركعتين وذكرهم، فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه، فهي أول جمعة في الإسلام. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٩٧، ٩٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٨٣.

(٣) صحيح مسلم، الحديث رقم (٨٧٩).

قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة سوى سورة الجمعة ؟. فقال: كان ﷺ يقرأ: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ [الإنسان :١][١].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»[٢].

ج. مكان نزول السورة:

سورة الجمعة مدنية في قول ابن عباس وابن الزبير والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة، وهو قول الجمهور، وقال ابن يسار: هي مكية، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد أيضاً[٣] والقول الأول هو الصحيح لما يلي:

أولا: عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ حين أنزلت سورة الجمعة[٤] وإسلام أبي هريرة ﷺ كان بعد الهجرة بمدة بالاتفاق.

ثانيا: ولأن أمر انفضاض الناس عن الخطبة والنبي ﷺ يخطب لم يكن إلا في المدينة بدليل سبب نزول الآية الأخيرة من سورة الجمعة[٥].

وفرض صلاة الجمعة كان متقدما على وقت نزول هذه السورة؛ فإن النبي ﷺ فرضها في خطبة خطب بها الناس، وصلاها في أول يوم جمعة بعد الهجرة في دار لبني سالم بن عوف، وثبت أن أهل المدينة صلوها قبل قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة[٦].

---

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٨٧٨).
(٢) صحيح مسلم، الحديث رقم (٨٥٤)، جامع الترمذي ٢/ ٣٥٩.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٥/ ٣٠٦، البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٦٣.
(٤) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٩٧).
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي ٥/ ٣٠٦.
(٦) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٤٩٤.

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات سورة الجمعة إحدى عشرة آية، ليس فيها اختلاف[1].

هـ. محور السورة:

سورة الجمعة هي إحدى السور المدنية التي تعنى ببيان الأحكام التشريعية، وقد تناولت السورة عدداً من المواضيع وأهمها:

أولاً: الافتتاح بتنزيه الله تعالى.

ثانياً: بيان مقاصد البعثة النبوية.

ثالثاً: ذكر حال اليهود مع التوراة.

رابعاً: الرد على دعوى اليهود إنهم أولياء الله وأحباؤه.

خامساً: بيان **أحكام صلاة الجمعة**، تلك الشعيرة الإسلامية التي فرضها الله على عباده في يوم الجمعة، ودعاهم إلى الاستعداد لها بالاغتسال لها، والخروج إليها، والمداومة على حضورها، والتخلي عن الأشغال التي تصد عنها.

وهذا الموضوع الأخير هو محور السورة الذي تدور مجمل أحداث السورة حوله، وهو أهم أغراضها، وتدل عليه عدد من الشواهد منها:

١ - اسم السورة: وهو يدل دلالة واضحة على محورها، وسيأتي الحديث عن ذلك عند ذكر مناسبة اسم السورة لمحورها.

٢ - سبب نزول السورة: وهو يلقي أضواء كاشفة عن غاياتها، وما أنزلت لأجله، وقد مرَّ معنا عند ذكر مكان نزول السورة.

٣ - افتتاحية السورة بالإخبار عن تسبيح الله من أهل السماوات والأرض: وهو براعة

---

(١) البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو الداني ٢٤٦.

استهلال؛ لأن الغرض الأول من السورة هو التحريض على شهود الجمعة والنهي عن الانشغال عن شهودها، وزجر فريق من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حرصا على الابتياع من عير وردت المدينة في وقت حضورهم لصلاة الجمعة.

٤ - ما أشار إليه كثير من المفسرين المتقدمين والمتأخرين من أن غرضها الأول هو بيان أحكام صلاة الجمعة[١].

٥ - المواضيع التي تحدثت عنها السورة تتسلسل أفكارها جميعا متناسبة مع الغرض الذي سيقت له السورة وتسعى لإبرازه. وسنذكر صلتها بمحور السورة عند التفسير الإجمالي للمقاطع. إن شاء الله تعالى.

ومن خلال ما تقدم رأينا أن يوسم محور هذه السورة بـ «**أحكام صلاة الجمعة**».

و. المناسبات في سورة الجمعة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

اسم هذه السورة يتناسب تناسبا بديعا مع المحور الذي تدور عليه أفكارها: «**أحكام صلاة الجمعة**»، وهو مبين للمراد منه؛ من فرضية الاجتماع فيها، وإيجاب الإقبال عليها والتجرد عن غيرها، والانقطاع لها لِمَا وقع من التفرق حال خطبة الجمعة.

فتسميتها «الجمعة» أنسب شيء فيها لمقصدها؛ لحضه على تدبر آيات الله الحاثة على قوة التواصل والاجتماع، والحاملة على دوام الإقبال على المزكي عز وجل وشكره وتعظيمه والاتباع لمنهجه.

---

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢٠/ ٤٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٨٤، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣٧٧، التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ١٨٠.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

تظهر المناسبة بين افتتاحية سورة الجمعة وخاتمتها من وجهين:

الأول: افتتحت السورة بتنزيه الله عز وجل من كل ما في الوجود ووصفته بصفات الكمال وختمت كذلك بذكر صفاته من كونه خير الرازقين.

الثاني: افتتحت السورة بذكر مِنَّة الله تعالى على أمة محمد ﷺ وأنه بُعِث ﷺ إليها، وتشريفها بحمل أمانة رسالة الإسلام.

وختمت السورة بدرس تربوي لأمته ﷺ هو الدعوة لحضور صلاة الجمعة، لتتخلص الأمة من الجواذب المعوقة عن أداء تلك الأمانة، والتي منها الحرص على الرغبة العاجلة في الربح والانصراف إلى اللهو.

٣. المناسبة بين فاتحة سورة الجمعة وخاتمة سورة الصف:

تتناسب فاتحة سورة «الجمعة» وخاتمة سورة «الصف» من ثلاثة وجوه:

الأول: لما ختمت سورة الصف بذكر حال طائفتين من بني إسرائيل؛ الأولى أقبلت على نصرة الله تعالى، والثانية كفرت وغالت في النبوة، افتتحت سورة الجمعة بتنزيه لله سبحانه وتعالى؛ لأن من تمام النصرة لله ولدينه البعد عن حال الكافرين، والإقبال على تنزيهه عز وجل والمداومة على ذلك.

والثاني: لما ختمت سورة الصف بالثناء على الحواريين في حسن استجابتهم وجميل إيمانهم، وبأمر المؤمنين بالاقتداء بهم، ولما كان ذلك ربما يوهم فضل أتباع عيسى عليه السلام على أتباع محمد ﷺ، أتبع في سورة الجمعة بذكر هذه الأمة والثناء عليها.

والثالث: لما ذكر الله تأييد من آمن به على عدوهم أتبعه بذكر التنزيه لله تعالى وسعة ملكه وتقديسه، وذكر ما أنعم به على أمة محمد ﷺ من بعثته ﷺ إليهم، وتلاوته عليهم كتابه فصارت أمته غالبة على سائر الأمم، وقاهرة لها منتشرة الدعوة كما انتشرت دعوة الحواريين في

زمانهم[1].

٤. المناسبة بين مضمونيْ سورتي الجمعة والصف:

بين مضموني سورتي الصف والجمعة صلة وثيقة، ويمكن عرض جوانب تلك الصلة فيما يلي:

أولا: اشتراكهما في الاستهلال بالتسبيح.

ثانيا: ذكر الله تعالى في سورة الصف حال موسى عليه السلام مع قومه، وإيذاءهم له، مؤنبا لهم، وذكر في سورة الجمعة حال الرسول ﷺ وفضل أمته، تشريفا لهم ليظهر الفرق بين الأمتين.

ثالثا: بشَّر نبي الله عيسى عليه السلام في سورة الصف برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، وذكر في سورة الجمعة بعثة هذا الرسول الذي بشر به عيسى عليه السلام.

رابعا: ختمت سورة الصف بالأمر بالجهاد وسماه الله تجارة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصف: ١٠].

واختتمت سورة الجمعة بالأمر بصلاة الجمعة، وأخبرت أن ما عند الله خير من التجارة الدنيوية، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١].

خامسا: في سورة الصف أمر الله المؤمنين بأن يكونوا صفا عند القتال فناسب تعقيب سورة القتال بسورة صلاة الجمعة التي تستلزم الصف؛ لأن الجماعة شرط فيها دون سائر الصلوات.

سادسا: تحدثت سورة الصف عن موقف بني إسرائيل من رسالات الأنبياء، وانحرافهم عن طريق الهدى، ووصفتهم بالفاسقين، وذكرت سورة الجمعة موقف هؤلاء من الكتب السماوية وعدم انتفاعهم بما كلفوا حمله، ووصفتهم بالظالمين.

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٨/ ٢٦٣.

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع هذه السورة:

المقطع الأول

مقاصد البعثة النبوية

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة: ١- ٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تلحظ المناسبة بين هذا المقطع من السورة وبين محورها من ثلاثة وجوه:

الأول: مجيء فعل التسبيح مضارعا ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ في افتتاحية السورة لمناسبةٍ في هذه السورة هي أن الغرض التنويه بصلاة الجمعة والتنديد بمن قطعوا صلاتهم وخرجوا التماسا للتجارة واللهو، فناسب أن يحكي الله تسبيح أهل السماوات والأرض بما فيه دلالة على استمرار تسبيحهم وتجدده تعريضا بالذين لم يتموا صلاة الجمعة.

ثانياً: للصفات التي جاءت في مطلع السورة مناسبة مع محورها من حيث الجمع بينهن في هذا الموطن، ومن حيث إن كل صفة من تلك الصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة التي اسمها الجمعة:

فـ«الملك» هو الذي يملك كل شيء وقد ذُكر بمناسبة التجارة التي يسارعون إليها ابتغاء الكسب.

و«القدوس» هو الذي يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتنزيه كل ما في السماوات

والأرض وذكر بمناسبة اللهو الذي ينصرفون إليه عن ذكره[١].

و«العزيز» الذي يعتز الملتفون حوله فمفارقتهم حضرته تفريط في العزة.

و«الحكيم» هو الذي إذا فارقه أحد فاته شيء من الحكمة، كما فات من فارق الخطبة كثير من العلم والثواب[٢].

ثالثاً: وما نوهت به السورة - من الامتنان على العرب الأميين ببعْث الرسول الخاتم محمد ﷺ إليهم، ليقرأ عليهم القرآن، ويجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان، ويعلمهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ - يوحي بأنهم الأمة المختارة لحمل رسالة الإسلام، فلابد من الإعداد النفسي والتربوي للجماعة كي تنهض بذلك، فشرعت صلاة الجمعة، وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية فهي لا تؤدى إلا جماعة، وفيها دروس تربوية جمة.

ثانياً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يتضمن هذا المقطع فقرتين:

الأولى: تتحدث عن تنزيه الله مِن كل ما في الكون.

والثانية: فيها الامتنان على العرب الأميين بإرسال محمد ﷺ إليهم.

* كل ما في الوجود ينزه الله سبحانه، ويقر بوجوده وقدرته ووحدانيته، فهو المتصرف في السماوات والأرض بأمره وحكمته، وهو المنزه عن النقائص، وهو القوي الغالب الذي لا يقهر ولا يغلبه غالب، وهو المدبر لشئون خلقه الحكيم في كل شيء.

* والله عز وجل هو الذي أرسل محمدا ﷺ في العرب الذين كان أغلبهم أمياً لا يحسن القراءة والكتابة، وهو أمي مثلهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٦٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٨٥.

بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال ﷺ: «إِنَّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»[(١)].

وكونه ﷺ أميا مثلهم فيه امتنان عليهم ليفهموا ما أرسل به ويعرفوا أخلاقه وصفاته ويقتنعوا بدعوته، وهذا مصداق دعوة إبراهيم ﷺ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ولقد كانت بعثته ﷺ عامة، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

كما كانت بعثته ﷺ على حين فترة من الرسل، وقد مقت الله أهل الأرض إلا بقايا من أهل الكتاب ممن تمسك بما بعث الله به ﷺ، وكان العرب قديما متمسكين بدين إبراهيم ﷺ فاستبدلوا به شركا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك كان أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها، فاشتدت الحاجة إلى رسول ينقذ العالم بشرع كامل شامل، فبعث الله محمداً ﷺ:

* ليتلو على أتباعه آيات القرآن التي فيها هدايتهم وإرشادهم لخير الدارين.
* وليطهرهم من أدناس الشرك وأخلاق الجاهلية، فيخبتوا إلى الله في أعمالهم وأقوالهم.
* وليعلمهم كتاب الله وشرائعه وأحكامه، فيعبدونه عن علم، ويقبلون على طاعته باطمئنان.
* وليخرج العرب الأميين من ضلال الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الشك إلى اليقين، كما وصف ذلك جعفر بن أبي طالب ﷺ لنجاشي الحبشة حين بعثت قريش إليه عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ليرد المهاجرين إليه من الصحابة إليها، قال جعفر بن أبي طالب ﷺ: «أيها الملك: كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي الضعيف..

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث (١٩١٣).

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان؛ وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام»[(١)].

* والتقدير الإلهي المحكم اقتضى أن تكون بعثة هذا الرسول شاملة العالم أجمع فكان هو المبعوث للعرب ولأجيال آخرين سواء من العرب أو من غيرهم كالفرس والروم، فقال الله تعالى:﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ ﴾، والآخرون: هم من جاء بعد الصحابة من المسلمين إلى يوم القيامة، فلم يلحقوا بهم في ذلك الوقت، وإنما سيلحقون بهم من بعد، عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة، فتلاها فلما بلغ:﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ ﴾ قالوا: مَن هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا، وفينا سلمان الفارسي، ثم قال ﷺ: لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»[(٢)].

قال ابن كثير: «ففي الحديث دلالة على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس؛ لأنه فسر قوله تعالى:﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ ﴾ بفارس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به»[(٣)].

وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ:﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ ﴾»[(٤)].

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري، رقم الحديث (٤٨٩٦)، جامع الترمذي، الترمذي ٥/ ٤١٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٨.

(٤) المعجم الكبير، الطبراني ٦/ ٢٠١، مجمع الزوائد، الهيثمي ٢/ ١٨٤، قال: وإسناده جيد.

* وهذا الشرف الذي امتاز به سيد البشر من كونه معلما ومزكيا ومنقذا ومبعوثا للناس كافة، وما شرف الله به أمته المستضعفة وأفاضه عليها من الخيرات التي لم تكن لها سابقة بها ومن لحاق أمم أخرى بها في هذا الخير هو فضل الله يعطيه من يشاء من خلقه فهو صاحب الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

١ - كل ما في الكون ينزه الله ويقر بوجوده ويوحده.

٢ - تقرير نبوة محمد ﷺ، وجعل مقاصد بعثته في ثلاثة أمور:

الأول: تلاوة آيات القرآن على المرسل إليهم.

والثاني: تطهيرهم من دنس الكفر ومفاسد الجاهلية.

والثالث: تعليم القرآن والسنة وما فيهما من شرائع وأحكام وحكم وأسرار.

٣ - وجه الامتنان بجعل النبي المبعوث أمياً يتضمن ثلاثة مقاصد:

أولا: موافقته ما تقدمت بشارة الأنبياء به.

ثانيا: مشاكلة حاله لأحوال أمته، فيكون أقرب إلى موافقتهم.

ثالثا: لينتفي عنه سوء الظن في تعلمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها[1].

٤ - عموم رسالة محمد ﷺ في زمنه وفي الأزمان اللاحقة إلى يوم القيامة.

٥ - بيان فضل الصحابة، وشرف الإيمان والمتابعة للرسول ﷺ، وصحابته رضي الله عنهم.

(١) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥.

المقطع الثاني

حال اليهود مع التوراة والرد على مزاعمهم

قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة: ٥ - ٨].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

لهذا المقطع علاقة لطيفة بمحور السورة - **أحكام صلاة الجمعة** - تظهر عند إمعان النظر فيما تطرقت إليه الآيات من بيان حال اليهود مع التوراة، ودعوتهم إلى المباهلة حين زعموا أنهم أولياء الله وأحباؤه، وكان من ضمن ما كانوا يزعمون لأنفسهم من فضيلة، ويفتخرون به على الأميين دعواهم أن الله جعل لهم السبت أفضل أيام الأسبوع، وأنه ليس للأميين مثله فلما جعل الله الجمعة للمؤمنين اغتاظ اليهود، فكشفت هذه الآيات عن فساد مزاعمهم وتهاوي دعاواهم وزوال أفضليتهم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فاختلفوا، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له - قال: يوم الجمعة - فاليوم لنا، وغدا لليهود، وبعد غد للنصارى»[1].

ثانياً: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

يظهر تناسب هذا المقطع مع المقطع السابق من وجهين:

الأول: لما أثبت الله سبحانه وتعالى التوحيد والنبوة في الآيات السابقة، وأخبر أنه بعث

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٨٧٦).

الرسول العربي الأمي إلى الأميين العرب، قال اليهود: إنَّه ﷺ بعث إلى العرب خاصة، ولم يبعث لنا رد الله عليهم بأنهم لم يعملوا بالتوراة، وأنهم لو عملوا بمقتضاها، وما تضمنته من البشارة بهذا الرسول لانتفعوا بها وآمنوا[1].

ورد عليهم قولا آخر حين قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨]، بأن قولهم لو كان حقا لتمنوا الموت لينقلهم مولاهم إلى دار كرامته ومستقر رحمته، فلما لم يتمنوه عُلم أن ادعاءهم باطل.

والثاني: ذكره الألوسي قائلا: «ووجه ارتباط الآية بما قبلها تضمنها الإشارة إلى أن ذلك الرسول المبعوث قد بعثه الله بما نعته في التوراة وعلى ألسنة أنبياء بني إسرائيل، كأنه قيل: هو الذي بعث المبشر به في التوراة المنعوت فيها بالنبي الأمي المبعوث إلى أمة أميين، مَثَلُ من جاءه نعته فيها وعَلِمه ثم لم يؤمن به مثل الحمار»[2].

ثالثاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع حول ثلاثة أمور:

الأول: يكشف عن موقف اليهود من التوراة.

والثاني: فيه رد على دعوى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه.

والثالث: يكشف عن حقيقة الموت الثابتة.

* كما تفضل الله سبحانه وتعالى على العرب الأميين فبعث إليهم النبي الأمي محمدا ﷺ فقرأ عليهم القرآن، وعلمهم الكتاب والحكمة كان سبحانه قد آتى فضله أهل الكتاب من اليهود فأعطاهم التوراة فيها هدى ونور فلم ينتفعوا بهدايتها، ولم يعملوا بها، وهجروها وأولوها وحرفوها، واقتنعوا من العلم بحملها فقط، فأضحوا كحال الحمار الذي يحمل

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٠/ ٥٣٩ بتصرف.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ١٤٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٩١.

على ظهره الكتب والأسفار الكبيرة، وهو لا يدري ما فيها ولا يقدر قيمتها، لأنه لا فهم له، فانطبق عليهم قول الشاعر:

زوامـل للأسفـار لا علم عندهم		بجيـدها إلا كعلم الأباعـــــر
لعمـــرك ما يدري البعير إذا غدا		بأوساقه أو راح ما في الغرائر(١)

* بل إن هؤلاء أسوأ حالا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم ولم يستعملوها كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وتلك الصورة التي يبدونها عليها: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ صورة بائسة ذليلة حقيرة، تعبر عن حقيقة جهلهم وبلادتهم.

وما أقبح ما يمثل الله به للمكذبين بآياته ورسله؛ فمن كان حاله كهؤلاء فليحذر العقوبة؛ لأن الله لن يوفقه للحق، ولن يجعله أهلا لهدايته، لتوغله في الظلم والكفر والشر والفساد.

وشبيه بحال هؤلاء كل من أعرض عن الخطبة وهو يسمعها، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة»(٢).

ولما انتهت الآية من ذم اليهود الذين لم يعملوا بالتوراة بتمثيل حالهم بحال الحمار ذكرت هذه الآية زعما آخر، وذمتهم ودعتهم إلى المباهلة، فتناسب مع ما تقدم من ذكر حالهم؛ لأن من شأن من لم يعمل بالكتاب أن يحب الحياة(٣).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٩٥.
(٢) المسند، أحمد بن حنبل ١/ ٢٣٠، مجمع الزوائد، الهيثمي ٢/ ١٨٤، وقال: فيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه الناس، ووثقه النسائي في رواية.
(٣) سميت المباهلة تمنيا لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له =

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يخاطب الذين تهودوا:

* أيها اليهود إن كنتم تزعمون أنكم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس، وأنكم على هدى من ربكم وأن محمدا ﷺ وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين، إن كنتم صادقين فيما تزعمون، فإن من علم أنه من أصحاب الجنة أحب الخلوص من هذه الدار التي هي دار الأكدار، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]. وقال تعالى عن مباهلة النصارى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال عن مباهلة المشركين: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [مريم: ٧٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة، لأطأن عنقه، قال: فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعله لأخذته الملائكة، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا[1].

* إن زعم هؤلاء حين قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨] باطل إذ لو كانوا على حق لتمنوا الموت فلما لم يتمنوه - على الإطلاق بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد ﷺ - عُلم كذبهم، والله بالغ العلم، مطلع على أحوال الكافرين، فسيجازيهم بما عملوا.

= في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٣.

(١) صحيح البخاري، رقم الحديث (٤٩٥٦).

ثم خاطب الله نبيه ﷺ ليبين لهم حقيقة الموت الثابتة، ويكشف لهم عن عدم جدوى الفرار منه، لأنه حتم لا مهرب منه.

* قل لهم يا محمد: إن الموت الذي تهربون منه وتأبون المباهلة فيه حبا في الحياة هو آتيكم لا محالة، ولن ينفعكم الفرار منه قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].
* وبعد مماتكم ترجعون إلى الله الذي يعلم ما غاب في السماوات والأرض وما حضر، ويعلم ما يسر عباده وما يعلنون، فيخبركم بما عملتم في حياتكم الدنيا ويجازيكم على كل بما تستحقون.

هذه الحياة مآلها إلى زوال وكل نفس فيها ذائقة الموت، وكم ينساه الناس وهو يلاحقهم فكيف يبتعدون عن ربهم وهم عائدون إليه، ولا ملجأ منه إلا إليه ؟.

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* بيان أن من موجبات نقل النبوة عن بني إسرائيل كلية أنهم وصلوا إلى حد الإياس من انتفاعهم بأمانة التبليغ والعمل، فنقلها الله إلى قوم أحق بها وبالقيام بها.
* التنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه، ويعلم ما فيه ويعمل به، لئلا يلحقه من الذم ما لحق اليهود.
* سوء حال العالم الذي لم يعمل بعلمه.
* بيان كذب اليهود وفساد زعمهم في أنهم أولياء الله.
* الإيمان والتقوى هما الطريق إلى ولاية الله.
* شأن المؤمنين أن يكونوا بين الخوف والرجاء، ولا يتوهمون أن الفوز مضمون لهم كما توهم اليهود.

المقطع الثالث

حضور صلاة الجمعة وابتغاء الرزق بعدها

قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١ ﴾[الجمعة/ ٩ -١١].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع من السورة يمثل محورها وما قبله من الآيات توطئة له، فقد جعل الله يوم الجمعة للمسلمين عيد الأسبوع؛ وشرع لهم الاجتماع في المسجد وسماع الخطبة ليعلموا ما يهمهم في إقامة شؤون دينهم وإصلاحهم، ولكل أهل ملة يوم من الأسبوع معظم، فلليهود يوم السبت وللنصارى الأحد، وللمسلمين يوم الجمعة آخر أيام الأسبوع.

ولما جُعل يوم الجمعة يوم شكر وإظهار سرور وتعظيم نعمة احتيج فيه إلى الاجتماع الذي تقع به شهرته فجمعت الجماعات له، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيراً بالنعمة وحثاً على استدامتها بإقامة ما يعود بآلاء الشكر، ولما كان مدار التعظيم إنما هو على الصلاة جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع، ولم تجز هذه الصلاة إلا في المسجد ليكون أدعى إلى الاجتماع(١).

ثانياً: مناسبة هذا المقطع للذي قبله:

لهذا المقطع علاقة لطيفة بالمقطع السابق، تتجلى في صورتين:

الأولى: تحدثت الآيات السابقة عن فرار اليهود من الموت حبا في الدنيا وطيباتها، وخوفا مما قدمته أيديهم، وفي هذه الآيات بيان لما يجلب للمؤمنين سعادة الدنيا، وما يكون لهم ذخراً في

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٠/ ٥٤٣.

الآخرة، فدعتهم إلى حضور صلاة الجمعة، لأن الدنيا ومتاعها فانية والآخرة وما فيها باقية كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٧].

والثانية: أشار إليها الزمخشري بقوله: «قال بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث، افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه، فكذبهم بقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجمعة: ٦]، وبأنهم أهل كتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفارا، وبالسبت، وليس للمسلمين مثله فشرع الله تعالى لهم الجمعة»[١].

ثالثاً: سبب نزول هذا المقطع:

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير قد قدمت، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾[٢].

وقال المفسرون: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، فقدم دحية بن خليفة الكلبي في تجارة من الشام، وضرب لها الطبل يؤذن الناس بقدومه، ورسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، فخرج إليه الناس فلم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلا منهم أبو بكر وعمر، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لم يبق أحد منكم لسال بكم الوادي نارا»[٣].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يتضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: فيها إيجاب صلاة الجمعة.

---

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/١٢٤٨.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٩٣٦)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٨٦٣).

(٣) أسباب النزول، الواحدي ٣٣٧.

والثانية: فيها إباحة العمل بعد انقضاء الصلاة.

والثالثة: فيها النهي عن الانصراف عن الخطبة والإمام يخطب.

* يا من صدقتم بالله ربا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً: إذا سمعتم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة بين يدي الإمام وهو على المنبر فأجيبوا داعي الله.

* واتركوا البيع وسائر أعمالكم وامضوا إلى طاعة ربكم وذكره وعبادته لتصلُّوا مع إخوانكم المسلمين، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون - تسرعون- وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[1].

* إنَّ سعيكم للصلاة عند سماع النداء، وترك البيع خير لكم وأرجى عند ربكم؛ لما في امتثال أمره من الأجر والجزاء، إن كنتم من أهل الدراية والعلم بما ينفع.

* فإذا أتممتم صلاتكم وفرغتم من أدائها فانبثوا في مناكب الأرض لقضاء مصالحكم والسعي لتحصيل الرزق، واطلبوا الله من فضله، فإن الرزق بيده، فهو لا يخيب أمل سائل ولا يضيع عمل عامل، ولا يمنع أحداً من فضله وإحسانه.

* وراقبوا الله وظلوا على اتصال دائم به في صلاتكم وفي شغلكم لتفوزوا بالفلاح في دنياكم وأخراكم.

* إنَّ فريقا من الناس يؤثرون المتاع الدنيوي الفاني على أجر الآخرة الباقي، فحين سمعوا بعير تجارية قدمت إلى المدينة أو بشيء من لهو الدنيا وزينتها أسرعوا إلى ذلك، وتركوا رسول الله ﷺ قائما على المنبر يخطب.

* فهذا لا ينبغي أن يكون فلو عقل هؤلاء لعلموا أن خيراً كثيراً قد فاتهم، وعلماً غزيراً قد

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٩٠٨)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٦٠٢).

أضاعوه حين تركوك قائما تخطب وانفضوا إلى التجارة واللهو.

* إنَّ ما عند الله من الثواب على حضور الجمعة خير من فائدة التجارة ولذة اللهو، فهو سبحانه خير من رزق وأعطى، وهو الذي يقدر الأقوات، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء.
* لا ينبغي أن يهمل الإنسان عبادته من أجل متاع زائل فإن ما هو له سيأتيه، ولن يفيده الإسراع في طلبه، قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٦- ٩٧].

خامساً: الهدايات المستنبطة من الآيات:

* فضيلة يوم الجمعة على سائر الأيام.
* الجمعة فريضة على كل مسلم مكلف بالشروط المعروفة.
* وجوب السعي لمن سمع النداء للاستماع إلى الخطبة وأداء فريضة الجمعة.
* حرمة البيع والشراء وسائر ما يشغل عن الصلاة من شركة وإجارة وزواج ونحوها عند النداء لصلاة الجمعة.
* السعي إلى ذكر الله وترك الأعمال من أجله والمداومة عليه خير للمؤمنين وأنفع من كل المنافع الدنيوية.
* جواز الانشغال بالتجارة وأمور المعاش قبل الصلاة وبعدها.
* مشروعية القيام لخطبة الجمعة.
* الرزق بيد الله، وعلى الإنسان أن يأخذ بأسباب الكسب.
* لا ينبغي للمؤمن أن تشغله تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة.

سورة المنافقون

بين يدي السورة

تكشفُ لنا هذه السورةُ الكريمةُ عن عدوٍّ ماكرٍ، يتخللُ الصفَّ المسلمَ متظاهراً بالإسلام وقد أضمرَ الكفرَ بين جوانِحِهِ، وتغلغلَ الحقدُ في أحشائِهِ، لكن الجُبنَ يحولُ بينه وبين إفشائه ويدفعه إلى الخداع والتدليس، ويبرِّرُ له التمويه والتلبيس، كيدًا لدين الحقِّ، وخداعاً لأهله الأصفياءِ الأنقياءِ.

إن المنافقين في أيِّ مجتمع كالسرطان، يسري في الجسد، ينفثون سُمَّهم الزُّعاف في زمن المحن والبلاء، ويكشِّرون عن أنيابهم أوقاتَ الكرب والضيق، فهم في السراء عالةٌ، وفي الضراء سوسٌ ينخر في العظام، يدَّعون الإيمان، ويحسِّنون الأقوال، وربما ساعدهم في ذلك ذَلاقَةُ ألسنتهم، وحُسنُ هيئتهم، وبراعةُ تصنُّعِهِمْ.

يبررون الضعف، ويخرجون من كل موقف بعذرٍ، ولهم بين المؤمنين سماعون لهم، قد انخدعوا ببريق أقوالهم، ووَثِقُوا بغليظِ أَيمانهم، ولكم صوَّبوا من سهامٍ مسمومةٍ، ولكم وجَّهوا من ضرَبَاتٍ داميةٍ، وطَعَنَاتٍ غائرةٍ في ظَهْرِ الأمةِ ! ولكن:

قد يحصدُ الطغيانُ بعضَ ثِمَارِهِ ... لكنَّ عُقبَى الظالمين دَمَارُ

ففي يوم بدر: غمزوا المؤمنين بقولهم: " غرَّ هؤلاء دينُهم "، فخيَّب النصرُ المبينُ آمالَهم وكذَّب ظنونهم وبدَّد أحلامهم.

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

وفي غزوة أحد: رجع كبيرُهم عبدُ الله بنُ أبيِّ بن سلولٍ بثُلُثِ الجيش مُغْضَبًا؛ بحجةِ أن النبيَّ ﷺ لم يرجع إلى قوله، وأثار الفتنة، وقال هو وأَصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم

ولكنا لا نراكم تقاتلون اليوم !﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧].

ولما احتَشَدَ الأحزابُ حولَ المدينةِ واشتدَّ الخطبُ على المسلمين: مارسَ المنافقون دورَهم في تخذيلِ المؤمنين، واستغلوا الموقفَ في التشكيك وبلبلة الصفوف، وقال بعضهم: يعدُنا محمدٌ فتح فارس والروم، وأحدُنا لا يقدرُ أن يتبرّز؛ فَرَقًا ! أي لا يجرؤ على الخروج إلى الخلاء لقضاء الحاجة من شدة الخوف.

﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢ - ١٥].

ولما عاد النبيُّ ﷺ بالفتح المبين (صلح الحديبية) الذي كان فاتحةَ خير للدعوة الإسلامية قال زعيمُ النفاق عبد الله بن أبي بن سلول: " أيظنُّ محمدٌ أنه إذا صالح أهلَ مكة أو فتحَها لا يبقَى له عدوٌّ؟ فأين فارسُ والرومُ ! "، وكانوا قد أشاعوا حين خروج النبي ﷺ بأصحابه قاصداً البيت الحرام: أن محمداً خرَجَ ولن يعودَ !

﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفتح: ١٢].

وعندما عاد جيش المسلمين من غزوة بني المصطلق أشاعوا الفتنة بين الصفوف، وأوقعوا بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج وبين الحضر والبدو كما هو حالهم في كلِّ زمانٍ،

كما أذاعوا حديث الإفك الذي اختلقوه في المدينة؛ فاتهموا الصدِّيقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله عائشة رضي الله عنها، وأنزل الله براءتها آياتٍ تتلى في سورة النور.

إنهم لا يضمرون للمؤمنين إلا الشر، ولا يريدون بهم سوى الهزيمة، ولا يتمنَّون للدعوة غلبةً ولا ظهورا، فكان لابدَّ من كشفِ هذه النفوسِ وعرضِها عاريةً على المؤمنين؛ حتى لا يُخْدَعَ بهم مؤمنٌ، ففي كلِّ مرة وعند كلِّ واقعةٍ يلاحقهم القرآن الكريم ويقرعهم بالتوبيخ والزجر، فمنهم من تاب وأصلح ومنهم من هلك على نفاقه..

جاءت سورة المنافقين لتفصِحَ لنا عن خبايا المنافقين، وتنشر صفحةً أخرى من تاريخهم الذي يفضح ما انطوت عليه نفوسُهُم الخبيثةُ ومعادنُهُم الخسيسةُ، إلى أن تختمَ السورةُ الكريمةُ بتحذير المؤمنين من الاغترار بزينة الدنيا ومتاعها والتعلق بحطامها والانشغال بها عن طاعة الله وعبادته؛ شأن المنافقين الغارقين في خضم الأوهام.

أ. اسم السورة.

سميت هذه السورةُ الكريمةُ بسورة المنافقين، لحديثها عن النفاق والمنافقين، وكشفِها عن مستورِهم، وفضحِها لمؤامراتِهم، وتحصينِ المجتمعِ المسلمِ من شرورهم ومكائدهم.

ب. فضائل السورة.

ومما ورد في فضل هذه السورة الكريمة من سور المفصل، وقد ورد في فضائل هذا القسم وسائر أقسام سور القرآن: عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**) [(١)].

* وعَنْ ابْنِ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: " اسْتَخْلَفَ مَرْوَانُ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ وَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ فَصَلَّى لَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ الْجُمُعَةَ فَقَرَأَ بَعْدَ سُورَةِ الْجُمُعَةِ فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ قَالَ فَأَدْرَكْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ حِينَ انْصَرَفَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ قَرَأْتَ بِسُورَتَيْنِ كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَقْرَأُ

(١) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في التفسير الموضوعي لسورة الأنعام.

بِهِمَا بِالْكُوفَةِ ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهِمَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ "[(١)].

* وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن الحكم الكندي عن أناس من أهل المدينة أرى فيهم أبا جعفر قال:" كان ﷺ يَقْرَأُ في الْجُمُعَةِ بسورة الْجُمُعَةِ والمنافقونَ، فأما سورةُ الْجُمُعَةِ: فيبشِّرُ بها المؤمنينَ ويحرِّضُهُمْ، وأما سورةُ المنافقينَ: فيُؤيِّسُ بها المنافقينَ ويوبِّخُهُم بهَا "[(٢)].

ج. مدنية السورة.

هذه السورة مدنيةٌ نزلت بالمدينة، قال القرطبي: «سورة المنافقون مدنية في قول الجميع».[(٣)]

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها إحدى عشرة آية (١١) في عدِّ الجميع، بلا خلافٍ في شيء منها.[(٤)]

هـ. محور السورة.

المحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة: هو ذمُّ النفاق والمنافقين، وكشف مؤامراتهم وفضح دسائسهم، وتحذير المؤمنين من خصالهم الذميمة.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

مناسبةٌ ظاهرةٌ حيث تدورُ السورةُ كما هو واضحٌ من عنوانِها: حول ذمِّ المنافقينَ والتحذيرِ منهم.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة. باب ما يقرأ في صلاة الجمع حديث ٦١ - (٨٧٧)، ورواه أبو داود في السنن باب تفريع أبواب الجمعة. باب ما يقرأ به في الجمعة. الحديث رقم: ١١٢٤.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ١٤٢، والحديث رجاله ثقات وإسناده صحيح.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ١٢٠.

(٤) يراجع: مرشد الخلان إلى معرفة عدِّ آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٨١.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

في مطلع السورة الكريمةِ حديثٌ عن خصال المنافقين، وفي ختامها تحصينٌ للمؤمنين من دواعي النفاق ودوافِعِهِ، ومنها الاغترارُ بالدُّنيا وزخارفِها الباطلة، والغفلةُ عن ذكر الله وتسويفُ التوبةِ، والتواني عن عمل الخير.

المناسبة بين السورة وسابقتها

الصلةُ بين سورة المنافقين، وسورة الجمعة: صلةٌ واضحةٌ جليَّةٌ، ولعلَّ من الدلائل على ذلك قراءة النبي ﷺ بهما يوم الجمعة، يقرأ في الركعة الأولى بسورة الجمعة، وفي الثانية بسورة المنافقون، مما يدلُّ على ما بينهما من تلازم وترابط سوف يتضحُ لنا فيما يلي:

* بينت سورة الجمعة أن الموتَ حقيقةٌ لا شكَّ فيها وقدرٌ لا مفرَّ منه قال تعالى في سورة الجمعة ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة: ٨] وفي الآيةِ الكريمةِ تحدٍّ لليهود الذين يدَّعون أنهم شعبُ الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه وأولياؤه وأصفياؤه، واختبارٌ عمليٌّ لهم: أن يتمنَّوا لقاءه كما يتمنى المحبُّ لقاء الحبيب، إن كانوا صادقين في دعواهم محبة الله لهم وزعمهم أنهم أولياؤه من دون الناس، فليقدموا برهاناً عملياً على تلك المحبة المزعومة! ونظيرُ هذا قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦].

وفي سورة المنافقون: تذكيرٌ بالموت، وتنبيهٌ إلى ضرورةِ الاستعدادِ له، والمبادرة إلى العمل الصالح قبل انطواء الصفحات وانقضاء الآجال، ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ

أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون: ١٠ - ١١].

ففي ذكره ما يرقُّ القلوبَ القاسية ويرطِّبها، ويكبحُ النفوسَ الجامحةَ ويهذِّبُها.

* في سورة الجمعة حديث عن اليهود وهم أشدُّ الناس عداوةً للمؤمنين، ثم جاءت سورة المنافقين لتكشف عن عدوٍّ أشدَّ خطراً من اليهود، فضلا عما بين العدوَّين: اليهود والمنافقين على مرِّ العصور من تحالفاتٍ، وما تمكن اليهود في عصرنا هذا إلا بتآمر المنافقين، وكم تسربلَ يهودٌ بثياب النفاق فأضمروا الكفر وتظاهروا بالإسلام كيدا وتآمرا، وحسبُنا الله ونعم الوكيل !

* كما تكشف لنا السورتان عن كذب اليهود والمنافقين في مزاعمهم، فاليهود زعموا أنهم أولياء لله من دون الناس، والمنافقون ادعوا الإيمان فجاءت سورةُ الجُمُعَةِ مفنِّدَةً لمزاعمِ اليهودِ وتلتها سورةُ المنافقون تفنِّدُ أكاذيب المنافقين وتفضَحُ أراجيفَهم.

* حديث سورة الجمعة عن صلاة الجمعة، ودعوة سورة المنافقون إلى ذكر الله والإنفاق في سبيله، وبين الصلاة والذكر والإنفاق تلازمٌ واضحٌ وترابطٌ وثيق.

قال تعالى في سورة الجمعة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ٩ - ١٠].

وقال تعالى في سورة المنافقون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون: ٩ - ١٠].

* قال تعالى في سورة الجمعة ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ

خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة: ١١].

وقال تعالى في سورة المنافقون﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون: ٧].

* وبين الآيتين مناسبةٌ لطيفةٌ: فكم يحرصُ أعداءُ الإسلامِ على صرفِ جماهيرِ المسلمينَ عن دعوة الحقِّ وشغلهم عن ذكر الله وعن الصلاة إما بالصفقات والتسوّقِ والأرباح، وإما بالملاهي والألعاب، حتى كثُر في زماننا فنونُ الترويح ووسائل اللهو التي تصبُّ غالباً في جيوب وأرصدة أعداء الدين من اليهود والمنافقين والنصارى الحاقدين.

* وتبرزُ الآياتُ الكريمةُ مدى حرص أهل النفاق على فضِّ أتباع النبي ﷺ وصرفهم عنه بالتضييق عليهم، كما يحدثُ في هذه الأيامِ من صرف الناس عن الدعاة وتجفيف منابع الخير وإغلاق معاهد العلم الشرعي في بلادٍ إسلاميةٍ كثيرةٍ؛ بزعم محاربة الإرهاب وتجفيف منابعه، وهي والله حربٌ معلنةٌ على هذا الدين، فكم أغلقوا من مؤسسات خيرية وتعليمية، وكم أوصدوا من مدارس ومعاهد قرآنيةٍ ؟ وقطعوا الدَّعم عنها بحجة مقاومة الإرهاب ! قاتلهم الله أنى يؤفكون.

* فلا ينشغلُ أحدٌ عن طاعة الله بحجةِ الانشغال بطلب الرزق، قال تعالى في سورة الجمعة ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة: ١١] ولا يخشَ على رزقه من مخلوق؛ فالرزق بيده تعالى وخزائنه تعالى ملأى لا يغيضها نفقة، قال تعالى في سورة المنافقون﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو ذمُّ النفاقِ والمنافقين، وتحذيرُ المجتمعِ المسلمِ منهم، ولسوف يتجلَّى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلَّى في وجوهٍ عديدةٍ منها:

* حديث سورة الجمعة عن اليهود وحديث سورة المنافقون عن المنافقين، وقد سبق بيان ذلك.

ذكر الموت في السورتين: فالأولى تتحدى اليهود أن يتمنَّوه إن كانوا صادقين في دعواهم محبةَ الله لهم وزعمِهم أنهم أولياؤُه من دون الناس، والثانيةُ تذكِّر بالموت وتحثُّ على الاستعدادِ له والمبادرةِ إلى العملِ الصالحِ قبلَ انطواءِ الصفحاتِ وانقضاءِ الآجالِ.

قال تعالى في سورة الجمعة ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى في سورة المنافقون ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون: ١٠].

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورةُ حول النفاق والمنافقين بدأت بمشهدِ مجيئِهم بالكذبِ والخداعِ متذرِّعين بالأيمانِ الكاذبة.

النفاق والمنافقون

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ
وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ
ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ
وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ١ – ٨]

سبب النـزول:

أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ وَلَئِنْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعُمَرَ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ فَقَالَ لِي عَمِّي مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَقَتَكَ ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ [1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب قوله تعالى، الحديث رقم: ٤٦١٧، ورواه مسلم في صحيحه أول كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، الحديث رقم: ٢٧٧٢.

ورواه الترمذي في السنن: ونصُّه عن زَيْد بْنُ أَرْقَم ﷺ قَالَ: " غَزَوْنَا مَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ وَكَانَ مَعَنَا أُنَاسٌ مِنْ الْأَعْرَاب، فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبقُونَا إِلَيْه،... فَيَسْبقُ الْأَعْرَابِيُّ فَيَمْلَأُ الْحَوْضَ وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً وَيَجْعَلُ النِّطْعَ عَلَيْه حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ، قَالَ فَأَتَى رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَار أَعْرَابِيًّا فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَته لتَشْرَب، فَأَبَى أَنْ يَدَعَهُ فَانْتَزَعَ قِبَاضَ الْمَاءِ فَرَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ خَشَبَتَهُ فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الْأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ، فَأَتَى عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ رَأْسَ الْمُنَافقينَ فَأَخْبَرَهُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِه فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، ثُمَّ قَالَ لَا تُنْفقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْله، يَعْنِي الْأَعْرَابَ وَكَانُوا يَحْضُرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الطَّعَام، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ إِذَا انْفَضُّوا مِنْ عِنْد مُحَمَّد فَأْتُوا مُحَمَّدًا بالطَّعَام فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابه لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَة لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، قَالَ زَيْدٌ وَأَنَا رِدْفُ رَسُول اللَّهِ ﷺ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ فَأَخْبَرْتُ عَمِّي فَانْطَلَقَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْه رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَلَفَ وَجَحَدَ قَالَ فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي، قَالَ فَجَاءَ عَمِّي إِلَيَّ فَقَالَ مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ مَقَتَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبَكَ وَالْمُسْلِمُونَ ! قَالَ فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنْ الْهَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَد، قَالَ فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ فِي سَفَر قَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنْ الْهَمِّ، إِذْ أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الْخُلْدَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْر لَحِقَنِي فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قُلْتُ: مَا قَالَ لِي شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَقَالَ: أَبْشِرْ، ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ، فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْر، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ"[١].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث زيد قَالَ: «وَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَلَوَّوْا رُءُوسَهُمْ...»[٢].

---

(١) رواه الترمذي في السنن: أبواب تفسير القرآن، عن رسول الله ﷺ - سُورَةِ الْمُنَافِقِين. الحديث رقم: ٣٣٦٨ وقال: " هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ".

(٢) ورواه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ٣٧٣ حديث ١٩٣٥٣، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

المناسبةُ بين المقدمة ومحور السورة

الصلة بينهما واضحةٌ جلية: حيث استهلت بمشهد أولئك المنافقين، وقد جاءوا بالكذب والخداع.

التفسير الإجمالي

يخبرُ المولى جل وعلا عن مجيء المنافقين بدعوى إيمانهم برسالته ﷺ، مظهرين ذلك مع ما انطوتْ عليه قلوبُهم من كفرٍ، لكنهم تظاهروا بالإيمان خداعًا وجبنًا. وهذه الشهادة لا يقصدون بها وجهَ الله تعالى، إنما يقولونها تعميةً وتمويها لمكائدهم ودسائسهم بين الصفوف ولهذا كذَّبهم الله سبحانه وتعالى في ادعائهم.

قال تعالى﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ فالله تعالى يعلم صدق نبيه ﷺ، ويعلم كذب أولئك المنافقين المخادعين الذين جاءوا متظاهرين بالإيمان، الذي لا بدَّ وأن ينبع من القلب.

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

جعلوا من الأيمان جُنَّةً ووقايةً للتمويه والخداع، والصدِّ عن سبيل الله، واتخاذها جُنَّةً عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة، ليحلفوا بها، ويتنصَّلوا من سوء الفِعَالِ والمقالِ، فهم مع صدودهم عن الحق وإعراضهم عنه وإحجامهم عن الدخول في الإسلام والانقياد لأحكامه، قد صدُّوا الناسَ عن الإيمان والهجرة والجهاد، وأعمال الطاعة والبر بما يُشيعونه في المجتمع المسلم من تشكيكٍ وقدحٍ وطعنٍ، فبئس العمل عملهم.

ومن دقةِ التعبيرِ القرآني تصويرُهم وهم في قَلَقِهم النفسي وقد استتروا بدرعٍ واهٍ من الأيمان الكاذبة، لأنهم يعتبرون أنفسهم في حالة حربٍ مفتوحةٍ مع المؤمنين.

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

لما ذَكَرَ اللهُ سبحانه وتعالى كذب المنافقين بيَّن هنا شيئاً من خصالهم الذميمة وطباعهم الدنيئةِ التي تتنافى مع مظهرهم الكاذب، وتتناقضُ مع كلامِهِمُ المعسولِ، حتى إن الناظر إليهم ينبهرُ بوجوههم الصبيحة، والسامع لهم يطربُ ويستمتعُ بألسنتهم الفصيحة، فيصغي إلى قولهم وينخدعُ بمنطقهم، ويغترُّ بهيئاتهم ومناظرهم، وما لهم من النَّضارة والرَّونق ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ فتحسب أن قولهم حقٌّ وصدق لفصاحتهم، وذلاقة ألسنتهم، " وقد كان عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، وكان يحضر مجلس النبيِّ ﷺ، فإذا قال سَمِعَ النبيُّ ﷺ مقالته، قال الكلبي: المراد عبد الله بن أبيّ، وجَدّ بن قيس، ومُعَتِّب بن قيس كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة "(١).

﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾: ولكنهم أجسامٌ بلا عقول وألسنةٌ بلا أفئدة، وهياكل وأشباح بلا أرواح، وهم في حضورهم مجالس النبي ﷺ كالخُشب المسندةِ على جدارٍ، فوجودها كعدمها، وكذلك المنافقون يخرجون كما دخلوا بل لا يزدادون إلا كفرا وارتيابا فهم محجوبون عن الفهم الصحيح، محرومون من العلم النافع.

كما قال سبحانه ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٧].

﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾: وَذلك لِمَا جُبلوا عليه من الجُبن والخَوَر، " يحسبون كلَّ صيحة يسمعونها واقعةً عليهم، نازلةً بهم لفَرْطِ جُبْنِهِمْ ورُعْبِ قلوبهم "(٢)، وذلك بسبب " هلعهم وتخوفهم من كلِّ ما يُتخيَّل منه بأسُ المسلمين، لأنهم أعداءٌ ألِدّاءُ للمسلمين ينظرون للمسلمين

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٢٣٠، ٢٣١.

(٢) نفس المرجع ٥/ ٢٣١.

بمرآة نفوسهم، فكما هم يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتمنون الوقيعة بهم، مع تظاهرهم بالمودة: كذلك يظنون بالمسلمين التربص بهم وإضمار البطش بهم، ويخشون في كل لحظة تمر بهم أن ينكشف أمرهم على نحو ما قال أبو الطيب:

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُهُ		وصدَّق ما يعتـادُه من تَوَهُّم...»[١]

فالمنافقُ أشد الناس جبنا وهلعا، فَقَدَ الثقةَ وسُلِبَ الأمنَ، يفزع من أي طيفٍ، ويرتاعُ من أي صوت، كما قال الشاعر في هجاءِ شخصٍ أكولٍ جبان:

إذا صوَّتَ العصفورُ طارَ فؤادُهُ		وليثٌ حديدُ النابِ عنـدَ الثرائـدِ

وكما قال آخر:

أفي السِّلْمِ أعيارٌ جَفَاءً وَغِلْظَةً		وفي الحربِ أشباهُ النساءِ الفوارِكِ ؟[٢]

" وهذا النموذجُ من الناسِ، لا ينقطعُ في جيلٍ ولا في قبيلٍ. فهو موجود دائماً. وهو شجاعٌ فصيحٌ بارزٌ حيثُما كان هناك أمنٌ ورخاءٌ ومغنمٌ، وهو جبانٌ صامتٌ مُنزوٍ في الشدائدِ والمخاوفِ، وهو شحيحٌ بخيلٌ على الخيرِ وأهلِ الخير، لا ينالهم منه إلا سلاطةُ اللسانِ! "[٣].

" وكم نُكِبتْ أُمتُنا من أولئك المنافقينَ الذين لاذوا بالجحورِ، وآثروا السلامةَ عند اشتداد الأزماتِ ووقوع المواجهاتِ، فلما تحقق النصرُ للمجاهدين سرقوه وَجَنَوا ثمارَه، فتسلَّطوا على العباد ودانت لهم البلاد، فذاقت الشعوبُ منهم الويلات، ووقعتْ على أيديهم النَّكبات والنَّكَسَات ! وواقعُنا المُعَاصِرُ خيرُ شاهدٍ ! "[٤].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٨ / ٢٤١ بتصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٦٢٥ أي في حالِ المُسالَمَةِ كأنهم الحُمُرُ، والأعيارُ جمعُ عِيرٍ، وهو الحمارُ وفي الحرب كأنهم النساء الحُيَّض !

(٣) في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٩٢.

(٤) نقلا عن بحث **التَّوْثِيقُ القُرآنيُّ لِغَزْوَةِ الأحزابِ**، إعدادِ: أحمد بن محمد الشرقاوي - **الملتقى العلمي للتوثيق الميداني لغزوة الخندق - مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ذو القعدة ١٤٢٧هـ.**

﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾: جلَّاهم لنا القرآن وفضحهم، وكشف عِوارهم وسبر أغوارهم، وأبان لنا عن خبث نيتهم وسوء طويتهم حتى نكون منهم على حذر، فهم آفةُ كلِّ العصور وجذورُ البلاءِ في سائرِ الدُّهور، ابحث عنهم وراء كلِّ نكبةٍ، وفتِّش عنهم خلف كلِّ نكسةٍ.

ولفرطِ عداوتهم ولشدة التحذير منهم جاء التعبير عنهم بالعدو " بلام الجنس " للدلالة على شدة عداوتهم وفداحة مخاطرهم، فكأنهم هم العدوُّ الأول والأخير، أو اللام هنا للعهد الذهني؛ فإذا ذكرت العداوةُ فليتبادر ذكرُهم إلى الأذهان فهم شرٌّ مستطيرٌ وداءٌ عضالٌ، ولا تغفل عنهم أيها المسلم اليقِظ؛ فهم لا يغفلون ولا تنم فهم لا ينامون، بل يواصلون المكر والتدبير ليل نهار، فلتجعل عداوتَهم نُصْبَ عينيكَ ولتستحضرها في ذهنك، ولا يَغُرَّنْكَ تَبَسُّطُهم في الكلام على وجهِ التودُّدِ والتقرُّب. فهم كمن قيل فيهم:

وإذا الصديقُ لقيتَهُ متملقًا ... فهْوَ العدوُّ وحقُّهُ يُتَجَنَّبُ
لا خيرَ في ردِّ امرئٍ متملِّقٍ ... حُلْوَ اللسانِ وقلبُهُ يتلهَّبُ
يلقاكَ يحلفُ أنه بك واثقٌ ... وإذا توارَى عنكَ فَهْوَ العقربُ
يعطيكَ مِنْ طرفِ اللسانِ حلاوةً ... ويروغُ منكَ كما يروغُ الثعلبُ

قال القرطبي " فاحذرهم " وجهان:

أحدهما: فاحذر أن تثق بقولهم أو تميل إلى كلامهم.

الثاني: فاحذر ممايَلَتَهُمْ لأعدائِك، وتخذيلَهم لأصحابك ".[1]

﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾: دعوةٌ عليهم بالهلاك والبوار، وبيانٌ وإعلانٌ عن حربِ الله لهم؛ فكم صُرفوا عن الحقِّ وصَرَفوا عنه مع وضوح الدلائل ! وكم قلبوا الحقائق وخلطوا المفاهيم وزخرفوا الأباطيل ! وكم خدعوا أنفسَهُم وخدعُوا الآخرينَ معهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ١٢٦.

استكبارٌ وعنادٌ

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ ﴾

ما زال السياقُ القرآني يفضحُ لنا كوامن المنافقين ويكشفُ عُوارهم ويصفُ طباعهم ومنها ما جُبلت عليه نفوسُهم من مُكَابَرَةٍ وجُحُودٍ وتآمُرٍ وصُدودٍ.

من ذلك حالهم إذا دُعُوا بدعوةِ الرفق واللين إلى أن يستغفر لهم سيد المرسلين وإمام المتقين فتراهم يعرضون مستنكفين ومستكبرين وقد عبروا عن ذلك أبلغ تعبير بحركات الرؤس والأعناق وثني الأعطاف.

قال القرطبي: «لما نزل القرآن بصفتهم مشى إليهم عشائرُهُم وقالوا: افتضحتم بالنفاق فتوبوا إلى رسول الله من النفاق، واطلبوا أن يستغفر لكم، فلووا رؤوسهم، استهزاء وإباء»[(١)]، وإعراضاً وازدراء، وإصرارا وإباء، ورفضًا للاستغفار وإعلانا لثباتهم على النفاق، وإيذانا لتماديهم في الغيِّ، ورضاءً بصنيعهم الشنيع.

ومهما حاول المنافقون إخفاء ما تُكِنُّ ضمائِرُهم من الحقد الدفين والبغض للمسلمين فلا بد أن تظهر منهم بوادرُ الحقد، وتفوحُ رائحةُ الحسد.

وقد قيل:

ومهما تكـــن عندَ امرئ من خليقةٍ وإنْ خالها تخْفى على النَّاسِ تُعلمِ[(٢)]

فقد كانت الأفعال الشنيعة تصدُرُ عنهم فإذا افتضح أمرُهم لم يبادروا إلى الاعتذار عنها والتوبة منها، بل كابروا وجادلوا متذرعين بالكذب والتضليل، والخداع والتدليس، والإنكار

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ١٢٧.

(٢) البيت لزهير بن أبي سُلْمَى.

والتلبيس، فإذا طُلِبَ منهم الاعتذارُ ودُعُوا إلى الاستغفارِ عَطَفُوا رؤوسهم، ولووا أعناقهم تكبراً وإعراضا عن الاعتذار إلى رسول الله ﷺ حتى يستغفر لهم عما حصل منهم من النفاق.

لكنهم على أية حال مع بقائهم على كفرهم ومهما تظاهروا بخلاف بواطنهم، فليسوا أهلا للمغفرة، حتى ولو استغفر لهم خيرُ الخلق وحبيبُ الحق ﷺ فإنهم قومٌ فاسقون، خرجوا عن الطاعة وبارزوا بالعصيان وأشاعوا الكذب والبهتان.

قال تعالى ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ المنافقون ٦.

وقال سبحانه ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة: ٨٠].

دسائسُ ومكائدُ.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٧ – ٨].

لا يزال السياق في كشف أحقادهم الدفينة، ومؤامراتهم الدنيئة، ومكائدهم الخبيثة التي يسعون من خلالها: لخلخلة الصفوف، وزعزعة المجتمع، وإثارة الزوابع والتوابع، وتجفيف المنابع، ومحاصرة المدِّ الإسلامي، وتقويض شجرة الدعوة، ووأدِ طلائع النصرِ، وتضييق الخناق على الدعاة والمصلحين، وفضِّ الناس عن العلماء المخلصين، ونفيهم من البلدان، وإجبارهم على مفارقة الأوطان.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾دعا المنافقون وحرَّضوا على قطع الإنفاق لفضِّ الناسِ عن دعوة الحق، وكأن الرزقَ بأيديهم !

﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: خزائن كلّ شيء عنده، وكلّ شيء عنده بمقدار، لا

ينزله إلا بقدر معلوم، فله تعالى خزائن السموات، وخزائن الأرض، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ القائل لهذه المقالة هو عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين، وعنى بالأعزّ: نفسه ومن معه، وبالأذلّ: رسول الله ﷺ ومن معه، ومراده بالرجوع: رجوعهم من تلك الغزوة، وإنما أسند القولَ إلى المنافقين مع كون القائل فردٌ من أفرادهم، وهو عبدُ الله بن أبيّ، لكونه كان رئيسهم وصاحب أمرهم، وهم راضون بما يقوله سامعون له مطيعون.

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾: فالعزة لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، وله تعالى الغلبة والقوة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين، "وعزة الله تعالى قهره وغلبته على من دونه، وعزة رسوله ﷺ إظهار دينه على الأديان كلها وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم "[1].

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وذلك من فرط جهلهم وغرورهم.

الهدايات المستنبطة

* الكذبُ والخديعة من صفات المنافقين الدنيئة وطباعهم اللئيمة.
* النفاقُ لؤمٌ وخداعٌ وجبنٌ ومراوغةٌ.
* بيانُ خطر المنافقين على المجتمعات، ووجوب الاحتراز منهم.
* الحذرُ من التشبه بهم في أي صفةٍ من صفاتهم.
* مغبّةُ الاغترار بالمظاهر، فالمرءُ بعمله لا بمظهره، فقد اتسم كثير من المنافقين بعذوبة اللسان وحلاوة المنطق ومعسول الكلام مع مرارة قلوبهم وقبح نفوسهم ودمامة أخلاقهم.
* جوازُ الدعاءِ على أعداء الدين بالهلاك والخسران.

---

(١) لباب التأويل فى معاني التنزيل للإمام الخازن ٦ / ١٠٧.

* لا يجوزُ الاستغفارُ للمنافقين والمشركين أو الدعاء لهم بالرحمة.
* طريقُ العزةِ هو طريقُ الإيمان فلا تُستمدُّ ولا تُطلبُ إلا من الله، ومن أعزَّه الله فلا مذلَّ له ومن أذلَّه فلا مُعِزَّ له.
* خزائن السموات والأرض بيده تعالى، وهذا من دواعي عِزَّة المسلم بربه وتوكُّله عليه فلا يذل ولا يخضع لمخلوق كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ

لا تَخضَعَنَّ لِمَخلوقٍ عَلى طَمَعٍ		فَإِنَّ ذَلِكَ وَهنٌ مِنكَ في الدينِ
وَاستَرزِقِ اللَهَ مِمّا في خَزائِنِهِ		فَإِنَّما الأَمرُ بَينَ الكافِ وَالنونِ
إِنَّ الَّذي أَنتَ تَرجوهُ وَتَأمَلُهُ		مِنَ البَرِيَّةِ مِسكينُ ابنُ مِسكينِ
ما أَحسَنَ الجود في الدُنيا وَفي الدين		وَأَقبَح البُخل فيمَن صِيغَ مِن طينِ
ما أَحسَنَ الدين وَالدُنيا إِذا اجتَمَعا		لا بارَكَ اللَهُ في دُنيا بِلا دينِ
لَو كانَ بِاللُبِّ يَزدادُ اللَبيبُ غِنىً		لَكانَ كُلُّ لَبيبٍ مِثلَ قارونِ
لَكِنَّما الرِزقُ بِالميزانِ مِن حَكَمٍ		يُعطي اللَبيبَ وَيُعطي كُلَّ مَأفونِ

* جهلُ المنافقين وسفههم وغياب عقولهم فهم لا يفقهون ولا يعلمون، وقد هوى بهم الجهلُ في هذه الدركاتِ.

وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ:

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلهِ		وأجسادُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وإن امْرأً لم يحيِ بالعلم صدرهُ		فليس له حتى النشورِ نشورُ

* العلم والفقه في الدين عصمةٌ ووقايةٌ من النفاق والمنافقين.

توجيهاتٌ للمؤمنين

تحصينٌ من النفاق والمنافقين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١ ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

المناسبة

لما ذمَّ سبحانه صفاتِ المنافقين نادى عبادَه المؤمنين محذراً إياهم من دواعي النفاق ومغبته، ومن أخطرها التشاغل والانصراف عن ذكر الله تعالى بحبِّ المال والولد وتقديم حبِّهما على طاعة الله.

فمع ضرورةِ أخذِ الحَذَرِ من المنافقين ومكائِدِهم، يجبُ على المؤمن أن يحذَر من الوقوع في صفاتهم والتشبه بهم من حيث لا يدري، ثم جاء الأمر بالإنفاق في وجوهِ الخير في سبيل الله، ومصالح المسلمين، وإغاثة المنكوبين، ونجدة الملهوفين، وإطعام الجياع، وكسوة العراة، لمواجهة مكائد الكافرين والمنافقين، ومجابهة مؤامراتهم، ومخالفة أمرهم بترك الإنفاق على فقراء المسلمين، ثم البدار البدار إلى العمل الصالح، قبل انطواء الصحائف واستيفاء الآجال.

التفسير الإجمالي

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ لما ذكر قبائح المنافقين، نهى المؤمنين عن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد، ومعنى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾: لا تشغلكم أيها المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته، وعن أداء ما افترضه عليكم من الصلاة، والزكاة، والحج، كما شغلت المنافقين.

قال أبو حيان: "أي لا تشغلكم أموالكم بالسعي في نمائها، والتلذذ بجمعها، ولا أولادكم بسروركم بهم، وبالنظر في مصالحهم، عن ذكر الله وهو عام في الصلاة، والتسبيح، والتحميد، وسائر الطاعات "[١].

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾أي ومن تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته، فأولئك هم الكاملون في الخسران، حيث آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي، وفضَّلوا العاجل على الآجل.

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ أي وأنفقوا في مرضاة الله، من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي قبل أن يحلَّ الموتُ بالإنسان، وينزل بساحته فيقول حين الاحتضار وعند معاينة الملائكة ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾: يقول عند تيقنه الموت: يا ربِّ هلا أمهلتني وأخرت موتي إلى زمنٍ قليل !!﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي فأتصدق وأحسن عملي، وأصبح تقياً صالحاً.

فما من مفرطٍ إلا ويندم عند الاحتضار، ويسأل الإمهال ليستدرك ما فات، ولكن هيهات!

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ أي ولن يمهل الله أحداً أياً كان إذا انتهى أجلُه، ولن يزيد في عُمُرِه، وفيه تحريضٌ على المبادرة بأعمال الطاعات، حذراً أن يجيء الأجل، وقد فرَّط ولم يستعدَّ للقاء ربه ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي مطلعٌ وعالمٌ بأعمالكم من خير أو شر، ومجازيكم عليها.

وصدق من قال:

إلى كم أقولُ فلا أفعلُ وكم ذا أحومُ ولا أنزلُ
وأزجرُ عيني فلا ترعوي وأنصحُ نفسي فلا تقبلُ

(١) البحر المحيط للإمام أبي حيان ١٠/ ١٨٤

وكم ذا تعلَّلُ لي ويحَها بِعَلَّ وسوف وكم تمطُلُ
وكم ذا أؤمِّلُ طولَ البَقَا وأغفَلُ والموتُ لا يغفَلُ
وفي كلِّ يومٍ ينادي بنا منادِي الرحيلِ ألا فارحلُوا [(١)]

الهدايات المستنبطة

* طاعة الله تعالى هي الهدف الحقيقي للمسلم لا ينبغي أن يشغله عنه شاغل.
* خزائن الله ملأى ويداه مبسوطتان، فهو الخالق الرازق وهو القابض الباسط، ومن أيقن بذلك تعلق قلبه بالله رغبة وطمعا ورجاءً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (يَدُ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَقَالَ: عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ) [(٢)].
* التحذير من الانصراف عن العمل الصالح بحطام الدنيا الزائلة وزينتها الماحلة.
* الترغيب في الإنفاق في جميع وجوهِ الخير، لتحقيق الاكتفاء الذاتي بين المسلمين حتى لا يكونوا فريسةً لأعداء الدين يساومونهم على عقيدتهم في مقابلِ لُقْمَةِ عيشٍ، وما يحدُثُ ذلك إلا بتقصيرٍ وتفريط من أغنياء المسلمين.
* المبادرة إلى العمل الصالح قبل تصرُّم الحياة، وانتهاء الآجال، وانطواء صحيفة الأعمال.
* تحذير المؤمنين من الوقوع فيما وقع فيه المنافقون من الانشغال بالدنيا والغفلة عن ذكر الله وغير ذلك من ذميمِ الخصالِ وقبيحِ الفعالِ، فعلى كلِّ مؤمنٍ أن يحذر النفاق ويبرأ من

---

(١) الأبيات للزاهد الأندلسي أبي عمران المارتلي.

(٢) صحيح البخاري – كتاب التفسير باب: قوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ الحديث رقم: ٤٤٠٧ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة، باب: الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، الحديث رقم: ٩٩٣.

علاماته، ويتعوَّذ بالله تعالى منه.

* وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ)(١).

* وقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: " أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ... "(٢)

* وروى الفِرْيَابِيُّ بسنده عن طريفٍ، قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد إن ناسا يزعمون أن لا نفاق أو لا يخافون النفاق... فقال: والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق أحبّ إلي من طِلاعِ الأرض ذهبا(٣).

* وروى الفِريابي بسنده عن محمد بن سليم وهو أبو هلال قال: سأل أبانُ الحسنَ: فقال: هل تخاف النفاق ؟ قال: وما يؤمنني وقد خاف عمر بن الخطاب ﷺ ؟(٤)

* وروى الفريابي بسنده عن الجعد أبي عثمان، قال: قلت لأبي رجاء العطاردي: هل أدركتَ ممن أدركتَ من أصحاب رسول الله ﷺ يخشون النفاق ؟ وكان قد أدرك عمر رضي الله عنه قال: نعم إني أدركت منهم بحمد الله صدراً حسناً، نعم شديداً نعم شديداً(٥). أي يخافون النفاق خوفاً شديداً.

* اللهم إنا نعوذ بك من النفاق ومن سوء الأخلاق، ونعوذ بك من المنافقين ومن سائر أعداء الدين اللهم اجعل كيدهم في نحورهم ما جعل تدميرهم في تدبيرهم.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان - باب: علامة المنافق -حديث ٣٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، رقم: ٥٩.
(٢) صحيح البخاري كِتَاب الْإِيمَانِ - بَاب خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، أورده تعليقاً.
(٣) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي رقم ٧٩.
(٤) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي رقم ٧٨.
(٥) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي رقم ٧٥.

سورة التغابن

بين يدي السورة

* تُنْصَبُ الأسواقُ لساعات محدودةٍ، فترى الناسَ عليها مقبلين من كلِّ حَدَب وَصَوْب الكلُّ يتسابقُ لاغتنامها، والناسُ بين مشترٍ وبائعٍ، ولكن سُرعان ما ينفضُّ السُّوقُ وتتفرقُ الجُموع، بين رابحٍ مبتهجٍ، وبين مغبونٍ مُبْتَئِس.

بيدَ أن هناك من يرتادُ الأسواقَ لإضاعة الأوقات في المُلهيات، وتبديد الأموال في المباهج والشهوات ليخرُج في النهاية صِفر اليد فارغ الجيبِ، قارعاً سنَّ الندم على ما ضيَّعه، متحسِّراً على ما فاته.

ولو تصورنا أُناسا على موعدٍ للهجرة إلى بلادٍ بعيدة، ومع كل واحدٍ رصيدٌ من المال وقد طُلِبَ منه أن يشتري به كلَّ ما يحتاجه في البلاد التي يهاجر إليها، وقد قَرُبَ موعدُ السفر والسفينة على الميناء تنتظر لحظة الإبحار، على أن للمسافر أن يحمل معه ما يشاء، وعليه أن يغتنم الفرصة ؛ فالعُملةُ التي يشتري بها لا قيمة لها فيها بعد، ولا استبدال لها في البلاد التي سينتقل إليها، والسلعُ التي في السوقِ أمامه ضروريةٌ ولن تتاحَ له هناك، كما أن السوق إذا انفضَّت لا تقامُ أبداً، وإذا ركب السفينةَ لا يعود أبداً، فإذا ضيَّع وقته دون أن يشتري ما ينفعُه، أو اشترى ما يضرُّه وترك ما ينفعُهُ، أو اشترى ما لا نفع له فقد خاب وخسر وقد غُبِنَ ؛ إذ ضيع رأس ماله ولم يؤمِّن مستقبله في دار المستقر.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾. [التغابن: ٩]

إذا كـنـتُ أعـلـمُ عـلـمَ الـيـقـينِ ... بـأنَّ جـمـيـعَ حـيـاتي كـسـاعـةٍ
فَـلِـمَ لا أكـونُ ضـنـيـنـا بها ... وأنـفـقُـهـا في صـلاحٍ وطـاعـةٍ
إنـما دُنـيـاك سـاعـة ... فـاجـعـلِ الـسـاعـةَ طـاعـة
واحـذرِ الـتـقـصـيرَ فـيـها ... واجـتـهـدْ مـا قـدرُ سـاعة
وإذا أحـبـبـتَ عِـزا ... فـالـتـمـسْ عـزَّ الـقـنـاعـة

* وأعظم الغبن ما يقع في سوق الحياةِ، الذي يغدو إليه جميع الناس، فبائعٌ دنياه بأخراه، وتلك هي التجارة الرابحة، وبائعٌ آخرتَه بدنياه، وبائعٌ آخرتَه بدنيا غيره ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١] .

تفيضُ عيوني بالدموعِ السواكبِ ... وما ليَ لا أبكي على خيرِ ذاهبِ
على العُمْرِ إذ ولَّى وحان انقضاؤُه ... بآمالِ مغرورٍ وأعمالِ ناكبِ
على أشرفِ الأوقاتِ لما غُبِنْتُهَا ... بأسواقِ غُبْنٍ بين لاهٍ ولاعبِ
على غُرَرِ الأيامِ لما تصَرَّمتْ ... وأصبحتُ منها رهنَ شؤمِ المكاسبِ
على زَهَرَاتِ العيشِ لما تساقطتْ ... بريحِ الأماني والظنونِ الكواذبِ
على أنْفَسِ الساعاتِ لما أضعتُها ... وقَضَّيتُها في غفلةٍ ومعاطب
على صرفيَ الأنفاسَ في غيرِ طائلٍ ... ولا نافعٍ من فعلِ فضلٍ وواجبِ
على أنني آثرتُ دنيا دنيةً ... منغصةً مشحونةً بالمعايبِ
على طول آمالٍ كثيرٍ غرورُها ... ونسيانِ موتٍ وهْوَ أقربُ غائبِ (١)

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾. [التغابن: ٩]

من هنا جاءت هذه السورة الكريمة لتبين لنا حقيقة التغابن، وأسبابه وعواقبه، كما ترشدنا إلى طريق الفوز والفلاح.

* وهي من السور المدنية، وإن كان جوُّها شبيهًا بالسور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية.

* تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته، ثم بينت تفرعَ الناسِ وتحيُّزهم إلى فريقينِ لا ثالث لهما.

(١) الأبيات لابن علوي الحداد ت ١١٣٢ هـ.

* وفي السورة الكريمة وعيدٌ وتهديدٌ للكفار من سوء العذابِ كما حاق بمن سبقهم، بسبب كفرهم وعنادهم وضلالهم.
* وأكدت السورةُ قضيةَ البعث وأنه حقٌّ لا ريب فيه.
* كما دعت السورةُ الكريمة إلى طاعة الله وطاعة رسوله، وحذَّرت من الإِعراض عن منهج الله.
* تناولت السورةُ جملةً من أركان الإيمان: الإيمان بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.
* أجابت عن الأسئلة الملحَّة التي تدور في الأذهان: خلق الإنسان ؟ ودوره في هذا الوجود؟ ومصيره المحتوم، كما تحدثت عن النظرة الإيجابية للكون والحياة والمجتمع والأسرة.
* كما حذَّرت من فتنةِ الأزواج والأولاد، الذين يقفون عثْرةً على طريق البذل والعطاء والتضحية والفداء.
* واخْتُتِمَت السورةُ بالأمر بالتقوى والسمع والطاعة، والترغيب في الإِنفاق لإعلاء كلمة الله، وتوقِّي الشحِّ بتعويد النفس على البذل والتضحية والإيثار لتنال الفلاح في الدارين ثم جاءت الدعوة الأخيرة مرغبة في الإقراض ومبشرة بأجره العظيم وثوابه الجزيل، إلى أن تختمَ السورة الكريمة بما استهلت به من تنزيه الله تعالى وتقديسه وتعظيمه وتمجيده.

أ. اسم السورة.

سميت هذه السورةُ الكريمةُ بسورة التغابن، حيث تحدثت عن أعظم غبنٍ يلحقُ بالإنسانِ، حين يؤثر الدنيا الفانية ويضيِّع الآخرةَ الباقيةَ، قال تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾. [التغابن: ٩]

ب. فضائل السورة.

السورة من ضمن السور التي افتتحت بالتسبيح، ولقد أطلق عليها كما جاء في السنة «المسبِّحات » وورد في فضلها: عَنْ عِرْبَاض بْنِ سَارِيَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: « كَانَ يَقْرَأُ الْمُسَبِّحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَرْقُدَ، وَقَالَ إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً أَفْضَلَ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ » [(١)].

ج. مدنية السورة.

هذه السورة مدنية نزلت بالمدينة.

قال القرطبي: « سورة التغابن مدنية وآياتها ثماني عشرة ». [(٢)]

* وهذه السورة وإن كان طابعها وجوُّها العام يشبهُ السورَ المكيةَ، حيث التركيز على العقيدة وموضوعاتها الرئيسية: الألوهية، الرسالة، البعث، لكن معركة القرآن مع العقائد الباطلة معركةٌ مستمرة ومواجهةٌ متواصلةٌ، والناسُ دائماً في حاجةٍ إلى تجديد الدعوة إلى الإيمان مع التنوُّعِ في الخطاب مراعاةً لأحوالِ المخاطبين.

د. عدد آيات السورة:

عدد آيها ثماني عشرة آية (١٨) في عد الجميع، ولا خلاف عندهم في شيء منها. [(٣)]

---

(١) حديث حسن: رواه أبو داود في السنن كتاب الأدب باب ما يقول عند النوم ٢/ ٧٣٤ حديث ٥٠٥٧، والترمذي في السنن أبواب فضائل القرآن وإسناده حسن حديث ٢٩٢١، والنسائي في السنن الكبرى للنسائي ٥ / ١٦ حديث (٨٠٢٦)، ورواه أحمد في مسنده ٤/ ١٢٨، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٤ / ١٠١ حديث ١٢٠٠، والطبراني في المعجم الكبير ١٣ / ١٦٨ حديث ١٥٠٢٨، والبيهقي في دلائل النبوة ٨ / ٢٤١ حديث ٣٠٨٤، والدارمي في السنن ١٠ / ٣١٩ حديث ٣٤٨٧، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن ١ / ٤٦١ حديث ٤١٤، وابن الضريس في فضائل القرآن ١ / ٢٤٤ حديث ٢٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ١٣١ .

(٣) يراجع: مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٨١، وكتاب البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو=

هـ. محور السورة.

حديث هذه السورة الكريمة حول التغابن والمغبونين، وأسباب التغابن وصوره وسبل الوقاية منه.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

محور السورة يدورُ حول اسمها وهو التغابن، حيث تبين السورةُ أسبابه وعاقبته.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* اختتمت السورة الكريمة بما استهلت به من تعظيم الله تعالى وتقديسه وتمجيده: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ [التغابن: ١ – ٤].

ثم اختتمت بما استهلت به من تعظيم الله تعالى وتمجيده: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [التغابن: ١٦ – ١٨].

المناسبة بين السورة وسابقتها

الصلة بين سورة التغابن وسورة المنافقون: صلةٌ واضحةٌ جليةٌ، من ذلك:

=الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ، ص ٢٥٥، وكتاب « أقوى العدد في معرفة العدد « لعلم الدين السخاوي ت ٦٤٣هـ»، جمال القراء وكمال الإقراء ١/ ٢٥٣ وفنون الأفنان في علوم القرآن لابن الجوزي ص ٣١٤.

* حديث السورة السابقة عن النفاق والمنافقين، وحديث هذه السورة عن الكفار، ومن قبلهما جاء الحديثُ في سورة الجمعة عن اليهود، وفي هذا تنبيهٌ على وجوب معرفة العدوِّ ومواجهتهِ.

* حديث السورتين عن ضرورة الإنفاق في سبيل الله.

قال تعالى في سورة المنافقون ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون: ١٠].

وقال سبحانه في سورة التغابن ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [التغابن: ١٦-١٨].

* حذرت السورتان من فتنة المال والولد: قال تعالى في سورة المنافقون ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[المنافقون: ٩].

وقال سبحانه في سورة التغابن ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

* بينت سورة المنافقون تولي المنافقين وإعراضهم عن النبي ﷺ، ثم جاءت سورة التغابن داعيةً إلى طاعة الله ورسوله والتأدب معه ﷺ.

قال تعالى في سورة المنافقون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المنافقون: ٥].

وقال سبحانه في سورة التغابن ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾ [التغابن: ١٢].

* لما كشفت سورة المنافقون عما يضمِرُهُ المنافقون من كفرٍ، جاءت سورة التغابن مقررةً لمعاني

الإيمان ومرسخةً له، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، حول التغابن: أسبابه وصوره وسبل النجاة منه، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المقدمة

الإيمان بالله تعالى

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ [التغابن: ١ - ٤]

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة

الإيمانُ بالله تعالى هو الركنُ الركينُ والحصنُ الحصينُ وركيزةُ الانطلاقِ إلى كلِّ خيرٍ ورضوانٍ، وسفينةُ النجاة من الغبن والخسران، وحول حقيقة الإيمان بالله تعالى دارت آيات المقدمة ؛ ليستحضرَ المؤمنُ عظمةَ اللهِ جلَّ جلاله، ويوقِنَ بكمالِ قدرتِهِ وإحاطةِ علمِهِ وبديعِ صنعِهِ، فيزدادَ اجتهاداً في طاعته وسعياً إلى رضاه، ويمضيَ قُدُما على طريق الفلاح، فينجوَ من

الغبن الذي يلحقُ بالكافرين البعيدين عن الله.

التفسير الإجمالي

براعة الاستهلال

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾

تستهلُّ السورة الكريمة بتنزيه الله تعالى وتقديسه وتمجيده وتعظيمه﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾فهو تعالى المتفرِّدُ بالملك، المستحق للحمد، القادر على كل شيء.

وتمضي السورة الكريمة مبينةً دلائل قدرة الله تعالى التي تتجلى في تقسيم الناس إلى صنفين لا ثالث لهما، عليهما يتحددُ مصيرُ الإنسانِ الذي خلقه الله تعالى في أحسنِ تقويم وكرَّمه بنعمة العقل والشرع، ومنحهُ حرية الاختيار، قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ ﴾.

« أي منكم كافرٌ بخالقه وأنه هو الذي خلقه، ومنكم مصدِّقٌ به موقنٌ أنه خالقه وبارئه وقدَّم الكافر على المؤمن، لكثرة الكفار وقلة المؤمنين»[١].

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾: أي عالمٌ بأحوالكم، مطَّلعٌ على أعمالكم، لا تخفى عليه خافية من شؤونكم وسيجازيكم عليها.

ثم أخبر تعالى عن إحاطة علمه بكل ما كان وما يكون وما سيكون، وشموله لكل ما خفي ودقَّ وما ظهر وتجلى، قال تعالى﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤ ﴾.

كما بين تعالى دلائل قدرته وشواهد وحدانيته فقال ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾:

(١) جامع البيان للطبري ٢٣ / ٤١٦.

أي خلقهما بالحكمة البالغة، المتضمنة لمصالح الدنيا والدين، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾: أي خلقكم في أحسن صورة وأجمل هيئة، فأتقن وأحكم وأبدع، ونظير هذا قوله تعالى في سورة التين﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾، وقوله تعالى في سورة الانفطار ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

فإن من تأمل في صورة الإنسان وهيئته، وتناسب أعضائه، وتناسق ملامحه، واعتدال قامته: علم أن صورته من أحسن الصُّور، سيَّما إذا قرنَّاها بما نشاهده من صور كثير من المخلوقات.

﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي وإليه تعالى وحده المرجع والمآب، فيجازي كلاً بعمله.

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي يعلم ما في الكون من أجرام ومخلوقات ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ويعلم ما تخفونه وما تظهرونه من الأعمال والنِّيَّات ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي عالمٌ بما يختلجُ في الصدورِ وما أُسدِلَتْ عليه السُّتور، وما انطوت عليه من خفايا وأسرار، فلا تخفى عليه خافية.

قال أبو حيّان: « نبَّه تعالى بعلمه بما في السماواتِ والأرض، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه، ثم بعلمه بما أكنَّته الصدور، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء، لا من الكليات ولا من الجزئيات، فابتدأ بالعلم الشامل، ثم بسرِّ العباد وعلانيتهم، ثم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا كله في معنى الوعيد، إذ هو تعالى المجازي عليه بالثواب والعقاب»[1].

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١٠/ ١٨٩.

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة

هذه السورة الكريمة هي سورة التغابن، ومحورها حول هذه القضية: معنى التغابن أسبابه وصوره سبل الوقاية منه، وحتى يسلَمَ الإنسانُ من التغابن فعليه أن يسلكَ طريقَ الإيمانِ، ولقد جاءت آياتُ المقدمة لتقرر قضية الإيمان بالله تعالى، وهي الركن الأول والأساسيُّ من أركان الإيمان، الذي ينجو به صاحبه من الغُبْنِ.

الهدايات المستنبطة

* تسبيحُ الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق بذاته، وتعظيمه تعالى وتمجيده، فهو تعالى المتفرد بالملك المستوجِب للحمد.
* كمالُ قدرته تعالى فلا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يقع في ملكه إلا ما أراده.
* الناسُ في هذا الكون صنفانِ لا ثالث لهما: مؤمن وكافر، والله تعالى مطَّلع على كل فريق ومجازيه بعمله.
* خلقُ الله تعالى السموات والأرض، وخلق الناس في أحسن صورة، وإليه تعالى المرجع والمآب.
* إحاطةُ علمه تعالى بكلِ ظاهرٍ ومستتر وكل سرٍّ وعلنٍ وكلِّ ما كان ويكون.

المغبونون [(١)]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن: ٥ – ٧]

المناسبة

* بعد هذه المقدمة التي تجلت فيها شواهدُ الربوبيةِ الباهرة ودلائلُ القدرةِ الظاهرة التي لا يجحدها إلا معاندٌ مكابرٌ، ولا يغفل عنها إلا خائبٌ خاسرٌ، ولا يصدُّ عنها إلا كلُّ مأفونٍ مغبونٍ، كشفت لنا السورة الكريمة عن المغبونين الذين خرجوا من سوق الدنيا بخسارةٍ فادحة ليس بعدها ربحٌ، وذلك بكفرهم وتكذيبهم ومزاعمهم الباطلة.
* كذلك من وجوه المناسبة بين هذه الآيات وما سبقها: أنه بعد تأصيل وتقرير عقيدة الإيمان بالله تعالى، ينتقل السياق إلى مناقشة مزاعم الكفّار وبيانِ ضلالهم وسوءِ عاقبتهم.

التفسير الإجمالي

تكذيبهم بالرسل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ

(١) أصل التغابن والغبن: يقال: الغَبْن: مصدر غَبنَ الرجلُ في البيع غَبْناً وغَبَناً فهو مغبون في البيع، إذا خُدعَ فيه. وغَبنَ دينَه وعقله، فهو غَبين في العقل والدِّين، والغَبْنُ بالتسكين في البيع، والغَبَنُ بالتحريك في الرأي، يقال غَبَنْتُهُ بالبيع، أي خدعته، وقد غُبِنَ فهو مَغْبونٌ، وغَبِنَ رأيه بالكسر إذا نقصه فهو غَبينٌ، أي ضعيف الرأي، وغَبِنْت الشيءَ غَبْناً كَغَبَنْته – إذا جَهلته وغَبِنْت في الأَمْرِ غَبَناً – أَغْفَلْته، وسئل الحسن عن قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾: فقال: غَبَنَ أَهلُ الجنة أَهلَ النار أي اسْتَنْقَصُوا عقولَهم باختيارهم الكفر على الإيمان، ونَظَر الحَسَنُ إلى رجلٍ غَبَنَ آخَرَ في بيع فقال: إن هذا يَغْبِنُ عقلَك أَي يَنْقُصُه وغَبَنَ الثوبَ يَغْبِنُه غَبْناً كفه. يراجع: لسان العرب ١٣ / ٣٠٩، الصحاح في اللغة ٢ / ١٢ وتهذيب اللغة ٣ / ٨٧.

كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾.

الاستفهام هنا تقريريٌ عامٌّ، موجَّهٌ إلى كلِّ مخاطب، وفيه لفتُ الأنظار إلى السابقين من الكفار الذين ذاقوا وبال أمرهم وتجرعوا مرارةَ تكذيبهم في الدنيا مع ما ينتظرهم من عذاب الآخرة ؛ وذلك بسبب تكذيبهم وازدرائهم أنبياء الله الذين جاءوهم بالحُجَج الوَاضِحَة، وَالمُعْجزَات البَاهِرَة، فكفروا وتولَّوا، وطَغَوا واستغنَوا، فاستغنى الله عَنْ إيمَانِهِمْ، ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾، وَهُوَ الغَنِيُّ عَنِ العالَمِينَ، وَهُوَ الحَقِيقُ بِالحَمْدِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَم التِي لاَ تُحْصَى.

قال الإمام الألوسي: «﴿ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ ﴾ أي أظهر سبحانه غناه عن إيمانهم وعن طاعتهم حيث أهلكهم وقطع دابرهم، ولولا غناه عز وجل عنهم لما فعل ذلك»[(١)].

إنكارهم البعث

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن: ٧-٨].

كذلك من أخطائهم الفادحة ومزاعمهم الفاسدة إنكارهم للبعث مع تجلي آياته وظهور علاماته، وقد أمر الله رسوله الكريم أن يؤكد هذه الحقيقة ويقررها بالقسم، حتى لا يترك سبيلا من سبل الإقناع ؛ فلا تبقى لهم حجة، ولا يقوم لهم عذر ؛ فالبعثُ حقٌّ وكذا ما بعده من حساب وجزاءٍ قال تعالى ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾، وقال جل وعلا في سورة الروم ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم: ٧٦].

الهدايات المستنبطة

* العظةُ والاعتبارُ بأحوالِ السابقين، فالسعيدُ من اتعظَ بغيره.

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي ٢٨ / ٤٤.

* عاقبةُ الكفرِ وخيمةٌ ونهايتُهُ أليمةٌ، فالكافر خاسرٌ في دنياه وفي أخراه.
* الله تعالى غنيٌ عن العالمين لا تنفعُهُ طاعةُ الطائعين ولا تضرُّهُ معصيةُ العاصين.
* اقتضت حكمةُ الله تعالى أن يرسلَ رسلاً من البشر، حتى يتأسى بهم الناسُ ويقتدوا بأفعالهم التي تعدُّ ترجمةً واقعيةً وحجةً وبياناً عمليًّا.
* من تناقض الكفرةِ أنهم رضوا للإله أن يكون حجراً أو شجراً! وأنكروا كوْنَ النبيِّ بشراً وما ذلك إلا لسفاهةِ عقولهم وضلال سعيهم.

التغابن ؛

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾ [التغابن: ٨ – ١٠].

المناسبة

بعد بيان أسباب غبن الكفار، وذلك بإنكارهم الحجج الساطعة وكفرهم وتوليهم، بيّن تعالى طريق الربح والرضوان، وهو طريق الإيمان، ثم أكد سبحانه حقيقة هذا اليوم وصدق هذا الموعد الذي ينتظر الناس جميعا، يوم التغابن، حيث ينقسمُ الجمعُ إلى فريقين، رابحٌ ومغبونٌ.

التفسير الإجمالي

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

دعوةٌ إلى الإيمان بالله تعالى، ورسوله الذي جاء رحمةً وضياءً، وكتابه الذي نزل نوراً وهدى وشفاءً، يُهتدى به في ظلمات الفتن، ويضيء دروب الحياة، قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالإيمانُ طريقُ النجاة والفوز.

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾: بيانٌ وتقريرٌ لإحاطة علمه تعالى بكلِّ الأعمال، ودعوةٌ إلى إخلاص العقيدة، وتجديد الإيمان، ومراقبة الله تعالى في سائر الأعمال.

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾

هذه دعوةٌ إلى تذكرِ هذا اليوم العظيم: يوم الجمع، وسُمي بذلك لأن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد، للعرض والحساب والجزاء.

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾: يوم يظهر للكافر غبنُهُ الذي غفل عنه، وخُسارتُهُ التي لا ربح بعدها، يوم التغابن يظهرُ لأولئك الذين شَغَلوا أوقاتَهم باللهو واللعب، وغمروها بالهزل كم حرموا أنفسهم من ثواب الطاعات ؟ وكم فوَّتوا من لحظاتٍ ؟ يوم التغابن يشعرُ كلُّ مُقصِّرٍ بتقصيره، حين يرى تقاصُرَه عن معالي الرُّتب ورفيع الدرجات ؟ عندها يدرك المقصرُ كم كان مغبونا ! وكم فرَّط في ما هو أغلى من اليواقيتِ والدررِ ! ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾.

لَهَـوتَ وَكَـم مِـن عِـبرَةٍ قَـد حَضَرتَها ... كَـأَنَّـكَ عَنها غـائِـبٌ حـينَ تَحـضُرُ
تَمَنّـى المُنى وَالـريـحُ تلقاكَ عاصِفاً ... وَفَـوقَـكَ أَمـواجٌ وَتَحـتَـكَ أَبـحُـرُ
أَلَم تَـرَ يـا مَـغـبـونُ مـا قَـد غُبِنتَهُ ... وَأَنـتَ تَـرى في ذاكَ أَنَّـكَ تَتْجُرُ
خُدِعتَ عَنِ الساعاتِ حَتّى غُبِنتَها ... وَغَـرَّتـكَ أَيّـامٌ قِـصـارٌ وَأَشـهُـرُ
فَـيا بـانِيَ الـدُنـيا، لِـغَـيرِكَ تَبتَني ... وَيـا عـامِـرَ الـدُنـيا لِـغَـيرِكَ تَعمُرُ

وَمالَــكَ إلّا الصَبــرُ وَالبِــرُّ عُــدَّةٌ   وَإِلّا اعتِبــارٌ ثــاقِــبٌ وَتَفَكُّــرُ [١]

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾: ومن صور التغابن في هذا اليوم، حين يحلُّ المؤمنون بمنازل الكفار في الجنان، هنالك يشعر المحرومون بالحسرة والندامة، على ما وصلوا إليه من غبنٍ وخسرانٍ، سيَّما إذا أدركوا ما فاتهم من نعيمٍ مقيمٍ وما سقطوا فيه من عذابٍ أليم.

وصدق من قال:

بـخـلـتَ بـشيء لا يـضرُّك بـذلُـهُ   جُـدتَ بـشيء مـثـلُـهُ لا يـُقَـوَّمُ
وبِـعـتَ نـعـيـماً لا انـقـضـاءَ له   بـبـخـسٍ عـن قـلـيـلٍ سـيعـدمُ
وتهـدمُ مـا تبني بكفَّيكَ جاهـداً   فـأنـت مـدى الأيـامِ تبني وتـهدمُ
فيا أيهـا القلبُ الـذي ملكَ الهـوى   أعـنَّـتَـهُ حـتَّـامَ هـذا التـلـومُ
وحتَّام لا تصْحُو وقـد قـرُبَ المَـدَى   ودقَّـت كئوسُ السيرِ والناسُ نُـوَّمُ
بلى سوف تصحو حين ينكشفُ الغطا   ويبدو لك الأمـرُ الـذى كنت تكتمُ
ويـا مـوقـدا نـاراً لـغـيرِك ضـوؤُهـا   وحـرُّ لظاها بـين جنبيكَ يَـضْرمُ
أهـذا جَنَى العلمِ الـذي قد غرستَهُ   وهـذا الـذي قد كنتَ ترجوهُ وتعلمُ
وهـذا هـو الحـظُّ الـذي قـد رضيتَه   لنفسِكَ في الـداريـنِ لو كنتَ تفهمُ
وهـذا هـو الـربـحُ الـذي كسبتَهُ   لعمرك لا ربـحٌ ولا الأصـلُ يسلَمُ

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾

قال ابن كثير رحمه الله: « أي ذلك هو اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافر وخسارته بتركه الإيمان، وذلك أن المؤمنين اشتروا الجنة بترك الدنيا، واشترى الكفار النار بترك الآخرة، فظهر

(١) الأبيات لأبي العتاهية.

غبن الكافرين»[١].

وقال الشوكاني: «يوم القيامة هو يوم التغابن، وذلك أنه يغبن فيه بعض أهل المحشر بعضاً، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، ويغبن فيه أهل الإيمان أهل الكفر، وأهل الطاعة أهل المعصية، ولا غبن أعظم من غبن أهل الجنة أهل النار عند دخول هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ونزول المؤمنين منازل الكافرين التي كانوا سينزلونها لو لم يفعلوا ما يوجب النار، فكأن أهلَ النار استبدلوا الخير بالشرِّ، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب، وأهل الجنة على العكس من ذلك، يقال: غبنتُ فلاناً إذا بايعتُهُ، أو شاريتُهُ فكان النقصُ عليه، كذا قال المفسرون، فالمغبون من غبن أهله ومنازله في الجنة»[٢].

وقال البغوي: «﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ ﴾ وهو تفاعل من الغبن وهو فوت الحظ، والمراد بالمغبون من غُبِن عن أهله ومنازله في الجنة، فيظهر يومئذ غبنُ كلِّ كافرٍ بتركه الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان»[٣].

ثم بيَّن تعالى مصير كلٍّ من الفريقين: فقال ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾: فبيَّن تعالى حالَ الفائزين في هذا اليوم وهم أهل الإيمان والصلاح، حيث يكفِّرُ الله عنهم سيئاتهم ويتفضلُ عليهم بإدخالهم الجنة وذلك هو الفوز العظيم، أما المغبونون فمصيرُهم إلى الخسران والبوار وبئس المصير والقرار، قال تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ١٣٧.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢/ ٢٣٧ .

(٣) معالم التنزيل للإمام البغوي ٨ / ١٤١ .

المناسبة بين المقطع ومحورِ السورةِ

المناسبةُ واضحةٌ جليةٌ ؛ حيثُ الحديث عن يوم الجمع الأكبر والغبن الأعظم، وموقف الناس في هذا اليوم، فهم بين مغبونٍ ورابحٍ.

الهدايات المستنبطة

* الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله الذي أرسله هاديا ومبشرا، وكتابه الذي أنزله رحمة ونوراً، وعلى كلِّ مؤمن أن يعمِّق هذا الإيمان ويجدده ويجتهد في زيادته ؛ فهذا هو طريق الفلاح والفوزِ بسلعة الله الغاليةِ.

* من شرف كتاب الله تعالى وعظمته أنه نورٌ يضيء للمؤمن دروب حياته، ويُنير قلبَه ووجدانَه، ويُبصِّرُ عقله، ويوسِّعُ مداركَهُ، فهو نبراسُ الحياة ودستورُها الخالد ومنهجُها الذي يواكبُ كلَّ جيل وقبيل، ومن أعظمِ الغبن أن يكون هذا النورُ ساطعا وكثير من الناس لا يستضيئون بسناه ولا ينتفعون بهديه:

كالعيسِ في البيـــــداءِ يقتلُهـا الظَّـما ... والمـاءُ فـوقَ ظهورِهـا محمولُ [1]

وكما قال الآخر:

فقل لـرسـولِ اللهِ يـا خـيرَ مُـرسَـلٍ ... أبـثُّـكَ مـا أشـكُـو مِـنَ الحـسراتِ

شعوبُك في شرقِ الـبـلادِ وغَـرِبهَـا ... كأصحاب كهفٍ في عميقِ سُبَاتِ

بأيمانهـم نورانِ ذكـرٌ وسنـــــــةٌ ... فما بالُهـم في حالـكِ الظلمـاتِ [2]

* الإيمانُ والصلاحُ طريق الرحمةِ والمغفرة، والفوز بنعيم الآخرة.

* الكفرِ والتكذيبِ عاقبته وخيمة، ونهايته مخزية أليمة.

---

(١) الأبياتُ للشاعر أديب إسحاق ت ١٣٠٢هـ

(٢) الأبياتُ لأحمد شوقي.

على طريق الفلاح

قَالَ تَعَالَى:﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ التغابن: ١١.

المناسبة

صلةُ هذه الآيات بمحور السورةِ الكريمة: أنها تمضي مبينةً طرائق النجاة من الغبن، وسبل تحصيل الأجر والثواب، من ذلك ما يحصِّله المؤمنُ من مثوبة، حين يصبر على البلاء، فيخرج منه مغفور الذنب موفور الأجر قرير العين منشرح الصدر، وقد تنامت ثروته وتضاعف رصيده عند العليمِ الفتاح، ليهنأ بعيشته الراضيةِ في بلاد الأفراح.

التفسير الإجمالي

الصبر والثبات

قال تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

في هذهِ الآياتِ الكريمةِ دعوةٌ للإيمانِ بالقدرِ خيرِه وشره حُلوِه ومُره، والابتلاء وإن كان مرَّ المذاق إلا أنه حلوُ الثمار، فهو تمحيصٌ للقلوب وتكفيرٌ للذنوب ورفع للدرجات، وبه يبلغ الصابر من المنازل والرُّتب ما يقصُرُ به عمله، وما من مصيبةٍ في هذا الكون تقع إلا بإذن الله تعالى ومشيئته وتدبيره وحكمته، ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ ومن يؤمن بالله تعالى وأقداره في خلقه ويرضى بقضائه يهدِ قلبه، فيزداد صبراً ويقيناً، وثباتاً وتسليماً، ورضاً واطمئناناً، ويعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه.

﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ عليمٌ بأحوالِ العبادِ ومصالحِهم، لا يخفَى عليه حالُ عباده واستقبالُهم لأقداره.

الطاعة والتوكل

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ ﴾: أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في كل ما شرع لكم من الأوامر والنواهي، وكرَّر الأمر للتأكيد ولبيان أن طاعة الرسول واجبة كطاعة الله.

﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾: أي فإن أعرضتم عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه فإنما عليكم إثم تولِّيكم ؛ إذ ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة وقد أداها بيِّنةً واضحةً.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾: تذكيرٌ وتقريرٌ لوحدانيته تعالى التي تجلت شواهدُها في هذه السورة الكريمة، وجمعت هذه الآيةُ بين التوحيد والتوكل فكما يجب إفراده تعالى بالعبادة كذلك يجب إفراده بالاستعانة والتوكل، يدرك ذلك أهل الإيمان ويوقنون به.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

محور السورة الكريمة يدور حول التغابن والمغبونين وأسباب التغابن وعاقبته وسبل النجاة من الغبن والخسران والفوز بالجنة والرضوان، وآيات هذا المقطع تحدو بنا إلى طريق الفلاح وتبين لنا جزءا من معالمه، فترغب في الصبر واليقين والطاعة والتوكل.

الهدايات المستنبطة

* وجوب الإيمان بالقضاءِ والقدر.
* إحاطة علم الله سبحانه بجميع ما كان وما يكون وما سيكون.
* من أعظم أسباب الفوز بالجنان والنجاة من الغبن والخسران طاعة الله ورسوله قال تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾،

فليحذر المسلم من الوقوع في الغبن بسبب التولي والعصيان. فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (كلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجنةَ إلا مَنْ أَبَى)، قالوا: يا رسول الله: ومن يأبى ؟ قال: (من أطاعَنِي دَخَلَ الجنَّةَ، ومَن عصاني فقد أَبَى) [(١)].

* ومن أسباب الفوز والفلاح التوكل على الله تعالى في كلِّ أمرٍ قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.
* مهمة الرسول ﷺ هي الإبلاغ، أما الهداية فإنها من الله تعالى وحده يمنُّ بها على من يشاء من عباده، ممن سلك طريقها وتجرَّدَ لتحصيلها وجدَّ في طلبها.
* إقامة الحجة على الناس بتبليغ الرسالة.

فتنة الأهل والمال وسبل الوقاية منها

قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ التغابن: ١٢ - ١٨

المناسبة

لما أمر تعالى بطاعته، ورغَّب في التوكلِ عليه ذَكَرَ مِن المُعوِّقاتِ عن الطاعة والتوكل:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ٤/ ٤١٤ حديث ٧٢٨٨.

الركونَ إلى الأهلِ والولدِ، والإفراطَ في التعلقِ بهم.

فليحذر من سلك طريق النجاة وسعى إلى الفوز من تلك العقبة التي تعترضُهُ وهذه الفتنة التي تلاحقُهُ، فتنةُ الأزواج والأولاد ؛ إذ قد يدفعه حرصُه على مصلحة الأولاد وسعيُه إلى إرضاء الزوج إلى الانشغالِ عن الطاعات والتواني عن الإنفاق في القربات، والتباطؤ عن فعل الخيرات، والتقاعس عن الدعوة والجهاد، والتراجع عن الأعمال الصالحات، ولربما تعدى الحدود وانتهك المحرمات ؛ إرضاء للزوجة، أو بدعوى تأمين مستقبل الأولاد، وتلبية مطالبهم التي لا تنتهي.

التفسير الإجمالي

التحذير من فتنة الأهل والمال

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن: ١٤ – ١٥]

نداءٌ وتحذير لكافة المؤمنين من فتنة الأزواج والأولاد، وما يترتب على ذلك من الضررِ والغبن، وذلك بسبب الانشغال عن الطاعة، والقعود عن الجهاد، والعزوفِ عن الدعوةِ والسقوطِ في أكلِ الحرام، بوازع تلبيةِ مطالبهم وإشباع رغباتهم، أو بسبب الخوف عليهم والتعلُّق بهم.

عَنْ سَبْرَةَ بْن أَبِي فَاكِهٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِه، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ ؟...، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ ؟ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ

حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ). [(١)].

« فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلةً وملهاةً عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير، كما يتعرض هو وأهله للعنت، وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده، فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ! فيكونون عدواً له، لأنهم صدُّوه عن الخير وعوَّقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا، كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه، اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله.. وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات.. وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن.

ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة، التحذير ؛ لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثِّرات» [(٢)].

فليحذر كلُّ مؤمن من كلِّ ما يشغله عن دعوته ويُثبِّطُهُ عن الجهاد، مع مراعاة حقوق الزوجة والأولاد فإن صدهم عن الدعوةِ والجهاد لا يبررُ التقصيرَ في حقوقهم، بل لا بدَّ من الترفُّق بهم والحلم والصفح عنهم والتسامح معهم، قال تعالى ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ

---

(١) رواه النسائي في السنن كتاب الجهاد ـ باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد. حديث ٣١٢٥، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف ٤ / ٥٦٤ حديث -( ) ٢٧- (٤٣٤٢).

وقال الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار: "أخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه بإسناد صحيح. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار كتاب شرح عجائب القلب ٣/ ١٣.

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٩٧.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: فهو تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة.

روى ابن ماجه في السنن عَنْ يَعْلَى الْعَامرِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ يَسْعَيَانِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، وَقَالَ (إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ)(١).

فكونُ الولد مبخلةً ومجبنةً لا يعني التعامل معه بالقسوة والجفاء، بل لا بدَّ من مراعاة حقه في الرحمة والحنان، وبهذا يحقق المؤمن التوازن في الحقوق والاعتدال في المحبة فلا يبالغ في حبِّ الزوجة والأولاد وفي الحرص على مصالحهم فيصبح من أجلهم بخيلا جبانا، ولا يجافيهم ويحرمهم حقوقهم متذرِّعا بأنهم فتنةٌ وعقبةٌ، فالأصلُ في الحقوق الشرعية أنها لا تتعارض ولا تتصادم فيما بينها، بل يمكن الوفاء بها جميعا، ويسهلُ تحقيقُ التوازنِ بينها.

الوقاية من هذه الفتنة

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [التغابن: ١٦ – ١٨].

أمر تعالى بتقواه بقدر ما يطيق العبدُ ويستطيع، ومن باب التقوى: الوفاء بجميع الحقوق الشرعية والامتثال لأوامره تعالى بقدر الطاقة، كما في الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ

(١) رواه الإمام ابن ماجه في السنن عَنْ يَعْلَى الْعَامِرِيِّ، كتاب الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات. الحديث ٣٦٦٦، وقال الإمام البوصيري في الزوائد إسناده صحيح. رجاله ثقات، ورواه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٧٢ والإمام الطبراني في المعجم الكبير ١ / ٢٨٣ حديث ٦٤٦، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٤ / ٣٤٦: «رواه أحمد والطبراني...، ورجالهما ثقات». وعزاه الحافظ العراقي في المغني بَذيل الإحياء ٣/ ٣٠٠ إلى ابن ماجه في السنن، قال وإسناده صحيح. وقوله (مبخلة مجبنة) أي مظنة البخل والجبن. لأجله يبخل الإنسان ويجبن.

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ) [1].

﴿ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾:أي واسمعوا ما توعظون به، وأطيعوا فيما تُؤْمرون به وتُنهون عنه.

﴿ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾: أي وأنفقوا في سبيل الله من أموالكم، يكنْ خيراً لكم في عاجلكم وآجلكم.

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾: أي ومن سلم من البخل والطمع الذي تدعو إليه النفس، فقد فاز بكل مطلوب.

﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾: أي إذا تصدقتم في سبيل الله عن طيب نفس، فإن الله يضاعف لكم الأجر والثواب، وفي تصوير الصدقة بصورة القرض تلطفٌ بليغ في الإحسان إلى الفقراء.

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾: ويتجاوز عن سيئاتكم ويمحُها.

﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾: شاكرٌ للمحسن إحسانه، حليمٌ بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم، بل يرحم ضعفهم ويُمهلهم لعلهم يتوبون.

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾: هو تعالى العالم بما غاب وحضر، لا تخفى عليه خافية.

﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾: الغالب في ملكه، فلا يمتنع عليه شيء، الحكيم في صنعه.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

لما حذر من فتنة الأزواج والأولاد والمال: بيَّن ما يجبُ على المسلم حِيال هذه الفتن، وهي تقوى الله تعالى بقدر المستطاع والسمع والطاعة والإنفاق والسخاء والقرض الحسن، وغير ذلك من وجوه البرِّ التي تعدُّ من التجارة الرابحة وترفع من رصيد العبد عند ملك الملوك وتنجِّيه من الغبن.

---

(١) صحيح البخاري باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ الحديث رقم: ٦٨٥٨ وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر حديث ١٣٣٧.

الهدايات المستنبطة

* التحذير من فتنة الأولاد والأَزواج، فهي من أسباب الخُسارةِ والغُبْنِ ؛ والإفراط في التعلق بالزوج والولد، يدفعُ إلى التفريط في جنبِ الله وظلم الناس والتعدي على حقوقهم بدافعِ الحرص على تلبيةِ مطالب الزوجة والولد وإشباع رغَباتهم، أو بسبب الخوف عليهم والتعلّق بهم. قال أبو العتاهية:

عَجَباً مِن مَعشَرٍ سَلَفوا		أَيَّ غَبنٍ بَيِّنٍ غُبِنوا
وَفَّروا الدُنيا لِغَيرِهِمُ		وَابتَنَوا فيها وَما سَكَنوا
تَرَكوها بَعدَما اشتَبَكَت		بَينَهُم في حُبِّها الإِحَنُ
كُلُّ حَيٍّ عِندَ ميتَتِهِ		حَظُّهُ مِن مالِهِ الكَفَنُ
إِنَّ مالَ المَرءِ لَيسَ		لَهُ مِنهُ إِلّا ذِكرُهُ الحَسَنُ
ما لَهُ مِمّا يُخَلِّفُهُ		بَعدُ إِلّا فِعلُهُ الحَسَنُ
في سَبيلِ اللَهِ أَنفُسُنا		كُلُّنا بِالمَوتِ مُرتَهَنُ

* الترغيبُ في الصفح عن المسيئين والتجاوز عن المقصرين، حتى ينال العبدُ المغفرةَ والرحمةَ من أرحم الراحمين.

* حبُّ الولدِ والرحمة به والحُنُوِّ عليه غريزةٌ فطريةٌ وعاطفةٌ إنسانيةٌ، ولقد جاء الإسلام بما يسمو بهذه العواطف ويرقَى بها، ويوجِّهها الوجهةَ الصحيحةَ.

* مراعاةُ حقوقِ الزوجةِ والأولادِ، مع تحقيق التوازن بين الحقوق والواجبات، والاعتدال في المحبة، والتوسط بين نداء العقل والعاطفة، فلا يبالغ في حبِّ الزوجة والأولاد والحرص على مصالحهم ؛ فيصبح من أجلهم بخيلا جبانا، ولا يجافيهم ويحرمهم حقوقهم متذرِّعا بأنهم فتنةٌ.

* أمر تعالى بتقواه بقدر ما يطيق العبدُ ويستطيع، ومن باب التقوى: الوفاء بجميع الحقوق

الشرعية والامتثال لأوامره تعالى بقدر الطاقة.

* الترغيب في الإنفاق في وجوه الخير وفضل القرض الحسن.
* إثبات صفة المغفرة والرحمة والحلم والعزة والحكمة لله عز وجل.

سورة الطلاق

بين يدي السورة

أ. اسم السورة.

سميت هذه السورةُ الكريمةُ **بسورة الطلاق**؛ حيث دارت معظم آيات السورة حول أحكام الطلاق وما يترتب عليه وما يتعلق به.

كما سميت **بسورة النساء الصغرى**؛ لاشتمالها على بعض أحكام النساء، وإنصافها لهن قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: «... نَزَلَتْ سُورَةُ النِّسَاءِ الْقُصْرَى بَعْدَ الطُّولَى»[(١)].

وقال السيوطيُّ في الإتقان: «سورة النساء الكبرى أو الطولى؛ تمييزا لها عن سورة النساء الصغرى أو القصرى» [(٢)]، وفي هذا ما يدل على تكريم الإسلام للمرأة ورعايته لها.

قال الشيخ محمد المدني رحمه الله « وكم تنبض قلوب النساء فرحا لتكريم الله لهن وعنايته بهن حين يسمعن أو يعلمن أن القرآن عرض لهن في السور القرآنية وأن من بين هذه السور: سورتين سميتا باسم النساء وعالجتا كثيرا من شئونهن في أطوار حياتهن كلها، وهذا جدير بأن يلفت هؤلاء الذين يرمون الإسلام بأنه يحطُّ من قدر المرأة ليتعرفوا على هذه المكانة التي وضع الإسلام النساء فيها فيكفوا عن زعمهم أن الإسلام لم يمنح المرأة من العناية والاهتمام ما منحتها المدنية الحديثة، والواقع أن الإسلام منح النساء كلَّ خير وَصَانَهُنَّ من كلِّ شر ولم يأب عليهن سوى ما دفعتهن إليه هذه المدنيةُ الكاذبةُ» [(٣)]، من حريةٍ زائفةٍ ومساواةٍ مكلفةٍ.

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير بَاب قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٤] حديث ٤٢٥٨، ورواه أبو داود في سننه أبواب الطلاق. باب في عدة الحامل. الحديث رقم٢٣٠٧.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١ / ٦٩ .

(٣) المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء للشيخ محمد محمد المدني رحمه الله ص ١٠، ويراجع تفسير=

ب. فضائل السورة.

عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (**أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ**)(1).

وهذه السورة الكريمة من السور المفصل.

ج. مدنية السورة.

هذه السورة مدنية، قال القرطبي: « سورة الطلاق مدنية في قول الجميع ».(2)

د. عدد آيات السورة.

عدد آيات السورة: اثنتا عشرة في عدِّ الحجازي والكوفي والدمشقي، وإحدى عشرة في عدِّ البصري، وثلاث عشرة في عدِّ الحمصي.

واختلفوا في أربعة مواضع:

*﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [الطلاق: ٢] عَدَّهُ الدمشقي.

*﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ عَدَّهُ المدني الثاني، والمكي، والكوفي.

*﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَٰأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴾ [الطلاق: ١٠] عَدَّهُ المدني الأول.

*قَالَ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

= القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت ص ١٧٣.

(١) الحديث إسناده حسن وقد سبق تخريجه في التفسير الموضوعي لسورة الأنعام.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ١٤٧.

﴿ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق: ١٢]، عَدَّهُ الحمصي.(١).

هـ. محور السورة.

والمحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة: هو أحكام الطلاق وما يترتب عليه، مع تقرير هذه الأحكام وتهيئة النفس لتقبلها والامتثال لها.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

المناسبةُ ظاهرةٌ؛ فمحورُ السورة يدورُ حولَ أحكام الطلاق.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

جاءت خاتمةُ السورةُ مقررةً لما جاء في أولها؛ ففي مطلعِ السورةِ الكريمةِ بيانٌ لبعض أحكام الطلاق وتقوى الله في النساء والتحذير من تعدي حدود الله وأن من فعل ذلك فقد ظلم نفسه، وترغيب في الامتثال لمنهج الله تعالى ففيه الصلاحُ وفيه الخيرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ ﴾ [الطلاق: ١].

ثم جاءت خاتمةُ السورة لتقرير هذه الأحكام والمعاني التي جاءت في المقدمة قال تعالى ﴿ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

---

(١) يراجع: مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٨٢، وكتاب البيان في عدِّ آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ ص ٢٥٦.

أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ٩ - ١٢].

المناسبة بين السورة وسابقتها

* أشارت سورة التغابن إلى حقيقة الابتلاء وموقف المؤمن منه، وواجبه نحوه، وإعداده وتهيئته لما يطرأُ عليه من ابتلاءات، قال تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التغابن: ١١ – ١٣].

وجاءت سورة الطلاق مفصلةً في صنفٍ من صنوف البلاء وهو أشدُّها على الإنسان فالطلاق يعني الفراق بعد عشرةٍ والهجرِ بعد الوصال، وكم يترتب على الطلاق من خسائرَ ماديَّةٍ ومعنويةٍ، ومن ثمَّ جاءتْ سورةُ الطلاق داعيةً من ابتلي بالطلاق إلى الصبر واليقين والرضا والتقى وتفويضِ الأمر إلى الله والامتثالِ لأوامرِه تعالى وتحري العدل والإحسان عند الطلاق، وذلك كلُّه من منطلقٍ إيمانيٍّ، ولذا قال تعالى بعد بيان بعض أحكام الطلاق ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٥].

* لما حذر في سورة التغابن من فتنة الأزواج، بيَّن سبيلا للنجاة من هذه الفتنة إذا استحالت العشرة بين الزوجين، ولم تتآلف قلوبهما، ولم يقيما حدود الله، فقد يبتلى الرجل الصالح بزوجةٍ ناشزةٍ عاصية ويستنفدُ كلَّ السبل لإصلاحها، وكذلك المرأة الصالحة قد تبتلى

بزوجٍ طالح يفسد عليها حياتها وتعجز عن إصلاحه وتقويمه، ومن ثَمَّ كان الطلاق هو الحلّ الأخير والمخرج الفاصل من هذه الفتنة.

قال الإمام النيسابوري: «لما نبَّه في آخر السورة المتقدمة على معاداة بعض الأزواج والمعاداة كثيراً ما تُفْضي إلى الفراق بالطلاق، أرشد في هذه السورة إلى الطلاق السني الذي لا يحرم إيقاعه وإلى أحكامٍ أُخَرَ معتبرةً في فراق الزوجين»[1].

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها؛ إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث عن الطلاق وما يتعلق به من أحكام وآداب، مع تقرير هذه الأحكام، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسب بين موضوع السورتين يتجلى في وجوه عديدة، منها:

بيان عاقبة المكذبين في الدنيا والآخرة: قال تعالى في سورة التغابن ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ [التغابن: ٥ - ٦].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾ [التغابن: ١٠].

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام النيسابوري ٧ / ١٧٢.

وقال تعالى في سورة الطلاق﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ ﴾[الطلاق: ٨ - ١٠].

بيان عاقبة المؤمنين في الدارين: قال تعالى في سورة التغابن ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التغابن: ٩].

وقال تعالى في سورة الطلاق﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾[الطلاق: ١١].

ختمت السورتان بتعظيم الله تعالى وبيان إحاطة علمه وكمال قدرته: قال تعالى في سورة التغابن﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[التغابن: ١٨].

وقال تعالى في سورة الطلاق﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق: ١٢].

تكرَّرَ الأمرُ بتقوى الله تعالى في السورتين الكريمتين، والترغيب في الإيمان والعمل الصالح وفي التكرار ترسيخٌ وتقريرٌ وتذكيرٌ: قال تعالى في سورة التغابن﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾[التغابن: ٨].

وقال سبحانه﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن: ١١-١٣].

وقال عز وجل﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[التغابن: ١٦].

وقال تعالى في سورة الطلاق﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾.

وقال سبحانه ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

وقال جل وعلا﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾.

وقال عز وجل﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾.

وقال جل وعلا﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾.

المناسبة بين مقدمة السورة ومحورها

بدأت السورةُ الكريمة ببعض الأحكام والحقوق المتعلقة بالطلاق مثل الطلاق السني، وحقوق المطلقات.

من أحكام الطلاق

قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ١ - ٣]

سبب النزول

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: « أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ

اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ)»(١).

التفسير الإجمالي

في مستهل هذه السورة الكريمة ينادي المولى جل وعلا على نبيه ﷺ فهو الهادي البشير وهو المعلم لأمته ما يصلحهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا النداء توجيهٌ حكيمٌ بشأن الطلاق ومراعاة ما يتعلق به من أحكام وآداب، حتى يسدل الستار على هذه الحياة وتنطوي تلك الصفحة وتنفصم تلك العروةُ بهدوءٍ وسلامٍ، وعدلٍ وإنصاف، ورفقٍ وإلطاف.

فالطلاق أبغض الحلال عند الله، لكنه لبعض الحالات دواءٌ مرٌّ لا مفرَّ منه وعلاجٌ مؤلمٌ لا مندوحةَ عنه، حين يسودُ النفورُ ويحتدمُ الخلافُ وتستحيلُ العشرةُ وتخفقُ المساعي بين الزوجين.

والطلاقُ مُرُّ المذاق، والإسلامُ يهدف إلى إقامتِهِ على ميزانٍ دقيقٍ حساس، لسانه العدل وراحَتاهُ الإحسان، وحتى يتحقق ذلك لا بد من اتباع المنهج الشرعي.

وقد اشتملت سورة الطلاق على كثيرٍ من معالم هذا المنهج كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الطلاق بَاب إِذَا طُلِّقَتْ الْحَائِضُ تَعْتَدُّ بِذَلِكَ الطَّلَاقِ الحديث رقم ٤٩٥٣، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الطلاق. باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها حديث ١ - (١٤٧١)، ورواه أبو داود في السنن تفريع أبواب الطلاق. باب في طلاق السنة. الحديث رقم: ٢١٧٩، ورواه النسائي في السنن كتاب الطلاق. باب الرجعة. الحديث رقم ٣٥٤٩، ورواه ابن ماجه في السنن كتاب الطلاق. باب طلاق السنة. حديث ٢٠١٩، ورواه الترمذي في السنن كتاب الطلاق واللعان. بَابُ مَا جَاءَ فِي طَلَاقِ السُّنَّةِ٢/ ٣٢٢.. الحديث رقم: ١١٨٦ وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، ورواه الإمام في الموطأ، برواية الإمام محمَّد بن الحَسَن (كتاب الطلاق) - ١باب (١) طلاق السنة حديث ٥٥٣ ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٦١، ٦٢.

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ النداء للنبي ﷺ والحكم عام له ولأمته، وخُصَّ هو بالنداء ﷺ تعظيماً له.

قال القرطبي: الخطابُ للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجماعة ﴿ طَلَّقْتُمُ ﴾ تعظيماً وتفخيماً والمعنى: يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء[١].

وقال الزمخشري: «... لأن النبي إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كذا وكذا، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه...»[٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه، ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ أي فطلقوهن مستقبلاتٍ لعدتهن، وذلك في الطهر، ولا تطلقوهن في الحيض، قال مجاهد: أي طاهراً من غير جماع لقوله ﷺ: (... لِيُرَاجِعْهَا ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ فَتَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فَلْيُطَلِّقْهَا طَاهِراً قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ كَمَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ)[٣].

وقال الخازن: « أي لزمان عدتهن وهو الطهر لأنها تعتد بذلك الطهر من عدتها، وتحصل في العدة عقيب الطلاق فلا يطول عليها زمان العدة»[٤].

وإنما نُهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدةُ فتتضرر، ولأن حالة الحيض قد تكون سببا في نفور الزوج، فيتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهراً، ولعل الزوج إذا تمهل حتى يتحرّى السنة في تطليق زوجته فلربّما تنقشعُ سحابةُ الهجر والخصام

---

(١) **الجامع لأحكام القرآن للقرطبي** ١٨/ ١٨٤.

(٢) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري** ٤/ ١١٧.

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير بَاب -باب: تفسير سورة الطلاق. الحديث رقم ٤٦٥٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٣٢٣، ٣٢٤.

(٤) **لباب التأويل فى معاني التنزيل** للإمام الخازن ٦/ ١١٧.

وتشرق شمسُ الصفا والوئام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ أي اضبِطُوها وأكملوها ثلاثةَ أقراءٍ كاملة؛ لئلا تختلط الأنساب.

والخِطَابُ للأزواج، وقيل: للزوجات، فضبطُ العدة مسؤوليةٌ مشتركةٌ بين الزوج والزوجة، لما يترتب عليها من أحكامٍ تتعلق بهما.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أي خافوا الله ربَّ العالمين، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وفي الجمع بين لفظ الجلالة ووصفِهِ تعالَى بربوبيتِهِ لهم: تأكيدٌ للأمر ومبالغةٌ في إيجابِ الاتقاءِ وإشعارٌ بالهيبة والإجلال والعظمة والإحسان.

﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾ أي لا تخرجوهن من مساكنهن، بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضي عدتهن.

﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ أي ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضي عدتهن، إلا إذا قارفت المطلقةُ عملاً قبيحاً كالزنا فتخرج لإقامة الحد عليها، نهى الله سبحانه وتعالى أن يُخرج الرجلُ المرأةَ المطلَّقةَ من المسكن الذي طلقها فيه، ونهاها هي أن تخرج باختيارها، فلا يجوز لها المبيتُ خارجاً عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهاراً إلا لضرورة، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة، أما الفاحشة التي تبيح خروج المعتدة فقيل: إنها الزنا فتخرج لإقامة الحد عليها وقيل إنه سوء الكلام مع الأصهار وبذاءة اللسان فتخرج ويسقط حقها من السكنى.

قال ابن عباس: الفاحشة المبينة بذاءتها على أهل زوجها فيحلُّ إخراجها لسوء خلقها.[(١)]

قال الإمام الطبري: « والصواب من القول في ذلك عندي قول من قال: عنى بالفاحشة في هذا الموضع: المعصية، وذلك أن الفاحشة هي كلّ أمر قبيح تعدّى فيه حدّه، فالزنى من ذلك، والسرق والبذاء على الأحماء، وخروجها متحوّلة عن منزلها الذي يلزمها أن تعتدّ فيه منه، فأي ذلك

(١) يراجع: معالم التنزيل للإمام البغوي ٨ / ١٥٠.

فعلت وهي في عدتها، فلزوجها إخراجها من بيتها ذلك، لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها»[١].

وأضاف البيوت إليهنّ وهي لأزواجهنّ لتأكيد النهي، وبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى في مدّة العدّة[٢].

ولا يجوز للمرأة أن تخرج ما لم تنقض عدتها، فإن خرجت لغير ضرورة أثمت، فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدماً أو غرقاً جاز لها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إذا كان لها حاجة ضرورية من بيع غزل أو شراء قطن جاز لها الخروج نهاراً ولا يجوز ليلاً، يدل على ذلك أن رجالاً استُشْهِدوا بأحد، فقالت نساؤهم نستوحشُ في بيوتِنا، فأذنَ لهنَّ رسولُ الله ﷺ أن يتحدثنَ عند إحداهنَّ، فإذا كان وقتُ النومِ تأوي كلُّ امرأةٍ إلى بيتِها[٣].

وأذن رسولُ الله ﷺ لخالة جابر وقد كان طلقها زوجُها أن تخرج لجذاذ نخلها: فعن جَابرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ﷺ قال: طُلِّقَتْ خَالَتِي، فَأَرَادَتْ أَنْ تَجُدَّ نَخْلَهَا، فَزَجَرَهَا رَجُلٌ أَنْ تَخْرُجَ، فَأَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «بَلَى فَجُدِّي نَخْلَكِ، فَإِنَّكِ عَسَى أَنْ تَصَدَّقِي أَوْ تَفْعَلِي مَعْرُوفاً»[٤].

قال صاحب الظلال: «والحكمة من إبقاء المطلقة في بيت الزوج هي إتاحة الفرصة للرجعة، واستثارة عواطف المودة، وذكريات الحياة المشتركة، حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين؛ فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين! فأما حين ترتكس في حمأة الزنا وهي في بيته! أو تؤذي أهله، أو تنشز عليه، فلا محل لاستحياء المشاعر الطيبة، واستجاشة المودة الدفينة،

---

(١) جامع البيان للإمام الطبري ٢٣ / ٤٤٠.

(٢) لباب التأويل فى معاني التنزيل للإمام الخازن ٦ / ١١٨ .

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٤٣٦، ورواه عبد الرزاق في المصنف ٧/ ٣٢ حديث ١٢٠٦٨ ١٢٠٦٨.

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب الطلاق. باب جواز خروج المعتدة البائن، والمتوفى عنها زوجها، في النهار، لحاجتها ٢/ ١١٢١ حديث ٥٥ - (١٤٨٣) ورواه أبو داود في السنن أبواب الطلاق باب في المبتوتة تخرج بالنهار - ٢/ ١٥٦ الحديث رقم: ٢٢٩٧، ورواه النسائي في السنن ٢٧ ـ كتاب الطلاق. ١٧٦٨ ـ باب خروج المتوفى عنها بالنهار ٦/ ١٥١ الحديث رقم: ٣٥٥٠، وابن ماجة في السنن كتاب الطلاق باب هل تخرج المرأة في عدتها ٣/ ٢٢١ الحديث رقم: ٢٠٣٤.

ولا حاجة إلى استبقائها في فترة العدة، فإن قربها منه حينذاك يقطع الوشائج ولا يستحييها!»[١].

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي وهذه الأحكام هي شرائع الله ومحارمه ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ أي ومن يخرج عن هذه الأحكام، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب، وأضرَّ بها حيث فوَّت على نفسه إمكان إرجاع زوجته إليه، وأضرَّ بها وأخلَّ ببعض حقوقها.

وفي هذا تشديدٌ لكل من يتعدى حدود الله تعالى التي حدَّها في أمر الطلاق، من ذلك طلاق المرأة في حيضها أو في طهر جامعها فيه، وإخراجها من بيتها بغير حقٍّ وفي غير ذلك من المخالفات التي نهت عنها الشريعة، فتلك حدود الله لا يتجاوزها ولا يتعداها إلا من ظلم نفسه فعرَّضها لسخط الله تعالى وأوردها موارد الهلاك.

أما من يقيم حدود الله ويمتثل لأوامر الله ويجتنب ما نهى عنه فإنه يتعرض لرحمة الله ويحظى بلطف الله وينال ثمرة تقواه واستقامته.

﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾: لعلَّ الله يحدث في قلبه ما يغيِّرُ حاله، ويرغِّبُهُ في إبقاء زوجته وتقرُّ عينه بها، ويصلح الله بالها، ولعلَّ اجتماعهما تحت سقف واحد يؤلِّف القلبين وقد قيل:

وأقربُ ما يكونُ الشوقُ يوماً		إذا دنتِ الخيامُ من الخيامِ

فالأمر الذي يحدثه الله: أن يقلِّب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه؛ فيراجعها، وتهبُّ نسائمُ المودَّة من جديد، وترجع طيور الحب للتغريد، في هذا البيت السعيد.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٥.

تعالُوا بنا حتى نعودَ كما كنَّا فما عهدُنا خنتُم ولا عهدَكُم خُنَّا
ونطوي بساطَ العُتْب والهَجْر والجَفَا ونَرْمِي الأَسَى والبينَ ليتَ الأسى يفْنَى
عسى أنْ يعودَ الشملُ والحالُ مثلَما عَهِدْنَا وعودُ الوصلِ أثمارُهُ تُجْنَى
ويُنْشِدُ حادِي الحيِّ عنَّا مُترْجِماً ألا لا أعادَ اللهُ بيتاً نأى عنَّا
أأحبابَنَا طيبوا فلم يكُ ما مَضى سُوَى حُلُم كاللفظِ ليس له معنى
فلا طالَ هجَّانٌ ولا ثَمَّ عاذلٌ ولا سَهَرَ المشتاقُ ليلا وقد حنَّا
ولا كان ما قلتُم ولا كان ما قلنا ولا بنتمُوا عنا ولا عَنْكُمُو بِنَّا

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾.

هذه حدودُه تعالى التي حدَّها لعباده رعايةً لحقوقهم وتحقيقا لمصالحهم، ومن تجاوز هذه الحدود وتعداها فقد ظلم نفسه قبل أن يوقع الظلم بغيره.

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾ [الطلاق: ٢].

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي فإذا شارفت المطلقة المعتدة على انقضاء عدتها وقاربت ذلك فالخيار للزوج فيها إن شاء أن يمسكها بمعروف أو يفارقها بإحسان ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي فراجعوهنَّ إلى عصمة النكاح مع الإحسان في صحبتهن كما أمر الله، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتُهن فيملكن أنفسهن.

والإمساك بالمعروف هو إحسان العشرة وتوفيةُ النفقة، من غير قصد المضارة في الرجعة لتطول عليها العدة، والفراق بالمعروف هو أداء الصَّداق، والمتعة عند الطلاق، والوفاء بالشروط، مع توفية جميع حقوقها.

﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾أي وأشهدوا عند الطلاق أو الرجعة، شخصين من أهل

العدالة والاستقامة ممن تثقون في دينهما وأمانتهما، والإشهاد ليس شرطا لصحة الفراق أو الرجعة بل هو مندوب « احْتِيَاطاً لَهُمَا وَنَفْياً لِلتُّهْمَةِ عَنْهُمَا إذا عُلِمَ الطَّلَاقُ وَلَمْ يُعْلَمْ الرَّجْعَةُ أَوْ لَمْ يُعْلَمْ الطَّلَاقُ وَالْفِرَاقُ، فَلَا يُؤْمَنُ التجاحُدُ بَيْنَهُمَا »[(١)].

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ أي اشهدوا بالحقِّ دون تحيُّز لأحد، مبتغين بذلك وجه الله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ أي هذا الذي مرَّ من الأحكام، إنما ينتفع ويتعظ به المؤمن الذي يخشى الله، ويخاف الحساب والعقاب في الدار الآخرة.

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾: حضٌّ على التقوى في سائر الأحوالِ، ولا سيما فيما سبق من أمر الطلاق، والمعنى ومن يتق الله فيطلق للسنة ولم يضارّ المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ من الهموم والكروب والكُربِ والمِحَن.

قال الإمام البيضاوي: « وعدٌ لعامة المتقين بالخلاص عن مضارِّ الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون»[(٢)].

وقال صاحب الظلال: «﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾.. مخرجاً من الضيق في الدنيا والآخرة، ورزقاً من حيث لا يقدر ولا ينتظر. وهو تقريرٌ عام، وحقيقة دائمة، ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحي بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقي المتقون ربَّهم في هذا الشأن بصفة خاصة، وهو الشأن الذي لا ضابط فيه أحس ولا أدق من ضابط الشعور والضمير، فالتلاعب فيه مجاله واسع، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير»[(٣)].

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٥ / ٣٥٠.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي ٣/ ٤١٥.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٨.

لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾: بعد انتهاء المحنة وانجلاء البلاء تأتي المنح والهبات والعِوَض والأعطيات، ويرزق العبد من حيث لا يحتسب.

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾: من فوَّض إليه أمره كفاه ما أهمَّه، والأخذُ بالأسباب لا ينافي التوكل، لأنه مأمور به ولكنْ لا يعتمد على تلك الأسباب ويدع التوكل فالله تعالى حسبه وكافيه.

وفي هذا حض على التوكل وتأكيدٌ له، لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله، توكَّل على الله وحده ولم يعوِّل على سواه.

﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ أي قد جعل الله لكلِّ أمرٍ من الأمور، مقداراً معلوماً وميقاتاً لا يتعداه.

قال القرطبي: « أي جعل لكلِّ شيءٍ من الشدة والرجاء أجلاً ينتهي إليه »[1].

وفي الآية: بيانٌ لوجوبِ التوكلِ عليهِ تعالَى، وتفويضُ الأمرِ إليهِ لأنَّه إذا علمَ أنَّ كلَّ شيءٍ من الرزقِ وغيرِه لا يكونُ إلا بتقديرِه تعالَى لا يبقى إلا التسليمُ للقدرِ والتوكلُ على الله تعالى.

قال صاحب الظلال: « ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾.. فمجال الكيد في هذه العلاقة واسعٌ، ومسالكُهُ كثيرةٌ، وقد تؤدي محاولة اتقاء الكيد إلى الكيد! فهنا إيحاء بترك هذه المحاولة، والتوكل على الله، وهو كافٍ لمن يتوكل عليه. فالله بالغ أمره. فما قدر وقع، وما شاء كان؛ فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر، وقوة القاهر، الفعال لما يريد، البالغ ما يشاء... ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾: فكل شيء مقدر بمقداره، وبزمانه، وبمكانه، وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه. وليس شيء مصادفة، وليس شيء جزافاً. في هذا الكون كله، وفي نفس الإنسان وحياته.. وهي حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب كبير من التصور الإيماني...

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ١٦١.

وذكر هذه الحقيقة الكلية هنا يربط بها ما قدره الله عن الطلاق وفترته، والعدة ووقتها، والشهادة وإقامتها. ويطبع هذه الأحكام بطابع السنة الإلهية النافذة، والناموس الكلي العام. ويوقع في الحس أن الأمر جد من جد النظام الكوني المقدر في كل خلق الله»[(١)].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

المناسبة واضحة بارزة حيث جاء الحديث عن بعض أحكام الطلاق وآدابه.

الهدايات المستنبطة

* إباحة الطلاق عند الضرورة الملحة إليه.
* الطلاق في حال الحيض والنفاس بدعة، وكذلك في الطهر الذي وقع فيه جماعٌ.
* لو طلق امرأته في حال الحيض أو في طهر جامعها فيه عمداً عصى الله تعالى ووقع الطلاق لأن النبي ﷺ أمر ابن عمر رضي الله عنهما بالمراجعة فلولا وقوع الطلاق لم يأمره بالمراجعة.
* السنة في الطلاق أَن يكون في طهر لم تمسَّ فيه المرأَة.
* الحث على إحصاء العدة لما يترتب على انقضائها من أحكام، قال ابن العربي رحمه الله: « الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ مَنْ الْمُخَاطَبُ بِأَمْرِ الْإِحْصَاءِ ؟ وَفِيهِ ثَلاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا أَنَّهُمْ الْأَزْوَاجُ. الثَّانِي: أَنَّهُمْ الزَّوْجَاتُ. الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ الْمُسْلِمُونَ.
* وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهَذَا اللَّفْظِ الْأَزْوَاجُ؛ لِأَنَّ الضَّمَائِرَ كُلَّهَا مِنْ { طَلَّقْتُمْ } { وَأَحْصُوا} و{ لَا تُخْرِجُوهُنَّ } عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ يَرْجِعُ إلَى الْأَزْوَاجِ، وَلَكِنَّ الزَّوْجَاتِ دَاخِلَةٌ فِيهِ بِالْإِلْحَاقِ بِالزَّوْجِ؛ لِأَنَّ الزَّوْجَ يُحْصِي لِيُرَاجِعَ، وَيُنْفِقَ أَوْ يَقْطَعَ، وَلِيُسْكِنَ أَوْ يُخْرِجَ، وَلِيُلْحِقَ نَسَبَهُ أَوْ يَقْطَعَ. وَهَذِهِ كُلُّهَا أُمُورٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَتَنْفَرِدُ الْمَرْأَةُ دُونَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ الْحَاكِمُ يَفْتَقِرُ إلَى الْإِحْصَاءِ لِلْعِدَّةِ لِلْفَتْوَى عَلَيْهَا وَفَصْلِ الْخُصُومَةِ عِنْدَ الْمُنَازَعَةِ

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦١٠.

فِيهَا؛ وَهَذِهِ فَوَائِدُ الْإِحْصَاءِ الْمَأْمُورِ بِهِ»[١].

* النهيُ عن إخراجِ المعتدةِ من بيتِ زوجِها إلا بعد انقضاءِ العدةِ ما لم تأت بأمر يستوجب ذلك.

* إذا قاربت المعتدة الانتهاء من العدة فيجب على الزوج مفارقتها أو إمساكها مع مراعاة العدل والإحسان.

* الحثُّ على الإشهاد على الرجعة والطلاق، وذلك بشاهِدَيْ عدل من المسلمين.

* قَوْله تَعَالَى:﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾: فيه أمر بإقامة الشهادات عند الحكام على الحقوق كلها؛ لأن الشهادة هنا اسم للحبس وإن كان مذكوراً بعد الأمر بإشهاد ذوي عدل على الرجعة؛ لأن ذكرها بعده لا يمنع استعمال اللفظ على عمومه، فانتظم ذلك معنيين: أحدهما: الأمر بإقامة الشهادة، والآخر: أن إقامة الشهادة حق لله تعالى، وأفاد بذلك تأكيده والقيام به».

* تقوى الله سبحانه وتعالى بابٌ من أبواب الفرج ومفتاحٌ للرزق والعطاء.

* وجوب التوكل عليه تعالى في جميع الأحوال، والتفويض له عند الشدائد، والتسليم بقضائه وقدره، فإن من توكل على الله كفاه، ومن لم يتوكل وكَّله إلى عجزه وهواه، عَنْ أَبِي تَمِيم الْجَيْشَانِيِّ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً)[٢].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤ / ٣٧٨.

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٥٧٣) رقم (٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح، ورواه أيضاً ابن ماجه (٢/ ١٣٩٤) رقم (٤١٦٤)، وابن حبان (٢/ ٥٠٩) رقم (٧٣٠).

من الأحكام المترتبة على الطلاق

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق: ٤ - ٧].

المناسبة

هذه الآية متصلة بما قبلها من حيث بيان ما يتعلق بالطلاق من أحكام العدة، فضلا عما ورد في هذا الشأن في سورة البقرة فهي متممةٌ لما ورد هناك، كما ترشدُ الآيات إلى بعض حقوق المطلقات.

سبب النزول

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ "أَنَّ نَاساً مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَمَّا أُنْزِلَتْ الآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ فِي عِدَّةِ النِّسَاءِ قَالُوا: لَقَدْ بَقِيَ مِنْ عِدَّةِ النِّسَاءِ مُدَّةٌ لَمْ تُذْكَرْ فِي الْقُرْآنِ: الصِّغَارُ وَالْكِبَارُ اللائِي قَدِ انْقَطَعَ عَنْهُمُ الْحَيْضُ، وَذَوَاتُ الْحَمْلِ، فَأَنْزَلَ اللهُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ الْقُصْرَى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾، إِلَى آخِرِ الآيَةِ»[1].

(١) تفسير ابن أبي حاتم - ١٠ / ٣٣٦٠، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦ / ٢٣٩ إلى إسحق بن راهويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي بن كعب جامع البيان للطبري ٢٣ / ٤٥٠ وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٦٠ والمستدرك للحاكم كتاب التفسير باب تفسير سورة الطلاق حديث ٣٧٨٠.

التفسير الإجمالي

من أحكام العدة

قال تعالى ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ بيَّن تعالى عدة المرأة التي يئست من المحيض لكبر سنها وكذلك من رابها الأمر من البالغات مبلغ اليأس، وقد نزل الدمُ فلا تدري أهو دم حيض أم استحاضة ؟ وكذلك من لا تحيض إما لعدم بلوغها أو لطبيعةٍ فيها: فعدتهن ثلاثة أشهر، ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾، أما الحامل فعدتُها تنتهي بوضع الحمل سواء كانت مطلقة أو مات عنها زوجها، ﴿ وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴾ فالحاملُ سواءً كانت مطلقةً أو متوفًّى عنها زوجُها، عدتُها بوضع الحمل.

وفي الصحيحين من حديث سُبَيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِث الأَسْلَمِيَّةِ أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ، وَهْوَ مِنْ بَنِى عَامِرِ بْنِ لُؤَىٍّ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً، فَتُوُفِّىَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهْىَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ - رَجُلٌ مِنْ بَنِى عَبْدِ الدَّارِ - فَقَالَ لَهَا مَا لِي أَرَاكِ تَجَمَّلْتِ لِلْخُطَّابِ تُرَجِّينَ النِّكَاحَ فَإِنَّكِ ! وَاللَّهِ مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، قَالَتْ سُبَيْعَةُ: فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، وَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي، وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي.[1]

وفي رواية لمسلم بسنده... عن أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: إِنَّ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةَ نُفِسَتْ بَعْدَ وَفَاةِ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه واللفظ له كتاب «المغازي - باب فضل من شهد بدراً» حديث ٣٧٧٠ ورواه مسلم في صحيحه « كتاب الطلاق باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل» حديث ٥٦ - (١٤٨٤).

زَوْجِهَا بِلَيَالٍ، وَإِنَّهَا ذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَمَرَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ..»[(١)].

وهذا من تيسير الإسلام ورحمته بالمطلقة والأرملة أن شرع لها الزواج بعد انقضاء عدتها التي قدَّر لها هذه المدةَ اليسيرةَ رحمةً بها وتخفيفاً عليها ورعايةً لها[(٢)].

﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥ ﴾

فهذه الأحكام أوامرٌ من الله، أوجبها لما فيها من الخير والصلاح، ومن يتق الله ويراعي تطبيق هذه الأحكام يكفر الله تعالى له ما سلف من ذنوبٍ ويعظم له الأجر والثواب.

قال الإمام النيسابوري: « ومن أسرار القرآن ولطائفه أنه سبحانه حثَّ على التقوى في هذه السورة ثلاثَ مراتٍ: بقوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ وذلك على عدد الطلقات الثلاث، ووعد في كل مرة نوعاً من الجزاء: **الأول**: أنه يخرجه مما دخل فيه وهو كاره ويتيح له خيراً ممن طلقها، الثاني: اليسر في الأمور والموالاة في المقاصد ما دام حياً، الثالث أفضل الجزاء وهو ما يكون في الآخرة من النعماء، ثم حث على التوكل بثلاث جمل متقاربة الخطى: **الأولى** ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ لأن المعبود الحقيقي القادر على كل شيء الغنيّ عن كل شيء الجواد بكل شيء إذا فوض عبده الضعيف أمره إليه لا يهمله البتة، **الثانية**﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ ﴾ أي يبلغ كل أمر يريده ولا يفوته المطلوب، **الثالثة**﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ أي وقتاً ومقداراً، وهاتان الجملتان كلٌّ منهما بيانٌ لوجوب التوكل عليه؛ لأنه إذا علم كونَه قادراً على كل شيء، وعلِمَ أنه قد بيّن وعيّن لكل شيء حدّاً ومقدّراً لم يبقَ إلا التسليمُ والتفويضُ»[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الطلاق باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل حديث ٥٧ - (١٤٨٥).

(٢) لمزيد بيان حول حقوق المطلقة والأرملة يراجع كتاب حقوق المرأة في السنة.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري ٧ / ١٧٥

من حقوق المطلقة

قَالَ تَعَالَى:﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق ٦-٧].

ما زال الحديث موصولا حول ما يتعلق بالطلاق من أحكام وما يترتب عليه من واجبات، وفي هذه الآية الكريمة بيانٌ لما يجب للمعتدة من طلاق رجعيٍّ: النفقة والسكنى على الأزواج، وهو إسكانها في الموضع الذي يسكن فيه الزوج بقدر سعته وطاقته، ونهيٌ عن مُضارَّتها في السكن لإلجائها إلى الخروج منه، أما الطلاقُ البائن: فإذا كانت المطلقةُ حاملا فلها النفقة والسكنى، حتى تضع الحمل، فإذا أرضعت ولدها استحقت الأجر على ذلك، وهذا من رحمة الإسلام بها، فالمرضع تحتاج إلى رعاية صحية وغذائية، لذا أوجب الله تعالى على الرجلِ إعطاء الأجرة لمطلقته على إرضاعها لولدهما رعايةً لحقِّها وحقِّ الطفلِ.

كما أمر الله الآباء والأمهات بالتشاور في شؤون الأولاد بما هو أصلح لهم في أمورهم الصحية والخلقية والتربوية والتعليمية وغيرها؛ من باب التناصح والتعاون على الخير.

قال تعالى ﴿ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي وليأمر كلٌّ منهما صاحبه بالخير، من المسامحة والرفق والإحسان، قال الخازن: «﴿ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف، وقيل يتراضى الأب والأم على أجرٍ مسمى، والخطاب للزوجين جميعاً أمرهم أن يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن ولا يقصدوا الضِرار، وقيل المعروف هاهنا أن لا يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها، ولا المرأة في حق الولد وإرضاعه»[(١)].

أما إذا لم يحصل وئامٌ واتفاقٌ بين الأبوينِ في تحديد الأجرة فليس للأب إكراه الأم على

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام الخازن ٦ / ١٢٠.

الرضاعة إن أبت إرضاع ولدها، بل يستأجر مرضعة أخرى، فإن لم يجد أو عجز عن إعطاء الأجرة لزم الأمَّ إرضاعُ ولدها حفاظا على حقه في الحياة، قال تعالى ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أي في حق الولد وأجرة الرضاع، فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها على إرضاعه بل يستأجر للصبي مرضعاً غير أمه.

﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ أي فليستأجر لولده مرضعةً غيرها، وهو خبرٌ بمعنى الأمر أي فليسترضعْ لولده مرضعةً أُخرى « إلا أن لا يقبل المولود غير أمه فتجبر حينئذ على رضاعه بأجرة مثلها، ومثل الزوج في حالهما وغناهما»[(١)].

قال أبو حيان: وفيه عتابٌ للأم لطيفٌ كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها: سيقضيها غيرك، تريد أنها لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم[(٢)].

قال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل أُجبرت أمه على الرضاع بالأجر[(٣)].

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾: بيانٌ لقدر الإنفاق والمعنى: لينفقْ الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير، على قدر وُسْعِهِ وطاقته، وهو أمرٌ بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله، فلا يكلَّف الزوج ما لا يطيق، ولا تُضيَّع الزوجة، بل لا بدَّ من الاعتدال والموازنة بين الحقوق.

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ أي ومن ضُيِّق عليه رزقه، فكان دون الكفاية﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ أي فلينفق على مقدارِ طاقتِه، وعلى قدرِ ما آتاه الله من المال ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾ أي لا يكلف الله أحداً إلا بقدر طاقته واستطاعته، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٦ / ٣٧٣ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١٠/ ٢٠٥.

(٣) يراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ١٦٩، ورواه الطبري في تفسيره عن السدِّي جامع البيان ٢٣/ ٤٦٢.

الغني، قال أبو السعود: « وفيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكد ذلك الوعد بقوله﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ أي سيجعل الله بعد الضيقِ الغنى، وبعد الشدةِ السعةَ والرخاءَ، وفيه بشارةٌ للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم»[(١)].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

الآيات متعلقةٌ بما يترتب على الطلاق من حقوقٍ وواجباتٍ حيث بينت عدة المطلقة إذا كانت صغيرة أو لا تحيض أو يئست من المحيض، وكذلك عدة الحامل، كما بينت الآيات حق المطلقات في النفقة والسكنى والأجرة على الإرضاع، فالمطلقة الرجعية لها السكنى والنفقة والمطلقة طلاقا بائنا لا سكنى لها إلا إذا كانت حاملا فلها النفقة والسكنى حتى تضع الحمل، ولها الأجرة على الإرضاع إن أرضعت.

الهدايات المستنبطة

* بيان عدة المرأَة المطلقة الآيسة من الحيض والتي لم تحض وهي ثلاثة أَشهر.
* انقضاء عدة الحامل المطلقة أو المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل.
* الحثُّ على تقوى الله سبحانه وتعالى في جميع الأمور؛ فهي السبيل إلى تيسير كل عُسْرٍ وتسهيلِ كلِّ صعبٍ، وتفريجِ كلِّ كربٍ.
* وجوب الامتثال لأَوامر الله واجتناب نواهيه، ففي ذلك الصلاحُ والفلاحُ في الدارينِ.
* من تيسير الإسلام ورحمته بالمطلقة والأرملة أن شرع لها الزواج بعد انقضاء عدتها التي قدَّر لها هذه المدةَ اليسيرةَ رحمةً بها وتخفيفاً عليها ورعايةً لها.
* حقُّ المعتدةِ من طلاقٍ رجعي في النفقة والسكنى على الأزواج؛ إذ لها الحق في النفقة، ولا نفقة بلا بيت، فيسكنها في بعض مساكنه أو يستأجر لها، على قدر طاقته ووسعه، مع تجنب

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود ٨/ ٢٦٣.

مُضارَّتها في السكن؛ لإلجائها إلى الخروج منها.

* مراعاة الإسلام لحقوق الأمهات وحقوق الأطفال، من ذلك فرض نفقة المطلقةُ الحامل وأجرتها على الرضاع.

* جعل الله لكل شيء من الأشياء قدراً لا يتعداه، لا بزيادةٍ ولا بنقصانٍ.[(١)]

* قَوْله تعَالَى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾: هَذَا يُفِيدُ أَنَّ النَّفَقَةَ لَيْسَتْ مُقَدَّرَةً شَرْعاً، وَإِنَّمَا تَتَقَدَّرُ عَادَةً بِحَسَبِ الْحَالَةِ مِنْ الْمُنْفِقِ وَالْحَالَةُ مِنْ الْمُنْفَقِ عَلَيْهِ، فَتُقَدَّرُ بِالِاجْتِهَادِ عَلَى مَجْرَى الْعَادَةِ.

* يجب على الرجل أن يسكن مطلقتَه في حال عدتها من طلاق رجعي أو في مدة حملها إن كان طلاقها بائنا إذ لها الحق في النفقة ولا نفقة بلا بيت، فيسكنها في بعض مساكنه أو يستأجر لها، على قدر طاقته ووسعه.

* يجوزُ فطامُ الطفل قبل تمام الحولين ما لم يترتب على ذلك ضررٌ له.

* قال الإمام الجصاص: « وقَوْله تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ قَدْ انْتَظَمَ الدَّلَالَةَ عَلَى أَحْكَامٍ: مِنْهَا أَنَّهُ إذَا رَضِيَتْ بِأَنْ تُرْضِعَهُ بِأَجْرِ مِثْلِهَا لَمْ يَكُنْ لِلْأَبِ أَنْ يَسْتَرْضِعَ غَيْرَهَا لِأَمْرِ اللَّهِ إيَّاهُ بِإِعْطَاءِ الْأَجْرِ إذَا أَرْضَعَتْ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُمَّ أَوْلَى بِحَضَانَةِ الْوَلَدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُجْرَةَ إنَّمَا تُسْتَحَقُّ بِالْفَرَاغِ مِنْ الْعَمَلِ وَلَا تُسْتَحَقُّ بِالْعَقْدِ؛ لِأَنَّهُ أَوْجَبَهَا بَعْدَ الرَّضَاعِ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ »[(٢)].

* حرص الإسلام على تحقيق العدالة وإقامة التوازن بين جميع الحقوق والواجبات.

* ضرورة التشاور بين الزوجين في ما يتعلق بمصلحة الولد، فإنها مسؤوليةٌ مشتركةٌ بينهما حتى بعد فراقهما.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٧/ ٤٠٤.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٥/ ٣٦٠.

* الائتمار بمعروف يشعر بأن للعرف دخلاً في ذلك كما هو تنبيه صريح أن لا يضار أحد الوالدين بولده وأن تكون المفاهمةُ بين الزوجين بعد الفرقة في جميع الأمور سواء في خصوص الرضاع أو غيره مبناها على المعروف والتسامح والإحسان وفاء لحق العشرة السابقة، ومن باب ولا تنسوا الفضل بينكم.

* من رحمة الله بعباده تكليفهم بقدر وسعهم واستطاعتهم.

عبرٌ وعظاتٌ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق: ٩ – ١٢].

المناسبة

جاءت هذه الآيات مقررةً لما سبقها من أحكام في السورة الكريمة ببيان مصير من عتا عن أمر الله وخالف منهج الله وعطّل شرعته تعالى، فباء بالهلاك والخسران في الدنيا، مع ما ينتظره في الآخرة من عذاب شديد، وفي هذا ما يدعو للتأمل والاعتبار والإقبال على شرعة الله والامتثال لها.

قال الإمام الشوكاني: «لما ذكر سبحانه ما تقدّم من الأحكام، حذّر من مخالفتها، وذكر عتوّ قوم خالفوا أوامره، فحلّ بهم عذابه، فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾»(١).

(١) فتح القدير ٥ / ٢٤٦.

التفسير الإجمالي

لما بين تعالى جملةً من أحكام الطلاق وما يتعلق به من أحكام، وما يستتبعه من حقوق وواجباتٍ، ذكر من العبر والآيات ما يقرر هذه الأحكام ويحثُّ على الالتزام بها، فحذَّر تعالى من عصيانه وتعدي حدوده، وضرب الأمثال بالأمم السابقة الهالكةِ ممن نكبوا عن صراط الله، وانسلخوا عن شرعته وهداه، فقال﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ﴾ أي وكم من قرى كثيرة ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي طغت وتمردت على أوامر الله وأوامر رسله﴿ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾ والحساب الشديد هو الاستقصاء والمناقشة، فلم تغتفر لهم زلة، بل أخذوا بالدقائق من الذنوب فضلا عن جلائلها.

فعاقبناها على عصيانها وطغيانها بألوان شتى من أليم العذاب، من الجوع والقحط والخوف والهمِّ والأوبئة والأمراض، وتسلط الأعداء، وغير ذلك ﴿ وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أي عذاباً منكراً عظيماً يفوق التصور.

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أي فذاقت عاقبة كفرها وطغيانها وتمردها على أوامر الله.

﴿ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ أي وكانت نتيجة عتوِّها وتمردها الهلاك والدمار، والخسران الذي ما بعده خسران..

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فليحذر كلُّ مخالفٍ لشرع الله، وليحذر أولئك المعادون المناوئون لمنهج الله.

ولمّا ذكر ما حلَّ بالطغاة والعصاة من العذاب العاجل والآجل: أمر الله عباده المؤمنين بتقواه والاعتبار بعاقبة العاتين عن أوامره ورسله، فقال ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فاللبيب الأريب هو من اتعظ بغيره،﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي أنتم يا معشر المؤمنين الذين صدقتم بالله ورسوله﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ أي قد أنزل الله إليكم وحياً يُتْلَى، وهو القرآنُ الكريم فهذه التشريعاتُ الربانية التي اشتمل عليها القرآن يتلوها المؤمنُ دائما ويستحضرُ معانيَها ومقاصدَها.

﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ أي هذا الوحي يتلوه عليكم رسول الله، آياتٌ من عند الله، واضحاتٌ جلياتٌ، تبيِّن الحلال والحرام، وتفرِّق بين الحق والباطل والهدى والضلال.

﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ أي ليخرج المؤمنين المتقين من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم.

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ أي ومن يُصدق بالله ويعمل بطاعته ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ يدخله في الآخرة جنات النعيم، تجري من تحت قصورها ورياضها الأنهار.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي ماكثين في تلك الجنان أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون.

﴿ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ أي قد طيَّب الله رزقهم في الجنة ووسَّعه لهم، لأن نعيمها دائم لا ينقطع، قال الطبري: « قد وسع الله له في الجنات رزقاً، يعني بالرزق: ما رزقه فيها من المطاعم والمشارب، وسائر ما أعدّ لأوليائه فيها، فطيَّبه لهم »(١).

وفيهِ مَعْنَى التفخيمِ والتعظيمِ لما رزقَهُ الله المؤمنينَ من الثوابِ.

ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته، وعظيم سلطانه وجلاله، فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ بي﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾المثلية تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف، « قال الجمهور: المثلية في العدد: أي مثلهن في كونها سبع أرضين»(٢).

روى الإمام الطبري في تفسيره والبيهقي في الأسماء والصفات وغيرهما عن أبي ذر ﷺ أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي: فقال (يا أبا ذرّ ما السمواتُ السَّبعُ، والأرضونَ السبعُ عندَ الكرسيِّ إلا كحلقةٍ مُلْقَاةٍ بأرضٍ فلاةٍ)(٣).

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٢٤٦.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري٢٣ / ٤٦٩.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ١٠ / ٢٠٢.

ولكن هل المقصود طبقات الأرض أو كواكب أخرى بمثابة الأرض ؟ أم أنها القارات السبع، باعتبار كل قارة أرضا مستقلة ؟ الله أعلم بمراده، ولعل العلم الحديث يكشف لنا عن هذا المعنى القرآني المعجز.

﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ ﴾ أي يتنزلُ وحيُ الله ويجري أمرُهُ وقضاؤُه بين السموات والأرضين.

﴿ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ أي لتعلموا وتوقنوا بكمال قدرته تعالى فيزداد المؤمنُ هيبةً وإجلالاً، وتعظيماً وتمجيداً لله تعالى ويقيناً بوعده تعالى وتسليماً بشرعه ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ أي ولتعملوا أنه تعالى عالم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

ومعنى ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ ﴾ أن حكم الله وأمره يجري فيها بين السموات والأرض أو فيما يتركب منهما ولا يعلم تلك الأجرام ولا تلك الأحكام ولا كيفية تنفيذها فيهن إلا علام الغيوب.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

هذه الآيات الكريمة بما اشتملت عليه من حِكَم وتوجيهاتٍ وعبرِ وعظات وآياتِ نيِّراتٍ، سيقت لتقرير ما ورد في السورة الكريمة من أحكَام شرعية.

الهدايات المستنبطة

* جاءت هذه الآياتُ بحكم بالغة ومواعظ بليغة ودلائل واضحةٍ؛ لتقرير ما جاء في السورة من أحكام، والترغيب في الامتثال لأوامر الله تعالى والترهيب من تعدي حدوده، وهكذا منهج القرآن الكريم في التشريع؛ يذيِّلُ آيات الأحكام بالقصص والأمثال والوعد والوعيد، والتذكير باليوم الآخر والدعوة إلى التقوى وزيادة الإيمان لتعظيم تلك الأحكام في النفوس وتحبيبها إلى القلوب وتحفيز الهمم إلى تطبيق شرع الله.
* التحذير من عاقبة المعطِّلين لشرع الله تعالى، المتجاوزين لحدوده، فكم عُطِّلت كثيرٌ من

أحكام الإسلام في كثير من البلدان بسبب كيد الأعداء وجهل الأبناء، فضُيِّعَت الحقوقُ واختلت الموازين، وسُلِبَ الأمن، وتأججت الصراعات وطالت النزاعات، وتعطَّلت المصالح، وتفككت الأسر، وانفرط عقد المجتمع.

* الاعتبار بأحوال ومصير الأمم والشعوب الناكبة عن منهج الله المعطلة لشرائع الله تعالى؛ فالسعيدُ من اتعظ بغيره، والشقيُّ من اتعظ بنفسه، وإنما ينتفع بالموعظة ويمتثل لها أصحابُ الإيمانِ الراسخِ والعقولِ النيِّرة.

* «بيانٌ لأصحابِ الرئاسةِ ورجال السياسة أن ضياعَ الدنيا بإضاعةِ الدين، وأن أمن القرى وطمأنينة العالم بالحفاظ على الدين»[١].

* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبٌ شرعي ومقصدٌ ضروريٌّ؛ لحماية الفرد والأسرة والمجتمع من الشرور والمفاسد، وتحقيق المصالح العاجلة والآجلة، والنهوض بالأمة والارتقاء بها إلى معالي الرتب[٢].

---

(١) الحديث رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ٣/ ٣٩٩ عن أبي ذر وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٢٨ ونسبه الى أبي الشيخ في العظمة ٢/ ٦٤٨/ ٥٩ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وأورده البغوي في معالم التنزيل ١/ ٢٣٩، ورواه ابن عساكر كما في تهذيب تاريخ دمشق ٦/ ٣٥٦ والبيهقي في تهذيب الأسماء والصفات ص ٥١٠، ٥١١، ورواه ابن حبان في صحيحه كما في: موارد الظمآن حديث ٩٤ وأورده الألباني في الصحيحة برقم ١٠٩ - ١/ ٢٢٣.

(٢) يراجع في ذلك: كتاب يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر.

سورة التحريم

بين يدي السورة:

١- أسماؤها:

تسمى سورة التحريم.

وتسمى سورة النبي. [١]

وتسمى سورة (لم تحرم)

وتسمى سورة (اللِّم تحرم) بتشديد اللام. [٢]

والتسميتان الأخيرتان من قبيل تسمية السورة بأول كلمة فيها، ولا يشترط في ذلك ورود نص أو أثر عن الصحابة والتابعين.

٢- عدد آيات سورة التحريم اثنتا عشرة آية بالاتفاق.

وعدد كلماتها مائتان وسبع وأربعون كلمة، وحروفها ألف ومائة وستون حرفاً كحروف سورة الطلاق[٣].

٣- مرحلة النزول

سورة التحريم من السور المدنية، التي نزلت في مرحلة متأخرة، فقد ذكر في بعض روايات أسباب النزول ذكر أسماء لأمهات المؤمنين، ولم يكن رسول الله ﷺ بنى بهن إلا في مرحلة متأخر كزينب بنت جحش، وصفية بنت حيي وجاريته مارية القبطية. رضوان الله عليهن جميعاً.

وكذلك ما ورد في كلام عمر بن الخطاب ما يتعلق باستعداد غسان لغزو المسلمين يدل على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ١٧٧. ونظم الدرر للبقاعي ٢٠/ ١٧٩.

(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٥٥. وتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٨/ ٣٤٣.

(٣) منار الهدى للأشموني ص٢٨٤.

أنها نزلت في هذه المرحلة المتأخرة، فاحتكاك المسلمين بالقبائل والشعوب على أطراف الجزيرة العربية لم يكن إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة. ففي هذه المرحلة كانت آيات الذكر الحكيم تنزل لتوطيد دعائم المجتمع الإسلامي في الداخل، وامتداد آفاق الدعوة الإسلامية إلى الخارج فنزلت سورة الجمعة والحجرات والطلاق والتحريم والتوبة....

٤- أسباب نزولها:

أ- روى الإمام البخاري في صحيحه - في عدة مواضع في كتاب التفسير:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيّنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير ؟

إني أجد منك ريح مغافير[1]، قال: ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [الآية : ٤].

ب- وردت روايات أخرى في سبب النزول منها ما رواه ابن جرير الطبري في تفسيره[2] ولم تصح رواية منها كما يقول ابن كثير في تفسيره[3] لذا نقتصر على ما ورد في الصحيح.

٥- المناسبات في سورة التحريم:

أ- المناسبات بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

المناسبات بين السورتين جلية فكلتا السورتين تتناولان مشكلات الزوجية وعلى الأخص

(١) مغافير: بغين معجمة، وفاء بعدها ياء وراء، جمع مغفور بالضم كعصفور، صمغ حلو له رائحة كريهة، ينفحه شجر يقال له: العرفط. بضم العين المهملة والفاء، يكون بالحجاز له رائحة كرائحة الخمر. انظر النهاية لابن الأثير ٤/ ٣٧٤.

(٢) جامع البيان للطبري ٢٨/ ١٠٠.

(٣) تفسير القرآن للصنعاني ٢/ ٣٠٢.

مشكلة الطلاق وما يترتب عليها من تصرفات.

* فقد اختتمت سورة الطلاق بالنص على علم الله المحيط بما في السماوات والأرض في قوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الطلاق١٢.

وافتتحت سورة التحريم بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [التحريم: ٢]، وقوله عز وجل: ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ﴾ [التحريم: ٣]، يقول البقاعي: «لما ختم الله تعالى الطلاق بإحاطة علمه، وتنزل أمره في الخافقين في تدبيره، دل عليه هذا بإعلاء أمور الخلق بأمر وقع بين خير خلقه وبين نسائه اللاتي من خير النساء»[1].

* جاء في خاتمة سورة الطلاق الحث على الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، وهو العمل وفق ما جاء به رسول الله ﷺ وهو طريق الفلاح والخروج من الظلمات إلى النور، حيث جاء النص الكريم ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ [الطلاق ١١].

جاء في سورة التحريم الدلالة على بداية العمل الصالح وهو التوبة والالتزام بطاعة رسول الله ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

* جاء في خواتيم سورة الطلاق النص على بعض مهمات الرسول ﷺ وهو التشريع للأمة في الحلال والحرام، وكفارة اليمين.. وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ ﴾ [التحريم ١-٤].

ب - المناسبات بين مضمون سورة التحريم ومضمون سورة الطلاق:

* كلتا السورتين افتتحت بخطاب النبي ﷺ.

* كلتا السورتين اشتملت على أحكام تتعلق بالنساء قال أبو حيان: والمناسبة بينها وبين

(١) نظم الدرر ٢٠/ ١٧٩، ط الهند.

السورة التي قبلها: أنه لما ذكر جملة من أحكام زوجات المؤمنين.. ذكر هنا ما جرى من زوجات رسول الله ﷺ(1)، ويقول الفخر الرازي: «.. لاشتراكهما في الأحكام المخصوصة بالنساء واشتراك الخطاب بالطلاق في أول تلك السورة مع الخطاب بالتحريم في أول هذه السورة..»(2).

* ورد في سورة الطلاق تحريم ما أحل الله بالطلاق وإنهاء خصومة بعض نساء الأمة، وهذه السورة في تحريم ما أحل الله من نوع آخر بالإيلاء، وإنهاء خصومة نساء النبي ﷺ وإفرادها بأحكامهن تعظيماً لهن(3).

* لما تحدثت سورة الطلاق عن الأحكام المترتبة على إيقاع الطلاق من: عدة ونفقة وسكن وإرضاع.. جاء في سورة التحريم التهديد بالطلاق لتعلم كل من شملها التهديد أن هناك مشكلات تنتظرها إن وقع عليها الطلاق، وفي ذلك تربية بالإيحاء، فمن أقسى الأمور على نفس المرأة تهديدها بالطلاق وتذكيرها بما يترتب عليه من هدم لعش الزوجية وتشريد وعوز للأولاد.

ج- المناسبة بين افتتاحية سورة التحريم وخاتمتها:

افتتحت سورة التحريم بأمرين واختتمت بإشارتين إليهما.

* الأمر الأول يقول البقاعي: وقد أتم سبحانه الأمثال في الآداب بالثيبات والأبكار الأخيار والأشرار فانعطف آخر السورة على أولها في المعاني والآداب، وزاد ذلك حسنا كونها في النساء في الذوات والأعيان بزواج النبي ﷺ لآسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران في الجنة دار القرار السالمة عن الأكدار، الزواج الأبدي، فصار أول السورة وآخرها في أزواجه ﷺ(4).

---

(1) البحر المحيط ٨/ ٢٨٩ ط مكتبة النصر الحديثة، وانظر تفسير حدائق الروح لمحمد الأمين الهرري ٢٩/ ٤٢٥.

(2) مفاتيح الغيب للرازي ٣٠/ ٤١.

(3) التفسير المنير للزحيلي ٢٨/ ٣٠٠.

(4) نظم الدرر ٢٠/ ٢١٥.

- الأمر الثاني: افتتحت السورة بالحديث والتهديد للمتظاهرتين وهما قرينتا أحب خلق الله إلى الله. وأشارت الخاتمة إلى زوجي نبيين عندما خالفتاهما في العقيدة ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [الآية: ١٠].

فلن ينفعهما قربهما من الصالحين. وفي ذلك شارة وتهديد. يقول صديق خان (... يلوح أبلغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله فإن ذلك لا يغني عنهما شيئاً) (١).

د- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

حادثة تحريم رسول الله ﷺ العسل على نفسه بمعنى الامتناع منه إرضاء لزوجاته جعلت منطلقاً لبيان معالم وهدايات تتعلق بالأسرة، فعادة القرآن الكريم في كثير من المواضع، ذكر جزئية أو حادثة معينة، ثم الانطلاق منها أو التوسع في تربية الأفراد أو الجماعات على ضوء الحادثة الجزئية.

وسنورد مزيداً من المناسبات بين محور السورة ومقاطعها، وبين كل مقطع والمقطع السابق له عند الحديث عن المقاطع استقلالاً.

المقطع الأول (عتاب ومغفرة)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾ [الآية: ١-٢].

تأتي عتابات الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم في ألطف العبارات وأرقها، فقد جاء عتابه بشأن حادثة عبد الله بن مكتوم وعتابه في شأن أخذ الفداء من أسرى بدر بصيغة الغائب تجنباً

(١) حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة ص١٠٤.

للصدمة. وزاد إباحة الفداء مباشرة ووصف الأخذ بالحلال الطيب وختم العتاب بالنص على المغفرة والرحمة. وفي عتابه بعد إذنه للمنافقين بالتخلف يوم العسرة قدم ذكر العفو قبل ذكر العتاب تكريماً وتطميناً ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

وفي هذا المقطع نجد العتاب بدأ بالنداء بوصف النبوة وفيه من التشويف والتطمين على أن ما يذكر بعد لا يؤثر على مقامه العالي فهو النبي المكرم. ثم يأتي العتاب في صيغة سؤال تلطف ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ ثم ذكر السبب الدافع للتحريم ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾.

وهذا السبب غير معتبر في الامتناع وليس فيه مصلحة عامة ولا خاصة لأنه مبني على الغيرة بين الأزواج ولا اعتبار لها في التشريع. ومما خفف العتاب أيضاً هنا تذييل الآية بذكر المغفرة والرحمة.

المناسبة بين افتتاحية السورة ومحورها:

وافتتاحية السورة وثيقة الصلة بالمحور فرسول الله ﷺ وهو قدوة الأمة يعلم ويعاتب ولا يقرُّ على بعض اجتهاداته وفي كل ذلك معالم تربوية للأمة.

دروس وعبر من المقطع الأول:

أ- أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته مصدر تشريع للأمة لذا كانت المبادرة إلى تنبيه أن الامتناع عن المباح لغير مصلحة معتبرة سابقة تشريعية قد تؤدي إلى حرج الأمة. فكان الأمر بالرجوع عن هذا الموقف الاجتهادي.

ب-عظيم مكانة رسول الله ﷺ عند ربه، ففي كل مقام هضم رسول الله ﷺ حظ نفسه إشفاقاً على من حوله، أو تواضعاً أو إيثاراً لرغبات غيره، تولى الله سبحانه وتعالى الدفاع عنه وعلمهم الأدب اللائق والتصرف الذي يتناسب مع مقام النبوة كما في افتتاحية سورة الحجرات، وتقديم الصدقة بين يدي نجواه في سورة المجادلة وعدم مناداته باسمه المجرد كما في سورة النور، وعدم إحراجه في بيته في أوقات راحته كما في سورة الأحزاب.

جـ-إن للكلمة في الإسلام وزنا، فلا ينبغي أن تخرج من فم صاحبها إلا ويعرف مكانها في ميزان الشرع هي له أو عليه، وباب الاستغفار والإنابة مفتوح لمن أراد الرجوع عنها، وإن تضمنت وعداً أو التزاماً في مستقبل الأيام كانت الكفارة والتحلل. كل ذلك يرفع من شفافية الكلمة عند المؤمن، يقول رسول الله ﷺ: من حلف على شيء ثم رأى خيراً منه فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير[١] ويقول: «أن المرء ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها سبعين خريفاً في نار جهنم»[٢].

المقطع الثاني (إفشاء سر الزوجية وعواقبه)

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [التحريم: ٣-٥].

المناسبة بين المقطع الثاني والذي قبله:

علاقة هذا المقطع بما تقدمه كالتفصيل للإجمال، فإن النفوس تتطلع إلى معرفة أسباب العتاب لرسول الله ﷺ، وتفاصيل ما جرى بينه وبين أزواجه.

المعنى الإجمالي للمقطع:

وكعادة القرآن الكريم في التركيز على جوانب معينة على الأحداث مما له شأن في التوجيه

(١) صحيح مسلم الحديث رقم (١٦٥٠) كتاب الأيمان ٥/ ٨٥.

(٢) صحيح البخاري الحديث (٦١٣٣).

والتربية، نجد أنه أهمل الحديث عن الشيء الذي حرمه رسول الله ﷺ على نفسه، كما أهمل ذكر الشيء الذي أسره إلى بعض أزواجه ولم يتحدث عن جوانب الحديث الذي عرف به والجانب الذي أعرض عنه، إنما كان التركيز على إيداع السر وإفشائه وإطلاع رسول الله ﷺ على ذلك وكشفه جوانب منه، ولم يستقص ترفقاً وتكريماً وإبقاءً.

- فما استقصى كريم قط - واستغراب المستكتمة قولها (من أنباك بهذا).

وكل ما ذكر هنا من نقاط موطن عظات وعبر ومنطلقات للتوجيه والتربية.

ثم يفتح باب التوبة للمتظاهرتين اللتين كانتا السبب المباشر في امتناع رسول الله ﷺ عن شرب العسل عند زينب بنت جحش وكان شيئاً يحبه رسول الله ﷺ، فعندما اتفقتا على حرمان رسول الله ﷺ من ذلك، فقد مالت قلوبهما إلى ما يكره رسول الله ﷺ وهذا الميل كاف لأن يوجه إليهما الإنذار والوعيد الشديد، فإن تابتا غفر الله وإن استمرتا على موقفهما من الإصرار على ما يكرهه رسول الله ﷺ، فإن الله في وصف رسوله وناصره ومع رسول الله جبريل وصالح المؤمنين بما فيهم أبوا المتظاهرتين والملائكة جميعاً. فهل لهم قبيل في المجابهة والعناد ؟!

ولم يكتف بالإنذار والوعيد للمتظاهرتين بالعقوبة الآجلة، بل جاء الوعيد بعقوبة عاجلة وهي الطلاق والاستبدال بهن خيراً منهن في الصفات الخُلقية والخِلقية. ولا شك أن من أعظم المصائب على المرأة وأشدها أثراً على نفسها إخراجها من عش الزوجية التي بنت لبناته من عواطفها، ونسجت خيوطها من ذكرياتها، وأشد من ذلك أن ترى أن غيرها حلت محلها في قلب زوجها واستمتعت بما كانت تستحوذه من مملكتها الخاصة.

ومن خلال التهديد بالاستبدال بهن أزواجاً خيراً منهن تأتي الصفات التي كانت سبب الخيرية فيهن: فهن مستسلمات لأوامر الله ورسوله، مؤمنات بما ينتظر المطيعات لأمر رسول الله ﷺ من المثوبة في الآخرة، مما جعلن يلتزمن الطاعة، وإن بدر منهن شيء ووقعن في التقصير، تبن إلى الله ورسوله وندمن على ما وقع منهن، وعدن إلى عبادته وهجرن المخالفات

والتقصير والتزمن النهج السوي. هذه صفاتهن المعنوية وأخلاقهن وزيادة في تكريم رسوله سيكون منهن البكر والثيب فالبكر أنقى أفواها وعروبة تتحبب إلى الزوج، والثيب أوسع خبرة في خدمة الزوج وتوفير الراحة له.

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

ولاشك أن هذا المقطع شديد الصلة بمحور السورة فقد اشتمل على أحكام وآداب وأساليب تربوية في غاية الجمال وسنتطرق إلى جملة منها في الدروس والعبر.

دروس وعبر من المقطع الثاني:

أ- قوام الحياة الزوجية على الثقة المتبادلة بين الزوجين، ومما يدعم هذه الثقة ويوطد أركانها كتمان أحدهما لسر الآخر وعدم إفشائه. وعند وقوع ما يخدشها فالعتاب الرقيق والمحاسبة الجزئية على بعض المآخذ، كفيف بإعادة المياه إلى مجاريها ويجتنب الاستقصاء والإلحاف في المساءلة والمعاقبة (فما استقصى كريم قط).

١-الطلاق شديد الوقع على نفوس أهل البيت جميعاً، ولكن الطرف الأكبر ضرراً وتأثراً هي المرأة، فهي ترى في الطلاق هدم لعش الزوجية الدافئ، وتدمير لمملكتها وعرشها التي تتربع عليه، وقطع لوشائح المودة التي نسجت خيوطها من عواطفها ومشاعرها. ومما يضاعف التأثر والإزعاج لها إذا علمت أن أخرى ستحل محلها، وتكون خيراً منها وأقرب إلى قلب زوجها.

٢-تكريم أمهات المؤمنين باستخدام ألطف العبارات وأخفها عند تهديدهن بالطلاق والاستبدال حيث جاء التعبير بـ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾ ودلالة عسى تفيد الترجي[1] أولاً ثم علق هذا الترجي بشرط - إن طلقكن - واستخدم في الشرط حرف - إن - وهو يفيد التشكيك بخلاف- إذا - التي تفيد تحقق الوقوع.

(١) يقول اللغويون كل (عسى) من الله تفيد تحقق الوقوع إلا في هذا الموضع.

٣-خير الأزواج ما توفر فيهن الصفات المذكورة في الآية الكريمة ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾.

فعندما هددت أمهات المؤمنين بالاستبدال بهن غيرهن خيراً منهن جاء تفصيل الخيرية في الصفات السبع التي ذكرت في الآية وكلها صفات تدل على المستوى الإيماني الرفيع والأخلاق النبيلة وإيثار الآخرة على الفانية وكأنها تفصيل لما رغب فيه رسول الله ﷺ (فاظفر بذات الدين تربت يداك) [١].

المقطع الثالث (الرعاية مسؤولية ومكافأة)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾ [التحريم/ ٦-٩].

بعد التهديد والوعيد للمتظاهرتين إن لم تتوبا عما وقع منهما، يأتي في هذا المقطع الدلالة على طرق الوقاية من الوقوع في غضب الله وعذابه، وتذكر الأساليب التربوية المختلفة لحماية الأسرة والمجتمع من الانحراف والضياع. وهو أسلوب قرآني كثير الورود والدوران بأن تتخذ حادثة نقطة انطلاق للتعميم والتوسع لتشمل الهدايات الإسلامي بل والإنسانية كلها فمن حادثة المتظاهرتين إلى مخاطبة الكافرين والناس عامة.

(١) صحيح البخاري الحديث رقم (٤٨٠٢) كتاب النكاح ٦/ ١٢٣ وصحيح مسلم الحديث رقم (١٤٦٦)- كتاب الرضاع ٤/ ١٧٥.

المعنى الإجمالي للمقطع:

لقد شبه الرسول ﷺ المسؤولين عن غيرهم بالرعاة، ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها...)(١). وهو تشبيه في غاية الجمال والدقة.

فإن الراعي يرتاد لبهيمة الأنعام التي يرعاها المرعى الخصب وكذلك المؤمن الذي يحرص على وقاية أهله من النار فإنه يسعى عليهم بالكسب الحلال.

- من شأن الراعي أن يداوي مرضاها ويهنأ جرباها... وكذلك رب الأسرة مسؤول عن دفع الأذى عن أهل بيته يوفر لهم سلامة الأبدان والأديان ويرشدهم إلى الطريق القويم والسلوك المستقيم.

- والراعي يجنب غنمه المسبعة والمذأبة والمهلكة.. ورب الأسرة يجنب أهل بيته مصارع السوء ومباءة الرذيلة والمفاسد الخلقية والمزالق العقدية.

ويعطي المؤمن من نفسه القدوة والمثل الأعلى لأهل بيته في حسن الخلق والوقوف عند حدود الله ومحاسبة النفس والمبادرة إلى فعل الطاعات واجتناب المعاصي ويكون في حاجة الصغير مع الإشفاق عليه، ويكون في خدمة الكبير مع التوفير والاحترام له.

وأول من يراعي في التوجيه والتربية الأزواج فقد تعددت الآيات الآمرة بحسن العشرة لهن يقول عز من قائل ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩]. ويقول رسول الله ﷺ (لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره

(١) صيحيح مسلم الحديث رقم (١٤٦٩). كتاب الرضاع/ ٤ ومعنى يفرك يبغض. النهاية ٣/ ٤٤١١.

منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر)[١].

وتأتي في المرتبة الثانية في الرعاية الأولاد، ولما كانت الشفقة على الأولاد تغلب على حال الوالدين جاء التحذير في أكثر من آية من التمادي في تغليب العاطفة على الحكم الشرعي والتوجيه السديد في حقهم.

يقول عز من قائل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن: ١٤].

وعلى الأب أن يراعي التوازن بين مهام العمل، والعبادة، والتفرغ للأهل، فيعطي كل ذي حق حقه إن أهل البيت بحاجة للغذاء البدني والملابس للستر والزينة، فإنهم بحاجة إلى إشباع الجانب العاطفي من الحنان والاهتمام، وإلى تلبية حاجة الستر والعفاف، وعليه أن يرضي أنوثة الزوج بالتجمل لها كما يحب أن تتزين له. في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال له رسول الله ﷺ (... بلغني أنك تصوم النهار وتقوم الليل فلا تفعل فإن لجسدك عليك حق حظاً ولعينك حظاً وإن زوجك عليك حظاً...)[٢] وكان هذا المنهج المتوازن معلوماً لدى صحابة رسول الله ﷺ كما ورد في حادثة مؤاخاة رسول الله ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء[٣].

إن مسؤولية المؤمن عظيمة تجاه أهل بيته فهو مسؤول عن وقايتهم جميعاً من اقتحام حفرة النار التي تنتظر المنحرفين عن جادة الصواب. إنه مسؤول عن عباداتهم وأدائها على الوجه الصحيح، وعن سلوكهم واستقامته على النهج القويم، وعن أخلاقهم وحسن تعاملهم مع الآخرين.. إنهم أمانة في عنقه. وأي إخلال في المسؤولية والرعاية تعقبها محاسبة وجزاء يوم لا

---

(١) صحيح البخاري الحديث رقم (٨٥٣) كتاب الجمعة ١/ ٤١٥ وصحيح مسلم حديث رقم (١٨٢٩)- كتاب الإمارة ٦/ ٨.

(٢) صحيح مسلم الحديث رقم (١١٥٩) كتاب الصوم ٣/ ١٦٦.

(٣) انظر صحيح البخاري الحديث رقم (١٩٦٨) كتاب الصوم ٢/ ٢٤٣.

ينفع مال ولا بنون.

ومن لطائف الإشارات القرآنية أن يأتي بعد خطاب المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم تلك النار الهائلة المذهلة... أن يأتي خطاب الكافرين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ ﴾ وكأن أي تفريط تجاه الأهل هو كفر أو من أعمال الكافرين. فإن وصل التفريط إلى حد رد شرع الله وإنكاره فهو كفر بواح، وإن كان التفريط في الأعمال مع بقاء الاعتراف بما شرع الله في حقهم فهو من أعمال الكفار. فإنهم يجازون على ما فرطوا في حق من استرعاهم الله وكلفهم بالقوامة عليهم.

ومن الأساليب القرآنية المطردة الجمع بين الترهيب والترغيب، فبعد أن هدد وأوعد من لا يجنب أهل بيته النار وأنهم على خطر الوقوع في الكفر، جاء الترغيب لمن يتدارك تقصيره ويرجع إلى هداية الشرع، ويجزم على إتباع الحق في رعاية الواجبات، والالتزام بالهدايات والقيام بالوفاء بالعهود والمواثيق، وما يترتب عليه، فجاء قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي ﴾إنه التكريم على ملأ، إنه النور الذي يشع من قلوبهم وجوارحهم التي استخدموها في الخير والعمل الصالح، ويختم هذا المقطع بتوجيه الأمر إلى رسول الله ﷺ أن يتخذ الموقف الذي يتناسب مع كل حالة، فالمنافقون يحتاجون إلى غلظة من القول، وتحذير من العواقب ومجاهدة باللسان. أما الكفار فجهادهم بالدعوة إلى الله أولاً فإن أجابوا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإن لم يستجيبوا، فعليهم الابتعاد عن طريق دعوة الله، وأن لا يكونوا عثرة في طريق انتشارها، فإن رفضوا فالجهاد بيننا وبينهم بالقتال. والمؤمن في سعيه في ذلك لا يكون يرجو إلا إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة أما هم فليس لهم إلا الخذلان في الدنيا أو في الآخرة ﴿ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

إن هذا المقطع يشكل العمود الفقري في السورة والعنصر الأساسي في محورها كما سنلقي مزيداً من الضوء على ذلك من خلال الدروس والعبر.

دروس وعبر من المقطع الثالث:

- عظم مسؤولية تجاه من استرعاهم الله سبحانه وتعالى إياه. وعليه أن يحرص على مصلحتهم الدنيوية والأخروية حرصه على مصلحته الخاصة. ولا يكفيه صلاح نفسه ووقايتها من النار فمن شروط وقايتها من النار العمل على ما يقي أهله من النار أيضاً، وربما كانوا سبباً في إقحامه جراثيم جهنم لعدم رعايتهم كما أمر الله وترك الحبل لهم على الارب في العقائد والأخلاق والسلوك.

١- من الأساليب التربوية المطردة في القرآن الكريم عدم التيئيس من رحمة الله وفتح باب التوبة للعائدين إلى الله مهما عظمت الذنوب ومهما كان البعد الطريق القويم بل ويبرز فرح ربه بعودة الآبق المتمرد إلى حظيرة الطاعة. فعن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب ليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو به قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[(١)].

٢- من شروط التوبة النصوح التي قال الله سبحانه وتعالى عنها ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان/ ٧٠].

- الإقلاع عن الذنب.

- الندم على فعله.

- العزم على عدم العودة إليه. وإن بحق آدمي فعليه أن يبرأ من حق صاحبه.

إن رحمة الله واسعة فلا ييأس مذنب من رحمة ربه ومتى صدق التوجه إلى ربه وجده تجاهه

(١) مسند أحمد الحديث رقم (١٩٥٤٧) وصحيح مسلم الحديث رقم (٢٧٥٩) كتاب التوبة ٨/ ١٠٠.

عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها[1].

٣- من الأساليب التربوية الإشارة والتكريم على ملأ، فإن القيمة المعنوية للمكافأة أو الجائزة قد تكون أعظم من قيمتها المادية. فالتكريم على ملأ من وجهاء الناس يشعر المستحق للجائزة بمزيد من الاحترام والتقدير. هذا ما نستشفه من مكافأة التائبين المنيبين إلى ربهم، فلم يكتف بتكفير السيئات لهم، وإدخالهم الجنة، وإنما يأتي هذا التكريم في موكب كريم مهيب يشهده الأنبياء والمرسلون والشهداء والصالحون، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، على قدر إيمان كل منهم. وما أن يقتربوا من أبواب الجنة حتى تستقبلهم الملائكة بالحفاوة والتكريم ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر: ٧٣].

إنها السعادة الآخروية التي لا تضاهيها سعادة.

٤- من الأساليب التربوية الغلظة أحياناً على من يرعاهم ويوجههم. وعدم الانسياق مع رغباتهم وتلبية مطالبهم، فإن الإكثار من التلطف معهم يجعلهم يتطلعون إلى الإكثار من المباحات بل والتجاوز إلى المكروهات والمحرمات وأسلوب الغلظة يتناسب مع الشخص والفئة التي تحتاج إلى الموعظة والتوجيه.

- فالأسلوب المتبع مع الأهل - الزوجة والأولاد - الترغيب والترهيب والموعظة الحسنة ولو بتقديم الهدايا والمنح.

- والأسلوب المتبع مع المنافقين التخويف بالنار والإنذار والغلظة في القول ببيان سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

- والأسلوب المتبع مع الكفار المستأمنين وأهل الذمة بالدعوة تارة، ورعاية مصالحهم

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١١٣) رقم (٩٥٧٢).

أحياناً ومجادلتهم بالحكمة والموعظة الحسنة كثيراً.

- والأسلوب المتبع مع الكفار المحايدين بالدعوة والحجج والبراهين.
- والأسلوب المتبع مع الكفار المحاربين الدعوة ثم التخيير بين الجزية والقتال.

إن المربي الحصيف يستخدم الوسيلة الأمثل للوصول إلى التأثير في نفس المخاطب.

المقطع الرابع (العظات والعبر من سير الأقدمين)

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [١٠-١٢].

المناسبة بين المقطع الرابع والذي قبله:

يأتي هذا المقطع بعد التهديد والوعيد والأمر بالغلظة على الكفار والمنافقين، وربما توهم بعض الكفار الذين كانت لهم قرابات بالمسلمين أنها تنفعهم، كما أن للمسلمين قرابات مع الكفار فربما توهموا أنها تضرهم، فضرب لكل طائفة مثلاً.

المعنى الإجمالي للمقطع:

إن مبدأ المسؤولية في الإسلام فردية ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥]. إن لم يكن الفرد سبباً في تصرفات الآخر، فإن النسب لا يقدم ولا يؤخر إذا خالفه الاعتقاد والعمل. إن القرب من الصالحين مع مخالفة المعتقد لا ينفع، وكذلك الاقتران بالسيئين لا يضر ما دام لا مودة ولا ولاء يجمعهما.

وقد سيق مثلان من قصص الأقدمين على ذلك، فامرأة نوح عليه السلام خانته في العقيدة ولم تؤمن به وكانت عوناً لقومها على تسفيه رأيه بل أثرت على تربية ولدها ليتمرد على أبيه فلا يركب معه السفينة. ولا شك أن دور المرأة ذو أثر فعال في التربية داخل البيت وذو تأثير على المدعوين من خارج البيت، لأن الناس البعداء يقولون لو كان هذا الداعي صادقاً لصدقه أهل بيته فهم أعلم الناس به.

ونظيرتها امرأة لوط التي كانت تدل على أضياف زوجها وتخبر القوم عنهم فلم تحافظ على أسرار البيت التي انتسبت إليه.

وفي ذكر هاتين الامراتين تنبيه مبطن للمتظاهرتين وتحذير لهما من الاغترار بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحق ما يجب من الإخلاص للنبي ﷺ. فعن مقاتل: يقول الله سبحانه وتعالى لعائشة وحفصة لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية، وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم، فالله يحقق وعيده ولا يمنعه من ذلك أنها زوجة نبي[1].

ومن المهم الالتفاف إلى أن خيانة الامرأتين لم تكن خيانة زنا وإنما خيانة في الدعوة والعقيدة فنساء الأنبياء معصومات عن الفاحشة لعصمة الأنبياء وحرمتهم، كما ورد عن ابن عباس وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم. ولا يقال كيف يصح الزواج بكافرة على غير دين الزوج ؟ فإن في شريعتنا جواز التزوج بالكتابيات وهن كافرات ومصيرهن إلى النار في عقيدتنا إن متن على ملة النصرانية أو اليهودية.

والمثل الثاني الذي ضرب في هذا السياق لامرأتين، الأنموذج الأول امرأة فرعون التي تجسد في شخصيتها الشموخ والتسامي عن ملذات الدنيا ومتعها وأبهتها، وركلت كل ذلك برجلها وضحت في سبيل عقيدتها بالدنيا وما فيها لتظفر بما عند الله ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

(١) انظر التحرير والتنوير باختصار ٢٨/ ٣٧٤.

يقول رسول الله ﷺ كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد. وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام(١).

والنموذج الآخر الذي ضرب به المثل من النماذج الحسنة مريم ابنة عمران عليها السلام إنها تمثل أنموذج الفتاة الصالحة التي نشأت في بيت الطاعة وفي بيئة صالحة في كنف نبي من أنبياء الله تعالى زوج خالتها نبي الله زكريا عليه السلام حيث قام بكفالتها ورعاية شؤونها. إنها مثال النبل والطهر والعفاف والتقوى منذ نعومة أظفارها فكان تكريم الله تعالى أن يجعلها وابنها آية للناس ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء/ ٩١].

المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

إن أكثر مزالق المرأة بالمال والزينة والجاه والتباهي بالمكانة الاجتماعية أو تكون بشهوة الفرج والانسياق وراء الغريزة البهيمية في الجنس.

والأنموذجان الصالحان يمثلان المترفعات عن هذين المنزلقين فاستحقا التكريم وخلود الذكر والثناء إلى يوم الدين. فالمناسبة بين المقطع ومحور السورة واضحة وثيقة، حيث التربية بضرب المثل بالنماذج المنحرفة لاجتناب التشبه بها. وضرب بالنماذج الصالحة للإقتداء به.

دروس وعبر من المقطع الرابع:

١- من الأساليب التربوية سوق النماذج الإنسانية التي تمثل فيها المبادئ والقيم، فالقضايا الفكرية إذا ذكرت بشكل نظري تأتي باهتة لا تثير الأحاسيس ولا تطلق المشاعر، وقد يظن أنها غير قابلة للتطبيق في واقع الحياة، ولكن إذا عرضت من خلال سيرة أناس تمثلوها في حياتهم وعاشوها واقعاً عملياً لا شك أنهم سيكونون قدوة لمن بعدهم.

---

(١) صحيح البخاري الحديث رقم (٣٥٥٨) كتاب الأنبياء ٤/ ١٣٢.

من يتصور أن تخون امرأة عقيدة زوجها وهي تعايشه ليلاً ونهاراً، والأصل فيها أن تكون مكمن سر الزوج ومستودع أماناته، وأن يجد الزوج عندها السلوة والعزاء في ما يلاقيه من عنت الناس وإيذائهم، ولكن صنفاً من البشر يبرز من خلال هذا الأنموذج السيء - امرأة نوح وامرأة لوط - لتتقرر الحقيقة الربانية: أن القرب من الصالحين لا ينفع من لم يهد الله قلبه للإيمان، فلا عبرة بالقرب المكاني أو النسبي ما لم يكن قرب في العقيدة والقلب. وبالمقابل إن مبادئ الرفعة والتسامي على متع الدنيا وزينتها وحطامها والرغبة في ما عند الله وإيثار الباقية على الفانية، تحفظ لأصحابها المكانة عند الله، ولا عبرة بالقرب من أهل السوء ما دام الفاصل الشعوري بعيداً عنهم. وكذلك معاني العفة والطهر والنبل والكرامة والتي تتمثل في الأنموذجين الصالحين، امرأة فرعون ومريم ابنة عمران. ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢- إن في سير الأقدمين سلوة للدعاة في كل عصر. كثيراً ما يعيَّر الدعاة إلى الله بأبنائهم ونسائهم وأقربائهم، لأنهم لا يلتزمون دعوة ولي أمرهم، ويحمّلون الداعية مسؤولية ذلك. نعم تكون مسؤولية عليه إن لم يبذل الجهد لإصلاحهم ولم يلتفت إليهم ولم يبين لهم الحق الذي يحمله للناس.

أما إذا بذل كل ذلك فلم يستجب له فلا ملامة عليه. وهذا نوح ﷺ وهو من أولي العزم من الرسل، ولوط ﷺ نبي مرسل لم يستطيعا حمل أزواجهما على الهداية. ولئن كانت سيرة نبي الله نوح ولوط عليهما السلام غير معروفة لنا بالتفصيل فإن سيرة رسول الله محمد ﷺ مع عميه أبي طالب وأبي لهب معروفة بوقائعها فقد تحقق سنة الله وحكمته ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

اخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي ﷺ "يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة. فقال لولا أن تعيرني قريش، يقولون: ما

حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك»، فانزل الله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[(١)] الآية.

إذن لا ملامة على الدعاة إن وجد في أسرهم من لا يلتزم دعوته، أو يحاربها، كما أنه قد يوجد في بيئة علم وصلاح من يغلب عليه الجهل والفساد فإن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

٣- دور المرأة في الدعوة وتحمل أعبائها وتمثل المبادئ في سيرتها الخاصة والعامة بارز في القصص القرآني، وفي أحداث سيرة رسول الله ﷺ وعلى الدعاة في العصر الحاضر أن يلتفتوا إلى هذا العنصر الهام في الدعوة ولا يغفلوه.

لقد اتخذ أعداء الإسلام ما سموه حقوق المرأة ومساواتها بالرجل وغير ذلك من المزاعم مطية لمحاربة الإسلام وأهله، والآن يمارسون ضغوطاً هائلة على الحكام في بلاد المسلمين لتغيير ثقافة الأمة ومناهج التعليم، ومنطلقاتهم الأساسية في ذلك المرأة.

إن تهيئة المرأة المسلمة الداعية إلى الله، البصيرة بأحكام شرع ربها، الواعية لمخطط أعداء الإسلام السلاح الذي ينبغي أن تجابه به مخططات أعداء الإسلام.

وفي فتيات المسلمين ونسائهم من لا يقل وعياً وتضحية عن نساء السلف الصالح إن الأمر يحتاج إلى تخطيط وتوجيه لا غير.

(١) صحيح مسلم الحديث رقم (٢٥) وسنن الترمذي الحديث رقم (٣١٨٨).

الخاتمة

لم تحظ مؤسسة اجتماعية في المجتمع الإسلامي بما حظيت به الأسرة في القرآن الكريم ولا غرابة في ذلك فهي اللبنة الأولى التي يتكون منها صرح المجتمع الإسلامي. فمنها يستمد المجتمع قوته ونقاءه وصلابته، وضعفها يسبب ضعف المجتمع وتآكله وانهياره. فلا غرابة أن نرى آيات القرآن الكريم تساير تكوين الأسرة من يوم الاختيار والخطبة إلى توثيق عرى النكاح وبيان حقوق الزوجين، ثم التعرض للعلاقة بينهما وبين ثمرة لقائهما وهم الأولاد.

ويضع الحلول المناسبة للمشكلات التي تنشأ بين أفراد العائلة إلى أن تنتهي العلاقة الزوجية طلاقاً أو وفاة، ثم تصفى هذه العلائق بالحقوق المادية والمعنوية لكل فرد من أفرادها.

لقد عرضت لنا سورة التحريم أحداثاً وثيقة الصلة بالأسرة بل أحداثاً تتعلق بأطهر بيت وأشرفه، بيت هو مصدر تشريع الأمة لتأخذ الأمة العظات والدروس مما كان يجري لرسول الله ﷺ مع أمهات المؤمنين، وما كان يؤمرن به من توجيهات تجاه رسول الله ﷺ وهو قدوة الأزواج المؤمنين، والتوجيه إلى الإنابة إن وقع منهن ما يدعو إلى التوبة والاستغفار والتلويح لهن أن قربهن من رسول الله ﷺ لا يشفع لهن إن خالفهن هديه وتشريعه.

ومن تلك الحوادث الجزئية يكون التوجيه العام للمؤمنين وبيان مسؤوليتهم عمن استرعاهم الله من الأهلين، وذكر ما ينتظرهم من العقوبة في حال التقصير وما ينتظرهم من تكريم في حال قيامهم بمسؤولياتهم.

ثم بيان سنة الله سبحانه وتعالى في المسؤولية الفردية، فلا ينفع القرب من الصالحين ما لم تختلط القلوب بشاشة الإيمان، ولا يضر القرب من الطالحين ما دام القلب عامرا بحب الله ورسوله، وما دام صاحبه يتطلع إلى جوار ربه ويترفع عن سفاسف الدنيا وزينتها.

لقد عشنا مع سورة التحريم وأساليبها التربوية التي جمعت بين التصريح والتلميح وبين الوعد والوعيد والخوف والرجاء. وكل ذلك كان الهدف منه الأسرة الإسلامية وشؤونها.

سورة الملك

أولا: بين يدي السورة

أ. اسم السورة

ذكر العلماء أن من أسماء هذه السورة: الملك، وتبارك، والمانعة، والواقية، والمنجية، فاسمها الملك لأن الملك محل الخضوع من كل من يرى الملك وكذا تبارك، لأن من كان له تمام الثبات والبقاء له من كل شيء كمال الخضوع، وكذا اسمها الواقية، والمنجية، لأن الخضوع حامل على لزوم طريق السعادة ومن لزمها نجى مما يخاف ومنع من كل هول، ووقي من كل محذور[1].

ويدل على بعض هذه الأسماء ما ورد عن ابنِ عَبَّاسٍ أن النبي ﷺ قال: «هِيَ المَانِعَةُ هِيَ المُنْجِيَةُ تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»[2].

ب. عدد آياتها

عدد آيات سورة الملك إحدى وثلاثون آية في المكي والمدني الأخير، وثلاثون آية في الباقين، واختلافها آية واحدة ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ٩] في المكي والمدني الأخير[3] ففاصلة الآية تنتهي هنا عندهم واعتبروا قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ آية أخرى، ومن رأى أن الموضعين آية واحدة قال السورة ثلاثون آية.

---

(١) انظر أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، (٨/ ٦٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة الملك، سنن الترمذي، أبو عيسى دار الكتب العلمية، بيروت، ٨/ ١٨٢، قال أبو عيسَى: هذا حديث حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه.

(٣) أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٠/ ١٥) وانظر محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، (١٦/ ٤).

ب. مكان نزولها:

هذه السورة من السور المكية فقد نزلت في العهد المكي[1].

ج- فضائل السورة

وردت أحاديث متعددة في فضائل هذه السورة منها:

١-ما روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلاثُونَ آيَةً تَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا حتّى غُفِرَ لَهُ: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»[2].

٢-ومنها ما روي عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ «أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ تُجَادِلُ عَنْ صَاحِبِهَا»[3].

د. محور سورة الملك

إن القرآن المكي غالباً ما يعالج إنشاء العقيدة، وسورة تبارك جزء منه.

فقد جاءت تُعنى بأصول العقيدة الأساسية وهي إثبات وجود الله وعظمته وقدرته على كل شيء[4] وعالجت إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقته بخالق الوجود وعليه فمفتاح السورة كلها ومحورها الذي تشد إليه الحركة فيها هو مطلعها الجامع الموحي ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ **وحقيقة القدرة تتفرع منها سائر الصور التي عرضتها السورة وسائر الحركات المغيبة**[5].

---

(١) انظر الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، عالم الكتب، بيروت، (٥/ ٢٥٧).
وانظر أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، (١٠/ ٢١٩).
وانظر محمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٢٩/ ٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، سليمان بن الأشعث، سنن أبي دوود، (١٥٤١).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ/ باب ما جاء في قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

(٤) انظر الزحيلي، التفسير المنير، (٢٩/ ٦).

(٥) سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق بيروت، (٦/ ٣٦٣٢).

إذن فقد جاءت سورة الملك تقيم الحجة على الكفر وأهله مبينة كمال قدرة الله تعالى [1]. «فمقصود هذه السورة الخضوع لله تعالى لاتصافه بكمال الملك الدال على تمام القدرة»[2].

هـ. المناسبات في السورة

أولا: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

اسم السورة الملك وواضح في ذلك أن الملك محل خضوع من كل من يرى الملك الذي يدل على قدرة صاحبه، والسورة محورها بيان قدرة الله وعظيم آثار هذه القدرة في الخلق.

وكذلك اسمها أيضا ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ يدل على أن لله التصرف التام في الموجودات بمقتضى إرادته ومشيئته بلا منازع [3] ويدل على تعظيم وتكبير وتقديس وتعاظم لمن بيده الملك ووفرة الخير من التصرف بالخلق إحياء وإماته، وبالرزق إعطاء ومنعا، وغيرها، وهو أمر يدور في فلك عظيم القدرة التي يحدثنا عنها القرآن[4].

ثانيا: المناسبة بين افتتاحية سورة الملك وخاتمتها

لما افتتح سبحانه وتعالى السورة بعظيم بركته وتمام قدرته وتفرده في ملكه ودلل على ذلك بتفرده بالإماتة والإحياء ختم السورة بمثل ذلك بالحديث عن الماء، الذي وجوده سبب الحياة، وعدمه سبب للموت فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ فنبه بهذه الخاتمة على عظيم قدرته بأنه إن غار الماء في الأرض فلن يأتي أحد غير الله بماء جار لا ينقطع أو ظاهر للأعين[5].

---

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٥، (١٠/ ٦٠٢٣).

(٢) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، (٨/ ٦٢).

(٣) انظر، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (٢٨/ ٥).

(٤) انظر سعيد حوى الأساس في التفسير،، (١٠/ ٦٠٢٥).
انظر البقاعي، نظم الدرر، (٨/ ١٢).

(٥) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٨/ ٨٨).

ثالثا: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

افتتحت سورة الملك بقوله ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ وفيه من التنزيه والتعظيم وصفة التعالي ما لا يخفى ولا يكون ذلك إلا عقب تفصيل وإيراد عجائب من صنعه سبحانه ولما كان قد وقع في آخر سورة التحريم ما فيه أعظم عبرة لمن تذكر، وأعلى آية لمن استبصر من ذكر المرأتين اللتين كانتا تحت عبدين صالحين من عباد الله، وهما النبيان الكريمان نوح ولوط عليهما السلام فلم تؤمنا ولم يغنيا عنهما من الله شيئاً ليعلم العاقل وهو يضع الأسباب أن القلوب بيد الوهاب الذي بيده الملك[1].

وقال الآلوسي لما ضرب مثلاً بتلك المرأتين المحتوم لهما الشقاوة وإن كانتا تحت نبيين عظيمين ومثلا للمؤمنين بامرأتين محتوم لهما السعادة وإن كان أكثر قومهما كفار افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطته عز وجل وقهره وتصرفه وملكه على ما سبق قضاؤه[2].

ويمكن القول أيضا ختم الله سورة التحريم بأن الصلة لا تنفع إلا بالطاعة، وأصل الطاعة المعرفة والتصديق بالكلمات الإلهية، وافتتح هذه السورة بدلائل المعرفة وآيات الربوبية فقال ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾[3].

رابعا - المناسبة بين مقاطع السورة بعضها ببعض وارتباطها بمحورها

جاء المقطع الأول من السورة يبين عظيم قدرة الله وجلال ملكه مقيما الأدلة على ذلك فقال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ

---

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٦٤).

(٢) انظر محمود الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٤).

(٣) انظر أبوعلي الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٥١).

زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ [الملك:١-٥] ولا تخفى علاقته بمحور السورة الذي هو بيان عظيم قدرة الله، فعظم الملك وجلال القدرة بالسيطرة على الخلق موتا وإحياء وخلق السماء كل ذلك دليل شاهد على هذه العظمة.

أما المقطع الثاني وهو قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ فقد جاء هذا المقطع يبين أن من جلائل قدرته سبحانه وتعالى القدرة على عقاب من كفر فبغى وعصى وثواب من أناب وأطاع، وتحقيق هذا الأمر كان عن علم وخبرة من العلي الكبير، الذي استوى عنده العلم بجميع أحوال البشر سرا وجهرا، فهذه الآية ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ تربط ما قبلها بالسياق بما بعدها في تقرير علم الله بالجهر والسر وفيه تحد للبشر ممن خلق نفوسهم وعلم مداخلها ومكنوناتها (١).

أما المقطع الثالث فقد جاء أيضا في سياق محور السورة في بيان عظيم القدرة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۢ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٦٣٦).

[الملك: ١٥-٢٤].

فتسخير الأرض للخلق وتذليلها، وتهيئة الرزق للخلق في الأرض، وإنشاؤهم فيها وأكرمهم بخلقهم في أحسن صورة، كلها دلائل عظام على العلي العلام توجب التفريق بين من مشى في رحاب منهج الله وبين من انكب على وجهه فعصى.

ثم جاء المقطع الأخير من السورة مبينا موقف الكفار من هذه الدلائل التي تدل على عظيم القدرة وتوجب الإيمان بالله وباليوم الآخر، مقرونا بالوعد لمن اهتدى والوعيد لمن عصى فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك: ٢٥-٣٠] وتنفيذ هذا الوعد والوعيد لا يكون إلا من صاحب القدرة التامة سبحانه وتعالى.

خامسا: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما سبقها

إن مقصود سورة التحريم -وهي السورة التي سبقت سورة الملك بترتيب المصحف الحث على التقدير والتدبير في الأدب مع الله، ومع رسوله ﷺ ومع سائر العباد، وحسن العشرة للنساء، اقتداء بالنبي ﷺ في حسن عشرته وكريم صحبته(١)

وسورة الملك جاءت تبين عظيم قدرة الله ودلائل قدرته، وتوضح قدرة الله على إثابة من أطاع وخشي الرحمن بالغيب، فاستحق المغفرة والأجر العظيم بسبب الالتزام بالآداب التي أرشدت إليها سورة التحريم وتبين عاقبة من كفر بالله ولم يلتزم بهذه الآداب الربانية باستحقاقهم عذاب جهنم وبئس المصير

(١) إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٨/ ٤٣).

لا سيما وأنهم لم يتعظوا بما ضربه لهم من أمثال عظيمة بسورة التحريم بامرأتين آمنتا وهما: آسية زوجة فرعون ومريم بنت عمران، فلم يضرهما كفر من كفر من قومهما حولهما بعد التزامهما بالمنهج الإلهي، وامرأتين كفرتا فلما أقلهما العمل لم يغني عنهما القرب بالمصاهرة من النبيين الكريمين نوح ولوط عليهما السلام، ولاشك أن ذلك تصرفاً من الله في ملكه دالا على إحاطة علمه عز وجل وقهره وتصرفه التام في ملكه(١).

ويمكن القول أيضا:السورة المتقدمة وهي سورة التحريم جاءت تبين مدى قدرة الله وهيمنته، وتأييده لرسوله محمد ﷺ في مواجهة احتمال تآمر امرأتين من نسائه عليه، وهذه السورة توضح بصيغة عامة أن بيد الله ملك السموات والأرض ومن فيهن وأنه على كل شيء قدير(٢).

---

(١) انظر أبوحيان، البحر المحيط، (١٠/ ٢٢٠).
وانظر أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (٢٩/ ١٧٨).

(٢) د. وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت، (٢٩/ ٥).

ثانيا: المعنى الإجمالي لمقاطع سورة الملك

المعنى الإجمالي للمقطع الأول

قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ [الملك: ١-٥]

ابتدأت سورة الملك ببيان عظمة الله وجلال قدرته، موضحة أن كل وفرة من الخير ثابت لله تعالى، فدلت الآية أن الله تعاظم عما سواه، وأنه المالك المتصرف في السموات والأرض في الدنيا والآخرة، وأنه صاحب السلطان والقدرة المطلقة على كل شيء [(١)]، وفي الآية ما يدل على إثبات صفة اليد لله بما يليق بجلاله وعظمته بقوله ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [(٢)] كما يفيد قوله تعالى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إحاطة قدرة الله بحقيقة الملك وعموم التصرف في الموجودات والمعدومات، فهو يتصرف بكل شيء بما شاء لا معقب لحكمه[(٣)].

ثم شرع القرآن في هذا المقطع ببيان ما يدل على شمول هذه القدرة بذكر خلق الله للموت والحياة ابتلاء وامتحانا للخلق في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾، فالموت إعداد الموجود للفناء، وهو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها

---

(١) نفس المرجع السابق (٢٩/ ١٠).

(٢) وتقديم المسند "بيده على المسند إليه يفيد الاختصاص ومثله تقديم الجر والمجرور في الفاصلة القرآنية "وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير» ولا مختص بالقدرة الشاملة سواه سبحانه، انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٩/ ١٠).

(٣) انظر محمد الأمين بن مختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (٨/ ٢٣٩).

له، والحياة إعداد المعدوم للحياة، وذلك بتعلق الروح بالبدن واتصالها به، فإيجاد الحياة خلق الروح في الكائنات الحية وإيجاد الموت نزع الروح من هذه الكائنات[١]

والموت والحياة من أعظم العورض التي تعرض لجنس الحيوان فتدل على عظم الصانع وكماله، وفيهما من الابتلاء ما لا يخفى، فالموت فيه قهر للخلق والحياة نعمة، والابتلاء قد يكون بالشدة والمحنة، وقد يكون بإسباغ النعمة، والحياة نعمة توجب استغلالها في طاعته.

ثم يذكر القرآن في هذا المقطع دليلا آخر على القدرة في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ﴾ ويتمثل هذا الدليل بذكر خلق سبع سموات بعضها فوق بعض أو بعضها مطابق لبعض في الصفات، وفي الإتقان[٢]، وليس من شك في أن ذكر السماوات السبع الطباق بعد ذكر أول السورة يدل على أن خلق هذه السبع من كمال القدرة [٣].

وهذه السماوات المخلوقة لا تفاوت فيها ولا تشقق بل هي في غاية الدقة والإتقان تدل على عظمة الرحمن[٤] وفي قوله تعالى: ﴿ مِن تَفَٰوُتٖ ﴾ قرأ حمزة والكسائي «تفوت»بضم الواو مشددة من غير ألف والباقون بالألف والتخفيف[٥]وهما لغتان والمعنى على القراءتين: «ما ترى في خلق الرحمن من تناقض ولا تباين ولا اعوجاج ولا تخلف»[٦].

وتأكيدا لهذه الدقة يطلب القرآن الكريم من الخلق إمعان النظر مصحوباً بالتفكر والاعتبار

(١) انظر د. وهبة الزحيلي، «التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج» (٢٩/ ١١).

(٢) الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٥٩).

(٣) الشنقيطي، أضواء البيان، (٨/ ٢٤٠).

(٤) وخص الرحمن بالذكر دون لفظ الجلالة الله إشعارا أن هذا النظام اقتضته رحمة الله بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام معيشتهم، انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٢٩/ ١٨).

(٥) محمد بن الجزري، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، بيروت، (٢/ ٣٨٩).

(٦) الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٢٥٩).

وتدقيقه بصنع الله الواحد، وإعادة النظر كرة أخرى[1] في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ ليعود البصر بعد هذا الإمعان في خلق السموات خائباً كليلاً، مصاباً بالإعياء، تأكيدا على دقة هذا النظام العجيب في الكون، وجلال قدرة الصانع جل وعلا.

ثم يستمر نظم الكتاب المبين ببيان دليل آخر من دلائل القدرة والعظيمة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾بالانتقال من نفي الخلل عن خلق السموات إلى بيان ما في إحداهما من دقة الإتقان، لتكون كالعينة على دقة ما سواها من السموات الأخرى، وإنما سميت بالدنيا لأنها الأقرب إلى الأرض فالدنيا تأنيث الأدنى وهي السماء الموالية للأرض[2].

فقد زينها الرحمن بالنجوم وشبهها بالمصابيح لما لها من أثر في الاهتداء مصداقا لقوله تعالى﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

ومن دلائل قدرة الله أن جعل جزءا منها رجوما للشياطين بانفصال بعض الشهب عنها لرمي شياطين الجن، الذين كانوا يحاولون التسمع إلى الملأ الأعلى، وهي آيات دالة على عظيم قدرته جل وعلا بصون السماء وما فيها من أخبار وقد جاء تفصيل ذلك في سورة الصافات فقال تعالى ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الصافات: ٦-٨] فكان إذا أراد أن يسترق السمع أحد من الشياطين أتاه شهاب ثاقب فأحرقه، يقول ابن حجر عليه رحمة الله « كانت الكهانة فاشية في العرب، ومرجوعا إليها في حكمهم، حتى قطع سببها، بأن حيل بين الشياطين وبين استراق

(١) ونلاحظ أن القرآن قد ثنى الكرة دون المرة فقال كرتين دون مرتين لأن الكر يفيد العود والتثنية هنا مراد منها مطلق التكرار، انظر أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، (١٠/ ٢٢٣).

(٢) انظر الشنقيطي، أضواء البيان، (٨/ ٢٤٣).

السمع»[١] يدل عليه ما روي عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الملائكةُ تتحدَّثُ في العنان ـ والعَنانُ الغَمام ـ بالأمرِ يكونُ في الأرض، فتستمعُ الشياطين الكلمةَ فتقُرُّها في أذنِ الكاهنِ كما تُقرُّ القارورة، فيَزيدونَ معَها مائةَ كذبةٍ»[٢].

ومن دلائل قدرة الله في هذا المقطع من السورة أيضا إعداد السعير في قوله تعالى ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهي طبقة من طبقات النار لعذاب الشياطين، وفي هذا دلالة على أن الشياطين مكلفة [٣].

وإنما كانت نار السعير خاصة بعذاب الشياطين لكونهم من عنصر النار، ونار السعير أشد من نار طبائعهم، فصارت عذابا لهم [٤] فلا يمنع خلقهم من نار عذابهم بها، فهي منهم كالتراب من بني آدم، فيتأثرون من ذلك على أنه تكون نار أقوى من نار[٥] .

(١) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب التفسير باب سورة قل أوحي إلي، (١٢/ ١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إبليس وجنوده، ابن حجر، فتح الباري، (٥/ ٢٢٩٨).

(٣) الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٥٤).

(٤) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٣).

(٥) الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ١٦).

المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ ﴾

ولما أخبر سبحانه وتعالى عن عذاب السعير لشياطين الجن في المقطع السابق من السورة، أتبعه جل وعلا ببيان أن عذاب جهنم للكفار عامة، حتى لا يتوهم أن العذاب مقتصر على شياطين الجن دون شياطين الإنس[1] وهذا دليل من دلائل القدرة، فإيقاع العذاب المنذر بسوء العاقبة على من يستحقه في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ ﴾ فيه دلالة على عظيم قدرة موقعه جل وعلا، وقد جيء بالواو في مقدمة الآية لما بين هذه الآية وسابقتها من تغاير واشتراك [2] وفي تقييد لفظ الكفر بالجار والمجرور ﴿ بِرَبِّهِمْ ﴾ زيادة تشنيع عليهم فقد كفروا بالمنعم الخالق الرازق، والحر يقابل الإحسان بالإحسان لكنهم لتنكرهم قابلوا الإحسان بالكفر والعصيان، وأرى أن تقديم الجار والمجرور (للذين) يفيد اختصاص الكفار بعذاب جهنم ولا يعني هذا أننا نقول بقول المرجئة «لا يعذب غير الكفرة» فأهل الإيمان قد يعذبوا في النار إلا إنهم لا يخلدون فيها[3] وهو مذهب أهل السنة والجماعة - فهم إذن زوار والزائر مهما طال به المقام في موقع الزيارة لا بد له وأن يغادر.

ولبيان هول هذا العذاب الذي يحل بالكفار يوم القيامة يبين سبحانه اقتران سماع صوت التهاب نار جهنم بزمن الإلقاء للكفار فيها في قوله تعالى: ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ

---

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٩/ ١٤).

(٢) فالآية الأولى بينت عذاب شياطين الجن وهذه الآية أفادت عذاب شياطين الإنس وهما متغايران وكل له من العذاب ما يناسب طبيعته.

(٣) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ١٦).

﴿٧﴾ فهي تغلي وترتفع ألسنة لهيبها وقت إلقائهم فيها وكأنها إنسان يشهق ويتمزق غيظاً لظفره بعدوه ليثأر منه إذ الأصل بالشهيق تردد النفس في الصدر فلا تستطيع الصعود للبكاء والتميز التقطع، والغيظ شدة الغضب، فنار جهنم تكاد لشدة الاضطراب والالتهاب أن تتجزأ إلى أجزاء وينفصل بعضها عن بعض، وذلك لشدة غضبها على الكفار وحنقها بهم [(١)].

ثم يتبع القرآن الكريم وصف النار عند إلقاء أهلها فيها بوصف ما يتلقاهم به خزنتها، الموكول إليهم أمر العذاب فيها من سؤال، في قوله تعالى﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾وهو استفهام توبيخي ليزداد أهل النار حسرة، والاكتفاء بذكر الإنذار هنا مع أن الرسل الكرام مبشرين ومنذرين لأنه سؤال لأهل الشقاوة المستحقين للعذاب، لذا كان جوابهم مقرين معلنين الاعتراف بالخطأ والندم على ما فات ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ وهذه الآية تدل على أن الله لا يعذب بالنار أحداً إلا بعد أن ينذر في الدنيا[(٢)]وفي قوله تعالى على لسان هؤلاء الكفار ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ دلالة على أنهم كانوا ينكرون نزول الوحي من السماء، لذا كان جواب الملائكة بقصر حالهم بها النافية والاستثناء على الضلال في قوله تعالى﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ووصف الضلال بالكبير يبين جسامة ما ارتكبه أهل النار من ذنب [(٣)] وهو الشرك بالله العظيم.

ولذا نفى أهل النار عن أنفسهم بسبب كفرهم السماع والعقل، مقدمين نفي السمع على نفي العقل[(٤)] بالرغم من وجودهما فيهم في قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ

(١) انظر وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٩/ ١٦).

(٢) انظر الشنقيطي، أضواء البيان، (٨/ ٢٤٥).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦).

(٤) وقدم السمع على العقل في الآية لأن الترتيب الطبيعي أن سماع الدعوة أول ما يتلقاه المنذر، ثم يعمل عقله بها تدبرا، وجمع بين السمع والعقل فيها لأن مدار التكاليف على أدلة السمع والعقل، انظر الحسن بن محمد النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، دار الكتب العلمية، بيروت، (٦/ ٣٢٦).

ﵟٱلسَّعِيرِ ١٠ﵞ وذلك لأنهم لم يسمعوا سماع الطائعين أو يعقلوا كعقل المتأملين، فاستحقوا بذلك المصاحبة التي تدل على طول المكث وشدة الملازمة في نار السعير.

وما دام الأمر كذلك فقد اعترفوا بجريمتهم قال تعالى: ﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١ ﴾علماً بأنهم كانوا قد أنكروا هذا الذنب قبل ذلك في الحشر، وقت السؤال والحساب كما بينت سورة الأنعام ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣ ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٣] لكنه هنا في سورة الملك اعتراف بعد صدور الحكم ودخول دار العقاب، وهو اعتراف لا يفيد المعترف، ولا يخفف عنه العذاب، فاستحقوا بذلك الدعاء عليهم بالسحق وهو البعد من رحمة الله تعالى بقوله ﴿ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وقد قرأ الجمهور «فسحقا بسكون الحاء وقرأ أبو جعفر والكسائي بضم الحاء [١] وهما لغتان من لغات العرب والمعنى فبعداً لهم من رحمة الله[٢].

(١) محمد بن محمد بن الجزري، النشر في القراءات العشر، دار الفكر، بيروت، (٢/ ٢١٧).

(٢) أبو حيان، البحر المحيط، (١٠/ ٢٢٤).

المعنى الإجمالي للمقطع الثالث من سورة الملك

قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

وبعد أن بين القرآن حال من عصى وكفر يوم القيامة أتبعه ببيان حال من آمن واستبصر فوعد المؤمنين بالمغفرة بعد وعيده للكفار بنار جهنم للمقابلة ثم عاد إلى بيان أنه عليم بما يصدر عن الخلق في السر والعلن وأقام الدليل على ذلك بأنه الخالق الذي ذلل لهم الأرض وما فيها، وإذن لهم بالانتفاع بما فيها من خيرات[1] فقال تعالى﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾.

فهم قوم يخشون عذاب الله من غير معاينة ويخافون الله حال غيبتهم عن الناس فلا يكتفون بخوفه أمامهم فاستحقوا أن يكرموا بالأجر الكبير بدخول الجنة والنجاة من النار، وإكرامهم هذا دليل على عظيم قدرة المكرم جل وعلا.

وقد قدم لهم الرحمن المغفرة على الأجر تطمينا لقلوبهم، لأنهم يخشون المؤاخذة على ما صدر عنهم من ذنوب من اللمم ونحوه[2].

وبعد أن بين القرآن ما أعده لأهل الشقاء وأتبعه بما أعد لأهل السعادة يوم القيامة وفيه من الدلالة على عظيم القدرة ما لا يخفى أتبع ذلك كله بما يدل على عظيم قدرته تعالى أيضا من العلم بالسر والجهر قال تعالى:﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ والسر هو إخفاء ما يحيك بالنفس والجهر إظهار لما فيها[3]، واستواء علم الله بالسر والجهر بينت علته

(١) وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٩/ ٢٠).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٩/ ٣٠).

(٣) وقدم القرآن السر على الجهر للإيذان بافتضاح أمر الكفار ووقوع ما يحذرونه على كل حال، أسروا أو جهروا، ولأن مرتبة السر مقدمة على مرتبة الجهر،، انظر أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (٢٩/ ١٤).

الآية في قوله تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ واللطيف هو العالم بخبايا الأمور المدبر لها برفق وحكمة والخبير العليم الذي لا يعزب عنه الحوادث الخفية(١)وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن السر والجهر في علم الله سواء لأنه عليم بذات الصدور يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (٢).

وبعد أن ذكر الله عز وجل علمه بمكنونات هذا الإنسان الأمر الذي يدل وجوده على قدرة الله تعالى، ذكر في هذا المقطع ما يدل على كمال هذه القدرة، وهو خلق الأرض وتسخيرها للإنسان، حيث جعلها كالذلول وهي الدابة المطاوعة المنقادة وأمر بالمشي في أطرافها ونواحيها وجبالها للانتفاع بما فيها والذي منه الأكل، وقد خص الأكل بالذكر لأن حاجة البشر إليه أكثر من غيره .

والآية دليل على قدرة الله ومزيد إنعامه على خلقه وعلى أن السعي واتخاذ الأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله والاعتماد عليه(٣) .

ونلاحظ أن الله قد أمر الإنسان بالمشي لطلب الرزق، بينما طالبنا بالسعي في الانطلاق لعبادة الصلاة فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ٩] ليقدم الإنسان الدنيا على الآخرة في الطلب ليكون عمله لدار البقاء أكثر من عمله لدار الفناء.

وحتى لا يبطر الإنسان حال الانتفاع ولكي لا يتجاوز الحد ذكره بالنشور وهو البعث والخروج من الأرض بعد الموت، لاسيما وأن الخروج سيكون من الأرض وذلك حتى لا ينشغل في الدنيا على حساب الآخرة .

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٩/ ٣١).

(٢) انظر الشنقيطي، أضواء البيان، (٢٩/ ١٤).

(٣) انظر وهبة الزحيلي، التفسير المنير، (٢٩/ ٢٢).

المعنى الإجمالي للمقطع الرابع

قال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

ثم انتقل القرآن من بيان علم الله وعظيم القدرة الإلهية إلى التخويف لمن لم يرع حق خالق الأرض حق الرعاية بأنه قادر على أن يصير من يمشي فيها ليصبح متجلجا في طبقاتها في هذا المقطع من سورة تبارك فقال تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ وذلك بخسف الأرض بهم، بحيث يصبح ظاهر السطح من بعض الأرض باطنا لشدة الزلزال، ليصيبها بهم المور والاضطراب بعد الاستقرار والانتفاع وقد فرع المور- الاضطراب - على الخسف تفريع للأثر على المؤثر(١).

وقد قيل أن من في السماء هو جبريل لأنه الموكول بالخسف، وقيل أنه من قبيل المجاز على تقدير محذوف أي ملكه في السماء ونرجح أن هذه الآية دليل على إثبات صفة العلو لله تعالى علو المكان والمكانة، ولا يعني هذا أن نجعل السماء ظرفا لله فالله منزه عن الظرفية والعقل يحيل ذلك(٢).

وهو ما يوضحه حديث الجارية عن أبي هريرة ﷺ «أن رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء أعجمية فقال: يا رسول الله إن عليّ عتق رقبة مؤمنة، فقال لها رسول الله ﷺ: أين الله فأشارت إلى السماء بأصبعها السبابة، فقال لها: من أنا؟ فأشارت بإصبعها، إلى رسول الله ﷺ وإلى السماء،

(١) ابن عاشور التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٦).

(٢) انظر الشنقيطي، أضواء البيان (٨/ ٢٥٣).

أي أنت رسول الله، فقال: أعتقها»[١].

ثم يتبع القرآن التخويف بتخويف آخر من خلال الاستفهام الإنكاري من الأمن من إرسال الجبار جل وعلا الحاصب من السماء في قوله تعالى﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ والحاصب ريح فيها حجارة وتراب وعند حلول ذلك يعرف الكفار عاقبة الإنذار، أو صدق النذير وهو الرسول ﷺ وصدق تحذيره من قدرة الله على عقابهم بإرسال الحاصب من السماء.

ثم يضرب القرآن الكريم من بعد ذلك مثلا على قدرة الله على عقاب من يستحق العقاب الدنيوي ببيان ما حل بمن سلف، ممن كذب بآيات الله ورسله بقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾فكان إنكار الله عليهم بعقابهم على ما وقع منهم من كفر.

ويبين لهم دليلا آخر على قدرة الله بالانتقال من أحوال البشر إلى أحوال الطيور في نظام حركتها حال طيرانها في قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ وذلك بالنظر إلى حال الطير صافات ببسط الأجنحة حال الطيران وقبض الجناح بضمه من جنب الطائر، لكي تستمر عملية الطيران والتحليق في الفضاء ومن جمال النظم التعبير عن الصف بالمصدر صافات وبالفعل عند القبض[٢]، والذي يحفظ الطير من السقوط بما أودع فيها من خاصية الطيران بالقبض والبسط هو الرحمن وخص ذكره دون لفظ الجلالة الله للدلالة على أن هذا الحفظ من رحمة الله بهذه المخلوقات وبمن سخرت له، فرحمة الله بالمخلوقات بإمهالهم وعدم العجلة بعقابهم كرحمة الله بالطير في الهواء بحفظه من السقوط والهلاك[٣]وفيه أيضا دلالة إيماء على أن من أمسك الطير في الهواء قادر على إهلاك أهل الكفر والمراء.

(١) أخرجه أحمد في مسند أبي هريرة، (٣/ ٥٧).

(٢) وذلك لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء لا بد له من الأطراف، فالصف أكثر أحوال الطير وأما القبض فهو طارىء لاستظهار الحركة، انظر النيسابوري، غرائب القرآن، (٦/ ٣٢٨).

(٣) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٩/ ٤٠).

المعنى الإجمالي للمقطع الخامس من سورة الملك

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وبعد أن بين القرآن في المقطع السابق بعض دلائل قدرته سبحانه وتعالى على إيقاع العقاب بالعصاة وضرب لهم مثلا لذلك بعقاب من سلف من المكذبين أردفه بتوبيخهم على عبادتهم غيره [(١)] و بين أنه لا أحد يستطيع أن يدفع عن الخلق العذاب أو يجلب لهم الرزق غير الله فقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ فما يعبده البشر من معبودات يشركونها مع الله ويرجون منها النصرة والعون لا تنصرهم من دون الرحمن، وفي التعبير بالرحمن من بين الأسماء إشارة إلى أن تأخير العذاب عنهم من رحمة الله تعالى لعلهم بهذا الإمهال يعودون للحق، ولكن الكفار مع هذا الإمهال استمروا بغفلتهم عن توقع بأس الله، وهم في غفلة أيضا في اعتمادهم على هذه الأصنام.

وكذا جلب الرزق لا يكون إلا منه سبحانه وتعالى ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾ فالرزق من طعام وغيره مما يتفع به الخلق بيد الله، فمن كمال قدرته سبحانه أنه بيده مقاليد الأمور، وتدبير شؤون الخلق، فهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر[(٢)].

والتعبير بـ(إن) الشرطية التي تدل على ندرة وقوع فعل الشرط بعدها[(٣)] في قوله تعالى ﴿ إِنّ

(١) انظر: أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (٢٩/ ١٩).

(٢) الشنقيطي، أضواء البيان، (٨/ ٢٥٥).

(٣) انظر أحمد بن عبد النور المالقي، رصق المباني في شرح حروف المعاني، دار العلم، دمشق، (١٨٦)، وانظر: ذياب عبد الجواد عطا، حروف المعاني وعلاقتها بالحكم الشرعي،، دار المنار، القاهرة، (١٦٨).

أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ يدل على ندرة أن يمسك الله الرزق عن الخلق، مؤمنهم وكافرهم على السواء، فالله يعطي الدنيا لمن يحب ويبغض، وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان، ولكن مع تفضل المنعم بالرزق والعطاء الموجب شكره إلا أن هؤلاء الكفار اشتدت منازعتهم وخصومتهم، فعتو وتكبروا، وطغوا، ونفروا، واشمأزوا هاربين من طاعة رب العالمين، ولذا ضرب القرآن الكريم بذلك مثلا لمن أطاع ولمن عصى بقوله تعالى:﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾فشبه الكافر بالمكب على وجهه، والمؤمن بمن يمشي سويا بلا اعوجاج على صراط مستقيم، فالكافر أكب على معاصي الله، فحشره الله يوم القيامة على وجهه، فهو لا يبصر الطريق، يعثر كل ساعة، فيخر على وجهه والمؤمن كان على الدين الحنيف الواضح، فهداه الله للطريق السوي إلى الجنة[1] وفي التعبير بـ «على» التي تدل على الاستعلاء دلالة على تمكنهم من طريق الهدى والحق.

وبعد ضرب القرآن لهذا المثل العظيم ينتقل مرة أخرى إلى ذكر دلائل القدرة الموجبة للألوهية والسير على هدى فقال تعالى:﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾**فيذكرهم سبحانه بهبات عظيمه ضخمة أعطاهم إياها من سمع وأبصار**[2] **وأفئدة لينهضوا بالأمانة التي أوكلت إليهم** فالسمع والبصر والأفئدة نعم عظيمة موجبة للشكر فلما لم تستعمل من قبل هؤلاء المشركين بذلك ختمت فاصلة الآية بقوله تعالى ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

فنعم الله لا تحصى وعبادة الخلق تحصى، فما يقدمه الخلق على شكر المنعم قليل بل والقليل

---

(١) انظر جار الله محمود الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،، دار الفكر، بيروت، (٤/ ٣٨).

(٢) نجد القرآن يقدم السمع على البصر سواء أكان في أوصاف الله تعالى أم في أوصاف الناس التي أنعم الله بها عليهم لأن السمع أهم، فالإنسان يسمع المنادي من جميع الجهات ولا يرى إلا بالجهة التي يمعن البصر فيها... انظر أ. د فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان، عمان، (٢١٧).

منهم من يشكر قال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] ولاشك أن في جعل السمع والبصر والفؤاد في الإنسان من دلائل القدرة ما لا يخفى، وكذا في ذرء الخلق وتكثيرهم في الأرض **لذا ذكره الله بآية أخرى تدل على قدرته فقال:**﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ فتكثيرهم وجعل النسل الممتد منهم في الأرض نعمة من الله، توجب الاستعداد ليوم الحشر، لا الاغترار بالنعم والانشغال بها دون شكر المنعم، فالله لم ينشأ الخلق ويمنحهم هذه الخصائص عبثا ولا جزافا لغير قصد ولا غاية إنما هو الجزاء في يوم الحشر، فهم منتشرون في الأرض، وهنالك بعد ذلك غاية هم صائرون إليها وهي الجمع والحشر [١].

---

(١) سيد قطب، ي ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، (٦/ ٣٦٤٦).

المعنى الإجمالي للمقطع الأخير من السورة

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولما ذكر القرآن الكريم في المقطع السابق عدد من دلائل القدرة من خلق الناس وحواسهم وتكاثرهم، وتوزيعهم في الأرض، وبين أن نهاية ذلك كله حشر الخلق بين يدي الله سبحانه، ثم أتبعه في هذا المقطع الأخير من السورة بتساؤل الكفار تعنتا عن وقت وقوع ذلك اليوم، الذي يبعث فيه الخلق، ويحشروا بين يدي الله في قوله تعالى﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ فقد كان المشركون يسألون النبي ﷺ عن ميعاد البعث استهزاء وسخرية لوعيده [(١)] وإلا فإن وجودهم على الأرض بعد أن كانوا عدما من أكبر الأدلة على البعث والحشر، وهذا في الحقيقة استدلال بالمبدأ على المعاد، وهذا التساؤل منهم مبني على التهكم والسخرية، فهو سؤال الشاك المرتاب المتعنت[(٢)].

وقد سمى الكفار الحشر وعدا استنجازا واستعجالا للأنبياء وأتباعهم بتنفيذ هذا الوعد وتقييده بأداة الشرط إن التي تدل على ندرة وقوع فعل الشرط المقيد بها في فاصلة الآية﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ للدلالة على مدى الشك والتكذيب والإنكار الذي اعترى هؤلاء الكفار بوقوع البعث والحشر، يدل على ذلك جواب الشرط المحذوف، وتقديره إن كنتم صادقين فيما تخبرون به من مجيء الساعة والحشر فبينوا وقته[(٣)]، لذا جاء التوجيه الرباني للنبي الكريم بالجواب﴿ قُلْ

(١) محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، دار الجيل، بيروت، (٢٩/ ٧٦).

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن،، (٣٦٤٦).

(٣) انظر الآلوسي، روح المعاني، (١٦/ ٣٤).

﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾فقصر العلم بوقت وقوعه على الله وحده وهو ما يوضحه الحديث الذي رواه أبو هريرة حين سأل جبريل عليه السلام الرسول ﷺ « فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّٰهِ! مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[1].

لذا جاء الجواب القرآني أن علمها عند الله وأن الرسول ﷺ منذر بين يديها، وإنما اقتصر القرآن على ذكر الإنذار دون التبشير اكتفاء بذكر أحد الضدين، ولأن الحديث في سياق توجيه الخطاب للكفار، فالإنذار هو الأنسب للمقام

وبعد تأكيد وقوع ذلك اليوم وإفراد الله بعلم وقت حصوله، بين القرآن الكريم حال هؤلاء الكفار عند قدوم ذلك اليوم، ومعاينة العذاب فيه فقال تعالى﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ حيث رأى الذين كفروا أن ذلك اليوم قد زلف فاقترب، وأصبح حاضرا، فظهر السوء والكآبة في الوجوه ندما بسبب التفريط والتكذيب [2]، فوجه إليهم الخطاب ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾.

وقد جاء في قوله تعالى "تدعون" قراءتان متوترتان "فقرأ يعقوب بإسكان الدال مخففة وقرأ الباقون بفتحها مشددة "[3] والمعنى على كلا القراءتين:هذا هو يوم البعث والحشر الذي كنتم تطلبون تعجيل وقوعه، وتدّعون كذبه قد حصل ووقع[4] .

وبعد بيان الحسرة التي تحل بهؤلاء المكذبين بحصول يوم الدين، يبين القرآن مدى رغبة الكفار وتمنيهم في الدنيا موت النبي ﷺ وأصحابه في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدَر الله سبحانه وتعالى (رقم الحديث: ٦٣).

(٢) انظر أبو حيان، البحر المحيط، (٤/ ٢٢٩).

(٣) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر،، (٢/ ٣٨٩).

(٤) انظر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، (٤/ ٣٣٠).

مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾، فيطلب من النبي ﷺ أن يتوجه لهم بالخطاب محذرا لهم، بأنه سواء حصل له الموت أو بقي حيا هو ومن معه، فمن يجير الكفار وينجدهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، بسبب كفرهم [1] لاشك بأنه لن يجيرهم أحد من عذاب الله حال وقوعه.

والمقصود بالهلاك في الآية الموت، والمقصود بالرحمة الحياة، وإنما عبر عن حياة النبي ومن تبعه من المؤمنين بالرحمة لأن حياتهم فيها زيادة طاعات وفعل خيرات، وقد وضع القرآن الكريم الظاهر موضع المضمر في قوله﴿ فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لتسجيل الكفر عليهم وبيان أنه السبب بعدم نجاتهم، [2] والسبب بوقوع العذاب المؤلم.

و يكتمل التوجه للنبي بالخطاب للمرة الثالثة بالفعل" قل "في قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ وفيه تعليم للمؤمنين الصدع بالحق، من خلال بيان إعلان أن المؤمنين آمنوا بالرحمن وخصوه بالاعتماد والتوكل عليه دون غيره، وقد خص اسم الرحمن بالذكر من بين الأسماء ليحظى أهل الإيمان من اسم الرحمن بنصيب من رحمته" فذكر الرحمن هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين، فهو لن يهلكهم كما تمنى الكافرون"[3].

وقد قدم القرآن الإيمان بالرحمن على التوكل عليه ليدل على شرف الإيمان ولأن التوكل ثمرة من ثمراته[4].

---

(١) انظر، الطبرسي، مجمع البيان، (١٠/ ٦٢).

(٢) انظر الشوكاني، فتح القدير، (٥/ ٢٦٥) .

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، (٦/ ٣٦٤٧).

(٤) وقد أخر مفعول آمنا وقدم مفعول توكلنا وذلك تعريضا بالكافرين، كأنه قيل آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال عليه توكلنا خصوصا ولم نتوكل على ما أنتم متوكلون عليه من رجالكم وأموالكم، انظر الزمخشري، الكشاف، (٤/ ١٤٠)، وانظر محي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، بيروت، (١٠/ ١٦٢).

وختم الآية بالفاصلة القرآنية ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فيه من التهديد ما يدركه صاحب العقل السديد، في قوله تعالى " ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾قراءتان متوترتان حيث «قراء الكسائي بالغيبة «فسيعلمون» وقرأ الباقون بالخطاب﴿ فَسَتَعْلَمُونَ ﴾ فقراءة الجمهور بتاء الخطاب فستعلمون، على أنه مما أمر الرسول ﷺ بقوله، وعلى قراءة الكسائي بـ«ياء» الغائب على أنه إخبارا من الله لرسوله بأنه سيعاقبهم عقاب الضالين»[١].

ثم يختم القرآن الكريم السورة بذكر الدليل على وجوب التوكل على الله لا على غيره ببيان مظهر من مظاهر الرحمة [٢]وهو الإنعام بالماء الذي به حياتهم موضحا قدرة من أعطاهم الماء الذي به الحياة على نزعه وحرمانهم منه بقوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ وفيه إيماء إلى أن يتوقع كفار مكة عذاب القحط والجوع بالجفاف، فإذا غارت العيون والآبار وذهب الماء في أعماق الأرض ولم تصل إليه الدلاء، فمن غير الله يأتيهم بماء معين تراه الأعين، أو بماء جار طيب[٣]. وهو استفهام إنكاري توبيخي موجب شكر المنعم على إنعامه بالإيمان به وعبادته.

ويفيد تقييد الفعل بـ«إن» الشرطية عند حديث القرآن عن غور الماء في الأعماق فلا تصل إليه الدلاء، التشكيك بوقوع هذا الأمر، فقد يقع وقد لا يقع، لأن الله يعطي الدنيا لمن يحب ويبغض، فقد يبتلي الكفار بالقحط وقد يملي لهم كما هو الحال اليوم والله أعلم.

(١) انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٩/ ٥٤).
(٢) أحمد مصطفى، تفسير المراغي، (٢٩/ ٢٥).
(٣) انظر الزمخشري، الكشاف، (٤/ ١٤٠).

سورة القلم

بين يدي السـورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سُميت سورة القلم بهذا الاسم لأن الله جل شأنه أقسم فيها بأداة الكتابة وهى « القلم » فاختصت السورة بهذا الاسم تعظيما للقلم ، وسُميت أيضا « ن والقلم ».

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المفصل(١)، ومما ورد في فضائل المفصل: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ) (٢).

ج - مكية السورة:

سورة القلم مكية، وترتيبها في المصحف الشريف: الثامنة والستون، نزلت بعد سورة العلق، وهي من سور الجزء التاسع والعشرون، ومن الحزب الخامس والسبعون.

د - عدد آيات السورة.

عدد آياتها: ثنتان وخمسون آية (٣).

---

(١) حزب المفصل يبدأ – على الصحيح – من أول سورة (ق) إلى سورة (الناس).

(٢) الحديث أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ب: فضائل السبع الطوال ص ١١٩. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠. وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى ص: ٢٢٤.

(٣) يراحع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ٦٨.

هـ - محور السورة:

تناولت سورة القلم ثلاثة مواضيع أساسية هي:

أ ـ موضوع الرسالة، والشبه التي أثارها كفار مكة حول دعوة النبي ﷺ.

ب ـ قصة أصحاب الجنة «البستان» لبيان نتيجة الكفر بنعم الله جل شأنه.

ج ـ الآخرة وأهوالها وشدائدها، وما أعد الله للفريقين، المسلمين والمجرمين.

ولكن المحور الأساس الذي تدور عليه السورة الكريمة هو إثبات نبوة محمد ﷺ وتثبيت قلبه.

المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

هناك ارتباط واضح بين اسم السورة ومحورها؛ فاسم السورة: القلم، ومحورها الأساس: إثبات نبوة محمد ﷺ. وقد أقسم الله جل شأنه بالقلم على صدق نبيه ﷺ، وإثبات نبوته وبراءته من الجنون الذي افتراه عليه الجاحدون زوراً وبهتاناً.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة القلم وخاتمتها واضحة جداً ففي بداية السورة قسم من رب العزة على نفي الجنون عن مقام النبي الأمين ﷺ. وفي ختام السورة تأكيد على هذا المعنى بالرد على سخافة الجاحدين، الذين رموا النبي ﷺ بالجنون، وماهو إلا رسول كريم، مبعوث بقرآن عظيم، ليبلغه للعالمين.

٣. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة القلم وخاتمة السورة التي قبلها (الملك) ففي نهاية سورة الملك يقول جل شأنه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

﴿٢٩﴾ ﴾ [الملك: ٢٩]. وفي هذا الكلام الكريم تهديد للجاحدين والمعاندين بفضح ضلالهم وهتك أستارهم. وفي بداية سورة القلم تأكيد على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

٤. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط بين مضمون سورة (ن) والسورة التي قبلها (الملك)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* في السورتين عرض لبعض مشاهد يوم القيامة؛ ففي سورة الملك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الملك: ٦-٨].

وفي سورة القلم قوله جل شأنه: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣].

* في السورتين أسئلة تعجيزية وإقناعية للجاحدين والمعاندين؛ ففي سورة الملك قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك: ٢٠-٢٢].

وفي سورة القلم قوله جل شأنه: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٩].

* في السورتين حوار ملامة وندم، دار في سورة (الملك) بين أهل النار وخزنتها ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك:٨-١٠]، وفي

سورة (القلم) دار بين أصحاب الجنة الذين منعوا فضل الله عن عباده فأهلك الله حرثهم وجعل بستانهم أثرا بعد عين.﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القلم: ٣٠-٣٢].

* ومن أوجه الارتباط بين مضمون السورتين ما ذكره الإمام السيوطي - رحمه الله- حيث قال: لما ذكر سبحانه في سورة (تبارك) التهديد بتغوير الماء، استظهر عليه في هذه السورة بإذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلة بطاف عليه فيها وهم نائمون، فأصبحوا لم يجدوا له أثراً، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق. وإذا كان هذا في الثمار وهي أجرام كثيفة فالماء الذي هو لطيف رقيق أقرب إلى الإذهاب، ولهذا قال :﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ وقال هناك: ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ [الملك: ٣٠]. إشارة إلى أنه يسرى عليه في ليلة كما سرى على الثمرة في ليلة[١].

بيان رفعة قدر النبي ﷺ

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ، وشرفه، وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه - وحاشاه - بالجنون، وبينت أخلاقه العظيمة، ومناقبه السامية.

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ نون حرف من الحروف المقطعة، ذكر للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ١/ ١٤١ بتصرف يسير.

المقطعة التي يتخاطبون بها. [١]

وقد أقسم الله تعالى – هنا – بالقلم، والظاهر أنه جنس القلم الذي يُكتب به، وهو قَسم منه تعالى لتنبيه خلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، فإن القلم أخو اللسان، ونعمة من الرحمن على عباده. يقول قتادة: القلم نعمة من الله عظيمة، لولا القلم ما قام دين، ولم يصلح عيش، والله أعلم بما يصلح خلقه[٢].

والمعنى: أُقسم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على صدق محمد وسلامته مما نسبه إليه المجرمون من السفه والجنون.

والقلم أول ما خلق الله جل شأنه، فعن عبادة بن الصامت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فجرى بما هو كائن إلى الأبد [٣]».

---

(١) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.
وممن اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: « هذه الأحرف إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه – مع هذا – هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا !» في ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير. ونود أن نشير إلى أن الكلام السابق إنما هو اجتهاد في بيان الحكمة من إيراد هذه الأحرف. أما القول في بيان معناها فهذا ما لا ينبغي ولا يجوز الكلام فيه، لأنه لا سبيل إلى معرفة حقيقة معناها على وجه اليقين، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه؛ ذلك أنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه تكلم في هذه الحروف بشيء على الإطلاق، ولم يسأله أصحابه الكرام عن شيء منها. والأولى أن نقف حيث وقفوا، ويسعنا ما وسع الصحب الكرام، والتابعون لهم بإحسان.

(٢) الدر المنثور ٨ / ٢٤٢.

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ٤٢٤ برقم ٣٣١٩. وقال: حسن غريب. وأخرجه الحافظ =

وفي القسم بالقلم والكتابة إشادة بفضل الكتابة والقراءة، فالإنسان من بين سائر المخلوقات خصه الله بمعرفة الكتابة ليفصح عما في ضميره ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق: ٤ – ٥].

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال – عليه رحمة الله –: « في القسم بالكتابة وأداتها (القلم) تعظيم لقيمتها، وتوجيه إليها، في وسط الأمة التي لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق، وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة، في الوقت الذي كان دورها المقدر لها في علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها، وانتشارها بينها، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض. ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة. وما من شك أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة الكبرى»[(١)].

ولست يا محمد بفضل الله وإنعامه عليك بالنبوة مجنوناً، كما يقول الجهلة المجرمون، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦].

وإنّ لك لثواباً على ما تحملت من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله غير مقطوع ولا منقوص. «وهو إيناس وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون »[(٢)].

وقد بين تعالى دوام أجره دون انقطاع في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٥٦ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وصلوات الله تعالى عليه، وصلوات الملائكة، والمؤمنين لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً. وهي من الله تعالى رحمة، ومن الملائكة والمؤمنين دعاء.

= الهيثمي في: مجمع الزوائد ٧/ ٣٩٢. برقم ١١٧٩٧. وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. وأخرجه الألباني في: صحيح الترمذي ٢/ ١٢٣ برقم ٢٦٤٥ وقال: صحيح.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٥٤.

(٢) المرجع السابق، ٦ / ٣٦٥٥

وفي سورتي: الضحى وألم تشرح، بكاملها ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى: ٣- ٥]. وقوله:﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾[الشرح : ٤]. ومعلوم من السنة أن من دل على خير فله مثل من عمل به، فما من مسلم تكتب له حسنة في صحيفته إلا وللرسول ﷺ مثلها.

وقد قال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث... ». ومنها: «أو علم ينتفع به»[١]. وأي علم أعم نفعاً مما جاء به ﷺ وتركه في الأمة... إلى غير ذلك من النصوص الدالة على دوام أجره ﷺ. أما جزاؤه عند الله فلا يقدر قدره إلا الله تعالى. [٢]

وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جم، وخلق فاضل كريم، فقد جمع الله فيه الفضائل والكمالات.. ويا له من شرف عظيم، لم يدرك شأنه بشر، فربُّ العزة جل وعلا يصف محمداً بهذا الوصف الجليل ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ ولقد أحسن القائل:

إذا الله أثنى بالذي هو أهـــله عليك فما مقدار ما تمدح الورى ؟

ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة. وكان واقع سيرته ﷺ أعظم شهادة من كل ما روي عنه. ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شيء آخر. أعظم بصدورها عن العلي الكبير. وأعظم بتلقي محمداً لها وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها ثابتاً راسخاً مطمئناً. لا يتكبر على العباد، ولا ينتفخ، ولا يتعاظم، وهو

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ك: الوصية ب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – برقم ١٦٣١.

(٢) أضواء البيان للشنقيطي ٨/ ٤٢١.

الذي سمع ما سمع من العلي الكبير! [١]

وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمئنه إلى غده مع المشركين، الذين رموه بذلك البهت اللئيم؛ ويهددهم بافتضاح أمرهم وانكشاف بطلانهم وضلالهم المبين: فسوف ترى يا محمد، ويرى قومك ومخالفوك -كفار مكة - إذا نزل بهم العذاب أيكم الذي فتن بالجنون ؟ هل أنت كما يفترون، أم هم بكفرهم وانصرافهم عن الهدى ؟. **قال القرطبي**: والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان. ومعظم السورة نزل في « الوليد بن المغيرة « و» أبي جهل» وقد كان المشركون يقولون: إن بمحمد شيطاناً، وعنوا بالمجنون هذا، فقال الله تعالى: سيعلمون غداً بأيهم المجنون، أي الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل[٢].

هو سبحانه العالم بالشقي المنحرف عن دين الله وطريق الهدى. وهو العالم بالتقي المهتدي إلى الدين الحق، وهو تعليل لما قبله وتأكيد للوعد والوعيد، كأنه يقول: إنهم هم المجانين على الحقيقة لا أنت، حيث كانت لهم عقول لم ينتفعوا بها، ولا استعملوها فيما ينجيهم ويسعدهم.[٣]

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة الكريمة في غاية القوة وتمام الوضوح فمحور السورة الأساس: إثبات نبوة محمد ﷺ وتثبيت قلبه؛ وهنا يقسم الحق جل شأنه على تمام عقل النبيﷺ وكمال خلقه، والمجنون يستحيل أن يكون نبياً، وصاحب الخلق العظيم يستحيل أن يكون كذاباً مدعياً. وأما قوله سبحانه - في هذا المقطع﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾فهو يعتبر من أقوى وأبلغ عبارات الثبيت لقلب النبي ﷺ.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٢٢٩.

(٣) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٠، فتح القدير ٥/ ٢٦٦، تفسير أبي السعود ٥/ ٧٥٣.

من هداية الآيات:

* تقرير مسألة أن الله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه.
* بيان فضل القلم الذي يُكتب به الهدى والخير.
* تقرير عقيدة القضاء والقدر إذ كان ذلك بالقلم الذي أول ما خلق الله.
* بيان كمال الرسول ﷺ في أدبه وأخلاقه، وجعله قدوة في ذلك. (١)
* الضلال والهداية بيد الله سبحانه، والعبد محاسب على اختياره وكسبه.

تحقير شأن الكافرين وذم أخلاقهم

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه ما عليه الكفار في أمر الرسول ﷺ ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق، أتبعه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه، وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل. (٢)

يقول الشيخ الشنقيطي – رحمه الله – في المناسبة بين هذه الآيات الكريمة وما قبلها: « إذا كان في مجيء الآية قبل هذه:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾رد على دعواهم الكاذبة على رسول الله ﷺ

---

(١) يراجع: أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٢٩٣.

(٢) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٥ / ٧٣.

بالجنون؛ ففي هذه الآية تنزيهه ﷺ مما اشتملت عليه من رذائل ونقائص وافتضاح لهم. وبيان الفرق والبون الشاسع بينه وبينهم؛ ففي الوقت الذي وصفه بأنه على خلق عظيم وصفهم بعكس ذلك من كذب، ومداهنة، وكثرة حلف، ومهانة، وهمز، ومشي بنميمة، ومنع للخير، وعتل وتجبر واعتداء، وظلم، وانقطاع زنيم، عشر خصال ذميمة. ونتيجتها الوسم بالخزي على الأنوف صغاراً لهم».(١)

التفسير الإجمالي

فلا تطع - أيها النبي - رؤساء الكفر والضلال الذين كذبوا برسالتك وبالقرآن، فيما يدعونك إليه، **قال الرازي**: دعاه رؤساء أهل مكة إلى دين آبائه، فنهاه الله أن يطيعهم، وهذا من الله إلهاب وتهييج للتشدد في مخالفتهم (٢).

تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وتترك بعض ما لا يرضونه مصانعة لهم، فيلينوا لك ويفعلوا مثل ذلك، وقد رجح ابن جرير الطبري ذلك بقوله: ود هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم فيلينون لك في عبادتك إلهك، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٥]. (٣)

ولا تطع يا محمد كثير الحلف بالحق والباطل، الذي يكثر من الحلف مستهيناً بعظمة الله، وهو فاجر حقير، مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب، يمشي بالنميمة بين الناس، وينقل حديثهم ليوقع بينهم وهو الفتان، وفي الحديث الصحيح: (لا يدخل الجنة نمام) (٤) وهو بخيل ممسك عن الإنفاق في سبيل الله، ظالم، متجاوز في الظلم والعدوان، كثير الآثام والإجرام.

وجاءت الأوصاف { **حلاف، هماز مشاء، مناع** } بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة. وهو جاف غليظ، قاسي القلب، عديم الفهم وهو بعد تلك الأوصاف الذميمة التي تقدمت ابن زنا

---

(١) أضواء البيان ٨/ ٤٢١.

(٢) مفاتيح الغيب ١٥/ ٧٤.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ١٨٢.

(٤) رواه الإمام مسلم ١/ ١٠١. ك: الإيمان ب: بيان غلظ تحريم النميمة.

وهذه أشد معايبه وأقبحُها، أنه لصيق دعي ليس له نسب صحيح. [١]

قال المفسرون: نزلت في «الوليد بن المغيرة» فقد كان دعياً في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة - أي تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يعرف له أب - قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً، وإنما ذُمَّ بذلك لأن النطفة إذا خبثت خبث الولد.

ورُوي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيَّ اعرفها غير التاسع منها يريد أنه ﴿ زَنِيمٍ ﴾ فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عنيناً - أي لا يستطيع معاشرة النساء - فخفت على المال فمكنت راعياً من نفسي، فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية. [٢]

لأن كان ذا مال وبنين قال في القرآن ما قال، وزعم أنه أساطير الأولين ؟ وكان ينبغي أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب.

إذا قرئت آيات القرآن على ذلك الفاجر قال مستهزئاً ساخراً: إنها خرافات وأباطيل المتقدمين، اختلقها محمد ونسبها إلى الله، قال تعالى رداً عليه متوعداً له بالعذاب

أي سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه يعرف بها إلى موته، وكنى بالخرطوم عن أنفه على سبيل الاستخفاف به، لأن الخرطوم للفيل والخنزير، فإذا شبه أنف الإنسان به كان ذلك غاية في الإذلال والإهانة. قال ابن عباس: سنخطم أنفه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش، وقد خُطم يوم بدر بالسيف. [٣]

قال الإمام الفخر الرازي: لما كان الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من

---

(١) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣١، فتح القدير ٥/ ٢٦٧، تفسير أبي السعود ٥/ ٧٥٤.
(٢) يراجع: تفسير الطبري ١٢/ ١٨٤.
(٣) يراجع: البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ٣١١، فتح القدير ٥/ ٢٦٧ وما بعدها.

الوجه لارتفاعه عليه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا منه الأَنفَة، وقال في الذليل: رغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين فكيف على أكرم موضع من الوجه! (١)

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة واضح؛ فقد تصدت هذه الآيات الكريمة لأحد صناديد الكفر في مكة - الوليد بن المغيرة - ووصمته بأوصاف مهينة، وألحقت به عارا لا يمحى ﴿ زَنِيمٍ ﴾ وهددته - بعد ذلك - بالوسم المخزي على أنفه، إما في الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما. وفي كل ذلك تثبيت وتقوية لقلب النبي ﷺ.

من هداية الآيات:

* التنديد بأصحاب الصفات التالية كثرة الحلف بالكذب، المهانة، الهمزة النميمة، الغيبة البخل، الاعتداء، غشيان الذنوب، الغلظة والجفاء، الشهرة بالشر.
* التنديد بالمكذبين بآيات الله تعالى المعاندين له.
* التحذير من كثرة المال والولد فإنها سبب الطغيان ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٦- ٧] (٢).
* كثرة المال والبنون ليس دليلا على تكريم الله للعبد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ: ٣٧].
* لا يجوز للداعية أن يتنازل عن شيء من مبادئه بأي حال ولأي ظرف.
* الأخلاق الذميمة تودي بصاحبها إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) مفاتيح الغيب ١٥ / ٧٤.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٢٩٤. بتصرف يسير.

قصة أصحاب الجنة

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما قال سبحانه: لأجل أن كان ذا مال وبنين، جحد وكفر وعصى وتمرد، وكان هذا استفهاماً على سبيل الإنكار، بين جل شأنه في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان، وليصرفه إلى طاعة الله، وليواظب على شكر نعم الله، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات فقال: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي كلفنا هؤلاء أن يشكروا على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة ذات الثمار، أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم.[1]

التفسير الإجمالي

تضرب الآيات هنا مثلاً للمشركين في كفرانهم نعمة الله العظمى ببعثة خاتم الرسل ﷺ إليهم، وتكذيبهم به، بقصة أصحاب الجنة «الحديقة» ذاتِ الأشجار والزروع والثمار، حيث جحدوا نعمة الله، ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين، فأحرق الله حديقتهم، وجعل قصتهم عبرةً للمعتبرين؛ فقال جل شأنه: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي إنا اختبرنا أهل مكة بالقحط

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٥ / ٧٧.

والجوع بدعوة رسول الله ﷺ عليهم [(١)] كما اختبرنا أصحاب البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، وكلفنا أهل مكة أن يشكروا ربهم على النعم، كما كلفنا أصحاب الجنة أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم.

قال المفسرون: كان لرجل مسلم بقرب صنعاء بستان فيه من أنواع النخيل والزروع والثمار. وكان إذا حان وقت الحصاد دعا الفقراء، فأعطاهم نصيباً وافراً منه، وأكرمهم غاية الإكرام؛ فلما مات الأب ورثه أبناؤه الثلاثة قالوا: عيالنا كثير، والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين كما كان يفعل أبونا، فتشاوروا فيما بينهم وعزموا على ألا يعطوا أحداً من الفقراء شيئاً، وأن يجنوا ثمرها وقت الصباح خفية عنهم، وحلفوا على ذلك، فأرسل الله تعالى ناراً على الحديقة ليلاً أحرقت الأشجار وأتلفت الثمار، فلما أصبحوا ذهبوا إلى حديقتهم فلم يروا فيها شجراً ولا ثمراً، فظنوا أنهم أخطأوا الطريق، ثم تبين لهم أنها بستانهم وحديقتهم، وعرفوا أن الله تعالى عاقبهم فيها بنيتهم السيئة، فندموا وتابوا بعد أن فات الأوان. [(٢)]

وقد حلفوا ليقطعن ثمرها وقت الصباح، قبل أن يخرج إليهم المساكين. ولم يقولوا: إن شاء الله حين حلفوا، كأنهم واثقون من الأمر. فطرقها طارق من عذاب الله، وهم في غفلة عما حدث لأنهم كانوا نياماً، **قال الكلبي**: أرسل الله عليها ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي فأصبحت كالزرع المحصود إذا أصبح هشيماً يابساً. قال ابن عباس: أصبحت كالرماد الأسود، قد حرموا خير جنتهم بذنبهم. [(٣)]

فنادى بعضهم بعضاً حين أصبحوا ليمضوا على الميعاد إلى بستانهم: اذهبوا مبكرين إلى

(١) حيث قال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف. وهذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ ٢٣٤٨. ك: الأدب. ب: تسمية الوليد.

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٤، لباب التأويل، للخازن ٧/ ١٣٤، زاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٣٣٦.

(٣) تفسير ابن جزي ٧٨٤.

ثماركم وزروعكم وأعنابكم إن كنتم حاصدين للثمار تريدون قطعها.

فانطلقوا نحو البستان وهم يخفون كلامهم خوفاً من أن يشعر بهم المساكين قائلين: لا تُدخلوا في هذا اليوم أحداً من الفقراء إلى البستان، ولا تمكنوه من الدخول.

ومضوا على قصد وقدرة في أنفسهم يظنون أنهم تمكنوا من مرادهم. قال ابن عباس: ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾على قدرة وقصد. (١)

فلما رأوا حديقتهم سوداء محترقة، قد استحالت من النضارة والبهجة إلى السواد والظلمة، قالوا: لقد ضللنا الطريق إليها، وليست هذه حديقتنا. قال أبو حيان: كان قولهم ذلك في أول وصولهم إليها، أنكروا أنها هي واعتقدوا أنهم أخطأوا الطريق، ثم وضح لهم أنها هي وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها فقالوا عند ذلك: لسنا مخطئين للطريق بل نحن محرومون، حُرمنا ثمرها وخيرها بجنايتنا على أنفسنا. (٢)

قال أعقلهم وأفضلهم رأياً: هلا تسبحون الله فتقولون « سبحان الله» أو «إن شاء الله». قال أبو حيّان: نبههم ووبخهم على تركهم ما حضهم عليه من التسبيح، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامتثلوا ما أمر به من مواساة المساكين، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك، فلما غفلوا عن ذكر الله وعزموا على منع المساكين ابتلاهم الله. (٣)

وقال الرازي: إن القوم حين عزموا على منع الزكاة واغتروا بمالهم وقوتهم، قال الأوسط لهم: توبوا عن هذه المعصية قبل نزول العذاب، فلما رأوا حالة البستان ذكرهم بالكلام الأول فاشتغلوا بالتوبة ولكن بعد فوات الأوان (٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٣.

(٢) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٧٠، تفسير ابن سعدي ٨٨٠.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣١٢.

(٤) مفاتيح الغيب ١٥ / ٨٠ بتصرف يسير.

فقالوا حينئذٍ: تنزه الله ربنا عن الظلم فيما فعل، بل نحن كنا الظالمين لأنفسنا في منعنا حق المساكين.

فأقبلوا يلوم بعضهم بعضاً يقول هذا أنت أشرت علينا بهذا الرأي، ويقول ذاك: بل أنت ويقول آخر: أنت الذي خوفتنا الفقر ورغبتنا في جمع المال، فهذا هو التلاوم.

قالوا يا هلاكنا وتعاستنا إن لم يغفر لنا ربنا، فقد كنا عاصين وباغين في منعنا الفقراء وعدم التوكل على الله. قال الرازي: والمراد أنهم استعظموا جرمهم.

لعل الله يعطينا أفضل منها بسبب توبتنا واعترافنا بخطيئتنا. فنحن راجون لعفوه، طالبون لإحسانه وفضله.. [١]

وقد ساق الله جل شأنه هذه القصة ليعلمنا أن مصير البخيل ومانع الزكاة إلى التلف وأنه يضن ببعض ماله في سبيل الله فيهلك كل ماله مصحوباً بغضب الله، ولذلك عقب تعالى بعد ذكر هذه القصة بقوله:﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾مثل ذلك العقاب الذي عاقبنا به أهل الحديقة يكون عقابنا في الدنيا لكل من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله من النعم، ولعذاب الآخرة أعظم وأشد من عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون لانزجروا عن كل سبب يوجب العقاب. [٢]

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

وارتباط هذا المقطع بمحور السورة واضح، فهو يؤكد صدق النبي ﷺ حيث أخبر من خلال هذه الآيات الكريمة عن طرف من غيب الماضي (قصة أصحاب الجنة) لم يكن عند النبي ﷺ منه خبر أو كتاب.

---

(١) المرجع السابق، نفس الموضع.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لابن سعدي ص ٨٨٠.

من هداية الآيات:

* الابتلاء يكون بالسراء والضراء، وأسعد الناس عند السراء الصابرون على طاعة الله ورسوله عند الضراء.
* مشروعية التذكير بأحوال المبتلين والمعافين ليُتخذ من ذلك طريق إلى الشكر والصبر(١).

في قصة أصحاب الجنة تصديق لحديث النبي ﷺ الذي يقول: (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وينزل ملكان من السماء، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا.) (٢)

* في قصة أصحاب الجنة تنويه بقدرة الله - تعالى - التي لا تحد، وإحاطة علمه- سبحانه - بكل شيء.
* في القصة تأكيد لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٢٩٦.

(٢) الحديث متفق عليه. رواه البخاري ك: الزكاة، ب: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ الليل/ ٥-٦. ومسلم ك: الزكاة، ب: في المنفق والممسك. رقم: ١٠١٠، عن أبي هريرة ﷺ.

جزاء المؤمنين، وأسئلة إقناعية للكافرين

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾
أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا
تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ
عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ
سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد أن قدمت الآيات السابقة نموذجا لمجموعة من الناس جحدوا نعمة الله تعالى وندموا بعد فوات الأوان، ولم ينفعهم الندم ذكرت الآيات نموذجاً للمتقين المستحقين للنعيم، ونموذجاً للمجرمين الذين يحولون السجود يوم القيامة فلا يستطيعون، فقد فات أوان السجود، وجاء أوان العقاب على الجحود.

التفسير الإجمالي

نزلت هذه الآيات الكريمة رداً على المشركين الذين ادعوا متبجحين أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يعطون أفضل مما يعطى المؤمنون، قياساً منهم على حالهم في الدنيا، حيث كانوا أغنياء والمؤمنون فقراء فقال – جل شأنه –:﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي جنات كلها نعيم، لا شيء فيها غيره. ثم قال في الرد منكراً على المشركين دعواهم مقرعاً مؤنبا إياهم في سبعة استفهامات إنكارية تقريعية:

أولها: قوله تعالى﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾الذين أسلموا لله وجوههم وأطاعوه بكل جوارحهم كالمجرمين الذين اقترفوا أكبر الكبائر كالشرك وسائر الموبقات ؟ أي نحيف ونجور في حكمنا فنجعل المسلمين كالمجرمين في الفضل والعطاء يوم القيامة، فنسوي بينهما ؟.

وثانيها: قوله: ما لكم ؟ أي أي شي حصل لكم حتى ادعيتم هذه الدعوى ؟

وثالثها: كيف تحكمون ؟ أي كيف هذا الحكم ما حجتكم فيه ودليلكم عليه ؟

ورابعها: قوله ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي أعندكم كتاب جاءكم به رسول من عند الله تقرأون فيه هذا الحكم ؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي ألكم في هذا الكتاب ما تختارون ؟ والجواب لا. **قال الطبري:** وهذا توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأماني الكاذبة (١).

وخامسها: قوله:﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ **قال ابن كثير:** المعنى أمعكم عهود ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون (٢).

وسادسها: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي سلهم يا رسولنا عن زعيمهم الذي يكفل لهم مضمون الحكم الذين يحكمون به لأنفسهم من أنهم يعطون في الآخرة أفضل مما يعطى المؤمنون.

سابعها: قوله﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ أي أم لهم شركاء وأرباب يكفلون لهم بذلك، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم، **قال ابن جزي:** وهذا تعجيز للكفار والمراد إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء، فأتوا بهم وأحضروهم حتى نرى حالهم(٣) .

بهذه الاستفهامات الإنكارية التقريعية السبعة نفى تعالى عنهم كل ما يمكنهم أن يتشبثوا به في تصحيح دعواهم الباطلة عقلاً وشرعاً. (٤)

وللشيخ سيد قطب كلام طيب حول هذه الآيات يقول - رحمه الله -:

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ١٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٤.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ٢١٢.

(٤) يراجع أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٢٩٧ وما بعدها.

ما يجوز في عقل ولا في عدل أن يتساوى المسلمون والمجرمون في جزاء ولا مصير. ومن ثم يجيء السؤال الاستنكاري الآخر: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.. ماذا بكم ؟ وعلام تبنون أحكامكم ؟ وكيف تزنون القيم والأقدار ؟ حتى يستوي في ميزانكم وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون ؟!

ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل إلى التهكم بهم والسخرية منهم:﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.. فهو التهكم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه، هو الذي يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذي لا يقبله عقل ولا عدل؛ وهو الذي يقول لهم: إن المسلمين كالمجرمين! إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ويملق رغباتهم، فلهم فيه ما يتخيرون من الأحكام وما يشتهون! وهو لا يرتكن إلى حق ولا إلى عدل، ولا إلى معقول أو معروف !﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.. فإن لا يكن ذلك فهو هذا. وهو أن تكون لهم مواثيق على الله، سارية إلى يوم القيامة، مقتضاها أن لهم ما يحكمون وما يختارون وفق ما يشتهون! وليس من هذا شيء. فلا عهود لهم عند الله ولا مواثيق. فعلام إذن يتكلمون؟! وإلام إذن يستندون ؟!

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.. سلهم من منهم المتعهد بهذا ؟ من منهم المتعهد بأن لهم على الله ما يشاءون، وأن لهم ميثاقاً عليه ساري المفعول إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون؟! وهو تهكم ساخر عميق بليغ، يذيب الوجوه من الحرج والتحدي السافر المكشوف ! [1]

ولما أبطل – جل شأنه – مزاعمهم وسفه أحلامهم، شرع في بيان أهوال الآخرة وشدائدها فقال:﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾يعني يوم القيامة، حين يشتد الأمر، ويصعب هوله، ويأتي الله تعالى لفصل القضاء بين الخلائق، فيكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء.

ويدعى الكفار للسجود لرب العالمين فلا يستطيعون لأن ظهر أحدهم يصبح طبقاً

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٦٧.

واحداً، وفي الحديث (يسجد لله كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً) (١).

ذليلة متواضعة أبصارهم لا يستطيعون رفعها، تغشاهم وتلحقهم الذلة والهوان؛ والحال أنهم كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود وهم أصحاء الأجسام معافون فيأبون.

قال الإمام الفخر الرازي: لا يدعون إلى السجود تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا، ثم إنه تعالى يسلب عنهم القدرة على السجود ويحول بينهم وبين الاستطاعة حتى تزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرطوا فيه، حين دعوا إليه في الدنيا وهم سالمو الأطراف والمفاصل. (٢)

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة واضح، ففي هذه الآيات الكريمة تثبيت وتطمين لقلب النبي ﷺ من خلال هذه الأسئلة المفحمة التـي أعجز بها الجاحدين والمعاندين.

من هداية الآيات:

* تقرير أن المجرمين لا يساوون المؤمنين يوم القيامة، إذ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة.
* بيان عظم هول يوم القيامة، وأن الرب تبارك وتعالى يأتي لفصل القضاء ويكشف عن ساق فلا يبقى أحد إلا سجد، وأن الكافر والمنافق لا يستطيع السجود عقوبة له وفضيحة، إذ كان في الدنيا يدعى إلى السجود لله فلا يسجد أي إلى الصلاة فلا يصلي تكبراً وكفراً. (٣)
* إفحام الجاحدين وإثبات عجزهم من خلال الأسئلة التي وُجهت إليهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٨٧١. برقم: ٤٣٠٥ ك: التفسير ب: يوم يكشف عن ساق.

(٢) مفاتيح الغيب ١٥ / ٨٤.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٢٩٨.

تخويف الكفار من بطش الله، وتوصية النبي ﷺ بالصبر على ما يلقاه

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما خوف - سبحانه - الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف فخوفهم بما عنده، وفي قدرته على القهر، فقال: ذرني وإياه، يريد كله إليَّ، فإني أكفيكه، كأنه يقول: يا محمد حسبك انتقاماً منه أن تكل أمره إلي، وتخلي بيني وبينه، فإني عالم بما يجب أن يُفعل به قادر على ذلك. [١]

التفسير الإجمالي

اتركني يا محمد ومن يكذب بهذا القرآن لأكفيك شره وأنتقم لك منه « وهو تهديد مزلزل.. والجبار القهار القوي المتين يقول للرسول ﷺ: «خل بيني وبين من يكذب بهذا الحديث. وذرني لحربه فأنا به كفيل» ومن هو هذا الذي يكذب بهذا الحديث ؟ إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ! هذه الهباءة المنثورة.. بل هذا العدم الذي لا يعني شيئاً أمام جبروت الجبار القهار العظيم ! » [٢].

ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف ! ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾.

وإن شأن المكذبين، وأهل الأرض أجمعين، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه

---

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٥ / ٨٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٦٨.

التدابير.. ولكنه سبحانه يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان. وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدعه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم غارّون. (١)

سنأخذهم بطريق الاستدراج بالنعم، إلى الهلاك والدمار، من حيث لا يشعرون. **قال الرازي**: الاستدراج أن يستنزله إليه درجة حتى يورطه فيه، فكلما أذنبوا ذنباً جدَّد الله لهم نعمة وأنساهم الاستغفار، فالاستدراج إنما حصل لهم من الإنعام عليهم، لأنهم يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم (٢).

وسأُمهلهم وأُطيل في أعمارهم ليزدادوا إثماً، إن انتقامي من الكافرين قوي شديد. وفي الحديث: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٣).

وإنما سمى إحسانه كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد، فما وقع لهم من سعة الأرزاق، وطول الأعمار، وعافية الأبدان، إحسانٌ في الظاهر، وبلاء في الباطن، لأن المقصود معاقبتهم وتعذيبهم به. (٤)

أتسألهم يا محمد غرامة مالية على تبليغ الرسالة، فهم معرضون عن الإيمان بسبب ذلك التكليف الثقيل ببذلهم المال ؟

والغرض توبيخهم في عدم الإيمان، فإن الرسول لا يطلب منهم شيئاً من الأجر.

قال الخازن: المعنى أتطلب منهم أجراً فيثقل عليهم حمل الغرامات في أموالهم فيثبطهم

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٦٨.

(٢) مفاتيح الغيب ١٥ / ٨٦.

(٣) الحديث متفق عليه: أخرجه البخاري ك: التفسير ب: قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ... ﴾ عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه. ومسلم ك: البر والصلة ب: تحريم الظلم. رقم ٢٥٨٣.

(٤) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٥، فتح القدير ٥/ ٢٧٠، تفسير أبي السعود ٥/ ٧٥٩ بتصرف.

عن الإيمان ؟ [(١)].

أم هل عندهم اللوح المحفوظ الذي فيه الغيب؛ فهم ينقلون منه أنهم خير من أهل الإيمان، فلذلك أصروا على الكفر والطغيان ؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار والتوبيخ.

وخُتمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين، وعدم التبرم والضجر بما يلقاه في سبيل تبليغ دعوة الله، كما حدث من يونس ﷺ حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر.

فاصبر يا محمد على أذاهم، وامض لما أُمرت به من تبليغ رسالة ربك، ولا تكن في الضجر والعجلة، كيونس بن متى ﷺ، لما غضب على قومه لأنهم لم يؤمنوا، فتركهم وركب البحر، ثم التقمه الحوت، وكان من أمره ما كان، حين دعا ربه في بطن الحوت وهو مملوء غماً وغيظاً.

ولم تبين الآيات هنا من هو صاحب الحوت، ولا نداءه وهو مكظوم، ولا الوجه المنهي عنه أن يكون مثله، وقد بين تعالى صاحب الحوت في الصافات في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٩- ١٤٢].

وأما النداء فقد بينه تعالى في سورة الأنبياء عند قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

فصاحب الحوت هو يونس، ونداؤه هو المذكور في الآية، وحالة ندائه وهو مكظوم.

أما الوجه المنهي عن أن يكون مثله فهو الحال الذي كان عليه عند النداء، وهو في حالة غضبه، وهو مكظوم.

---

(١) لباب التأويل ٧/ ١٤٠.

وهذا بيان لجانب من خلقه ﷺ وتخلقه في قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ [المدثر: ٧]. أي على إيذاء قومك. ولعل هذا من خصائص وخواص توجيهات الله إليه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٧]. فقد بين تعالى خلقاً فاضلاً عاماً للأمة في حسن المعاملة والصفح.

ثم خص النَّبي ﷺ بقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ أي لا تعاقب انتقاماً ولو بالمثلية ولكن اصبر، وقد كان منه ﷺ مصداق ذلك في رجوعه من ثقيف حينما آذوه وجاءه جبريل عليه السلام، ومعه ملك الجبال يأتمر بأمره إلى أن قال: لا، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.. إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله فقد صفح وصبر ورجى من الله إيمان من يخرج من أصلابهم. وهذا أقصى درجات الصبر والصفح وأعظم درجات الخلق الكريم.

لولا أن تداركته رحمة الله تعالى لطرح في الفضاء الواسع الخالي من الأشجار والجبال، وهو ملام على ما ارتكب، ولكن الله أنعم عليه بالتوفيق للتوبة فلم يبق مذموماً بل إنه تعالى أنبت عليه شجرة تظلّه وتستره، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٦]. وقوله تعالى هنا: ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. بينه تعالى بقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]. قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه(١).

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ وللمفسرين في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن الكفار قصدوا أن يصيبوا رسول الله ﷺ بالعين وكان فيهم رجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئا ثم يرفع جانب خبائه فتمر به النعم فيقول لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه فما تذهب إلا قليلا حتى يسقط منها عدة فسأل الكفار هذا الرجل أن

(١) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٧٥.

يصيب رسول الله ﷺ بالعين فعصم الله نبيه وأنزل هذه الآية هذا قول الكلبي وتابعه قوم من المفسرين.

والثاني: أنهم كانوا ينظرون إليه بالعداوة نظرا شديدا يكاد يزلقه من شدته أي يلقيه إلى الأرض وهذا مستعمل في كلام العرب يقول القائل نظر إلي فلان نظراً كاد يصرعني[1] أي ولقد كاد الكفار من شدة عداوتهم لك يا محمد أن يصرعوك بأعينهم ويهلكوك، من قولهم نظر إلي نظراً كاد يصرعني، **قال ابن كثير**: وفي الآية دليل على أن العين وإصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، ويؤيده حديث: (لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين) [2]

وذلك حين سمعوك تقرأ القرآن، ويقولون من شدة بغضهم وحسدهم لك: إن محمداً مجنون، قال تعالى رداً عليهم: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي وما هذا القرآن المعجز إلا موعظة وتذكير للإنس والجن، فكيف ينسب من نزل عليه إلى الجنون ؟!

يقول الشيخ الشنقيطي – رحمه الله –: قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾. فيه عود آخر السورة على أولها. وأن الكفار إذا سمعوا الذكر شخصت أبصارهم نحو رسول الله ﷺ يرمونه بالجنون. والرد عليهم بأن هذا الذي سمعوه ليس بهذيان المجنون، وما هو إلا ذكر للعالمين، وفيه ترجيح القول بأن المراد بنعمة ربك في أول السورة، إنما هي ما أوحاه إليه من الذكر. [3]

« وهذه الآيات الكريم ترسم مشهدا للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم في غيظ عنيف، وحسد عميق ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه، ويصفها القرآن

---

(١) زاد المسير ٨/ ٣٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣٦. والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٦/ ٤٣٨ برقم ٢٧٥١٠. وقال محقق المسند أ: شعيب الأرنؤوط: حديث حسن. وأخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٣٩٥. عن أسماء بنت عميس – رضي الله عنها. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أضواء البيان ٨/ ٤٣٣ وما بعدها بتصرف يسير.

بما لا مزيد عليه: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾.

فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول ﷺ فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها على الأرض وثباتها ! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق وشر وحسد ونقمة وضغن، وحمى وسم.. مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح، والشتم البذيء، والافتراء الذميم: ويقولون:إنه لمجنون..

وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة في مكة. فهو لا يكون إلا في حلقة عامة بين كبار المعاندين المجرمين، الذين ينبعث من قلوبهم وفي نظراتهم كل هذا الحقد الذميم المحموم! يعقب عليه بالقول الفصل الذي ينهي كل قول: وما هو إلا ذكر للعالمين. والذكر لا يقوله مجنون، ولا يحمله مجنون.. وصدق الله وكذب المفترون».. [1]

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة واضح؛ ففي هذه الآيات الكريمة تثبيت لقلب النبي ﷺ بذكر طرف من قصة يونس - عليه السلام - ثم بالتأكيد - في نهاية السورة - على عظمة القرآن الكريم كما بدأها ببيان عظمة الرسول الكريم، ليتناسق البدء مع الختام في أروع بيان وأجمل ختام.

من هداية الآيات:

* ردّ الأمور إلى الله إذا استعصى حلّها فالله كفيل بذلك.
* لا يصح أخذ أجرة على تبليغ الدعوة.
* وجوب الصبر على الدعوة مهما كانت الصعاب فلا تترك لأذىً يصيب الداعي.
* بيان حال المشركين مع الرسول ﷺ وما كانوا يضمرونه له من البغض والحسد وما يرمونه به من الاتهامات الباطلة كالجنون والسحر والكذب. [2]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٧١.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠٠.

* على الداعية أن يحذر من الضجر والعجلة، وأن يلزم الصبر في كل مرحلة من مراحل الدعوة.
* أهمية ضرب الأمثال، والتذكير بأحوال السابقين للتسلية والتثبيت.

وأخيرا.. فهذه سورة القلم، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة القلم

* بيان كمال الرسول ﷺ في أدبه وأخلاقه، وجعله قدوة في ذلك.
* كثرة المال والبنين ليس دليلا على تكريم الله للعبد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ: ٣٧].
* لا يجوز للداعية أن يتنازل عن شيء من مبادئه بأي حال ولأي ظرف.
* الأخلاق الذميمة تودي بصاحبها إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة.
* أهمية التذكير بأحوال السابقين لأخذ العبرة، وسوق الموعظة.
* لا يعزب عن علم الله شيء، ولا يحد قدرته حد.
* الجاحدون لنعم الله تعالى والمكذبون لرسله لا ينفعهم الندم بعد فوات الأوان.
* العجلة والضجر لا يؤديان إلى نتيجة محمودة، والله تعالى لا يعجل لعجلة أحد من عباده.
* الصبر الجميل زاد الأنبياء والدعاة إلى الله في كل زمان ومكان.

سورة الحاقة

بين يدي السـورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سميت سورة الحاقة بهذا الاسم لتضمنها أحوال يوم القيامة من سعادة وشقاء لبني الإنسان .

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المفصل، ومما ورد في فضائل المفصل:

ما رواهُ الإمام أحمد وغيره عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ)[1].

ج - مكية السورة.

سورة الحاقة مكية، وترتيبها في المصحف الشريف: التاسعة والستون، نزلت بعد سورة القلم، وهي من سور الجزء التاسع والعشرون، ومن الحزب السابع والسبعون.

د - محور السورة:

تناولت سورة الحاقة خمسة مواضيع أساسية هي:

١ - تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذبين به.

٢ - أهوال يوم القيامة.

٣ - جزاء الأبرار بعد الحساب.

٤ - حال الأشقياء يوم القيامة.

---

(١) الحديث سبق تخريجه عند بيان فضل سورة القلم.

٥ - تعظيم القرآن وتأكيد نزوله من عند الله.

والمحور الأساس الذي تدورعليه السورة الكريمة: التأكيد على عقيدة الجزاء.

هـ عدد آيات السورة.

عدد آياتها: ٥٢ [١].

المناسبات في السورة:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

هناك ارتباط واضح بين اسم السورة ومحورها؛ فاسم السورة: الحاقة، ومحورها الأساس التأكيد على عقيدة الجزاء « والحاقة هي التي تحق فتقع. أو تحق فتنزل بحكمها على الناس. أو تحق فيكون فيها الحق.. وكلها معان تقريرية جازمة تناسب اتجاه السورة وموضوعها. » [٢]

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة الحاقة وخاتمتها واضحة جدا؛ ففي بداية السورة حديث عن الحاقة التي هي حق قاطع، ويقين واقع. وفي ختام السورة يقول جل شأنه عن القرآن الكريم ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾ فالقيامة حق، والقرآن الذي أخبر عن وقوعها حق. كذلك جاء في افتتاحية السورة قوله تعالى﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾وفي خاتمة السورة ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾وفي هذا من الارتباط المعنوي واللفظي ما لا يخفى.

٣. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة الحاقة وخاتمة السورة التي قبلها (القلم) ففي نهاية سورة القلم توصية بالصبر، وتسلية بذكر قصة أحد أنبياء الله يونس عليه السلام. وفي أول سورة الحاقة

---

(١) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ٦٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٧٧.

تكملة للتسلية بذكر عدد من الأمم السابقة التي كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها.

٤. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط ملحوظ بين سورة الحاقة والسورة التي قبلها (القلم) من ذلك ما ذكره الإمام السيوطي قال: لما وقع في « ن » ذكر يوم القيامة مجملاً في قوله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ شرح ذلك في هذه السورة بناء على هذا اليوم وشأنه العظيم.[1]

ومن مواضع الارتباط بين مضمون السورتين الكريمتين ما يلي:

* في سورة (ن) قال تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾ وفي الحاقة ذكر طرفا من أنباء بعض من كذبوا أقوامهم فقال جل شأنه:﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾.
* في سورة (ن) قال تعالى﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ وفي سورة الحاقة ذكر – سبحانه – طرفا من تفصيل هذا النعيم فقال: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾.
* في سورة (ن) قال تعالى:﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ وفصل ذلك في سورة الحاقة حيث قال – سبحانه –:﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾.

---

(١) أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي ١/ ١٤١.

تعظيم يوم القيامة وإهلاك المكذبين به

﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

ابتدأت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد. و﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ ﴾ اسم للقيامة سميت بذلك لتحقق وقوعها، فهي حقٌّ قاطع، وأمر واقع، لا شك فيه ولا جدال.

وكرر﴿ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ ﴾؟ لتفخيم شأنها، وتعظيم أمرها، وكان الأصل أن يقال: ما هي؟ ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير زيادة في التعظيم والتهويل.[1]

وما أعلمك يا محمد ما هي القيامة ؟ إنك لا تعلمها إذ لم تعاينها، ولم تر ما فيها من الأهوال، فإنها من العظم والشدة بحيث لا يحيط بها وصف ولا خيال، وهذا على طريقة العرب، فإنهم إذا أرادوا تشويق المخاطب لأمرٍ أتوا بصيغة الاستفهام، يقولون: أتدري ماذا حدث ؟. والآية الكريمة من هذا القبيل، زيادة في التعظيم والتهويل، كأنه قال: إنها شيء مريع وخطب فظيع.[2]

ثم بعد أن عظَّم أمرها وفخَّم شأنها، ذكر من كذَّب بها وما حلَّ بهم بسبب التكذيب تذكيراً لكفار مكة وتخويفاً لهم فقال:﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾أي كذب قوم صالح

(١) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٠، فتح القدير ٥/ ٢٢٧.

(٢) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٠.

وقوم هود بالقيامة، التي تقرع القلوب بأهوالها.

فأمَّا ثمود – قوم صالح – فأُهلكوا بالصيحة المدمرة، التي جاوزت الحدَّ في الشدة، وهي الصيحة لقوله تعالى في سورة هود ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٦٧] وبها فسرت الصاعقة في سورة فصلت ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ ﴾ [فصلت: ١٧]. أو الرجفة لقوله سبحانه في الأعراف:﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف: ٧٨]. وهي الزلزلة المسببة عن الصيحة فلا تعارض بين الآيات، لأن الإسناد في بعض إلى السبب القريب وفي بعض آخر إلى البعيد.[١]

« وثمود كما جاء في مواضع أخرى كانت تسكن الحجر في شمالي الحجاز بين الحجاز والشام. وكان أخذهم بالصيحة كما سماها في غير موضع. أما هنا فهو يذكر وصف الصيحة دون لفظها.. { بالطاغية }.. لأن هذا الوصف يفيض بالهول المناسب لجو السورة، ولأن إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة في هذا المقطع منها. ويكتفي بهذه الآية الواحدة تطوي ثمود طياً، وتغمرهم غمراً، وتعصف بهم عصفاً، وتغطي عليهم فلا تبقي لهم ظلا ! »[٢]

وأما عاد فيفصل في أمر نكبتها ويطيل، فقد استمرت وقعتها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً. على حين كانت وقعة ثمود خاطفة.. صيحة واحدة. طاغية.. ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾.. والريح الصرصر الشديدة الباردة. واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح. وزاد شدتها بوصفها { عاتية } أي متجاوزة الحدَّ في الهبوب والبرودة، لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكيّ في القرآن، كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها، **قال ابن عباس:** ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قطّ إلا بمكيال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ:﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ وإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ:﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ

(١) تفسير الألوسي ٢١ / ٢٠٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٧٨.

عَاتِيَةٍ ﴾.

وكان قوم عاد يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت. وكانوا أشداء بطاشين جبارين. فأرسل الله عليهم هذه الريح الصرصر العاتية: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾.. والحسوم القاطعة المستمرة في القطع. [١] وفي الحديث الشريف: « نصرتُ بالصبا، وأُهلكت عادٌ بالدَّبور » [٢].

سلطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة لا تفتر ولا تنقطع. فترى أيها المخاطب القوم في منازلهم موتى، لا حراك بهم، كأنهم أصول نخلٍ متآكلة الأجواف، **قال المفسرون:** كانت الريح تقطع رؤوسهم كما تقطع رءوس النخل، وتدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف[٣].

فهل ترى أحداً من بقاياهم ؟ أو تجد لهم أثراً؟ لقد هلكوا عن آخرهم كقوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وجاء فرعون الجبار، ومن تقدَّمه من الأمم الطاغية التي كفرت برسلها ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ أي والأمم الذين انقلبت بهم ديارهم - قرى قوم لوط - حيث جعل الله عاليها سافلها، **قال الصاوي:** ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ أي المنقلبات وهي قرى قوم لوط، التي اقتلعها جبريل عليه السلام ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها، وكانت خمس قرى. [٤]

(١) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٠، في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٧٨

(٢) صحيح البخاري ١ / ٣٥٠. رقم ١٠٣٥. وأخرجه مسلم في صلاة الاستسقاء باب في ريح الصبا والدبور رقم ٩٠٠. والصبا هي الريح التي تهب من مشرق الشمس ونصرته بها ﷺ كانت يوم الخندق إذا أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. و(الدبور) هي الريح التي تهب من مغرب الشمس.

(٣) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٠، فتح القدير ٥/ ٢٧٨.

(٤) حاشية الصاوي ٢/ ٢٠٤.

أتوا بالفعلة الخاطئة المنكرة، وهي الكفر والعصيان. كُلّ كذّبَ رسول الله إليهم. كما قال جل شأنه: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾[ق: ١٤]. أي فعصى فرعون رسول الله موسى، وعصى قوم لوطٍ رسولهم لوطاً، فأخذهم الله أخذةً زائدةً في الشدة، على عقوبات من سبقهم، كما أن جرائمهم زادت في القبح والشناعة على سائر الكفار. [١]

إنا لما تجاوز الماء حدَّه حتى علا كل شيء وارتفع فوقه حملناكم في السفينة، لنجعل تلك الحادثة عظةً للناس وعبرة، تدل على انتقام الله ممن كذّب رسله، وتحفظها وتذكرها أذن واعية للمواعظ، تنتفع بما تسمع.

قال القرطبي: والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حلَّ بهم من العذاب، زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول ﷺ، ولهذا ختم الآية بقوله:﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ **قال قتادة:** الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عزّ وجّل. [٢]

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

المقطع السابق يصب في عمق المعنى المتصل بمحور السورة (التأكيد على عقيدة الجزاء) فهو يتحدث عن أقوام كذبوا رسل الله إليهم؛ فلاقوا جزاءهم الأدنى، وينتظرهم جزاؤهم الأكبر يوم القيامة.

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء.
* بيان أن كلا من عاد وثمود كانوا يكذبون بالبعث وبيان ما أهلكهم الله به.
* بيان أن معصية الرسول موجبة للعذاب الدنيوي والأخروي.

---

(١) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٦٣.

* التذكير بحادثة الطوفان وما فيها من عظة وعبرة.[(١)]

* وجوب التأمل في مصارع الغابرين، والاعتبار بهلاك المكذبين.

مشهد من أهوال يوم القيامة

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر - سبحانه - في الآيات السابقة قصص المكذبين وعاقبتهم في الدنيا، أتبعه هنا بذكر أهوال القيامة وشدائدها.

التفسير الإجمالي

تتناول هذه الآيات الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور، من خراب العالم واندكاك الجبال، وانشقاق السماوات... الخ

واذكر إذا نفخ إسرافيل في الصور نفخةً واحدة لخراب العالم. قال ابن عباس: هي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب الدنيا. ورفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فضرب بعضها ببعضٍ حتى تندق وتتفتَّت وتصير كثيباً مهيلاً[(٢)].

ففي ذلك الحين قامت القيامة الكبرى، وحدثت الداهية العظمى، وانصدعت السماء فهي يومئذٍ ضعيفة مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة. يقول الألوسي: أي تفطرت وتميز

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠١.

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤١، تفسير أبو السعود ٥/ ٧٦٣ بتصرف يسير.

بعضها عن بعض. ولعله إشارة إلى ما تضمنه قوله جل شأنه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٥] وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال: ذلك قوله تعالى:﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النبأ: ١٩] [(١)].

والملائكة على أطرافها وجوانبها، قال المفسرون: وذلك لأن السماء مسكن الملائكة فإذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعاً مما داخلهم من هول ذلك اليوم، ومن عظمة ذي الجلال، الكبير المتعال.

ويحمل عرش الرحمن ثمانية من الملائكة العظام فوق رءوسهم، وقال ابن عباس: ثمانية صفوفٍ من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله. [(٢)]

وفي ذلك اليوم الرهيب، تعرضون على ملك الملوك ذي الجلال للحساب والجزاء، لا يخفى عليه منكم أحدٌ، ولا يغيب عنه سرٌّ من أسراركم، لأنه العالم بالظواهر والسرائر والضمائر. كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾ [الطارق: ٩] [(٣)].

« فالكل مكشوف. مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير. وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود.. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره، ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه !

ألا إنه لأمر عصيب. أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء! وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر. أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه

(١) روح المعاني ٢١/ ٢١٩.
(٢) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٧٩، تفسير النسفي ٤/ ٢٧٣.
(٣) يراجع: تفسير الألوسي ٢١ / ٢٢١.

المرفوع فوق الجميع.. »[١].

ارتباط هذا المقطع بمحور السورة:

والمقطع السابق وثيق الارتباط بمحور السورة، فهو يركز على بعض المشاهد والأحداث المصاحبة ليوم الدين (يوم الجزاء) الذي يعرض فيه الجميع مكشوف الظاهر والسرائر.

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء.
* بيان كيفية الانقلاب الكوني لنهاية الحياة الأولى وبداية الحياة الثانية.
* تقرير العرض على الله عز وجل للحساب ثم الجزاء.[٢]
* في الآيات الكريمة تنويه بعظيم قدرة الله جل شأنه.
* في قوله تعالى﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ زجر كاف، وردع واف لمن تسول له نفسه معصية الله في سر أو علن.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٨٠.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠٢.

جزاء الأبرار وتكريمهم

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه العرض ذكر ما يكون فيه، فقال:﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾أي أعطي كتابه الذي كتبته الحفظة عليه من أعماله ﴿ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ يقول ذلك سروراً وابتهاجاً.

التفسير الاجمالي

بيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم فيقول: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه لأنه من السعداء فيقول ابتهاجاً وسروراً: خذوا اقرءوا كتابي، والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ ﴾ هاء السكت وكذلك في﴿ حِسَابِيَهْ ﴾ و﴿ مَالِيَهْ ﴾و﴿ سُلْطَٰنِيَهْ ﴾.

قال الرازي: ويدل قوله ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ على أنه بلغ الغاية في السرور، لأنه لما أُعطي كتابه بيمينه، علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله (١).

إني أيقنت وتحققت بأني سألقى حسابي وجزائي يوم القيامة، فأعددت له العدة من الإيمان والعمل الصالح.

يقول ابن كثير: أي قد كنت موقنا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال جل شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٤٦]. (٢)

---

(١) مفاتيح الغيب ١٥ / ٩٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٤٣.

قال الحسن: إن المؤمن أحسن الظنَّ بربه فأحسن العمل، وإنَّ المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل، **وقال الضحاك**: كل ظنٍ في القرآن من المؤمن فهو يقين، ومن الكافر فهو شك.. (١)

قال تعالى مبيناً جزاءه ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ ﴾ أي فهو في عيشة هنيئة مرضية، يرضى بها صاحبها، لما ورد في الصحيح أنهم يعيشون فلا يموتون أبداً، ويصحون فلا يمرضون أبداً، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً، رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها.(٢)

وقد ثبت في الصحيح: «إن الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»(٣).

ثمارها قريبة، يتناولها القائم، والقاعد، والمضطجع، قال ابن جزي: القطوف جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمار ويقطف كالعنقود، روي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها وهو قائم أو قاعد أو مضطجع. (٤)

يقال لهم تفضلاً وإنعاماً: كلوا واشربوا أكلاً وشرباً هنيئاً، بعيداً عن كل أذى، سالماً من كل مكروه، بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني أيام الدنيا. (٥)

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٨/ ٢٧١.

(٢) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٨٢، تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٣.

(٣) أخرجه الترمذي٤/ ٦٧٤. كتاب: صفة الجنة باب: ما جاء في صفة درجات الجنة. رقم/ ٢٥٣٢ من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه. وقال الترمذي حديث حسن غريب. وأخرجه ابن ماجه ٢/ ١٤٤٨ برقم: ٤٣٣١ عن معاذ رضي الله عنه. وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة ٤/ ٥٤٣. رقم الحديث: ١٩١٣.

(٤) يراجع تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٣.

(٥) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٨٢.

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء أي الإيمان باليوم الآخر.
* آثار الإيمان بالبعث والجزاء ظاهرة في سلامة كتاب المؤمن من السيئات. وقد علل لذلك بقوله: إني ظننت أني ملاق حسابي فلذا لم أعصِ ربي.
* تأكيد الحقيقة التي تقول: الدنيا مزرعة الآخرة أي من عمل في الدنيا نال ثمار عمله في الآخرة خيراً أو شراً. (١)

حال الأشقياء يوم القيامة

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

لما ذكر حال السعداء أعقبه بذكر حال الأشقياء فبين أنه من أعطي كتابه بشماله– وهذه علامة الشقاوة والخسران – فيقول إذا رأى قبائح أعماله: يا ليتني لم أعط كتابي،

قال المفسرون: وذلك لِما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذٍ أنه لم يعط كتاب أعماله، ويندم أشد الندم، ولم أعرف عظم حسابي وشدته، والاستفهام للتعظيم والتهويل. (٢)

يا ليت الموتة التي متها كانت القاضية ولم أحيا بعدها، ومعنى: القاضية القاطعة للحياة،

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠٣.

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٤، فتح القدير ٥/ ٢٨٢ تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٤.

والمعنى: أنه تمنى دوام الموت وعدم البعث لما شاهد من سوء عمله وما يصير إليه من العذاب فالضمير في ليتها يعود إلى الموتة التي قد كان ماتها وإن لم تكن مذكورة، لأنها لظهورها كانت كالمذكورة. (١)

ما نفعني مالي الذي جمعته ولا دفع عني من عذاب الله شيئا. وزال عني ملكي وسلطاني، ونسبي وجاهي، فلا معين لي ولا مجير، ولا صديق ولا نصير. (٢)

يقول تعالى لزبانية جهنم: خذوا هذا المجرم الأثيم فشدوه بالأغلال، قال القرطبي: فيبتدره مائة ألف ملك، ثم تجمع يده الى عنقه، فذلك قوله تعالى:﴿ فَغُلُّوهُ ﴾ (٣).

ثم أدخلوه النار العظيمة المتأججة، ليصلى حرَّها. ثم أدخلوه في سلسلةٍ حديدية طولها سبعون ذراعاً، قال ابن عباس: بذراع الملك، تدخل السلسلة من دبره، وتخرج من حلقه، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه والسلسلة هي حلق منتظمة، كل حلقة منها في حلقة، يلف بها حتى لا يستطيع حراكاً.. (٤)

ثم لّما بيَّن العذاب الشديد بيَّن سببه فبين أنه كان لا يصدق بوحدانية الله وعظمته. قال أبو حيّان: بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله، وهو تعليلٌ مستأنف كأن قائلاً قال: لم يعذِّب هذا العذاب البليغ ؟ فأجيب إنه كان لا يؤمن بالله، ولا يُحثُّ نفسه ولا غيره على بذل الطعام للمسكين وفيه إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث، لأن الناس لا يطلبون من المساكين الجزاء فيما يطعمونهم، وإنما يطعمونهم لوجه الله ورجاء الثواب فى الآخرة، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم، أي أنه مع كفره لا يحض غيره على إطعام المحتاجين. (٥)

---

(١) فتح القدير، للشوكاني ٥ / ٢٨٢.
(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٤، فتح القدير ٥/ ٢٨٢. بتصرف.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٢٧٢.
(٤) يراجع: الدر المنثور للسيوطي ٨ / ٢٧١.
(٥) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٤.

وفيه دليل قوي على عظم جرم حرمان المسكين لأنه عطفه على الكفر وجعله دليلا عليه وقرينة له، لأنه ذكر الحض دون الفعل ليُعلم أن تارك الحض إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحق. وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فنخلع نصفها بهذا. (١)

فليس له في الآخرة صديق يدفع عنه العذاب، لأن الأصدقاء يتحاشونه، ويفرُّون منه. وليس له طعام إلا صديد أهل النار، الذي يسيل من جراحاتهم، لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المرتكبون للخطايا والآثام.

قال المفسرون: ﴿ ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يتعمد الذنب، والمخطئ الذي يفعل الشيء خطأ دون قصد، ولهذا قال﴿ ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ ولم يقل المخطئون. (٢)

من هداية الآيات:

* تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر أحداثها.
* المال الذي باع المفلسون فيه الأمة والملة لا يغني يوم القيامة عن صاحبه شيئا.
* التنديد بالكفر بالله وأهله.
* عظم جريمة منع الحقوق المالية من الزكاة وغيرها. (٣)
* ندم الجاحدين المعاندين لا ينفعهم بعد فوان الأوان.
* في الآيات الكريمة حض على إطعام المساكين وإكرامهم.

---

(١) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٤. فتح القدير ٥/ ٢٨٢. تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٤. تفسير النسفي ٤/ ٢٧٧.

(٢) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٤ بتصرف.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠٤ .

تعظيم القرآن الكريم وتأكيد نزوله من عند رب العالمين

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد العرض السابق لأحوال الأبرار والفجار، جاء القسم البليغ بصدق الرسول، وصدق ما جاء به من الله، وردّ افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر أو كهانة.

التفسير الإجمالي

قال مقاتل: سبب ذلك القسم: أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن، فقال الله عز وجل: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾ [١].

أي فأقسم بالمشاهدات والمغيبات، أُقسم بما ترونه ولا ترونه، مما هو واقعٌ تحت الأبصار، وما غاب وخفي عن الأنظار، و(لا) في قوله﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾لتأكيد القسم وليست نافية. قال الإمام الفخر الرازي: والآية تدل على العموم والشمول، لأنها لا تخرج عن قسمي: مبصرٍ وغير مبصرٍ، فشملت الخالق والخلق، والدنيا والآخرة، والأجسام والأرواح، والإنس والجن والنعم الظاهرة والباطنة. [٢]

قال قتادة: هو عام في جميع مخلوقاته جلَّ وعلا، وقال عطاء: ما تبصرون من آثار القدرة،

---

(١) يراجع: الدر المنثور للسيوطي ٨/ ٢٧٣. فتح القدير ٥/ ٢٨٣.

(٢) مفاتيح الغيب ١٥/ ١٠٣.

وما لا تبصرون من أسرار القدرة. (١)

« والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر. بل مما يدركون. وما يبصر البشر من الكون وما يدركون إلا أطرافاً قليلة محصورة، تلبي حاجتهم إلى عمارة هذه الأرض والخلافة فيها كما شاء الله لهم. والأرض كلها ليست سوى هباءة لا تكاد ترى أو تحس في ذلك الكون الكبير. والبشر لا يملكون أن يتجاوزوا ما هو مأذون لهم برؤيته وبإدراكه من هذا الملك العريض ومن شؤونه وأسراره ونواميسه التي أودعها إياه خالق الوجود.. ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.. » (٢).

إن هذا القرآن لكلام الرحمن، يتلوه ويقرؤه رسولٌ كريم، هو محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم. قال القرطبي: والرسول ههنا محمد ﷺ ونسب القول إليه لأنه تاليه ومبلغه عن الله تعالى. وليس القرآن كلام شاعر كما تزعمون، لأنه مباين لأوزان الشعر كلها، فليس شعراً ولا نثراً، قلَّما تؤمنون بهذا القرآن. (٣)

قال مقاتل: يعني بالقليل أنهم لا يصدقون بأن القرآن من الله، بمعنى لا يؤمنون به أصلاً. والعرب تقول: قلَّما يأتينا، يريدون لا يأتينا. وليس هو بقول كاهنٍ يدعي معرفة الغيب، لأن القرآن يغاير بأسلوبه سجع الكهان، قلَّما تتذكرون وتتعظون.

بل هو تنزيلٌ من ربِّ العزة جل وعلا كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥]. (٤)

فهو كلام رب العالمين لأنه تنزيله، وهو قول جبريل عليه السلام لأنه نزل به، وهو قول محمد

---

(١) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٨٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦ / ٣٦٨٤

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٧٣.

(٤) يراجع: تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٥.

ﷺ لأنه أنذر الخلق به، فههنا أيضاً لما قال فيما تقدم ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾. أتبعه بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ حتى يزول الإشكال. (١)

والغرض من الآية تبرئة الرسول ﷺ مما نسبه إليه المشركون من دعوى السحر والكهانة. ثم أكّد ذلك بأعظم برهان على أن القرآن من عند الله فأكد أنه لو اختلق محمد بعض الأقوال ونسب إلينا ما لم نقله لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا، ثم لقطعنا نياط قلبه حتى يموت. (٢)

قال القرطبي: والوتينُ عرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه، والغرض أنه تعالى يعاجله بالعقوبة ولا يمهله، لو نسب إلى الله شيئاً ولو قليلاً، فإن تسمية الأقوال بالأقاويل للتصغير والتحقير. (٣)

فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه، لو أردنا حينئذٍ عقوبته، ولا أن يدفع عنه عذابنا قال الخازن: المعنى إن محمداً لا يتكلم الكذب علينا لأجلكم، مع علمه أنه لو تكلم لعاقبناه ولا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه (٤)

وإن هذا القرآن لعظةٌ للمؤمنين المتقين الذين يخشون الله، وخصَّ المتقين بالذكر لأنهم المنتفعون به كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

ونحن نعلم أن منكم من يكذب بهذا القرآن مع وضوح آياته، ويزعم أنه أساطير الأولين. وفي الآية وعيدٌ لمن كذب بالقرآن الكريم وافترى عليه.

وإنه لحسرة عليهم في الآخرة، لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثواب من آمن به. وإنه لحقٌّ يقينيٌّ

(١) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٥/ ١٠٥.

(٢) يراجع: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٦. فتح القدير ٥/ ٢٨٤. تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٦. تفسير النسفي ٤/ ٢٧٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٢٧٦.

(٤) تفسير الخازن ٧/ ١٤٨.

لا يحوم حوله ريبٌ، ولا يشك عاقل أنه كلام رب العالمين.

فنزّه ربك العظيم عن السوء والنقائص، واشكره على ما أعطاك من النعم العظيمة، التي من أعظمها نعمة القرآن. (١)

من هداية الآيات:

* لله جل شأنه أن يحلف بما شاء من مخلوقاته لحكم عالية. وليس للعبد أن يحلف بغير الله تعالى.
* تقرير الوحي وإثبات النبوة المحمدية.
* وصف الرسول ﷺ بالكرم وبكرامته على ربّه تعالى. (٢)
* ملك الله تعالى وخلقه أعظم وأكبر مما نعلمه أو نبصره أو نتخيله.
* الكذب محال قطعا على الأنبياء.
* التأكيد على سلامة القرآن الكريم من أي تحريف أو خلل أو افتراء ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وأخيرا.. فهذه سورة الحاقة، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

---

(١) يراجع: فتح القدير ٥/ ٢٨٤. تفسير أبي السعود ٥/ ٧٦٥.
(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٣٠٦.

أهم الدروس المستفادة من سورة الحاقة

احتوت سورة الحاقة على دروس مهمة يمكن أن نجملها فيما يلي:

* وجوب التأمل في مصارع الغابرين، والاعتبار بهلاك المكذبين.
* لا يفلت المجرمون من عقاب الله، وإن أمهلهم - سبحانه - فإنه يملي لهم ولا يهملهم.
* الله تعالى يذكر عباده بنعمه، حتى يشكروه ولا يجحدوه.
* يوم القيامة هوله عظيم، وكربه شديد. والناس يومئذ فيه لا يخفى على الله منهم شيء.
* في أرض المحشر يتقرر مصير الخلق، إما إلى جنة أبدا، وإما إلى نار أبدا.
* أصحاب الشمال لا ينفعهم يوم القيامة ندامة، ولا يغني عنهم خلة ولا شفاعة.
* التأكيد على سلامة القرآن الكريم من أي افتراء، فهو محفوظ بحفظ الله تعالى له.

سورة المعارج

بين يدي السورة

اسم السورة

ذكر الفيروز آبادي أن لهذه السورة ثلاثة أسماء: (سأل)، و(الواقع)، و(المعارج). [1]

مرحلة نزول السورة

اتفق العلماء على أن هذه السورة مكية، فقد أوردها الزركشي تحت العنوان الآتي: ذكر ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيبه، ثم قال: « فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة، وعليه استقرت الرواية من الثقات»[2]، وكان ترتيبها التاسعة والسبعين، وهي كذلك عند السيوطي. [3]

ولا بد من وقفة هنا، لبيان حال الناس عند نزول هذه السورة، فمما لا شك فيه أن السور المكية عامة، عنيت بتصحيح العقيدة، ولذا نجد أن سورة المعارج، عالجت ما كان عليه أهل مكة من إنكار للبعث، وما ترتب على ذلك من صفات، كما أنها في الوقت ذاته، قدمت لهم صفات من آمن به، وهي في ابتدائها وخاتمتها، تصور ما كان عليه حال المشركين من استهزاء، فهم يسألون عن يوم البعث، سؤال مستهزئ منكر، ثم في خاتمتها تصور حالهم، ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ١/ ٤٨٠. والإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٢٢، وانظر روح المعاني، الآلوسي ٢٩/ ٦٢.، وفيه المواقع، بزيادة ميم، والصواب ما ذكر؛ لورود كلمة واقع في هذه السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ ﴾، وهذا ما نص عليه الفيروز آبادي. انظر بصائر ذوي التمييز، ١/ ٤٨٠. وانظر التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٥٢، وسماها سورة سأل سائل، بإضافة سائل على ما ذكره الفيروز آبادي، والسيوطي.

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٢٨١_٢٨٢. وانظر بصائر ذوي التمييز، ١/ ٤٨٠.

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٨٢، وبصائر ذوي التمييز ١/ ٤٨٠. والإتقان في علوم القرآن، ١/ ١٩. والملاحظ أن ابن عاشور ذكر أن ترتيبها عند جابر بن زيد الثامنة والسبعون [فليتحقق]

وقد بينت هذه السورة الكريمة سمات الفريقين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٥]. فعلى المؤمن أن يتنكب سبيل المجرمين، وأن ينأى بنفسه عما يتصفون به من صفات ذميمة، وصمهم الله تعالى بها. وعليه باتباع سبيل المؤمنين، وأن يتصف بصفاتهم التي وصفهم الله عز وجل بها.

كما توضح السورة جانباً من الضيق الذي كان يشعر به الرسول ﷺ في تلك المرحلة، وهو يواجه استهزاء المشركين وسخريتهم، حتى إن الله عز وجل يأمره بالصبر ابتداء ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾، ويأمره انتهاء بأن يترك هؤلاء في خوضهم بالباطل ولعبهم، حتى يلاقوا اليوم الذي يوعون.﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

عدد آيات السورة

عدد آيات هذه السورة أربع وأربعون آية، وهو قول الجمهور، وعدها أهل الشام ثلاثاً وأربعين.[١]

قال ابن الجوزي: « اختلافها آية واحدة، عد أهل حمص بأسرهم قوله:﴿ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ آية، إلا الشامي وحده، لم يعدها آية».[٢]

محور السورة

يدور الحديث في هذه السورة المباركة حول البعث، وذلك راجع لمرحلة نزول السورة إذ هي مكية، وقد عالجت هذا الموضوع من خلال عرض صورة لمن آمن بالبعث، وأخرى للكافرين به، تجلى هذا في مقدمة أبرزت أحد هؤلاء المنكرين، وهو يتساءل عن هذا اليوم منكراً مستهزئاً، ثم لم تتوقف السورة عنده كثيراً، حتى بدأت تلسعه وأمثاله بسياط تأكيد وقوع هذا اليوم، وأنه من الله ذي المعارج، وأمام هذا الإنكار والاستهزاء كان لا بد من توجيه، يؤمر فيه

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن، ١/ ١٥٠، والتحرير والتنوير، ٢٩/ ١٥٣.

(٢) فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن، ابن الجوزي/ ١٤٨.

المصطفى ﷺ بالصبر على هذا الأذى، ثم بيان سبب إنكارهم، وقد ذكر بإيجاز كذلك، ثم تتوالى الآيات مبينة هول ذلك اليوم...، يعقب ذلك وقفة، تبين صفة مَن تدعوه النار... ليبلغ الهول مداه، تهيئة للقلوب السليمة كي تسأل عن الخلاص من هذا الموقف الرهيب، وقبل أن يأتي الجواب، تقرر الآيات الآتية حقيقة عظيمة: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾، وهنا يأتي الاستثناء، وقد وخوفت القلوب وزلزلت فيُستثنى أناس آمنوا بالبعث، وأثمر هذا الإيمان إحساناً في الصلة مع الخالق، وإحساناً مع المخلوقين... لتختتم هذه الصفات بجزاء كريم من رب كريم: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ثم تكر الآيات على الفريق الكافر بتساؤل ينكر عليهم فعلهم، ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ إذ قد يظن أن إسراعهم لأجل الهداية، ولكنهم في الحقيقة، يريدون أن يسترقوا السمع ليتخذوا ما سمعوه هزواً، ثم تساؤل آخر، ينكر عليهم طمعهم الفارغ في دخول الجنة، إذ يقولون مخاطبين المؤمنين بتكبر واستعلاء: إذا كان ثمة بعث فسندخل نحن الجنة، فيأتي الإنكار تعقبه إهانة تذكرهم بأصل خلقهم:﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، وإذا كان سبب إنكارهم البعث ظنهم استحالة ذلك، وفيه إثبات العجز لله تعالى، فالرد على ذلك: أن الله تعالى رب المشارق والمغارب، قال ابن كثير: « أي: الذي خلق السموات والأرض وجعل مشرقاً ومغرباً، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها...».[1]

وهم يقرون بأن الله تعالى خالقهما، قال جل جلاله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٩]، فما دام الأمر كذلك فخلقهما أكبر من خلق الناس، قال جل جلاله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧]، ثم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يترك هؤلاء المنكرين يخوضون في باطلهم ويلعبون، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون، وأخيراً يأتي الجزاء، جزاء المنكرين المتكبرين ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾...

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٤٣ بحذف يسير.

مناسبات السورة:

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

ذكر العلماء لهذه السورة الكريمة أكثر من اسم، وسنحاول إيجاد المناسبة بينها وبين المحور الذي اختير، ففيما يتعلق بالاسم الأول: (سأل) أو (سأل سائل)، فهناك ارتباط بينه وبين محور السورة الذي يدور حول الإيمان بالبعث والكفر به، ففي هذا الاسم إشارة لهذا السائل المتعجب المستهزئ من قضية البعث، فهو مثال للفئة المنكرة، ولما كانت السورة مكية، وكانت هذه الفئة هي الأكثر، سميت السورة بما ورد في صدرها، لتعجب من تعجبه واستهزائه بأمر واقع.

وفيما يتعلق باسم السورة (واقع) فلنا أن نستل مما ورد في آخر المناسبة السابقة، فهذا السائل الذي ينكر يوم البعث، يسأل عن أمر واقع لا محالة، فكأن فيها الرد السريع المباشر على من يسأل هذا السؤال.

أما (المعارج) فقد وردت هذه اللفظة في قوله تعالى:﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾ في إشارة لبيان ممن سيكون العذاب الذي يستهزئ منه المنكرون قال تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

لا يخفى على المتدبر لآيات هذه السورة، أنها ابتدأت بعرض مثال لمنكري يوم القيامة، الذي عبر عن إنكاره بهذا التساؤل، الذي يحمل في طياته استهزاء وكبراً، كبرٌ حمله على أن يسأل هذا السؤال الدال عن عدم اكتراثه بالعذاب، فكان أن تولت الخاتمة ذكر مآله ومآل أمثاله﴿ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾، فكان الجزاء أن الذلة تغشاهم في ذلك اليوم.

ثم إن الخاتمة قد تولت الإجابة عن سؤاله بما سيكون عليه حاله في ذلك اليوم، ثم ختمت بقول الله جل جلاله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾.

كما أن النبي ﷺ قد أمر في افتتاحية السورة بالصبر الجميل، فقد أمر في خاتمتها بقول الله

جل جلاله: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ماقبلها:

ذكر العلماء أن سورة المعارج نزلت بعد سورة الحاقة[1]، وهذا ما يجعل التلاحم أشد، يتضح ذلك من الآتي:

آخر آية في سورة الحاقة هي قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾، ومن المعلوم أن «التسبيح تنزيه الله تعالى»[2]، فهل كان المشركون يسبحون ربهم العظيم، إن من ينكر البعث لا يكون منزهاً لله تعالى عن النقائص، ذلكم أن منشأ إنكارهم للبعث ظنهم استحالة ذلك، وهذا شك في قدرة الله تعالى، يدل على هذا أقوالهم الكثيرة، منها: ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٧- ٤٨]. كما أن في إنكار البعث قدحاً في حكمة الله تعالى، إذ سيستوي الذين يعملون الصالحات مع من يرتكبون الفواحش والموبقات، وسيموت الظالم ولم يقتص منه للمظلوم.

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

تضمنت سورتا الحاقة والمعارج مناسبات عدة، منها:

* أن سورة الحاقة اشتملت على إحقاق الحق بين الناس، اتضح هذا من خلال توزيع الكتب، وانقسام الناس إلى فريقين...، فكان أن افتتحت سورة المعارج بالفريق المكذب، ببيان أن العذاب واقع لا محالة، وأنه لا دافع له....
* افتتحت سورة الحاقة بذكر يوم البعث ﴿ الْحَاقَّةُ ﴾، وبيان هولها، وهذا ما بين وفصل في سورة المعارج، من خلال ذكر مصدر العذاب ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾، بل إن في النص على أن

---

(١) انظر الإتقان ١/ ١٩.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني/ ٣٩٢.

هذا العذاب واقع، تهويل لا يخفى.

* ذكر في سورة الحاقة ما سيحصل من حوادث كونية، ففيما يتعلق بالسماء ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾، وفي سورة المعارج: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ ﴾، وأما الجبال ففي سورة الحاقة ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾، وفي سورة المعارج ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾، وكأن الدك يصيرها كالعهن، وكذا السماء لربما يؤدي انشقاقها إلى صيرورتها كالمهل، أو لعل كونها كالمهل يؤدي إلى انشقاقها، والعلم عند الله تعالى.

* ذكر الأقوام المكذبة وما آل إليه حالهم في سورة الحاقة، فيه تسلية للنبي ﷺ، وكذا مآل المكذبين بيوم البعث في سورة المعارج ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾.

* وانظر إلى الارتباط بين ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾، في سورة المعارج، وتحسر المكذبين على فعلتهم بقولهم في سورة الحاقة: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ ﴾. قال ابن عاشور: «وفي هذا تعريض بسادة مشركي قريش العرب، مثل أبي جهل، وأمية ابن خلف».(1)

* وتأمل هذا التشابه بين ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ في سورة الحاقة، وما في سورة المعارج ﴿ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾. فلم يكن منعه المال لمستحقيه إلا ليجمع أكبر قدر منه.

* ثم لاحظ المقابلة بين ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ في سورة الحاقة، وهي تصور حال المكذبين، وبين سمة من سمات المؤمنين في سورة المعارج ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

* وتدبر قول الله تبارك وتعالى في سورة الحاقة: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾، وما في سورة المعارج: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾. إلى غير ذلك...

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٣٦.

عرض مقاطع السورة

مقدمة السورة

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾.

افتتحت السورة بآيات، تعرِض مثالاً لمن ينكرون البعث، صاغ إنكاره على شكل سؤال يحمل بين طياته استهزاء.

يعرض القرآن الكريم سؤاله دون أن يتعرض لاسمه تحقيراً له، ولبيان أن الغرض هو السؤال الذي يحمل الشبهة، ثم الرد عليها، فهو سائل، وأمثاله موجودون في كل زمان ومكان...، ثم تنتقل الآيات مباشرة إلى الرد على الشبهة دون الدخول في تفاصيلها، في حين أخذ الرد حيزاً كبيراً، فقد ذكر الله تعالى أن هذا العذاب الذي يسأل عنه، واقع على الكافرين لا محالة[(١)]، وقد يُظن أنه إذا وقع فإن هناك من يستطيع دفعه، كآلهتهم، أو سواهم ممن يظن فيهم النفع أو الدفع... فحسم الله تعالى أطماعهم، فقال عز من قائل:﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ « بوجه من الوجوه، ولا حيلة من الحيل»[(٢)]، وهذا تهويل لعله يهيئ نفوسهم لتلقي الحق ومعرفة ما سيحصل في هذا اليوم الشديد، ليستعدوا له، لا أن ينشغلوا عنه بأمور تضيع أعمارهم سدىً...، ثم أردف ذلك ببيان مصدر ذلك العذاب وأنه الله تعالى، ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾، «ذو العلو والدرجات والفواضل والنعم»[(٣)]. وإذا كان هذا السائل الحقير يستهزئ منكراً يوم الحساب، فإن الملائكة العظام عليهم السلام، ومعهم جبريل ﷺ، تصعد إليه في ذلك اليوم العظيم[(٤)]، ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾، وإذا

(١) انظر جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٢٦.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ١٤٥٠

(٣) جامع البيان، ١٢/ ٢٢٦، وانظر تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٣٧.

(٤) رجح هذا القول، أعني: يوم القيامة، لمناسبتها للسياق، وهو قول ابن عباس ﷺ والحسن وقتادة =

كانوا يستعجلون وقوع هذا اليوم ـ استهزاء ـ فلا يحزنك هزؤهم، واصبر على تكذيبهم؛ فإن مرد ذلك، اعتقادهم استحالة وقوعه، وهو في الحقيقة قريب... فما عليك إلا الصبر، والصبر الجميل الذي لا جزع فيه، ولا ينبغي أن يثنيك ما تلقى منهم عن تبليغ ما أمرك الله تعالى أن تبلغهم من الرسالة. (١) ولا يخفى ما يتضمنه هذا الأمر من تهديد للمكذبين، بما سيقع بهم من وراء هذا الصبر الذي يلقاهم النبي ﷺ به محتملاً سفاهتهم وسخريتهم. (٢)

الهدايات المستفادة من المقدمة:

* لا ينبغي أن يُشتغل بأسماء من يثير الشبهات، والأفضل أن يبقوا نكرات حتى لا تلفت الأنظار إليهم.
* الاستهزاء بالإسلام أمر قديم، لا علاقة له بالداعية، فهذا الاستهزاء وقع ممن كانوا يسمّون الرسول ﷺ الصادق الأمين، فلا ينبغي أن يفت استهزاؤهم في عضد الداعية، ولأهمية هذه النقطة فقد جاء الأمر الرباني بالصبر الجميل ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ ﴾.
* الأفضل في ذكر الشبه أن لا تورد مفصلة، حتى لا تعلَق بقلوب العوام، بل يكفي إيرادها مختصرة، مع مراعاة وضوحها... أما الرد فيكون مفصلاً.
* علو الله تعالى، يستنبط ذلك من قوله تعالى:﴿ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ ﴾.
* ينبغي على العلماء والدعاة مخالطة الناس، ومعرفة ما يدور على أرض الواقع؛ لإزالة ما قد يعرض من شبه.
* تعلم المنهج الرباني في الرد... وفي الحوار، فقد كان الرد على الشبهة لا على قائلها.

=والقرطي، انظر زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١١٧.

(١) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٢٨.

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٥/ ١١٥٩.

* مهما علا شأن الإنسان ونبل ذكره، فهو في حاجة للتذكير، فهذا رسول الله ﷺ يأمره ربه جل جلاله بالصبر الجميل...، فعلى العلماء والدعاة أن يتواصوا بالحق وبالصبر، كما أن عليهم أن لا يأنفوا إذا ما نصحوا.

المقطع الأول: منكرو البعث

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

مناسبة هذا المقطع لمقدمة السورة

عرضت مقدمة السورة سؤال هذا المنكر المستهزئ، فجاء هذا المقطع مبتدئاً بذكر سبب إنكارهم، ثم توالت الآيات تبين هول ذلك اليوم الذي يستبعدون وقوعه؛ ليحدث في نفوسهم هزة شديدة توقظهم من غفلتهم، ولعلها تعيدهم إلى صوابهم ؟

التفسير الإجمالي

بعد تلك المقدمة، التي تذكر مثالاً للمستهزئين، انتقل الحديث لبيان سبب هذا الاستهزاء وهذا الإنكار، وهو كونهم يستبعدون وقوع العذاب، في حين أنه قريب، لأن كل ما هو آت قريب....

بعد ذلك ـ وبمناسبة ذكر استبعادهم وقوع العذاب ـ انتقل الحديث لذكر أهوال يوم القيامة، واللافت للنظر أن الحديث هنا لم يأت بأدلة لإثبات هذا اليوم، بل ذكر الأهوال التي تحصل فيه؛ لعلها تحدث هزة في النفوس المتشككة تزيل عنها ركام شبهات استولت على قلوبهم

حتى أقفلتها؛ لأن ما سيحدث سيزلزل ما ترونه قوياً ثابتاً راسخاً: السماء والجبال، وإذا كانت السماء، وهي السقف المحفوظ والحافظ ستصبح كالشيء المذاب، والجبال التي كانت أوتاداً تثبت الأرض كيلا تميد، قد صارت كالصوف، فقد حُق لهذا الإنسان الضعيف أن يتحسس مواقع قدميه متسائلاً: أين أنا في وسط هذه التحولات الرهيبة، وكيف سيكون حالي؟ والقرآن الكريم لا يتيح له الفرصة ليفكر في الإجابة، لقد طوي حاله، وإن كان فيما تحمله الآية من معان ليدل عليها، إذ هي حال من يذهل عن الناس جميعاً، ويذهل عنه الناس أجمعون، فلا يسأل القريب المشفق عن حال قريبه ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾، لقد أهمّت الناس أنفسهم، وقد يظن أن مرد ذلك عدم رؤيتهم، وهذا مبرر كاف، لكن في قوله تعالى: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ بياناً عظيماً، فهذا المذهول لا يبصر مَن أمامه، ولو قابله، لقد أعماه ما هو فيه عن رؤية قريبه، « وفي الفعل ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ ما ليس في الفعل يبصرونهم، وذلك:

أولاً: أن يبصّرونهم يفيد أن أهل الموقف ـ لما هم فيه من بلاء ـ لا يكادون يبصرون شيئاً، ولكن قوة خارجة عنهم، تحملهم حملاً على أن يفتحوا أعينهم على هذا المكروه الذي يحيط بهم ويهجم عليهم.

وثانياً: أن يبصرونهم تجعل المبصرين والمبصَرين على سواء، فكل منهم يبصِر ويبصَر في حال من الفزع والهلع، لا تدع لأي سبيلاً إلى الاختيار فيما ينظر إليه...». [1]

وإن الهول ليبلغ مداه حين نتصور مجرد تصور، أن هذا الإنسان البائس يتمنى ويحب أن يقذف بأعز أقربائه في النار، على أن ينجو هو منها، ولو كان هذا الملقى بنيه وزوجته وأخيه وقبيلته، بل كل من في الأرض كذلك مقابل نجاته... وهل هذا التمني مجد؟، ويأتيه الجواب الرباني: ﴿ كَلَّآ ﴾، زجر وردع عن هذا التمني الفارغ، إن ما يتتظركم نار « ذات اللهب الخالص المتناهي في الحر، يتلظى، أي: يتوقد...»[2]، تنزع نزعاً شديداً جلدة الرأس وأطراف البدن. [3] « وهذا

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٥ / ١١٦١ـ١١٦٢.

(٢) نظم الدرر ٨/ ١٤٩.

(٣) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٣١، ونظم الدرر ٨/ ١٤٩.

يعني أن يفقد المعذب بالنار القدرة على الحركة، إذا انفصلت عنه رجلاه اللتان يتحرك بهما، كما يفقد القدرة على الدفاع عن نفسه بيديه بعد أن عجز عن الفرار، إذ قد انخلعت عن جسده هاتان اليدان.. وهكذا يصبح كتلة مستسلمة للعذاب، مقيدة بقيد العجز المطلق».[١]

وبعد هذا التهويل الذي يفزع الإنسان، ويجعله يتساءل، عن من يستحق هذا العذاب؟ فيأتيه الجواب، ﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ ﴾، « كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه»[٢]. وقد جمع بين الإدبار والتولي، مدبراً عن الحق متولياً عنه إلى الباطل[٣]، ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ « جمع المال وجعله في وعاء وكنزه، ولم يؤد الحقوق الواجبة فيه». [٤] بل تشاغل به عن الدين؛ حرصاً وتأميلاً. [٥] وقد أخرج البخاري ومسلم بسندهما: « عَنْ أَسْمَاءَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (أَنْفِقِي وَلا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللهُ عَلَيْكِ وَلا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ)». [٦]

ولعل في الجمع بين الإدبار عن الإيمان والتولي عن الطاعة، وبين الإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، دلالة جلية على شناعة هذا الفعل، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحاقة: ٣٣- ٣٤].

وفيه تنفير شديد من الاتصاف بهذه الخصلة الذميمة، وأنها شأن الكافرين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من جزاء.

وفي « قوله تعالى: ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ إشارة إلى حب الدنيا، فجمع إشارة إلى الحرص وأوعى إشارة إلى الأمل، ولا شك أن مجامع آفات الدين ليست إلا هذه». [٧]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١١٧٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٠.

(٣) انظر التحرير والتنوير ٩/ ١٦٥.

(٤) التفسير الكبير، الرازي ٣٠/ ١٢٨.

(٥) روح المعاني ٢٩/ ٦٩.

(٦) صحيح البخاري، برقم(٢٥٩١). وصحيح مسلم، برقم(١٠٢٩).

(٧) التفسير الكبير ٣٠/ ١٢٨.

ثم يقرر هذا المقطع حقيقة عظيمة، يأتي بها مؤكدة، فيقول جل جلاله:﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾، « فالإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم، إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه»(١)، والهلوع: صيغة مبالغة، من الهلع، وهو: « شدة الجزع مع شدة الحرص والضجر»(٢)، وفي قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ ﴾: إشارة إلى أن هذا الذي عليه الإنسان من جزع ومنع هو مما سبق به قضاء الله فيه، واقتضته مشيئته، ومع هذا القضاء السابق والمشيئة الغالبة، فإن الإنسان مكلف بأن يختار طريق الخير ويتجه إلى جانب الأمن والسلامة من عذاب الله؛ لأنه لا يدري ما قضاء الله فيه، ومشيئته له، ولكن الذي يدريه أن للنجاة سبيلاً ينبغي أن يسلكه، وللهلاك طرقاً يجب أن يتجنبها(٣).. بيد أن مثل هذه الآيات تجعل الإنسان يقظاً خشية أن يكون من ضمن ذلك التيار الجارف والغثاء الكثير..

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ بيان للهلع الذي هو طبيعة غالبة في الإنسان ما لم يهذبها بآداب الشرع، وإذن فهذا موقف الكافر ومنهجه في التعامل مع الحياة، والإنسان لا يخلو من مواجهة الخير أو الشر، ونظرة في الآية الكريمة تشخص لنا حالته تشخيصاً دقيقاً، فهو إذا مسه الشر مجرد مس، من مرض أو فقر أو نحوهما، جزع جزعاً عظيماً ولم يصبر، وإذا مسه الخير، مجرد مس، من مال أو صحة أو ولد، أو نحو ذلك، بالغ في المنع، ومرد ذلك كله إلى موقفه من الإيمان باليوم الآخر، فعند الشر، لا يحتسب الأجر عند الله تعالى، ولا يستشعر أن الذي سلب منه، كان منحه له ابتداء؛ تفضلاً من الله تعالى، وأنه في الدنيا للابتلاء، ولا يعي قول الله جل جلاله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، وإذا كان كذلك، فلن يطمئن قلبه لوعد

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٤١. وانظر أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٨٠.

(٢) جامع البيان، ١٢/ ٢٣٤.

(٣) انظر التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١١٧٤.

الله تعالى عقب ذلك: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٧] وإذا وسع الله تعالى رزقه، وآتاه الصحة والبنين، منع خيره عن الناس، وكيف يجود بالخير من لا يؤمن بالجزاء؟، وعلى هذا فهو بين جزع ومنع.... أما المؤمن الحق فهو خلاف ذلك، فعن الرسول الكريم ﷺ أنه قال: (عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ). (١)

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

* من أسباب إنكار البعث: الظن باستحالة وقوعه، ومرد ذلك الشك في قدرة الله جل جلاله، وهذا ناشئ من الجهل بالله تعالى.
* شدة أهوال يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾.
* إن أهم الأسباب التي تؤدي إلى زيادة العلائق بين الناس ما كان على أساس من الدين وإلا فإن كل الأسباب ستتقطع، قال الله تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ ﴾.
* يستنبط من قوله تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ ﴾ أن على الإنسان أن يسعى في تخليص نفسه من عذاب يوم القيامة، وان لا يجعل أي إنسان سبباً في ضلاله مهما بلغت محبته له. فإنه سيتمنى يوم القيامة، تقديم أغلى من يملك، ولا يجديه ذلك شيئاً.
* من أهم أسباب دخول النار: الإدبار عن الحق والتولي عن الطاعة. وجمع المال من غير أن يخرج حق الله تعالى منه.
* حاجة الإنسان إلى تهذيب نفسه، وألا يتركها لما جبلت عليه من هلع.

(١) صحيح مسلم، برقم(٢٩٩٩).

المقطع الثاني: المؤمنون بالبعث

قال الله تعالى:﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

المناسبات بين هذا المقطع والذي قبله

بعد أن تحدث القرآن الكريم عن منكري البعث، وذكر من أحوالهم ما يفزع القلوب الحية، من فرارهم من أعز الناس إليهم، ومن كون النار لظى، نزاعة للشوى.... ثم ذكرت السورة صفات من تدعوهم النار ﴿ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾، تهيأت النفوس للبحث عن خلاص من هذا الذي ينتظر كل من اتصف بصفاتهم، فجاء هذا المقطع؛ ليبين الصفات التي تهيئ الإنسان للانضمام إلى من هم في جنات مكرمون.

التفسير الإجمالي

ابتدأ المقطع الثاني بالاستثناء، وفيه دلالة على كثرة الهالكين، وأن المتصفين بها سيأتي قلة ولعل فيه نوع من الإلهاب والتهييج للانخراط في سلكهم، والسير على هديهم ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الآيات، وقد وصفوا بصفات تدل على كمال تنزههم عن الهلع وذلك بكونهم مستغرقين في طاعة الله جل جلاله والإشفاق على الخلق، والإيمان بالجزاء، والخوف من العقوبة، وكسر الشهوة، وإيثار الآجل على العاجل، على خلاف القبائح المذكورة فيمن أنكر البعث.(١)

افتتحت الآيات بذكر الصلاة والمداومة عليها، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي: «لا فتور لهم عنها ولا انفكاك لهم منها، بل يلازمونها ملازمة يحكم بسببها أنهم في حال الفراغ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٣٠٢ بتصرف يسير. وانظر روح المعاني ١٥/ ٧٠.

منها نصب أعينهم بدوام الذكر لها والتهيؤ لأدائها؛ لأنها صلتهم بمعبودهم...»[١].

ثم ثنت بإحسانهم إلى الخلق، فبينت أن هؤلاء في أموالهم حق معلوم، وسواء كان المراد الزكاة، أو مجرد الإنفاق، فإن مبعث هذا الإنفاق هو إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم بوعده وهذا ما حملهم على ذلك، وإلا فإن النفوس مجبولة على الشح فيما عندها، فلا تخرج ما بأيديها إلا نفس قد طهرها الإيمان....

ثم عقب ذلك بالنص على صفة عظيمة، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ ﴾ قال الطبري: « يقرون بالبعث والمجازاة»[٢]، وهنا الفيصل في التصرفات كلها، فيفترق من يؤمن بالبعث والجزاء عمن ينكرهما؛ لأن لهذا للإيمان ثمرة، وهي العمل، صالحاً كان أم سيئاً، المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لذلك اليوم، وينتظر الجزاء هناك، وإذا أصابه خير أو شر، أيقن أنه مجزي على هذا كله، فيشكر ويصبر، والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة، ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه، وينتهي إلى نتائج خاطئة. [٣]

وقد يُظن ـ بعدما تقدمت للمؤمنين من أعمال صالحة ـ أن هؤلاء يغلب عليهم الأمن من عذاب الله جل جلاله، فجاء التعقيب الذي يرد هذا الوهم، بأنهم وهم على هذه الصفة الرفيعة مشفقون من عذاب ربهم. فهم «خائفون على أنفسهم مع ما لهم من الأعمال الفاضلة استقصاراً لها واستعظاماً لجنابه جل جلاله»[٤]، ثم يقرر المولى جل جلاله هذه الصفة مؤكداً لها﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾، « أي: لا ينبغي لأحد أن يأمنه، بل يجوز أن يحل به وإن بالغ في الطاعة؛ لأن الملك ملك تام الملك، له أن يفعل ما يشاء، ومن جوز وقوع العذاب أبعد عن

(١) نظم الدرر ٨/ ١٥١.

(٢) جامع البيان ١٢/ ٢٣٩.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٠.

(٤) إرشاد العقل السليم ٦/ ٣٠٣. وانظر روح المعاني ١٥/ ٧١، وفتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣١٤.

موجباته غاية الإبعاد، ولم يزل متأرجحاً بين الخوف والرجاء»[1]، ثم « إن الإنسان لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي، واحترز عن المحظورات بالكلية، بل يجوز أن يكون قد وقع منه تقصير في شيء من ذلك، فلا جرم يكون خائفاً أبداً». [2]

ولما ذكر التحلي بتطهير النفس، بالصلاة طهارة حسية ومعنوية، وبتطهير المال والنفس بالصدقة، حث على التخلي عن أمر جامع بين تدنيس المال والنفس، وهو الزنا، فبين الله تعالى أن هؤلاء حافظون لفروجهم حفظاً ثابتاً دائماً. [3] إلا عمن أذن الله تعالى به ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾، ثم بين تعالى أن من التمس منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه، فقد عدا ما أحل له إلى ما حرم عليه... [4]، ولا يلتزم أمر الله تعالى إلا من آمن به وأيقن بوعده ووعيده، أما من كفر بذلك فهو يعب من الشهوات عباً، يريد أن يقتنص كل فرصة ممكنة، همه الدنيا وملذاتها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي: «والذين هم لأمانات الله التي ائتمنهم عليها من فرائضه وأمانات عباده التي ائتمنوا عليها، وعهوده التي أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم، وعهود عباده التي أعطاهم على عقده لهم على نفسه راعون، يرقبون ذلك، ويحفظنه فلا يضيعونه...»[5]، وينبغي أن يعلم أن أعظم الأمانات هي أمانة العقيدة، وأعظم العهود هو ما أخذه الله تعالى على بني آدم[6]، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

---

(١) نظم الدرر ٨/ ١٥٣.
(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ١٣٠.
(٣) انظر المصدر السابق.
(٤) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٣٩.
(٥) جامع البيان ١٢/ ٢٣٩.
(٦) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠١.

ولا يؤدي الأمانة وهو قادر على الخيانة، ولا يفي بالعهود وهو قادر على نكثها، إلا من آمن بالله واليوم الآخر، آمن بالرقيب، وآمن بالجزاء.

وتتوالى الآيات تبين خصال من تحرروا من الهلع، يقول تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، أي: « والذين لا يكتمون ما استشهدوا عليه، ولكنهم يقومون بأدائها، حيث يلزمهم أداؤها غير مغيرة ولا مبدلة»[(١)]، وذكر حفظ الشهادة بعد ذكر رعي الأمانات؛ لأن حق المشهود له وديعة في حفظ الشاهد، فإذا أدى شهادته فكأنه أدى أمانة لصاحب الحق المشهود له..[(٢)] «وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات لإبانة فضلها». [(٣)] ولأن الشهادة تتعلق بها حقوق كثيرة، بل تتعلق بها حدود الله تعالى، [(٤)] كما أن في التعبير عن أداء الشهادة على وجهها بلفظ القيام بها، إشارة إلى أن أداءها أمر له شأنه، وأن على الإنسان أن يقوم لها بكيانه كله، وأن يظل هكذا قائماً حتى يؤديها. [(٥)]

ولن يؤدي الشهادة على وجهها، ولن يقيمها لله جل جلاله، إلا مسلم علم أنه موقوف بين يدي الله تعالى يوم الحساب، وبخاصة إذا رُغِّب أو رُهِّب، ولذا كانت هذه الصفة من صفات المؤمنين الذين يرغبون فيما عند الله جل جلاله، وهم من عذاب ربهم لا من عذاب غيره مشفقون.

ثم يختم هذا المقطع بما بُدئ به، وهو تأكيد أمر الصلاة، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ « وهي صفة غير صفة الدوام التي ذكرت في صدر هذه الصفات، تتحقق بالمحافظة على الصلاة في مواعيدها، وفي فرائضها، وفي سننها، وفي هيئاتها، وفي الروح التي تؤدى بها. فلا يضيعونها

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٣٩.
(٢) انظر التحرير والتنوير٢٩/ ١٧٤.
(٣) إرشاد العقل السليم ٦/ ٣٠٣.
(٤) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٢.
(٥) انظر التفسير القرآني للقرآن ١٥/ ١١٨٤، والتحرير والتنوير٢٩/ ١٧٤.

إهمالاً وكسلاً. ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها». [١]

وفي افتتاح هذا الصفات بالصلاة وختمها بها، دلالة على مدى اهتمام الشرع بها، وعلى شرفها وعلو قدرها. [٢]

وبهذه الخصلة ينتهي ذكر هذه الخصال الحميدة، وهنا تتطلع النفوس للجزاء، ما جزاء من اتصف بهذه الصفات؟ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ إنهم في أفق كريم هنالك، مستقرون في جنات مكرمون، من يكرمهم، وبماذا يكرمون؟ لا تشير الآية إلى غير معنى الإكرام الذي يشمل الإكرام الحسي والإكرام المعنوي.

من هدايات المقطع الثاني

* المتحررون من ربقة الهلع قلة، يدل على ذلك، أنهم مستثنون من جمع غفير.
* لابد للمؤمن بالبعث من صفات، حتى يتحقق تميزه ويستحق أن يشار إليه ضمن فريق المؤمنين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾، ومن ثم يستحق الإكرام.
* أهمية الصفات التي أوردها هذا المقطع، وأنه لا بد أن تكون نصب أعين المؤمنين.
* أهمية الصلاة خاصة، يتضح ذلك من أن المقطع بدئ بها، وهذا لوحده كاف في الدلالة على رفعة قدرها، فإذا أضيف إلى ذلك ختم الصفات بها، علمنا موقع هذه الفريضة في الشرع الحنيف.
* الإحسان إلى الخلق صفة من صفات المؤمنين بالبعث، وإلى أهل الحاجة منهم آكد، وعندها يشيع في المجتمع الإخاء والمحبة....
* عذاب الله تعالى ينبغي أن يحذر، حتى ممن يظن نفسه قد انتظم في سلك المؤمنين، وعلى المسلم أن يتهم نفسه، وأن يشعر بالتقصير.
* أهمية العفة للمسلم، وكون الإسلام يحرص على طهارة العلاقة بين الرجل والمرأة؛ ليطهر

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٢. وانظر روح المعاني ١٥/ ٧٢.

(٢) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٣٠٣، وروح المعاني ١٥/ ٧٢، وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٢.

بذلك الفرد والمجتمع.

* الشبهة التي تثار هنا التي تتعلق بالإماء، إذ يجوز الإسلام الاتصال بالإماء إذا وجدن بطريق مشروع، وهو القتال في سبيل الله، فيجيز الإسلام وطء الإماء من صاحبهن وحده، ويجعل عتقهن موكولاً إلى الوسائل الكثيرة التي شرعها الإسلام لتجفيف هذا المورد، ويقف الإسلام بمبادئه صريحاً نظيفاً، لا يدع هؤلاء الأسيرات لفوضى الاختلاط الجنسي القذر، كما يقع لأسيرات الحروب قديماً وحديثاً، ولا يتدسس ويلتوي فيسميهن حرائر، وهن إماء في الحقيقة. (١)
* أهمية حفظ الأمانة والوفاء بالعهود.
* القيام بالشهادة سمة من سمات المؤمنين.
* قد يظن بعض الناس أن هناك من غير المؤمنين بالبعث، من قد يتصف ببعض هذه الصفات كأداء الأمانة، والقيام بالشهادة، والوفاء بالعهد، ويجاب عن هذا بأن ما يفعلونه غير نابع من الإيمان بالبعث، بل لمجرد الحصول على منفعة أو محمدة. أو اتقاء المذمة، ويفعل ذلك مع أوليائه لا مع أعدائه. (٢)
* حاجة الإنسان إلى الوحي، إذ قد علم أنه لا مخلص من الهلع إلا بالاتصاف بهذه الصفات، ولا طريق لمعرفة هذه الصفات ـ فضلاً عن تفاصيل التحلي بها ـ إلا بالوحي.
* جزاء من اتصف بهذه الصفات الإكرام في الجنات، والجزاء من جنس العمل، فكما أكرم نفسه فلم يستعبدها إلا لله، ولم يجعل الدنيا غاية همه ومبلغ علمه، وكما أكرم نفسه فلم يجعها أسيرة الهلع وما يترتب عليه من جزع ومنع، بل قادها هو لما يرضي الله تعالى فأحسن الصلة به وبخلقه.... أكرمه الله تعالى غاية الإكرام.

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠١. بتصرف يسير.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٩/ ١٧١.

المقطع الثالث: هل يتساوى الجزاءان؟

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله

لما ذكر الله تعالى جزاء المؤمنين، بين حال الكافرين، في إتيانهم للنبي ﷺ يسرعون الخطى ومن هذا شأنه يُظن فيه أنه يريد الخير، ولكن هؤلاء اكتفوا بالتحلق حول الرسول ﷺ، يسمعون الآيات؛ ليتخذوها هزؤاً، من ذلك قولهم: «إن كانت ثم آخرة وجنة فنحن أهلها وفيها؛ لأن الله تعالى لم ينعم علينا في الدنيا بالمال والبنين وغير ذلك إلا لرضاه عنا»[1] فهم مع كفرهم وإنكارهم البعث يطمعون أن ينالوا مثل جزاء العاملين.

ومناسبة أخرى، وهي: أن الله تعالى لما ذكر الصفات التي يتحلى بها المؤمنون، ذكر طرفاً من أحوال المشركين، فهم يرون النبي ﷺ ويشاهدون أحواله، ويسمعون الآيات البينات، ومع ذلك يفرون منه ويتفرقون عنه، شاردين يميناً وشمالاً فرقاً.[2]

وقد ذكر الآلوسي مناسبة بين هذا المقطع وافتتاحية السورة، فقال: «... وقال: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بالفاء تخصيصاً بعد تعميم، ورجعاً إلى بدء؛ لأنهم من المستهزئين الذين افتتح السورة بذكر سؤالهم».[3]

التفسير الإجمالي

ينكر الله جل جلاله على المشركين إقبالهم على النبي ﷺ مسرعين، ومن ثم تحلقهم حوله

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٣٧٠.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٢.

(٣) روح المعاني ١٥/ ٧٠.

فرقاً، يشاهدونه ويلمسون معجزاته، ومع ذلك لا يكون نصيبهم من سماع الآيات والمواعظ إلا طمعاً فارغاً في دخول جنة النعيم، وهم لم يتصفوا بالصفات التي تؤهلهم للدخول فيها، فيرد عليهم المولى جل جلاله زاجراً رادعاً ﴿ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، والتعبير القرآني المبدع يلمسهم هذه اللمسة الخفية العميقة في الوقت ذاته، فيمسح بها كبرياءهم مسحاً،... دون لفظة واحدة نابية... فكيف يطمعون أن يدخلوا جنة نعيم على الكفر وسوء الصنيع؟ وهم مخلوقون مما يعلمون!». [1]

ثم أقسم الله جل جلاله برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها على مدار العام، على أنه جل جلاله قادر على أن يهلكهم ويأتي بخير منهم، خلق يطيعون الله تعالى ولا يعصونه، وما يفوته جل جلاله منهم أحد بأمر، فيعجزه هرباً. [2] بل يفعل تعالى ما يريد، لكن اقتضت مشيئته وحكمته تأخير عقابهم.

وهذا دليل على كمال قدرته تعالى على الإيجاد والإعدام مؤكداً بالقسم، وأنه لا يعجزه شيء من الممكنات. وهو تهكم بهم وتنبيه على تناقضهم، حيث يؤمنون بأن الله خالق السماوات والأرض وخالقهم مما يعلمون، ثم لا يؤمنون بأنه قادر على إعادتهم للبعث والجزاء. [3]

هدايات المقطع الثالث

* الحجة قد أقيمت على الكافرين، فهم يقبلون على مجلس النبي ﷺ ويسمعون كلامه ويرون معجزاته، ولكن هذا لا ينفعهم، لأنه صادف قلوباً غلفاً، وعيوناً عمياً، وآذاناً صماً... وإنما يسمعون ويرون ما تقوم عليهم به الحجة.

* هذا الذي يفعله المشركون ـ وأمثالهم في كل زمان ومكان ـ أمر يدعو للإنكار والتعجب إذ

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٣. بحذف يسير.

(٢) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٤٢، وانظر التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ١٢٩ـ١٣٠.

(٣) التفسير المنير ٢٩/ ١٣٠، بتصرف.

الأصل فيمن يقبل مسرعاً على الهداة، أن يفيد من هديهم وعلمهم وسمتهم.

* الهداية بيد الله تعالى، فهؤلاء رأوا الرسول ﷺ، وشاهدوا أحواله، بل رأوا من المعجزات الشيء الكثير، ومع ذلك لم يسلموا، في حين أنك تجد الآن، وبعد هذه القرون المتطاولة إنساناً في الشرق أو الغرب يسمع بعض الآيات وإذا بالإيمان قد عمر قلبه.

* حِلم الله تعالى وحكمته ورحمته، إذ إن هؤلاء المشركين قد استحقوا العقوبة، بكفرهم بالله تعالى، وإنكارهم البعث، والله تعالى قادر على أن يهلكهم ويأتي بخير منهم، ولكنه حلم الله جل جلاله وحكمته ومشيئته.

* المؤمن بالله تعالى وباليوم الآخر يعمل وهو على وجل وإشفاق، والمنكر يعصي الله جل جلاله، ويكفر به وباليوم الآخر، ويطمع في دخول جنة نعيم ـ إن كان ثمة بعث على حد زعمه ـ.

* ظاهرة الشروق والغروب فيها إشارة إلى دوران كرة الأرض، وهي نعمة كبرى من نعم الله على أحياء هذا الكوكب، فلولا دوران الأرض حول محورها لتعرض نصفها لضوء الشمس مدة نصف سنة، وحرم من الضوء تماماً النصف الآخر، وهذا ما لا تستقيم معه الحياة. (١)

* الأدب القرآني، نتبين هذا من خلال التعبير بـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾، مع ما هم عليه من كفر وعناد وتكبر واستهزاء، ولذا فعلى الدعاة أن ينهجوا هذا النهج ولا يستفزهم الذين لا يعقلون.

---

(١) ذكر هذه الإشارة العلمية الدكتور زغلول النجار في موقع (www. islamicmedicine. org /zaghlool).

خاتمة السورة

قال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

مناسبة خاتمة السورة لما قبلها

بعد أن تعرضت السورة الكريمة في مقدمتها لنموذج من منكري يوم البعث، وكيف كان يسأل مستهزئاً عن وقوع العذاب، وذكر في نهايتها أمر النبي ﷺ بأن يصبر صبراً جميلاً، جاءت الخاتمة لتُفتتح بقول الله تعالى لنبيه ﷺ:﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾.

إذا ضممنا إلى هذا تصوير مجيئهم إلى مجلس النبي ﷺ الذي ورد في المقطع الثالث ـ قبيل الخاتمة ـ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾، ثم تبجحهم وتكبرهم وادعاءهم أن ما هم عليه من مال وبنين، إنما هو استحقاق ذاتي، فلو فرض أن هناك يوماً للحساب، فسيدخلون جنة نعيم، أقول: إذا ضممنا هذا إلى ذاك، أمكننا أن ندرك تلاحم السورة. فقد قوبل هذا التبجح بجزاء يوافق فعلهم، وهو الذلة التي غمرتهم جزاء تكبرهم.

ثم تمعن في المقطع الثاني وقد عُجل للمؤمنين بالبعث جزاؤهم﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾، وانظر إلى جزاء المكذبين، الذي ختمت به السورة ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾...

التفسير الإجمالي للخاتمة

بعد استعراض الفريقين، يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ؛ ليترك المكذبين غير مكترث بهم، يخوضون في باطلهم، ويلعبون في دنياهم، حتى يلاقوا يوم البعث عند النفخة الثانية، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: « فلما أقام عليهم الحجة وقطع المعذرة قال: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾، وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي، ولا صدقوا رسالاتي، في خوضهم بالباطل ولعبهم فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه فالأول ضد العلم

النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول...». [١]

ثم قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾، يخرجون في ذلك اليوم الذي أنكروا وقوعه من قبورهم، إذا دعاهم الداعي « يسرعون الخطى، كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه، وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا...». [٢] أما حالهم في ذلك اليوم الذي كانوا ينكرون وقوعه، ساخرين متكبرين، فقد جلاه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾، أي: « خاضعة أبصارهم للذي هم فيه من الخزي والهوان»[٣]، تغشاهم ذلة عظيمة، فتعمهم، وتحمل عليهم فتكلفهم كل عسر وضيق، [٤] ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ وهو إذن يوم يشار إليه، وفي غاية العلو والعظمة، وكانوا يُحَذَّرون من مغبة إنكاره، مرة بعد مرة.

هدايات الخاتمة

* ما يفعله المبتعدون عن منهج الله تعالى لا يعدو أن يكون لعباً ولهواً.
* لا ينبغي أن يأسى الدعاة عندما يرون عدم إقبال بعض الناس على دعوتهم، فهذا رسول الله ﷺ، يؤمر ـ بعد أن أدى أمانة التبليغ ـ أن يذر هؤلاء وما هم عليه.
* خاتمة المتكبرين على طاعة الله، وعلى عباده أن يجازوا بذلة عظيمة.
* لن يتوانى هؤلاء العصاة عن تنفيذ أمر الله تعالى إذا دعاهم الداعي يوم القيامة، وقد كانوا في الدنيا، يؤمرون فيعصون.
* حرص النبي ﷺ على دعوة هؤلاء المكذبين، ورحمته بهم، مع أنهم واجهوه بالسخرية والاستهزاء، حتى احتاج أن يأمره مَن أمره بالتبليغ أن يذرهم.

---

(١) بدائع التفسير، ابن قيم الجوزية ٥/ ٢٩.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٠٣.

(٣) جامع البيان ١٢/ ٢٤٤.

(٤) انظر نظم الدرر ٨/ ١٦٠.

سورة نوح

بين يدي السورة

اسم السورة

قال الفيروز آبادي: «سميت سورة نوح لذكره في مفتتحها ومختتمها»[1]، ولم يُذْكَر لها اسمٌ آخر.

مرحلة نزول السورة

اتفق العلماء على أن هذه السورة مكية، فقد أوردها الزركشي تحت عنوان: ذكر ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيبه، وكان ترتيبها الحادية والسبعين، وهو أربع وثمانون سورة، ثم قال: « فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة، وعليه استقرت الرواية من الثقات، وهو خمس وثمانون سورة»[2].

وإذا استحضرنا هذه المرحلة، فكونها مكية، فإنها تعالج في المقام الأول، العقيدة، متمثلة في: إفراد الله تعالى بالعبادة، وهو ما كان المشركون يأنفون منه، قال جل جلاله يبين حالهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ [الصافات: ٥]، وقد ذكر هذا في سورة نوح في قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾.

كما أنها تناولت أمراً في غاية الأهمية، وهو البعث، الذي أنكر المشركون وقوعه، قال جل جلاله: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ ﴾ [الصافات: ١٦]، وفي هذه السورة يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾، فكان إرسال نوح عليه السلام؛ ليخوفهم عاقبة شركهم بالله جل جلاله.... وفي أثناء

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي١٠/ ٤٨٢.

(٢) انظر لما تقدم البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٢٨١، والسور التي عدها: أربع وثمانون لا خمس وثمانون. وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ٣٧٢، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي١/ ١٩.

السورة ورد قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾.

هذا فيما يتعلق بالمشركين، أما فيما يتعلق بالمؤمنين، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، فإن السورة تذكر نوحاً عليه السلام، الذي استمر يدعو قومه دون كلل أو ملل، ثابتاً، راسخاً، على الرغم من قلة المستجيبين، وعلى الرغم من استهزاء المعرضين، فكانت هذه السورة تسلية للنبي ﷺ وللقلة المؤمنة معه، كما أنه فيها دعوة للثبات على دين الله، وفيها من العبر ما يمكن أن يسير على نهجه المؤمنون.

أما عاقبة قوم نوح عليه السلام، فيشترك الفريقان في أخذ العبرة منها: من آمن منهم ومن كفر.

عدد آيات السورة

للعلماء في عدد آيات هذا السورة، ثلاثة أقوال:

« ثمان وعشرون آية، في عد الكوفي.

وتسع وعشرون، في عد البصري وعطاء والشامي، سوى أهل حمص.

وثلاثون آية، في عد المكي، والمدنيين، وأهل حمص». (١)

محور السورة

تناولت سورة نوح قضية تعد أهم القضايا التي أرسل من أجلها الرسل عليهم السلام، وهي الإيمان بالله تعالى وإفراده بالعبادة، بالاستدلال بكمال قدرته جل جلاله في الأنفس والآفاق...، ثم بينت موقف قوم نوح عليه السلام من هذه القضية.

ابتدأت السورة ببيان أن الله تعالى أرسل نوحاً عليه السلام بالحق، تفضلاً منه جل جلاله، وقد كان ينبغي عليهم أن يطلبوه ويحرصوا عليه أشد الحرص، وطُلب منه أن ينذرهم عاقبة الاستمرار

(١) فنون الأفنان، ابن الجوزي/١٤٨. وانظر بصائر ذوي التمييز١٠/٤٨٢، والإتقان في علوم القرآن١/ ١٥٠.

على ما هم فيه من شرك، فقام هذا الرسول الكريم ﷺ بمهمته خير قيام، وبلغهم الحق الذي أرسل به، ولم يتوان في ذلك، بل دعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية وجهاراً، فماذا كان ردهم ؟ أصموا آذانهم، وأعموا أبصارهم، هذه الحواس التي أنعم الله تعالى بها عليهم؛ ليتوصلوا بها إلى معرفته، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾، وقد رغبهم بخير عاجل إن هم أجابوه، ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾، ثم ذكر لهم العديد من الأدلة على قدرة الله جل جلاله:﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾ الآيات، فماذا كانت النتيجة؟ بعد هذا الحق الذي رُهبوا من مخالفته، ورُغبوا في قبوله، والذي استدل عليه بخلقهم، وبالعالم العلوي والسفلي، ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾ عصوا رسول الحق، واتبعوا الزعماء والوجهاء وأهل الثراء، جرياً وراء مصالحهم، وقد تواصوا على هذا العصيان، فأضلوا كثيراً من الناس بمكرهم، ولقد كانت عاقبة عصيان الحق، أن ﴿ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾، ويتلفتون هل من منقذ من آلهتهم أو من كبرائهم ؟ ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾، فتلاشى الباطل واضمحل، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وهكذا كان مآلهم في الدنيا وفي الآخرة.

مناسبات السورة

أولاً: المناسبات بين اسم السورة ومحورها:

اسم السورة ـ كما هو معلوم ـ سورة نوح، وقد سميت باسم هذا الرسول، الذي يمثل الحق في هذه الفترة، وقد أرسل إلى قومه؛ لينقذهم من عذاب أليم، والسورة تدور كلها حول نوح ﷺ، إذ تبدأ بتكليف الله تعالى له،﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾، فنهض بمهمة الدعوة فوراً، فجهر بها، ونوع الأساليب، وعدد الطرق؛ لكي يصل الحق إلى أسماعهم، فتعيه قلوبهم، ولكنهم أغلقوا كل منفذ يمكن للحق الدخول منه، ﴿ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟

ثِيَابَهُمْ ﴾، وقابلوا حرصه على دعوتهم بالإصرار على الكفر ﴿ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾، ثم لما رهب ورغب، ورأى أن ذلك لم يُجد معهم، سلك مسلكاً عقلياً، مستدلاً بأدلة متنوعة؛ بغية إقناعهم، ولكنهم لم يسمعوا لصوت الحق، بل عصوا رسوله ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾، ولما لم تجد هذه الوسائل المتعددة، ولا الأساليب المتنوعة في هدايتهم شيئاً، وعلم يقيناً أنه لن يؤمن من قومه إلا من آمن، دعا على قومه الكافرين ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ ثم ختمت السورة بدعاء صدّره نوح ﷺ بطلب المغفرة لنفسه؛ خشية أن يكون قد حصل منه تقصير في تبليغ الحق، ثم ثنى بوالديه، إذ هم أحق من يدعو لهم لعظم منزلتهم... عقب ذلك الدعاء لمن دخل بيته مؤمناً، ثم عم المؤمنين والمؤمنات في كل زمان ومكان...، ولم يفت هذا الرسول الكريم ﷺ ـ وهو يطلب المغفرة ـ أن يدعو على من تنكبوا طريق الحق فظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم، أن لا يزيدهم الله تعالى إلا هلاكاً خساراً.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها

أرسل الله تعالى نوحاً ﷺ إلى قومه لينذرهم العذاب الأليم، وبعد أن أبلغهم ما أمر به، ثم رفع شكواه إلى العليم الخبير... جاءت الخاتمة لتبين موقف هذا الرسول الذي بقي يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولم يترك سبيلاً للوصول إلى قلوبهم إلا سلكه، جاءت الخاتمة لتبين حاله، وإذا هو يدعو بالمغفرة مستشعراً معنى العبودية، مبدياً افتقاره إلى الله جل جلاله خائفاً من التقصير، أو أن يكون قد صدر منه خلاف الأولى.(1) ثم دعا للمؤمنين به، الأقرب إليه فالأقرب، وأخيراً دعا على الفريق الذي رد دعوته، ولم يقبل إنذاره.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها

اختتمت سورة المعارج بالتأكيد على يوم البعث وأن المشركين سيلقونه، والذلة تغشاهم، ثم افتتحت سورة نوح بمثال من الأمم السابقة: رسول أرسله الله جل جلاله ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا

(1) انظر التفسير الكبير، الرازي ٣٠/ ١٤٦. وروح المعاني، ٢٩/ ٩٠.

نُوحًا ﴾، وهذا الرسول منهم كما أن محمداً ﷺ من قريش ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾، وظيفته الإنذار لا الإتيان بالعذاب، فما كان ينبغي على المشركين أن يسألوا وقوع العذاب، وإذا كان السؤال قد وقع، فلينصتوا إلى خبر الأمم السابقة، فإن في قصصهم عبراً، وبذا تجعل هذه الافتتاحية النفوس متشوقة لمعرفة ما حصل من هؤلاء، وماذا كان جزاؤهم.... وخاصة أن الافتتاحية نصت على العذاب ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ولم تحدد. هل هو العذاب الدنيوي، أو الأخروي، أو الاثنان معاً ؟.

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

* لما كان محور سورة المعارج هو الإيمان بالبعث بين المؤمنين والمنكرين، فقد جاء الحديث في سورة نوح عن الفريق الذي أنكر يوم البعث، وأصر على ذلك واستكبر، فكانت السورة تعرض نماذج من سلوكيات هذا الفريق التي لا تبعد كثيراً عن تصرفات المنكرين في كل زمان ومكان، ومنهم مشركو قريش، الذين استهزؤوا بالبعث، وبالرسول ﷺ، وبعد ذلك ذكرت السورة عقاب قوم نوح ﷺ في الدنيا والآخرة، تعريضاً بالمشركين، علهم يرتدعون، ويأخذون العبرة من هذه السورة. (1)

* ورد في سورة المعارج قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ ﴾ [المعارج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ [المعارج: ٤٢]، وفي سورة نوح ذكر مثال للأنبياء الذين صبروا وهو نوح ﷺ، وتكرر دعائه لقومه إلى الإيمان، وخص من خبره حاله في طول مدة التذكار والدعاء؛ لأن المقصود في الموضع تسلية النبي ﷺ، وليتأسى به في الصبر والرفق والدعاء كما قيل له في غير هذا الموضع: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فقد دام دعاء نوح ﷺ مع قومه أدوم من مدتك، ومع ذلك فلم يزدهم إلا فراراً: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا

(1) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٩/ ١٨٥. وانظر الأساس في التفسير، سعيد حوى١١/ ٦١٤٨.

دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح: ٤-٧][1]، وقد فصلت السورة عنت قومه وشدة إنكارهم، على الرغم من أنه لم يدع وسيلة لهدايتهم، كما أن في هذه القصة عقب بيان موقف قريش في سورة المعارج تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين، فلا ينبغي أن يغتر أحد بكثرة العدد، فقوم نوح ، ما آمن منهم إلا قليل، ومع ذلك فإن الغلبة والنصر في الدنيا كانا لمن آمن منهم.

* أقسم الله تعالى في سورة المعارج على أنه جل جلاله قادر أن يبدل خيراً من المشركين فقال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾، وكانوا قد سخروا من المؤمنين، وكذبوا بها وعدوا به من العذاب، وفي السورة التي معنا ذكر قصة نوح وقومه معه، وكانوا أشد تمرداً من المشركين، فأخذهم الله تعالى أخذ استئصال، حتى إنه لم يبقِ لهم نسلاً على وجه الأرض، وكانوا عباد أصنام كمشركي مكة، فحذر تعالى قريشاً أن يصيبهم عذاب يستأصلهم إن لم يؤمنوا.[2]

* عالجت سورة المعارج قضية البعث، ولكنها لم تذكر أدلة تفصيلية عليه، وقد تولت سورة نوح تفصيل ذلك من خلال إثبات قدرة الله تعالى بدءاً من قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾.

* ذكرت سورة المعارج في معرض الرد على المشركين وتكبرهم ﴿ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، وفي سورة نوح ذكر قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾، في الاستدلال على قدرة الله، وهو على وجازته أكثر تفصيلاً مما في سورة المعارج.

---

(١) نظم الدرر ٨/ ١٦٣، بحذف يسير.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان٨/ ٣٣٢، بتصرف يسير، وانظر نظم الدرر ٨/ ١٦٢.

عرض مقاطع السورة

مقدمــة السورة

تتكون مقدمة السورة من آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ①﴾، وفيها تأكيد أن الله تعالى العظيم هو الذي أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه؛ لينبههم إلى ما ينتظرهم من عذاب أليم في الدنيا والآخرة[1] إن هم استمروا على ما هم عليه من ضلال.

وقد اشتملت المقدمة ـ على إيجازها ـ على المرسل والرسول والمرسل إليهم والرسالة.[2]

من هدايات المقدمة

* رحمة رب العالمين، إذ أرسل نوحاً إلى قومه؛ ليحذرهم من مغبة ما هم عليه، ولم يعاجلهم بالعقوبة. وهذا من باب إقامة الحجة عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[3] [الإسراء: ١٥].
* أهمية إرسال الرسل، يتضح هذا من نسبة الإرسال إليه جل جلاله وبضمير العظمة، وفيه دليل على علمه جل جلاله وحكمته، إذ إن البشر لا يمكن أن تصلحهم القوانين الأرضية، وهم أحوج ما يكونون إلى الهداية الربانية.
* حكمة رب العالمين إذ اختار المنذِر من جنس المنذَرين، وأرسله إلى قومه، ليكونوا به آنس. وللاقتداء به....

---

(١) اختلف العلماء في العذاب الأليم، فأكثرهم رأوا أنه عذاب الدنيا، وهو الغرق. انظر جامع البيان، الطبري١٢/ ٢٤٦، والمحرر الوجيز٥/ ٣٧٢، والتفسير الكبير، الرازي٣٠/ ١٣٤. ولا أحسب أن هناك مانعاً من أن نطلق ما أطلقه القرآن الكريم، والله أعلم.

(٢) انظر نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، الميداني/ ١٦٦.

(٣) انظر أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣١٨.

* يقول تعالى لنوح عليه السلام: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، مع أنه ليس هناك غيرهم، إلهاباً لنفسه؛ ليكون شديد الحرص على هدايتهم.[1] وهكذا ينبغي على من يرسل الدعاة أن يرسله لقومه فهو بهم وبطبائعهم أعلم، وعلى هدايتم أحرص، كما أنهم يعلمون مكانة هذا المصطفى من بينهم.

* الأنسب في التعامل مع المجتمعات العاصية، هو الإنذار فهو الذي يحملهم على الكف عن المعاصي والإقلاع عن الفجور، وهذا لا يعني إغفال الترغيب، ولكن لكل موضعه.

* إرسال محمد ﷺ ليس بالأمر الغريب، فالله تعالى قد أرسل من قبله رسلاً كثيرين، منهم نوح عليه السلام. وكأن في التأكيد تعريض بالمشركين﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾، فلم أنكرتم إرسال الله تعالى محمداً ﷺ....

* عذاب الله تعالى أليم، ينبغي أن يحذره كل عاص، فيقلع عن ذنبه.

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٩/ ١٨٧.

المقطع الأول: نوح عليه السلام يدعو قومه

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ
يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ
أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ
يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ
وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾
فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل
لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ
ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ
نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا
فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ ﴾.

مناسبة المقطع الأول لمقدمة السورة

لا يخفى الارتباط بين هذا المقطع ومقدمة السورة، فنوح عليه السلام تلقى الأمر الرباني بأن ينذر قومه، فاستجاب من فوره: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾، ثم أخذت نصائحه تتوالى كما سيتضح بعد قليل.

التفسير الإجمالي للمقطع

امتثل نوح عليه السلام أمر ربه جل جلاله، فبادر لينذر قومه دون تردد أو اعتذار، وأعلن ذلك غير خائف ولا وجل، ومع هذه الشجاعة، تلطف ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾، وذلك « تمهيد لقبول نصحه، إذ لا يريد الرجل لقومه إلا ما يريد لنفسه »[1] ﴿ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾، مؤكداً أمر إنذاره، لأنهم شاكون، كما أنه بين اهتمامه بهم ﴿ إِنِّي لَكُمۡ ﴾، لكم أنتم خاصة، ﴿ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾، أحذركم غاية

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٨٨.

التحذير من عذاب الله تعالى، ببيان لا لبس فيه...، وبعد هذا الإجمال الذي يسترعي انتباه السامعين، أتبعه بما يجب عليهم ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾، اختصر دعوته في هذه الكلمات: « فالأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب والجوارح والأمر بتقواه، يتناول الزجر عن جميع المحذورات والمكروهات، وقوله:﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ يتناول أمرهم بطاعته...»[1] إذ لا سبيل لمعرفة ما يرضي الله تعالى إلا عن طريق رسله عليهم السلام[2]، ثم وعدهم على ذلك إن هم امتثلوا، غفرانَ ذنوبهم؛ حتى لا يتعللوا بأنهم قد أتوا من المنكرات العظيمة التي ينوءون بحملها، فأنى لهم أن يعبدوا الله تعالى، وهم قد ارتكبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فطمأنهم إلى أن عبادة الله تعالى وتقواه وطاعة رسوله سبب لمغفرة ذنوبهم، ثم وعدهم بأمر دنيوي يحبونه ويتطلعون إليه ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: « يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم»[3] ثم ضمن كلامه ترهيباً ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؛ ليزجرهم عن حب الدنيا، وعن التهالك عليها، الأمر الذي جعلهم كأنهم يشكون أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر. [4]

بماذا أجابه قومه؟ لقد طوي ذكره ههنا، ـ وإن كان يفهم من السياق ـ وبقي الحديث لنوح عليه السلام، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ وقد طوي الزمن أيضاً، فهذه الشكوى التي يبثها نبي الله تعالى نوح عليه السلام، قد قالها بعد أن طال عمره وتحقق اليأس من قومه. [5] وقد سلك عليه السلام في دعوة قومه أساليب متعددة، لعلهم يستجيبون... مكرراً دعوته لهم ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾، قال أبو حيان: « لما ذكر دعاءه في عموم الأوقات ذكر

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٣٤.

(٢) انظر نظم الدرر ٨/ ١٦٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٤٥.

(٤) انظر التفسير الكبير ٣٠/ ١٣٥.

(٥) انظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٣.

عموم حالات الدعاء...»[١]، والمعنى: كلما دعوتهم ليؤمنوا بك فيكون ذلك سبب غفرانك لذنوبهم....[٢] وهنا يتجلى موقف قوم نوح ﷺ من دعوته: الفرار أولاً من الدعوة، ثم إن واجههم ولم يستطيعوا التفلت منه، ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ ﴾لئلا يسمعوا دعاءه ﴿ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ ﴾ أي: غطوا بها وجوههم لئلا يروه، قال ابن عباس: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامه، فاستغشاء الثياب إذاً زيادة في سد الآذان حتى لا يسمعوا، أو لتنكيرهم أنفسهم حتى يسكت، أو ليعرفوه إعراضهم عنه. [٣] أو لحرصهم على عدم رؤية إشاراته فيما لو فعل ! ولعلهم فعلوا كل هذا وأكثر، ولهذه الأغراض وغيرها.

ثم يقول تعالى على لسان نوح ﷺ ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ أي: وثبتوا على ما هم عليه من الكفر وأقاموا عليه. ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾، « وتكبروا فتعاظموا عن الإذعان للحق، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة»[٤]. «وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة، وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها، وإصرارهم هم على الضلال، تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة يبرز في وضع الأصابع في الآذان، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب...». [٥]

ثم أخذ نوح ﷺ يواصل بث شكواه وبيان أسلوبه الدعوي الذي لم يدخر فيه وسعاً كي يوصل الإنذار إليهم ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ﴾، أي: «جهرة بين الناس. ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ ﴾ أي: كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴾ أي: فيما بيني وبينهم»[٦]. ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ والمعنى: « سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم وعبادة ما

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٣٢.
(٢) ()انظر المحرر الوجيز٥/ ٣٧٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٠٠. بتصرف يسير.
(٤) جامع البيان ١٢/ ٢٤٨.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٢.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٥.

سواه من الآلهة ووحدوه، وأخلصوا له العبادة»[١]. ويلاحظ التأكيد على الاستغفار، إذ هو من الأهمية بمكان، لما فيه « من افتقار العبد إلى ربه وتذلله إليه، واعترافه بتقصيره وذنبه، وتعظيمه لأمر الله ونهيه، وهذا مما يعين العبد على الاستقامة وسلوك طريق الحق»[٢]. ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾: خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم، وفيه « تحريك لداعي الاستغفار». [٣] ثم «علل ذلك بأن الله موصوف بالغفران صفة ثابتة، تعهد الله بها لعباده المستغفرين». [٤]

ولما كان الناس مجبولين على محبة الخيرات العاجلة، كما قال تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ ﴾ [الصف: ١٣]، فقد سلك معهم نوح عليه السلام مسلك الترغيب، فوعدوا على استغفارهم خمسة أمور:

الأول: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ أي: يسقيكم الغيث ويرسله عليكم كثيراً متتابعاً.

الثاني: ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ ﴾، وهذا لا يختص بنوع واحد من المال، بل يعم كل أنواعه.

الثالث: ﴿ وَبَنِينَ ﴾ ولا شك أن ذلك مما يميل الطبع إليه.

الرابع: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ بساتين.

الخامس: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ تسقون منها جناتكم... [٥]

وبعد هذا الترغيب العظيم، انتقل بهم إلى التوبيخ، ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ والمقصود: « أي شيء حصل لكم، أي: لعقولكم وأفكاركم ومداركم وقلوبكم ونفوسكم،

---

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٤٩. وانظر روح المعاني ٢٩/ ٨١.

(٢) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د. منى بنت عبد الله/ ٨٠.

(٣) روح المعاني ٢٩/ ٨١.

(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٩٧.

(٥) انظر لما سبق جامع البيان ١٢/ ٢٤٩، والتفسير الكبير ٣٠/ ١٣٨ وروح المعاني ٢٩/ ٨١.

فأفسدها وصرفها عن ترقب وعد الله العظيم الذي يرغب فيه ويطمع العقلاء أولو الألباب وصرفها أيضاً عن ترقب وعيد الله العظيم، الذي يخشاه ويخافه العقلاء أولو الألباب». [١]

وقد توقف العلماء عند ﴿ تَرْجُونَ ﴾ هل تحمل على ظاهرها، أي: الرجاء، أو تجعل بمعنى الخوف، والحقيقة أن هناك تلازماً بين الخوف والرجاء، « فكل راج خائف، وكل خائف راج ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف»[٢] وقد أحسن البقاعي حين جمع ذلك فقال: «... ثواباً يوقركم فيه ولو قل... ولا تخافون له إهانة بالعقاب...»[٣].

ولما أمر بتعظيم الله تعالى والخوف من عقابه ورجاء ثوابه، استدل على قدرته وعلمه... وأنه المستحق لأن يفرد بالعبادة بعدة أدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾.

كأنه تعالى يقول: « ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه، وهي حال موجبة للإيمان». [٤]

«فأما أنه خلقهم، فموجب للاعتراف بعظمته؛ لأنه مكونهم وصانعهم، فحق عليهم الاعتراف بجلاله.

وأما كون خلقهم أطواراً؛ فلأن الأطوار التي يعلمونها، دالة على رفقه بهم في ذلك التطور فهذا تعريض بكفرهم النعمة؛ ولأن الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته...»[٥].

ومما هو معلوم أن خلق الإنسان على هذا النحو، أقوى في انتزاع الاعتراف بقدرة الله تعالى من العبد ممن يخلق جملة؛ لأنه يوقفه على عدة مراحل من حياته وإيجاده وكل طور منها

---

(١) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد/ ١٩١.
(٢) تهذيب مدارج السالكين، العزي ١/ ٤٨٥.
(٣) نظم الدرر ٨/ ١٧٠، بحذف يسير.
(٤) التفسير الكبير ٣٠/ ١٣٩.
(٥) التحرير والتنوير٢٩/ ٢٠١.

آية مستقلة. [١]

وقد بدأ بالنظر في أنفسهم؛ لأنها أقرب، ثم أتبعه بالحث على النظر في العالم العلوي وهو:

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾.

استدل بخلق السماوات، الذي هو أكبر من خلق الناس، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، ومعنى طباقاً: « بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة على الأخرى»[٢]، « وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة». [٣]

ثم قال تعالى مستدلاً على وحدانيته، وممتناً عليهم بهذه النعمة: ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾، وهل إنارة القمر لأهل الأرض فقط، أو جعله الله جل جلاله نوراً لأهل السماوات أيضاً؟، هناك خلاف بين العلماء، والمؤكد أن الاستدلال عليهم والامتنان، إنما يكون بما يلاحظونه، وإن كان هذا لا ينفي الاحتمال الآخر.

«وفي جعل القمر نوراً، إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته، فإن القمر مظلم وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه... وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجاً؛ لأنها ملتهبة وأنوارها ذاتية فيها صادرة، عنها إلى الأرض وإلى القمر». [٤]

---

(١) انظر أضواء البيان ٨/ ٨٢٣، بتصرف يسير. ولمعرفة تفاصيل هذه الأطوار، وما يتعلق بها من الإعجاز العلمي يراجع موسوعة الدكتور زغلول النجار الإسلام والعلم الحديث، الاستنساخ والشفرة الوراثية، مراحل خلق الإنسان (قرص مضغوط).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣٠٤، وانظر جامع البيان ١٢/ ٢٥٢.

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٤.

(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ٢٠٤. وانظر الإعجاز العلمي لكون الشمس سراجاً والقمر نوراً في الهدايات المستنبطة برقم (٢١) وهامشها ص ١٤.

الدليل الثالث: قوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ ﴾.

لما دل الله تعالى على كمال علمه، وتمام قدرته بخلق الإنسان، ثم بخلق ما هو أكبر منه، أعاد الدلالة بخلق الإنسان؛ لأنه أعظم المحدثات وأدلها عليه عز وجل؛ ولأنه المقصود بهذه الأدلة، فذكرت على وجه آخر، مبين لبعض ما أشار إليه الأول من التفصيل، مصرحاً بالبعث ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾. [1] يعني: « والله أنشأكم من تراب الأرض، فخلقكم منه إنشاء»[2]. «والذي أُنشئ من الأرض هو آدم عليه السلام، وصارت ذريته منه، فصح نسبتهم كلهم إلى أنهم أنبتوا منها»[3]. ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا ﴾، إذا متم ﴿ وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾ أي: يوم القيامة. [4] « دفعة واحدة، لا إنباتاً بالتدريج كالمرة الأولى». [5]

الدليل الرابع: قوله تعالى: « ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ ﴾.

«وأخيراً وجه نوح عليه السلام قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض، وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم،... حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروباً وفجاجاً، كما جعل في سهولها من باب أولى، وفي سبلها ودروبها يمشون ويركبون ويتنقلون.... [6]

وههنا « استدلال وامتنان». [7]

---

(١) نظم الدرر٨/ ١٧٢ بتصرف.

(٢) جامع البيان ١٢/ ٢٥٢.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٣٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٦.

(٥) التفسير المنير، الزحيلي٢٩/ ١٤٤.

(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٥. بحذف يسير.

(٧) التحرير والتنوير٢٩/ ٢٠٥.

هدايات المقطع الأول:

* مبادرة نوح عليه السلام لإنذار قومه، فيه عبرة للدعاة، أن لا يتقاعسوا عن أداء الواجب المنوط بهم، وهو تحذير العصاة من مغبة الإصرار على المعاصي.
* ينبغي التلطف مع المدعوين، واستخدام التعابير التي من شأنها أن ترغبهم في النصيحة مثل يا قوم، ويا أخوتي، أو يا أخي، وما شاكل ذلك.
* ينبغي لمن يتصدى لدعوة الناس أن يكون كلامه واضحاً لا غموض فيه؛ لأن كثيراً من الناس بحاجة لمثل هذا التوضيح والبيان.
* الاختصار في الحديث مع العصاة، وعدم الإكثار من الأوامر، تجلى هذا في قوله تعالى: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾، فليس عند العصاة صبر لكي يسمعوا محاضرة طويلة منمقة...، على أن لا يكون الإيجاز مخلاً.
* البداءة بالأهم، فقد بدأ بالتوحيد، إذ هي القضية الأهم، فهم مشركون...، وهكذا ينبغي على العلماء وهم يعالجون أمراض مجتمعاتهم، أن يشخصوا أمراضها، ثم يصنفوا هذه الأمراض، فيكون اهتمامهم بأخطرها....
* إفراد الله تعالى بالعبادة هو أول ما دعى إليه الرسل،(١) قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].
* أهمية التقوى، فمع دخولها ضمن العبادة، إلا أنها أفردت، ففيه درس للدعاة أن يربوا الناس على خشية الله تعالى في السر والعلن، ويكثروا من تذكيرهم بها.
* أهمية طاعة الرسل عليهم السلام، إذ هم الواسطة بين الله تعالى وبين عباده، وفيه الرد على من يزعم الاكتفاء بالقرآن الكريم، يقول جل جلاله: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ١/ ٢٥ ـ٢٩.

* دعوة الرسل عليهم السلام لا تختلف في أصولها، وهي توحيد الله تعالى وتقواه وطاعته وطاعة رسله.... [١]

* غفران الذنوب لا يكون بالتمني، بل لابد من أعمال يعملها المرء حتى يستحقها، وفيه أهمية المغفرة، وأنها مطلب يسعى إليه، كما أنها هدف يدعى إليه.

* عدم استجابة المدعوين لا تعني بالضرورة أن هناك تقصيراً قد حصل من الداعية، فهذا نوح عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل، ومع ذلك كانت النتيجة ما حكته الآيات عنهم.

* قلة عقول المشركين، إذ عطلوا الوسائل التي أنعم الله تعالى بها عليهم: السمع والبصر ففاتهم التعقل، وقد فعل مشركو قريش قريباً من هذا، يقول القرآن الكريم مبيناً حالهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].

* شدة عناد المشركين وإصرارهم، مع ما هم عليه من باطل، ولعل هذا مما يستوقف دعاة الحق؛ ليروا إلى أي مدى يستطيعون الصبر ـ وهم على الحق ـ على الترغيب أو الترهيب الذي يتبع معهم؛ لينحرفوا عن الصراط.

* الجهد العظيم الذي بذله نوح عليه السلام، ينبغي أن يكون دافعاً للدعاة لكي يقتفوا أثر هؤلاء الذين أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالاقتداء بهم، فقال عز من قائل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. [٢]

* أهمية الاستغفار، وثمراته الكثيرة. يقول الشوكاني: « في هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول الأرزاق». [٣]

---

(١) انظر معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، الديلمي٢/ ١٠٧٨.

(٢) لا شك أن لنا في رسولنا ﷺ أروع الأمثلة في الصبر، ولكن المقام هو الذي اقتضى هذه الإشارة.

(٣) فتح القدير، الشوكاني٥/ ٣٢٠.

* في هذه الآيات ما يمكن أن يسمى إيجازاً في الطلب وإطناباً في الجزاء، وهو لا شك واقع في باب الترغيب، فلو تأملنا ما طُلب منهم، وما وعدوا على ذلك، لرأينا أن هذا منهج قرآني يغفل عنه الدعاة، بل لا نبالغ إذا قلنا: إن بعضهم قد يخالفه، لنتأمل الآيات الكريمة، يقول تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ هذا هو الطلب، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ داخل في ضمن الترغيب، ثم ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾، وماذا على الدعاة لو انتهجوا هذا النهج ؟

* أهمية الترغيب في الدعوة إلى الله تعالى «إذ النفس متشوفة للحصول على العاجل» (١). وهنا رغبهم نوح عليه السلام في خير دنيوي كما هو واضح ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ الآيات.

* يترتب على الهداية السابقة واقعية هذا الدين، فلم يأت بما يخالف النفس مما هو حلال لها، لكن لتحقيق ذلك، لا بد من شروط، وهنا بين أنه الاستغفار، ويقول تعالى مبيناً أن هذا سنة من سننه جل جلاله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف:٩٦].

* لا يعاب المسلم أن كثر ماله.. فالله تعالى وعد قوم نوح عليه السلام بخيرات كثيرة إن هم آمنوا، فدل على أن لا بأس في ذلك، ولكن المطلوب أن لا تشغله عن ذكر الله، بل تكون عوناً له على الطاعة.

* لابد من الدعوة إلى التأمل والتفكر في سنن الله تعالى الدالة على عظمته، وأبرزها صفة الخلق، وما تميزت به من إتقان وبديع صنع، ولفت الأنظار إلى ما توصل إليه العلم الحديث فيما يتعلق بالأطوار التي مر بها الإنسان، وقد ذكرت في هذه السورة بإيجاز، ولكنها فصلت

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٣٣.

في مواضع من القرآن الكريم ورتبت ترتيباً دقيقاً، موصوفة وصفاً شاملاً، لم تصل إليه بعد العلوم المكتسبة في قمتها الحالية.[١]

* ثم لفت الأنظار أيضاً إلى أسرار علم الفلك، ومما تجدر الإشارة إليه ههنا، ما ورد في هذه السورة الكريمة، يقول عز من قائل: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾، هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب مشتعل مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد، وانعكاسه نوراً من سطحه، لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سنة إلا الله الخالق، فهذا الفرق الدقيق، لم يدركه العلماء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من الناس لا يدركونه.[٢] ما تقدم يظهر لنا أهمية الاستفادة من هذا الجانب في الدعوة إلى دين الله عز وجل. وحبذا لو استخدمت التقنيات الحديثة.[٣]

* ضرورة الدخول إلى النفس من جميع مسالكها، فللجانب العاطفي طرق، وللجانب العقلي دروب، بل إن مخاطبة النفس الواحدة بأدلة متنوعة من شأنه أن يغرس الاقتناع في أرجائها، ويشبع رغباتها كلها.

* التأكيد على مسألة البعث، وذلك من خلال تنبيه الناس، على قدرة الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ

---

(١) http: / /www. elnaggarzr. com.

(٢) الموقع السابق، وانظر ما قاله الدكتور زغلول النجار في موسوعته (الإسلام والعلم الحديث: القرآن والكون)، (في قرص مضغوط) تحت عنوان: الضياء والنور، وفيه: « لم يكن أحد يعرف أن الشمس سراج، الآن فقط عرفنا أنه سراج وقوده غاز الأيدروجين، ويتحد الأيدروجين بتفاعل نووي يعرف باسم الاندماج= النووي فتنطلق طاقة هائلة تصل بحرارة الشمس إلى ستمائة درجة مئوية، وبحرارة جوفها إلى عشرين مليون درجة، نحن نعلم أن ذلك التفريق لم يكن أحد يعرفه أبداً...».

(٣) عرض في أحد المساجد لقطات عنون لها: (عوالم غير مرئية) كان لها أثر كبير على الحاضرين، أقول: حبذا لو استخدم الدعاة مثل هذه التقنيات في الأماكن العامة، وأعدوا لها الإعداد اللائق، لقربت قلوب العصاة إلى خالقهم.

أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ وهذه النشأة الأولى، وهم لا ينكرونها، ولكنه تذكير، ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾، إيقاظ من الغفلة التي غشيتهم بسبب حبهم للدنيا، ثم يأتي إثبات البعث ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾، وقد « أكده بالمصدر، كأنه قال: يخرجكم حقاً لا محالة»[1]، وهذا التأكيد مبعثه إنكارهم للبعث، وهذا مما ينبغي أن يراعيه الدعاة، فكلما اشتد الإنكار كان اللجوء إلى التأكيد آكد.

* أسلوب ذكر نعم الله تعالى وتفضله على عباده، طريقة من طرق الدعوة؛ للوصول إلى قضية الإيمان بالله تعالى، ووجوب إفراده بالعبادة. وهو أمر لا يجادل فيه أحد، فلن يكون بمقدور أحد أن يدعي أن آلهته هي التي جعلت القمر نوراً، والشمس سراجاً، أو أنها جعلت الأرض بساطاً، ولعل هذا من باب التوصل بالربوبية إلى الألوهية. [2]

المقطع الثاني: موقف الكافرين من الحق، ومآلهم.

قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع للمقطع الأول

هناك عدة مناسبات بين المقطعين، منها:

* لما عرض نوح عليه السلام دعوته، بطرق متعددة، وبأساليب متنوعة، تشوفت النفوس لمعرفة نتيجة

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ١٤١.

(٢) انظر معالم الدعوة ١/ ٢٩٥ وما بعدها.

هذه الدعوة، هل قبل قومه دعوته؟، وكيف كان قبولهم؟، وهل تخلف منهم أحد، بعد هذا البيان والصبر الطويل؟، لقد اتبع نوح ﷺ مع قومه أسلوب الترهيب والترغيب، وذكرهم بنعم الله تعالى، ولفت أنظارهم للتأمل في كيفية خلقهم، وخلق السماوات والأرض، ولم يأل جهداً في ذلك، يتساءل المرء بعد هذا كله، ثم ماذا؟ وإذا بالجواب يأتي على لسان الداعية إلى الحق نوح ﷺ، الذي دعاهم إلى طاعته، ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾.

* لقد وعد نوح ﷺ قومه إذا هم استغفروا الله القوي الرزاق، فإنه سيمددهم بأموالٍ وبنين، فرفضوا هذا العرض، وأعرضوا، واتبعوا بذلة ومهانة، أصحاب المال والأولاد، ولو تعلقوا بالعزيز لأعزهم الله.

* في مقابل دعوة نوح ﷺ وإصراره على تبليغ أمر الله لكل أحد، وفي كل وقت، وبأساليب متعددة، خاف الملأ أن يؤثر نوح ﷺ في أتباعهم، فتواصوا على التمسك بآلهتهم﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾.

* لما ذُكر في المقطع الأول إصرار قوم نوح ﷺ على العصيان، واستكبارهم على الطاعة، أُورد هنا جزاؤهم ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع

ابتدأ هذا المقطع بشكوى يبثها نوح ﷺ لربه، بعد أن بذل الجهد واستفرغ الوسع، ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾ « فخالفوا أمري، وردوا عليّ ما دعوتهم إليه من الهدى والرشاد، ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾ يقول: واتبعوا في معصيتهم إياي، مَن دعاهم إلى ذلك، ممَن كثر ماله وولده، فلم تزده كثرة ماله وولده إلا خساراً: بعداً من الله، وذهاباً عن محجة الطريق»[1]. ولم يكتفوا بالعصيان وعدم الاستجابة، ولكن منعوا الحق من أن يصل إلى الآخرين، وبذلوا كل ما يستطيعون، ودبروا وخططوا بدهاء، ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٥٣.

﴿ كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾، وكان من مكرهم: أن زينوا لهم ما هم عليه من كفر وضلال، من ذلك قولهم: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ فهي آلهتكم، فكيف تنصرفون عنها، ثم ذكر أسماءها ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾، وفيه من الإلهاب والتهييج ما فيه، ومن ضرورة الاهتمام بشأنها، والقيام عليها، وقد وصف الله جل جلاله فعلهم بأنه مكر كبار، ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾، أي: «عظيماً»[1]، وقد أضل هؤلاء الملأ، وأضلت الأصنام،[2] خلقاً كثيراً.

ثم ختم نوح عليه السلام شكواه بالدعاء على الظالمين، ليسمَ عصاة قومه بهذه الصفة الشنيعة لتمردهم وكفرهم وعنادهم، فقال: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾، قال الطبري: «إلا طبعاً على قلبه حتى لا يهتدي إلى الحق»[3]، وقد استشكل الرازي هذا فقال: «إنما بعث ليصرفهم عن الضلال، فكيف يليق به أن يدعو الله في أن يزيد في ضلالهم ؟

الجواب من وجهين:

الأول: لعله ليس المراد الضلال في أمر الدين، بل الضلال في أمر دنياهم، وفي ترويج مكرهم وحيلهم.

الثاني: الضلال: العذاب، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾»[4] [القمر: ٤٧].

وقد يقال: إن هذا الدعاء، وكذا الدعاء الذي سيأتي في قوله تعالى: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ إنما كان بعد قول الله تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٥٣، وانظر الجامع لأحكام القرآن١٨/ ٣٠٦. يقول الراغب الأصفهاني: «والكبار [بتخفيف الباء] أبلغ من الكبير، والكبّار [بالتشديد] أبلغ من ذلك» مفردات ألفاظ القرآن/ ٦٩٨.

(٢) هذا جمع بين قولي العلماء في المراد بـ ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾ انظر جامع البيان ١٢/ ٢٥٥، والتفسير الكبير ٣٠/ ١٤٤، وإرشاد العقل السليم٦/ ٣١١.

(٣) جامع البيان ١٢/ ٢٥٥.

(٤) التفسير الكبير ٣٠/ ١٤٥.

مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦]. (١) وخاصة أن دعاءه كان على الظالمين....

ثم يبين الله جل جلاله سبب العقوبة التي حلت بهم: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ ﴾ « من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم». (٢) أغرقوا بالطوفان الذي فصله الله تعالى في سورة هود وغيرها ﴿ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ قال الآلوسي: « هي نار البرزخ... ويجوز أن يراد بها نار الآخرة». (٣)

ويبدو أنه لا تعارض بين القولين، فأما نار البرزخ فقد دخلوها عقب إغراقهم، وأما نار الآخرة فقد ورد التعبير عن ذلك بالماضي لتحققه. (٤)

والآن حان وقت النصرة، أين الآلهة المزعومة التي رجوا نصرها ؟ أين رؤساؤهم الذين أضلوهم؟﴿ فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾، « لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله»(٥)، وفي هذا تعريض بالمشركين من العرب؛ لاتخاذهم آلهة من دون الله تعالى يزعمون أنها تشفع لهم، وتدفع عنهم الكوارث، وتجلب لهم المنافع، أي: كما لم تنصر الأصنام عبدتها من قوم نوح، كذلك لن تنصركم أصنامكم؛ لأنها عاجزة عن ذلك، كما أن فيه تهكماً بهم. (٦)

---

(١) انظر هذا القول في روح المعاني ١٥/ ٨٦ وقد أورده بصيغة التمريض (قيل) مشعراً بضعفه ثم قال: «ويحتاج إلى دليل».

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٨.

(٣) روح المعاني ١٥/ ٨٨.

(٤) انظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٨.

(٦) انظر التفسير الكبير ١٠/ ١٤٦، وإرشاد العقل السليم ٦/ ٣١١، والتحرير والتنوير ٢٩/ ٢١٢. اللافت للنظر في الأمر أن الأصنام التي كانت في قوم نوح صارت في العرب فيما بعد، ذكر هذا الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ثم قال: أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غُطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر =

ثم واصل نوح عليه السلام دعاءه ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾، وقد وسط قوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ لبيان أن ما أصابهم من الإغراق والإحراق، لم يكن إلا لأجل خطيئاتهم.[1] وهنا يدعو نوح عليه السلام ربه بأن يطهر الأرض من الكافرين، بأن لا يبقي منهم أحداً، ويعلل ذلك ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾، وذلك لمكرهم العظيم، ودعوتهم الآثمة للاستمساك بالباطل، وتواصيهم على ذلك... وقد تقدم أن الله تعالى أعلمه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فما دام الأمر كذلك، وأنه لا يرجى إيمانهم، فأصبحت الخشية على من قد آمن، وهذا يظهر ـ إضافة لما قد نص على عظمة مكرهم ـ إلى خطورة هذا المكر، فلقد خشي نوح عليه السلام على أتباعه أن يتأثروا بهم.

هدايات المقطع الثاني

* لا بأس أن يشكو الدعاة لربهم ما يلاقونه من أذى المدعوين، مع علمهم بأن الله تعالى عالم بحالهم، فهذا نوح عليه السلام يشكو حاله فيقول: ﴿ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾.
* الهداية بيد الله جل جلاله، فنوح عليه السلام نبي مؤيد بالوحي، وقد بذل ما في وسعه، ومع ذلك قوبل بالعصيان إلا من فئة قليلة.
* يبين هذا المقطع بجلاء ما سبقت الإشارة إليه، أن عدم استجابة الناس لا يعني تقصير الدعاة.
* شدة فتنة الدنيا وزينتها على الناس، قال الله جل جلاله: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾، وهذا يدل على أن سبب اتباعهم، ما عند هؤلاء من مال وولد. وقد ورد النص على ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ

= فكانت لحمير لآل ذي الكُلاع...» صحيح البخاري، برقم(٤٩٢٠)، ولذا سيكون للتعريض وقعه، فإذا كانت لم تنصر عابديها الأولين، فلهي أعجز عن نصرة الآخرين.

(١) انظر روح المعاني ١٥/ ٨٨.

لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

* الإيمان بالغيب ليس من طبع الكافرين، فقد وعدوا على الاستغفار أموالاً وبنين، من الرزاق الكريم، وهذا أمر غيبي، فلم يصدقوا، واتبعوا من رأوا عنده أموالاً وبنين.

* بذْل أهل الباطل في سبيل باطلهم، فمن مكر هؤلاء في الصد عن سبيل الله الإغراء بالمال لاستمالة ضعاف النفوس، وينص القرآن الكريم على هذا في موضع آخر، فيقول جل جلاله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وما دام الأمر كذلك، فعلى ذوي اليسار والغنى من المسلمين، أن يستخدموا أموالهم، وكذا أولادهم في خدمة هذا الدين، لكي لا تكون أموالهم أرقاماً في المصارف، بل لبنات في إعادة بناء هذا الدين.

* ضعف همة الكفار، إذ ارتضوا أن يكونوا تابعين أذلاء لأصحاب الأموال والأولاد، في حين رفضوا أن يوحدوا ربهم الذي خلقهم والذي يغمرهم بأنواع النعم.

* أهل الباطل يخططون، ويبذلون الغالي والنفيس لنصرة باطلهم، ولهذا سمى الله تعالى فعلهم ﴿ مَكْرًا ﴾، بل وصف بأنه مكر كبار، قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾ فحري بأهل الحق أن لا تكون خطواتهم لنصرة الدين مرتجلة، آنية، عاطفية....

* لقد كان علية القوم - وهم كذلك في كل عصر- من أعتى وأشد العقبات التي واجهت الرسل عليهم السلام في طريق تبليغهم دعوة الله جل جلاله، فالفساد في الأرض والفسوق والاستعباد، والاستعلاء عن قبول الحق، واحتقار المؤمنين المستضعفين، وتحريف الحق وصرف الناس بأساليب متعددة عن دين الله جل جلاله، كل ذلك إنما كان مصدره هؤلاء. (١)

(١) انظر معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم ٢/ ٦٤٢-٦٤٣.

* لا دلالة بكثرة مال الإنسان أو ولد، أو قلة ذلك، على إكرام عند الله جل جلاله أو هوانٍ عليه.[١]

* عدل الله جل جلاله، إذ كان سبب عقابهم هو خطاياهم، قال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾، وفي تقديم ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ ﴾، دفع لما قد يتوهم، أن سبب عذابهم هو دعاء نوح عليه السلام عليهم.

* هوان المشركين على الله تعالى، يؤكد هذا الإتيان بالمبني للمجهول، دون بيان من تولى ذلك، ولبيان سهولته أيضاً﴿ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ ﴾.

* لا بد من أخذ العبرة من قوم نوح عليه السلام، فهذا هو جزاء العصاة، عذاب في الدنيا، وفي الآخرة. ولعل هذا مما يمكن أن يندرج تحت ما يسمي بشؤم المعصية.

* من أسباب هلاك الأمم: الظلم، فقد أهلك الله تعالى قوم نوح بسبب ظلمهم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾ وقال جل جلاله في سورة أخرى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾العنكبوت/ ١٤.[٢]

* قال الرازي بعد شرح قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾: « واعلم أن هذه الآية حجة على كل من عول على شيء غير الله تعالى»[٣]. وهذا كلام نفيس لا مزيد عليه.

* عدم استفادة مشركي قريش، مما حصل للأمم السابقة، فهم بلا شك قد سمعوا ما حصل لقوم نوح عليه السلام، ولغيرهم، ولذا أنكر القرآن الكريم عليهم عدم اتعاظهم فقال جل جلاله: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وإذا كانوا لم يسمعوا بها، فهاهو القرآن الكريم يقص عليهم القصص الحق، فما دام أن

---

(١) انظر المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، زيدان١/ ٦٠٧.

(٢) انظر المصدر السابق١/ ١٦٣.

(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ١٤٦.

الأصنام لم تدفع الضر عن عابديها، ولم تجلب لهم النفع، فعلام الإقامة على ذلك !؟

* مع أن الرسل عليهم السلام كانوا رحمة، فقد دعا نوح ﷺ على قومه، ومرد ذلك أن وجود هؤلاء المشركين قد أصبح مفسدة، وصار هلاكهم رحمة للناس، بل ولغيرهم من الحيوان والنبات، ولأنهم لم يقبلوا هدي الله، حتى تشملهم الرحمة، فهم ليسوا أهلاً لها، ولذا كان لا بد من إهلاكهم.

الخاتمــة

قال تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

مناسبة الخاتمة لما قبلها.

أرسل الله تعالى نوحاً ﷺ لينذر قومه، وقد بلغهم الرسالة، ببيان واضح، خاطب فيه عواطفهم وعقولهم، جهر به وأعلن وأسر، أتاهم ليلاً ونهاراً...، فكان ردهم إصراراً على الكفر، واستكباراً عن قبول دعوة الحق، ومكث فيهم ﷺ ألف سنة إلا خمسين عاماً، يؤمل هدايتهم، فكانوا يتواصون فيما بينهم على عدم اتباعه، فما كان منه ﷺ وقد أخبره ربه جل جلاله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، إلا أن دعا ربه أن يهلك جميع الكافرين...

بعد هذا جاءت الخاتمة تحمل دعاءه ﷺ بأن يغفر الله تعالى له، بقلب المؤمن اليقظ؛ خشية أن يكون قد قصر في البلاغ، أو توانى في الدعوة إلى الحق الذي أرسل به، ثم دعا لوالديه، ولمن دخل بيته مؤمناً، وللمؤمنين والمؤمنات، لبيان أن هؤلاء، هم الذين يستحقون المغفرة؛ لأنهم أتوا بأسبابها، أما الذين استكبروا عنها حين طلبت منهم، فليس لهم إلا أن يزدادوا خساراً.

التفسير الإجمالي للخاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة، ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومع ذلك لم يؤمن من قومه ﷺ إلا القليل، ومع كل ما بذل، قابلوه بالعصيان والإصرار، وأغلقوا كل منفذ يمكن أن تدخل منه الهداية، فقد غطوا أسماعهم وأبصارهم؛ خشية أن يتسلل إليها بصيص من نور، ولم يكتفوا بذلك، بل تواصوا فيما بينهم بأن لا يدعوا عبادة آلهتهم، بعد كل هذا الصبر الطويل، تأتي هذه المناجاة من نوح ﷺ، داعياً ربه بأن يغفر له، وهذا الدعاء « هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العلي العظيم، أدب العبد في حضرة الرب، العبد الذي لا ينسى أنه بشر، وأنه يخطئ، وأنه يقصر، مهما يطع ويعبد... وهذا هو الاستغفار الذي دعا قومه العصاة الخاطئين إليه فاستكبروا، وهو هو النبي يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء...»[(١)] ثم دعا لوالديه، ولمن دخل بيته مؤمناً مصدقاً بالله تعالى موحداً له، ثم عمّ بعد ذلك المؤمنين والمؤمنات من كل أمة إلى يوم القيامة. [(٢)]

وفي غمرة هذه الرحمة للمؤمنين جميعاً لم ينس أن يدعو على الظالمين، الظالمين بشركهم والظالمين لرسولهم، والظالمين لآيات ربهم، والظالمين لغيرهم في صدهم عن الحق والظالمين لأنفسهم... ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ خساراً في الدنيا والآخرة. [(٣)]

من هدايات الخاتمة

* العبد المؤمن مهما قدم في سبيل الله، فإنه يخشى أن يكون قد قصر، ولم يؤد ما كلفه الله تعالى به على الوجه اللائق كما يحبه جل جلاله ويرضى، ولذا عُلمنا أن نجعل آخر عباداتنا استغفاراً، فنحن نستغفر الله تعالى عقب الصلوات، وعقب الحج، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٧، بحذف يسير.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٩، وروح المعاني ٢٩/ ٩٠، والتفسير المنير، ٢٩/ ١٥١.

(٣) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٥٦، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٤٩.

أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وانظر إلى وصية الله جل جلاله لرسوله ﷺ في سورة النصر، التي عدها بعض العلماء آخر ما نزل من القرآن الكريم﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾...

* بر البنوة بالوالدين المؤمنين، (١) فلقد طلب نوح عليه السلام المغفرة لوالديه: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾، وقد حثنا القرآن الكريم على الدعاء لهما فقال جل جلاله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

* دعاؤه عليه السلام لمن دخل بيته مؤمناً، فيه حب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه، فقد خصهم بالدعاء، مع أنهم يندرجون في المؤمنين والمؤمنات، ولكن هؤلاء لهم مزيد عناية، للود الذي حصل بزيارتهم.

* يستنبط مما سبق أن المؤمن يألف ويؤلف، فالدعاة إلى الله جل جلاله ينبغي عليهم أن لا يغلقوا أبواب بيوتهم أمام الناس، إلا في الأوقات التي قد علم أنها للراحة....

* دعاؤه عليه السلام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات، هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان، وهذا هو سر هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها برباط الحب على تباعد الزمان والمكان... (٢)

* من فقه الدعاء أن يدعو الإنسان لنفسه أولاُ ثم الأخص به والأحق بدعائه.

* الولاء والبراء، الولاء للمؤمنين، وتمثل هنا بالدعاء لهم، وهذا دليل محبتهم والشفقة عليهم، والبراء من الكافرين، وتمثل في الدعاء عليهم.

* التعامل مع الآخرين إنما يقوم على أساس الدين، وليس على أساس القومية والوطنية

---

(١) لو لم يكونا مؤمنين لروجع في هذا الدعاء كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق... انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٧، وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٣١٣.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٧ـ٣٧١٨.

ونحو ذلك، فهذا نوح ﷺ، يدعو على الكافرين من قومه...، وكذا فعل خاتم النبيين ﷺ فقد حارب قومه المشركين، ووالى المسلمين دون النظر إلى جنسهم أو لونهم...

* رباط العقيدة هو الأصل، وعلى أساسه يكون التوحد....

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

سورة الجن

بين يدي السورة

اسم السورة

ذكر العلماء لهذه السورة أكثر من اسم، أشهرها: سورة الجن، قال الفيروز آبادي: « سميت سورة الجن؛ لاشتمالها على الجن في قوله: ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾، وقوله: ﴿ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾»[1].

وقد ترجم الإمام البخاري لها في صحيحه: (سورة قل أوحي إلي)[2]..، وسبب التسمية واضحة.

مرحلة نزول السورة

اتفق العلماء على أن هذه السورة مكية، فقد أوردها الزركشي تحت عنوان: ذكر ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيبه، وكان ترتيبها الحادية والسبعين، وهو أربع وثمانون سورة، ثم قال: «فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة، وعليه استقرت الرواية من الثقات، وهو خمس وثمانون سورة»[3].

عدد آيات السورة

عدد آيات هذا السورة الكريمة ثمان وعشرون آية. [4]

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي١/ ٤٨٤.

(٢) ٦٥/ كتاب التفسير ٧٢/ سورة (قل أوحي إلي).

(٣) انظر لما تقدم البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٢٨١، والسور التي عدها: أربع وثمانون لا خمس وثمانون. وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ٣٧٢، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي١/ ١٩.

(٤) ماأورده بعض العلماء في كتبهم فيما يتعلق بهذا الأمر تعقبه المحققون إذ وقع فيه بعض الاضطراب، ولعله من فعل النساخ، ومآل الأمر إلى ما أثبت. انظر جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي١/ ٢٢٣، وبصائر ذوي التمييز١/ ٤٨٤.

ما ورد من روايات تتعلق بهذه السورة

أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهنالك حين رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾، وإنما أوحي إليه قول الجن.[1]

محور السورة

محور السورة كما يدل عليه اسمها يدور حول الجن وانضمامهم لركب المؤمنين في إشارة واضحة واتساق تام مع سورة نوح عليه السلام التي عرضت صوراً لمن تخلف عن هذا الركب.

هؤلاء نفر من الجن استمعوا القرآن الكريم، وإذا بهم يعلنون إيمانهم وينبذون الشرك. هذا الأمر الذي لم يدركه كثير من الإنس..

ثم انطلقوا ينزهون الله تعالى عن اتخاذ الصاحبة والولد، واصفين من يتقول على الله تعالى بالباطل بالسفه، ثم ذكروا أنهم لم يكونوا يظنون أن يكذب الإنس والجن على الله تعالى، ثم أخذوا في بيان ما كان عليه حال الإنس من التعوذ برجال من الجن، وظنّ الجميع بأن لن يبعث

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري برقم ٧٧٣، وبرقم ٤٩٢١ [يلاحظ في الرواية الأولى فأنزل، وفي الثانية وأنزل]، وهو في صحيح مسلم برقم (٤٤٩).

الله أحداً، ثم ما كان منهم من طلب استراق السمع، ومنعهم من ذلك وسؤالهم عن سببه وكيف أنهم منقسمون إلى صالحين ودون ذلك... إلى نهاية هذا المقطع

ثم يأتي المقطع الثاني ليبين أن من انضم لركب المؤمنين، فسيوسع الله له في الرزق، لكن ينبغي أن يعلم أن هذه التوسعة اختبار من الله تعالى، وأن من أعرض عن هذا الركب فإن له عذاباً شاقاً.

وخير أماكن يوجد فيها هذا الركب هي المساجد، التي ينبغي أن لا يدعى فيها مع الله تعالى أحداً.

ثم أخذت الآيات في ذكر إمام الركب، والهادي بإذن ربه إلى طريق الإيمان: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾.

ما حال الداعي لهذا الركب ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أن الداعي هو القدوة، وهو يعلن: أنه يعبد ربه ويدعو إلى ذلك، وهو لا يشرك به أحداً، فمن شاء أن ينضم لهذا الركب فليفعل.

ثم يذكر المقطع بعض صفات النبي ﷺ ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾.

أما من يتخلف عن الركب فيعصى الله ورسوله فالخلود له في نار جنهم، وهناك يعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً.

وكالعادة يصر المتخلفون عن الركب على الاستهزاء، ﴿ مَتَىٰ هُوَ ﴾؟، ولم يقل النبي ﷺ: إنه يعلم متى هو، حتى يواجه بمثل هذا السؤال، لكنه التعنت، ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

ثم تأتي الخاتمة وفيها وصفٌ لمن يؤمن به هذا الركب، وهو الله عز وجل ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾، وبيان أن العلاقة مع عباده إنما تكون عن طريق من ارتضاهم من الرسل ـ عليهم

السلام ـ، ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾، وبذا يتبين من هو عالم الغيب، ومن الذي يتلقى عن الله الغيب.

والجن من عالم الغيب، وعن طريق الوحي نتعامل معهم، ونتعرف عليهم، لا عن طريق الشعوذة والكهانة والسحر.

المناسبات بين السورة

أولاً: المناسبات بين اسم السورة ومحورها:

ما سبق قوله عن المحور، يدل دلالة واضحة على مدى التناسب بين اسم السورة ومحورها فهي سورة الجن، ومحورها التحاق الجن بركب المؤمنين بعد استماعهم لآيات القرآن الكريم والسورة كلها تدور حول هذا المحور كما سبق بيانه.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها

بين افتتاحية السورة وخاتمتها مناسبات عدة، منها:

ابتدأت السورة بالأمر بالتبليغ ﴿ قُلْ ﴾، ثم كانت الخاتمة﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾. فبلغ النبي ﷺ، حتى لقد آمن له نفر من الجن....

الوحي ـ كما هو معلوم ـ إعلام في خفاء ـ فصدرت السورة بـ ﴿ قُلْ أُوحِىَ ﴾، واختتمت بـ ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾، وكان هذا الأمر غيباً، فإنه ﷺ لم يعلم بهم وباستماعهم ـ في هذه المرة ـ حتى أظهر الله تعالى عليه نبيه ﷺ. [1]

(١) للعلماء في رؤية الرسول ﷺ الجنّ قولان:الأول، أنهﷺ لم يرهم، وهو قول ابن عباس، والقول الثاني، وهو لابن مسعود ﷺ: أنه رآهم، وللعلماء في توجيههما أكثر من مسلك:الأول، ما ذهب إليه ابن تيمية من أن ابن عباس قد علم ما دل عليه القرآن من ذلك ولم يعلم ما علمه ابن مسعود وغيره من إتيان الجن إليه ومخاطبته إياهم وأنه أخبره بذلك في القرآن وأمره أن يخبر به، انظر مجموع الفتاوى، ابن تيمية١٩/ ٣٨. المسلك الثاني: القول بتعدد القصة، يقول الآلوسي: « والآية ظاهرة في أنه ﷺ علم =

صرح الجن في ابتداء السورة بمدى تأثرهم بالقرآن الكريم، حتى أثمر إيماناً جازماً، وهذا يعني ما أكدت عليه الخاتمة، من أن الوحي الرباني قد أُحيط بالعناية التامة فلم يتمكن الشياطين من أن يدسوا فيه شيئاً، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾، والمتأثر هنا هم الجن، وهم الأعرف بخبايا الشياطين.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها

تعد خاتمة سورة نوح عليه السلام كالتمهيد لافتتاحية هذه السورة، فقد ختمت تلك السورة بقوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ٢٨]. وقد جاء هذا الدعاء من نوح عليه السلام بعد أن انتهى الصراع بين الحق والباطل، يطلب المغفرة له، ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات، ويلاحظ التأكيد هنا على قضية الإيمان التي أعلنها الجن فور استماعهم للقرآن الكريم فانضموا لركب المؤمنين...

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

تحدثت سورة نوح عليه السلام عن فريق واجهوا الحق بالعناد والإصرار على الكفر، ولم يلقوا السمع له، بل فروا منه، وإذا اضطروا إلى ذلك بأن غشيهم رسول الحق في أماكنهم وتجمعاتهم ﴿ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧]، كما تواصوا بعدم ترك آلهتهم، ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح:٢٣]، في حين نجد هذه السورة الكريمة تعرض المنهج الصحيح في التعامل مع

=استماعهم له بالوحي لا بالمشاهدة، وقد وقع في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام رآهم وجمع ذلك بتعدد القصة» انظر روح المعاني٢٩/ ٩٣، وقال ابن حجر بعد ذكره للخلاف:» ويمكن الجمع بالتعدد» فتح الباري٩/ ٦٧٤. ويبدو أن الرأي القائل بالتعدد هو الراجح، وهو ما يدل عليه سياق سورة الجن، وانظر فتح الباري٩/ ٦٧٤-٦٧٥، تجد مناقشة علمية لهذا الأمر. وفيه»... فتكون قصة الجن متقدمة من أول المبعث».

الحق، الذي تمثل في القرآن الكريم هنا، والمتلقي له لم يكن من الإنس بل من الجن، ﴿ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾، فهم إذن استمعوا القرآن سماع مقبل واع، ولم يعرضوا عنه أو يفروا منه، أو يلغوا فيه كما حكى القرآن الكريم عن المشركين في زمن الرسول الكريم ﷺ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].

قال أبو حيان: « ووجه مناسبتها لما قبلها: أنه لما حكي تمادي قوم نوح في الكفر، وعكوفهم على عبادة الأصنام، وكان عليه السلام أول رسول إلى الأرض، كما أن محمداً ﷺ آخر رسول إلى الأرض والعرب الذي هو منهم عليه السلام كانوا عباد أصنام، كقوم نوح، حتى إنهم عبدوا أصناماً مثل أصنام أولئك في الأسماء، وكان ما جاء به محمد ﷺ هادياً إلى الرشد، وقد سمعته العرب وتوقف عن الإيمان به أكثرهم، أنزل سورة الجن إثر سورة نوح، تبكيتاً لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان، إذ كان الجن خيراً منهم[١]، وأقبل للإيمان، هذا وهم من غير جنس الرسول ﷺ ومع ذلك فبنفس ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا به للوقت، وعرفوا أنه ليس من نمط كلام الناس، بخلاف العرب فإنه نزل بلسانهم وعرفوا كونه معجزاً، وهم مع ذلك مكذبون له ولمن جاء به حسداً وبغياً»[٢]

وورد في سورة نوح قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾، وفي سورة الجن: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾، والمناسبة بينة.[٣]

ذكرت سورة نوح منهج التقليد غير المتبصر: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾، وفي سورة الجن ذكرت ما ينبغي أن يفعله كل عاقل وذلك عندما استمعوا

---

(١) في الأصل: خيراً لهم، ولعل الصواب ما أثبت، وينبغي أن يشار إلى أن الدقة تقتضي أن يقال: إذ كان هؤلاء خيراً منهم. إذ ليس كل الجن خير من قريش والعرب، إلا أن يقال: إن (ال) في (الجن) للعهد.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٣٩.

(٣) انظر تفسير المراغي ٢٨/ ٩٢، والتفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ١٥٥.

القرآن الكريم فأثر ذلك فيهم، دون أن يكون لسفيههم أو لغيره سلطان على قلوبهم وقرارهم.

ذكر في سورة الجن مآل العصاة: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ (٢٣)، وعاقبة من يعرض عن ذكر ربه ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾، وفي سورة نوح: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [نوح:٢٥][1].

وورد في سورة نوح بعد ذكر عاقبة المكذبين في الدنيا ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾، ونصت سورة الجن على أن الأمر كذلك يوم القيامة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾، فما كانوا يؤملونه من كثرة العدد والعدة ضعيف لا قيمة له.

وهناك مناسبة خفية بين السورتين أشار لها الإمام البقاعي، فهو يرى أن في سورة الجن بيان شرف النبي ﷺ إذ أقبلت عليه قلوب الجن وهو في آخر الزمان، في حين أن نوح عليه السلام وهو أول نبي ما آمن معه إلا قليل. كما أن مدة مكث النبيين الكريمين بين قوميهما متفاوتة، فلم يلبث رسولنا الكريم ﷺ ربع العشر مما لبثه نوح عليه السلام في قومه.[2]

عرض مقاطع السورة

افتتاحية السورة

التفسير الإجمالي

افتتاحية السورة - والله أعلم - هي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾.

أمر رباني للرسول الكريم محمد ﷺ أن يقول للعالمين هذا الأمر، وهو لم يقله من تلقاء نفسه بل بوحي من رب العالمين، وحقيقة هذا الأمر العظيم الذي نزل الوحي بشأنه، وأمر الرسول

(١) انظر التفسير المنير٢٩/ ١٥٥.

(٢) انظر نظم الدرر٨/ ١٨٠.

بتبليغه، وصدر بـ ﴿ قُلْ ﴾ للدلالة على أهميته، ووجوب السرعة في إبلاغه، هو أن جماعة من الجن ـ ما بين الثلاثة إلى التسعة ـ استمعوا إلى هذا القرآن العظيم، منصتين، وإذا استحضرنا مرحلة نزول السورة، وأنها قد نزلت بمكة، فهذا يعني أنها ستصل إلى مسامع المشركين، وهم قد سمعوا القرآن مراراً، فماذا يعني أن الجن استمعوا له؟ لاشك أن هذه الافتتاحية ستهيئ أذهان القوم لاحتمالات كثيرة، أبعدها أن الجن قد آمنوا ـ فضلاً عن أن يسارعوا إلى ذلك.

ثم ماذا حدث بعد استماعهم، لقد دخل الإيمان في قلوبهم، وأيقظ فطرهم، فأبدوا تعجبهم من فصاحته، ومن نظمه البليغ، ثم بينوا صفة أخرى، وهي متعلقة بمعناه: ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ أي: " يدل على الحق، وسبيل الصواب"[١]، وللرشد دلالات عميقة، ففيه معنى النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب، كما أنه يوحي بالإدراك الذاتي البصير للحقائق، فهو ينشئ في النفس حالة ذاتية تهدي إلى الخير والصواب.[٢] ثم أعلنوا إيمانهم به دون تردد، أو نظر إلى تقاليد ورثوها من عقول حرفت فطرتهم عن بلوغ الرشد، فزينوا لهم الباطل، ولذا أعلن هؤلاء النفر نفيهم العود مستقبلاً لذلك الماضي ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾، مهما كان هذا الإله المزعوم، وكيف نشرك مع الرب: الخالق المالك المدبر غيره ممن لا يملك لنفسه ـ فضلاً عن غيره ـ ضراً ولا رشداً، وبذا أعطوا درساً لكل من أشرك مع الله أحداً وفيه إشارة إلى تبكيت العرب الذين تقاعسوا عن الإجابة، وهم يعرفون من رشد القرآن بمعناه ونظمه لكونه بلسانهم، وكونهم من نوع الداعي ﷺ، وأقرب الناس إليه.[٣]

من هدايات الافتتاحية

* القرآن الكريم من عند الله تعالى، وليس للرسول ﷺ إلا التبليغ ﴿ قُلْ أُوحِىَ ﴾.
* علم الغيب قد استأثر الله تعالى به، فهذا رسولنا الكريم ﷺ، قد استمع الجن لقراءته وكانوا

---

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٥٨، وانظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٠.

(٢) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٧٢٧.

(٣) انظر نظم الدرر، البقاعي ٨/ ١٨١. وفتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٢٦.

نفراً، ولم يشعر ﷺ بهم، «قال الحسن البصري: ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم»[١].

* الجن موجودون، وفيه رد على من أنكر ذلك، وهم يفهمون اللغة العربية، ويدركون إعجاز القرآن، ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾، وهم مكلفون ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾.

* الرسول ﷺ مبعوث للثقلين: الإنس والجن. أما الأنس فالأمر ظاهر، وأما الجن ففي العقيدة الطحاوية وشرحها: وهو المبعوث إلى عامة الجن، أما كونه مبعوثا إلى عامة الجن، فقال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضاً[٢]

* الجن استمعوا القرآن الكريم ولم يكتفوا بالسماع، وفيه تنبيه على أن أثر القرآن الكريم يكون لمن فعل ذلك.

* التوفيق بيد الله تعالى، فقد تأخر كثير من الإنس، مع علمهم بصدق الرسول ﷺ وأمانته، وقد نشأ بينهم... مع كثرة ما يسمعون منه: القرآن وغيره...

* تأثير القرآن العظيم في النفوس المهيأة والقلوب السليمة، وأنه يكفي لإحداث هذا التأثير مجرد الاستماع له، ولعل في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]، ما يؤكد هذا الأمر.

* استماع القرآن الكريم كان كافياً في هداية هؤلاء الجن، فما أحرى الدعاة أن يحرصوا على إيصاله إلى العالمين، وإسماعهم كلام ربهم، تُذكر هذه الهداية ونحن نستحضر محاضرات بعض الدعاة ممن يكاد حديثه يخلو من ذكر آية واحدة، فعلى الدعاة أن يجربوا هذا الأسلوب القرآني في الدعوة وهم واجدون أثره العظيم ولا ريب.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠٦.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ١/ ١٦٧-١٦٨. بحذف يسير.

* على الدعاة أن يبلغوا دعوة الله تعالى دون النظر في النتائج، ودون وضع المعوقات، بل ودون الالتفات إلى بعض المظاهر التي من شأنها أن تصرف عن الدعوة.

* لن يصلح أمر العالمين إلا بالقرآن الكريم، ـ وبالسنة المطهرة بكل تأكيد ـ فهو الذي يهديهم إلى الحق والصواب والسداد في كل شأن من شؤونهم، وما لم تتوقف البشرية عن استيراد النظم البشرية التي من أخص صفاتها النقص والهوى، فإنها ستظل تتخبط في مهاوي الضلال، وستضطر في كل مرة إلى تغيير نظمها، مما يجعل الأجيال حقلاً للتجارب، وعرضة للشقاء.

* الإيمان لوحده لا يكفي ما لم يصاحبه عدم الإشراك بالله تعالى، بل إن الإيمان لا يعتد به في هذه الحالة، ولذا أظهرت الآية الكريمة هذا الأمر حتى لا يعتد المشركون بما قد يسمونه إيماناً بالله، وهم في الوقت نفسه يشركون، ولخطورة هذا الأمر نصت آية كريمة مكية عليه، يقول عز وجل: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف:١٠٦]، قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السماوات، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون به. وثم شرك آخر خفي لا يشعر به فاعله غالباً، كالرياء، والحلف بغير الله... وغير ذلك.[1]

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٦٤٢ـ٦٤٣.

المقطع الأول: الجن ورحلة الإيمان

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

مناسبة المقطع الأول لافتتاحية السورة

ما أن استمع الجن للقرآن الكريم حتى تأثروا به، فأعلنوا ذلك غير خائفين ولا مترددين، ﴿ فَقَالُوٓا۟ ﴾ وأكدوا كلامهم - فهو حقيقة أمر يدعو للشك - هؤلاء الجن الذين من طباعهم النفرة، وقد نبتوا في منابت الشر، عالم عاصف بالشرور المحرقة[1] يأتي هؤلاء النفر فيستمعون القرآن العظيم، وإذا بقلوبهم تتفتح له، وإذا بالإيمان يعمرها، ثم يأتي هذا المقطع ليبين ما أُجمل من كلام الجن، فإذا بهم ينزهون ربهم الذي آمنوا به للتو، وكأن داعي الفطرة السليمة تحرك فيهم ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾، ثم انطلقوا يتحدثون عن السبب في عدم إيمانهم... وأمور من عالمي الإنس والجن...

التفسير الإجمالي للمقطع

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾، والمعنى: تعالت عظمة ربنا وقدرته وسلطانه عن أن يتخذ زوجة أو ولداً؛ لأن الزوجة إنما تكون للضعيف العاجز الذي

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب٢٩/ ١٢٠٨.

تضطره الشهوة الباعثة على اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة ألجأته إلى الوقاع[١] ويلاحظ هنا أمر: أن العرب كانت تزعم أن الملائكة بنات الله جاءت من صهر مع الجن فجاءت الجن تكذب بهذه الخرافة[٢].

ثم عادوا باللوم على من يروج لمثل هذه الضلالات ووصفوه بالسفاهة: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ ﴾، والسفيه المذكور هو إبليس في قول كثير من المفسرين، ورأى بعضهم أنه اسم جنس لكل سفيه، ولا شك أن إبليس زعيم السفهاء، وكل من يشتط في القول على الله، ويتجاوز الحق فله نصيب من هذا السفه بمقدار ما اشتط من القول. [٣]

وقد يُتساءل عن السبب الذي جعلهم ينقادون لسفهائهم، فكان قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾، بمثابة الاعتذار عن ذلك، فما كانوا يحسبون أن أحداً يجترئ الكذب على الله، كيف وقد قال بهذا القول كثير من الإنس والجن، ومخالفة أمر كهذا لا يكون إلا بتأييد رباني. [٤]

ثم ذكروا شبهة أخرى، زادت الفريقين ضلالاً: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾، قال ابن كثير: «أي: كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها، ـ كما كانت عادة العرب في جاهليتها ـ يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، زادوهم رهقاً: أي خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر

---

(١) انظر جامع البيان ١٢/ ٦٠. وانظر تفسير القرآن العظيم ٥/ ٥٥٠.

(٢) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٧٢٧، بتصرف يسير.

(٣) انظر لذلك جامع البيان ١٢/ ٢٦٢، والمحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ١٨٤، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٥٥٠، ونظم الدرر٨/ ١٨٤، والأساس في التفسير، حوى١١/ ٦١٧٦.

(٤) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٢، ونظم الدرر٨/ ١٨٤.

تعوذاً بهم،[١] وللعلماء في قوله تعالى: ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ قولان:

أحدهما: أن الإنس زادوا الجن رهقاً لتعوذهم بهم. والمعنى على هذا: زادوهم طغياناً وغياً.

والثاني: أن الجن زادوا الإنس رهقاً، وهذا ما ذكره ابن كثير، من أن المعنى: «خوفاً وإرهاباً وذعراً».[٢]

ويظهر أن لامانع من الأخذ بالقولين، فالجن زادت الإنس خوفاً وذعراً لما لجئوا إليهم، وآل أمر هذا الالتجاء إلى طغيان الجن وغيهم، ومآل القولين إلى حصول الإثم، وهو تفسير الرهق عند كثير من العلماء.[٣]

ويتواصل قول الجن، فيذكرون أن الجن ظنوا كما ظن الإنس أن لن يبعث الله تعالى أحداً من الرسل، أو لن يكون هناك بعث يوم القيامة.[٤]، وكان ذلك ظناً ظنوه!

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾، يذكر الجن هنا أنهم تطلبوا السماع من الملائكة كما كانوا يفعلون قبل بعثة المصطفى ﷺ، فوجدوها قد ملئت حرساً شديداً وشهباً، ولم تعد هناك مقاعد يطمئنون في الجلوس فيها ليسترقوا السمع؛ لأنها قد ملئت الآن حرساً شديداً من سائر أرجائها، حرساً لم يعهد من قبل... كما أن السماء حفظت بالشهب فترجم من يحاول استراق السمع.[٥] وقد أبدوا استغرابهم مما حدث لأنهم كانوا يفعلون ذلك ويُمكنون

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٠. وانظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٠.

(٣) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٤.

(٤) لفظ الآية يحتمل القولين، انظر المحرر الوجيز٥/ ٣٨٠ - ٣٨١. وانظر جامع البيان١٢ / ٢٦٥، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٥٥١، وزاد المسير٨/ ١٣١.

(٥) انظر لذلك: جامع البيان١٢/ ٢٦٥، والتفسير الكبير، الرازي١٥ /١٥٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥١، ونظم الدرر٨/ ١٨٨.

من سماع بعض ما يقال: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾، فمهما اجتهد الآن وحاول السماع فأنه سيجد شعلة نار قد أعدت لأجله، وإذن فلا سمع بعد الآن كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. (١)

وقد تساءل الجن عما حدث؟ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾، أي: لا نعلم أعذاباً أراد الله أن ينزله بأهل الأرض بمنعه إيانا السمع من السماء ورجمه من استمع من فيها بالشهب، أم أراد بهم ربهم الهدى بأن يبعث منهم رسولاً يرشدهم إلى الحق. (٢)

وهذا السؤال كان قبل سماعهم القرآن الكريم، فما كانوا يظنون آنذاك أنه من أجل الوحي لأنهم ظنوا أن لن يبعث الله أحداً فلما استمعوه علموا السبب... (٣)

أو يقال: إن المراد «لا ندري أيؤمن الناس بهذا النبي فيرشدون، أم يكفرون به فينزل عليهم الشر»(٤).

ثم أخبروا عن أنفسهم فقالوا: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ أنا منا العاملون بطاعة الله، ومنا دون الصالحين في الصلاح، وجعل بعض العلماء ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ بمعنى الشرك، والأول أولى. فإن ما بين الصلاح إلى الشرك مراتب كثيرة، وكلها تندرج تحت ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾، والجن كالإنس متفاوتون في الصلاح. (٥)

وهل عنوا بذلك أن الأمر كان كذلك قبل استماعهم القرآن الكريم أو بعده، الظاهر « أن الأول أولى؛ فقد كان من الجن من آمن بموسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ٣٠]،

---

(١) انظر جامع البيان ١٢ / ٢٦٥، ونظم الدرر ٨/ ١٨٨.
(٢) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٦، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥١.
(٣) انظر أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٣٣٠.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٨١.
(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ١٩. وفتح القدير ٥/ ٣٢٩.

وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة، وكان هذا مبالغة منهم في دعاء من دعوهم إلى الإيمان، وأيضا لا فائدة في قولهم: نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر»[١].

والمراد من إيراد هذا الخبر ـ وهو معلوم للمخاطب ـ دعوة الجن أقوامهم إلى الإسلام والانضمام تحت لوائه، وترك التفرق المذموم. فكأنهم قالوا: كنا متفرقين فمنا الصالح ومنا دون ذلك، والآن وقد استمعنا لصوت الحق، فقد آن لنا أن نوحد اعتقادنا، ونؤمن بربنا. [٢].

ثم بينوا علمهم بقدرة الله تعالى عليهم أينما كانوا ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ « فلا هم يعجزون الله وهم في الأرض، ولاهم يعجزونه بالهرب منها».[٣]

ثم يصفون حالهم عندما استمعوا القرآن الكريم، مفتخرين بذلك، وقد سبق لهم ذكر هذا الأمر، ولكنهم يكررونه هنا، بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإسلام. ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾[٤]، لما سمعنا القرآن الكريم صدقنا به وأقررنا أنه حق من عند الله، من غير تردد ولا إحجام. [٥]، وبعد أن بينوا مسارعتهم للإيمان بخالقهم ورازقهم، بينوا جزاء من فعل هذا الفعل: ﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ «لا يخاف أن ينقص من حسناته فلا يجازى عليها ﴿ وَلَا رَهَقًا ﴾: ولا إثماً يحمل عليه من سيئات غيره أو سيئة يعملها»[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن١٥/ ١٩. وانظر أنوار العقل السليم٦/ ٣١٦،
(٢) انظر التحرير والتنوير٢٩/ ٢٣٣.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٢.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٣.
(٥) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٧، ونظم الدرر ٨/ ١٩١.
(٦) جامع البيان١٢/ ٢٦٧. وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٦-١٧، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٣.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾ أي: وأن منا ـ بعد استماع القرآن ـ الذين قد خضعوا لله بالطاعة، وأسلموا له قيادهم، [1] و«هم الذين آمنوا بالنبي ﷺ، ﴿ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ أي: الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق، ومالوا إلى طريق الباطل»[2]، ثم بينوا جزاء الفريقين: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ «فمن خضع لله بالطاعة»[3] ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾توخوا وقصدوا طريق الحق باذلين الجهد في طلب ذلك. [4]، فعليكم أن تقتدوا بهم، وتتوخوا هذا الطريق؛ لتنالوا ذلك الرشد، لكي لا تكونوا لجهنم حطباً.

من هدايات المقطع الأول

الفطر السليمة إذا غذيت بنور القرآن، عرفت ربها ونزهته، فهؤلاء الجن لم يدرسوا العقيدة ولم يتعمقوا فيها، ولم يحتاجوا إلى علم كلام ولا غيره، فطرة رائدها القرآن الكريم ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾. ترى كم ممن ينسبون لله تعالى الولد ممن حصلوا على أعلى الشهادات، لكن غاب عنهم نور القرآن؟

القرآن الكريم سبب للهدى، ولكن الجن سموه هدى، وفيه دلالة على توفيق الله لهم إذ أدركوا ما لم يدركه كثير من مثقفي هذا العصر، فراحوا يلتمسون الهدى في غيره.

في قول الجن سمعنا الهدى، ولم يذكروا أنه هدى في أي شيء، دلالة على أن القرآن الكريم هدى في كل شيء، ولكل عصر ومصر.

في قوله تعالى:﴿ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾، ما يدل على سرعة استجابة الجن، وفيه تعريض بالمشركين وتوبيخ، فلقد تباطؤوا عن

---

(١) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٧، والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٧، ونظم الدرر٨/ ١٩١.

(٢) فتح القدير ٥/ ٣٣٠، وانظر معالم التنزيل٨/ ٢٤٠ـ٢٤١.

(٣) جامع البيان ١٢/ ٢٦٨.

(٤) انظر مجاز القرآن، أبو عبيد ٢/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٨٢، والتفسير الكبير١٥/ ١٦٠، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٣، ونظم الدرر ٨/ ١٩٢.

الإجابة، مع أن القرآن بلغتهم، والرسول ﷺ منهم،[١] في حين أن الجن آمنوا بسماع القرآن مرة واحدة، وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله، فآمنوا به.[٢]

التوحيد أعظم ما يرشد إليه القرآن الكريم، ولذا أبرز الجن هذا الأثر فيهم، فأعلنوه: ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾، وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي على السائرين على هدي القرآن أن يجعلوا دعوتهم للتوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة أولى ما يعنون به.

مما ينافي عظمة الرب، اتخاذ الصاحبة والولد؛ لأنه ضعف ينشأ من الحاجة إليهما، ولقد فطن لهذا الأمر الجن، في حين عمي عنه كثيرون.

كل من يتجاوز الحق إلى الباطل، فهو سفيه....[٣].

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ ﴾، دلالة على أن الاغترار بالأكثرية ليس صحيحاً، وأنهم قد يكونون على خطأ، وأن المرجع في إدراك الصواب هو الوحي الرباني.

لا عذر للعوام في اتباع السادة والقادة، أو التذرع بأن الناس كلهم على هذا القول، وبخاصة أمر العقيدة، فقد تبين الرشد من الغي، وهاهم الجن من مجرد سماع القرآن أيقنوا خطأ ما كانوا قد ظنوه صواباً، فحري بمن يتلو كتاب الله تعالى، أن تصفو عقيدته، ويصح إيمانه. قال الرازي: «وهذا إقرار بأنهم إنما وقعوا في تلك الجهالات، وأنهم إنما تخلصوا عن تلك الظلمات ببركة الاستدلال والاحتجاج»[٤]، ويقول سعيد حوى: « ما ذكره الجن في هذه المقولة يعتبر من أشد أسباب الضلال في تاريخ البشرية: أن يعطى الإنسان العصمة لغير أهلها، وأن يتجاوز

---

(١) نظم الدرر ٨/ ١٨١، بتصرف يسير. وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧.

(٢) فتح القدير ٥/ ٣٢٦.

(٣) انظر الأساس في التفسير ١١/ ٦١٧٦.

(٤) التفسير الكبير ٣٠/ ١٥٥-١٥٦.

بالثقة حدودها...»[١].

يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ أن التجاء القلب لغير الله عز وجل في جلب نفع أو دفع ضر، عواقبه الخوف والذعر والقلق والحيرة.[٢]

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾ بيان أن منشأ القول بعدم البعث، هو الظن لا اليقين، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النجم: ٢٨].

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾ما يدل على لطف الله تعالى بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز، ذلك أن الله عز وجل لما شاء بعثة الرسول ﷺ، وإنزال القرآن عليه، ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً، وحفت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئا من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يدرى من الصادق.[٣]

يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾أن الله تعالى قد يُمكن الخلق من شيء ليبتليهم، كما مكن الجن من استراق السمع لحكمة، ولو أراد الله عز وجل صدهم لفعل، ولكن شاءت حكمته تمكينهم من ذلك، ابتلاء لهم ولمن يضلونهم.

أدب الجن، حين نسبوا الشر لغير فاعل، في حين نسبوا الرشد إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾، وهذا الأدب كثير في القرآن

---

(١) الأساس في التفسير ١١/ ٦١٧٥.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٥/ ٥٥٠، وفي ظلال القرآن ٦/ ٣٧٢٨.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ٥/ ٥٥٠.

الكريم، منه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، «أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدباً كما قال تعالى آمراً للمصلي أن يقول: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ إلى آخر السورة، فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حذف فاعله أدباً وأسند الضلال إلى العبيد». [١]

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ... ﴾ ما يصحح كثيراً من المفاهيم عن عالم الجن، إذ قد يتصور بعض الناس أن ذلك العالم محض شر وفساد[٢]، وهو عالم غيبي، تستقى المعلومات عنه من الوحي، لا من الحكايات والأساطير، وهذا منهج ينبغي أن يتبع: أن يكون مصدر الباحثين في مثل هذه الأمور الوحي.

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾، تعريض بالذين يعوذون بالجن، ويستعينون بهم في الحوائج. [٣]، فهؤلاء الجن الذين يُتعوذ بهم، يعلنون ضعفهم أمام قدرة الله عز وجل، فينبغي على المرء أن يلجأ إلى ربه عز وجل كما علمه، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾ [الفلق: ١]، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ [الناس: ١]، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨]، فإذا كان الجن، وهم أشد الثقلين تفلتاً وقدرة على الهرب، يبدون عجزهم عن ذلك، ويؤكدونه، فعلى الإنس وبخاصة عصاتهم، أن يعوا هذه الحقيقة.

القرآن الكريم هدى، ويكفي في إدراك هذا الأمر سماعه بتجرد ووعي، وقد أدرك ذلك الجن، وغابت هذه الحقيقة عن كثير من الإنس، فراحوا يبحثون عن تشريعات أرضية يلتمسون فيها الهدى.

الثمرة الحقيقية لتلقي القرآن بصورة صحيحة هي الإيمان، ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا

(١) المصدر السابق ٣/ ٤٤٧.
(٢) انظر في ظلال القرآن٦/ ٣٧٣٢.
(٣) انظر المصدر السابق ٦/ ٣٧٣٣.

بِهِۦ ﴾ من غير تلكؤ أو تلعثم، أو انتكاس في حمأة التقليد، أو الانجرار خلف الضالين المضلين الذي يعني إلغاء العقل، وتسليم زمامه بيد الآخرين ليفكروا بدله.

في قوله تعالى:﴿ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ مع قوله عز وجل: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾، ما يبين أن الإيمان يبعد الإنسان عن الرهق، في حين أن الالتجاء لغيره سبب في زيادة الرهق، وإذا كان كثير من العلماء قد فسر الرهق هنا بزيادة السيئات، فلربما لأن المراد به: الإثم، ولو فسر بـ« ولا ظلماً ومكروها يغشاه»[1] على اعتبارهما جزاء الإثم، لناسب السياق، ويدخل تحت الظلم زيادة السيئات. والله أعلم.

يستدل من قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ على أن الجن ليسوا شراً محضاً، كما قد يظن، بل هم كالإنس منهم مسلمون ومنهم غير ذلك.

لا بد للدعاة من الجمع بين الترغيب والترهيب في دعوتهم الناس لدين الله عز وجل ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾، ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾، ولكن بماذا يبتدئ؟ ذاك ما تحدده أمور أخرى تتعلق بأحوال كثيرة، مما هو مبسوط في مظانه. وليكن الداعية كالطبيب.

المسلم الذي قد خضع لله بالطاعة، تحرى وتوخى الدقة في طلب الرشد،[2] وليس هو خضوع الأعمى الذي يسير خلف عقائد موروثة باطلة، ثم لا يعمل عقله ليرى سبيل الرشد. ولعل هذا هو السر في عدم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ما هم عليه من ضلال، فهم لم يكلفوا أنفسهم عناء التفكير في ذلك، بمعنى أنهم لم يتحروا رشداً ولا غياً. ولنتأمل في حوار إبراهيم عليه السلام وكيف أرجعهم إلى أنفسهم ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٤]، ترى أين كانت أنفسهم... وعقولهم... ؟!

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي٨/ ١٣٢، وانظر روح المعاني ١٥/ ٩٩-١٠٠.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٣٣.

الجن وإن كانوا من نار، لكن عاصيهم سيعذب فيها، ويشار هنا أن لا دلالة لمن ذهب إلى أن مسلمي الجن لا ثواب لهم؛ لأن الله تعالى أوعد قاسطيهم وما وعد مسلميهم، لأن الله تعالى أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد[1].

المقطع الثاني: من صفات الركب والداعي إليه

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع للمقطع الأول

يبين هذا المقطع أن لو انتهج هؤلاء سبيل الاستقامة ﴿ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾، ثم نص على أن من يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً شاقاً، وفي المقطع السابق ذكر التجاء الكفار من الإنس واستعاذتهم برجال من الجن فزادوهم رهقاً.

في المقطع الأول أظهر الجن عدم معرفتهم بما يراد بأهل الأرض ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾، وهذا يعني عدم معرفتهم الغيب، ومن ثم فهم لا يملكون لمن يستجير بهم نفعاً ولا ضراً، وفي هذا المقطع يبين الرسول ﷺ أنه لا يملك لهم ضراً ولا رشداً، بل لا يملك ﷺ لنفسه شيئاً لو أراد الله تعالى به أمراً، ولن يجيره أحد ولن ينفعه إلا تبليغ ما أمر به، وكل هذا تنزيه لمقام الربوبية، فقد اختلط الأمر على المشركين، فراحوا يلتمسون

(١) انظر الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٣٠.

دفع الضر وجلب النفع من غير مظانه.

بين الرسول ﷺ في هذا المقطع أنه لا يملك لهم ضراً ولا رشداً، بل أمر أن يقول ذلك: ﴿ قُلْ إِنِّي ﴾، وفي المقطع الأول ذكر للسبيل الموصلة للرشد، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾.

ورد ذكر البعث في المقطع الأول في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾، وفي المقطع الثاني زيد في بيان حالهم في ذلك اليوم، وإذا كانوا يظنون أن لا بعث، فسيرونه عياناً، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ هذا من قول الله تعالى.[1] تعقيباً على قول الجن: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾، يبين أعظم وأشمل خصلة يتصف بها هذا الركب، وهي الاستقامة.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالطريقة، فذهب بعضهم إلى أنها طريقة الهدى؛ لأنها معرفة باللام، ويكون المعنى: لو آمنوا لوسعنا عليهم. كما قال عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وذهب آخرون إلى أنها طريقة الكفر، أي: لو استقاموا على الكفر فكانوا كفاراً كلهم لأكثرنا لهم المال لنفتنهم فيه عقوبة واستدراجاً، ثم نعذبهم على ذلك. قالوا ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣][2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن١٩/ ١٧.

(٢) القول الأول لابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة وغيرهم، واختاره الطبري، والقول الثاني =

ويبدو أن القول الأول أرجح؛ لأن لفظة الاستقامة إنما تكون لمن كان على الإيمان[1] ولو لا ذلك لكان ممكناً الأخذ بالقولين، إذ لا تعارض بينهما، فاستمرار الكفار على كفرهم مؤذن بعذاب، وثبات المؤمنين على إيمانهم سبب لتنزل البركات. والله أعلم.

وإذن فعلى القول الأقرب يكون المراد: لو استقاموا على طريقة الحق ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾، أي: لوسعنا عليهم في الرزق وبسطنا لهم الدنيا. والماء الغدق: الكثير، وخص بالذكر لأن الخير والرزق كله بالماء، فأقيم مقامه. [2]

ثم قال عز وجل: ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي: «لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم؟»[3].

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾، قال الطبري: «ومن يعرض عن استماع القرآن واستعماله يسلكه الله عذاباً صعداً: يقول: يسلكه الله عذاباً شديداً شاقاً»[4].

ثم يأمر الله تعالى عباده أن يفردوه بالعبادة ويوحدوه في أماكن عبادته، فلا يدعى معه أحد فيها. [5]، وهذا الأمر الرباني من جملة الموحى إلى النبي ﷺ، فهي معطوفة على ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ... ﴾ والتقدير: وأوحي إلي أن المساجد لله. [6]

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾، أي: وأنه لما قام

= قاله محمد بن كعب، والربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، والفراء، انظر معاني القرآن٣/ ١٩٣-١٩٤، وجامع البيان١٢/ ٢٦٨، ومعالم التنزيل٨/ ٢٤١، وزاد المسير٨/ ١٣٢.

(١) انظر المحرر الوجيز٥/ ٣٨٢. وفيه: «استعارة الاستقامة للكفر قلقة»، وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٧.

(٢) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٦٨، والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٧

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٨.

(٤) جامع البيان ١٢/ ٢٧٠.

(٥) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧١، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٤.

(٦) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧١، والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٠.

محمد رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى، يقول: (لا إله إلا الله)، ويعبد ربه عز وجل،...

وقيل: لما قام ﷺ إليهم داعياً....

والمعنيان متلازمان، والله أعلم.

﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي: كادوا يكونون على محمد جماعات بعضها فوق بعض(١).

وقد اختلف في المراد بقوله تعالى: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ على أقوال:

الأول: أنه إخبار من الله تعالى عن الجن يحكي حالهم والمعنى: أنه لما قام يصلي كاد الجن لازدحامهم عليه، يركب بعضهم بعضاً حرصاً على سماع القرآن.

الثاني: أنه من قول الجن لقومهم لما رجعوا إليهم، فوصفوا لهم طاعة أصحاب رسول الله ﷺ وائتمامهم به في الركوع والسجود، فكأنهم قالوا: لما قام يصلي كاد أصحابه يكونون عليه لبداً.

الثالث: أن المعنى لما قام رسول الله ﷺ بالدعوة، تلبدت الإنس والجن وتظاهروا عليه ليبطلوا الحق الذي جاء به. (٢)

وهذه الأقوال يمكن الجمع بينها بأن دعوة الرسول ﷺ جوبهت بفريقين، فريق عاداها حتى لقد اجتمعوا على إبطالها، وفريق أصغى لها سمعه، وبادر بالإيمان بها. (٣)

---

(١) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧١. والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٣.

(٢) ذكر هذه الأقوال الطبري مرجحاً الثالث منها، انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧١-٢٧٣. ورجحه ابن كثير أيضاً، انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٥.

(٣) قال الزحيلي: «... كاد الجن يركب بعضهم بعضاً ازدحاماً، حرصاً على سماع القرآن، وكاد المشركون من العرب يركب بعضهم بعضاً تظاهراً على النبي ﷺ وعلى عداوته...» التفسير المنير٢٩/ ١٧٩. وقد جمع بين القولين، ولا مانع من ضم القول الثالث، فلقد تظاهر الكفار من الإنس والجن على إطفاء دعوة الرسول ﷺ. والله أعلم.

﴿ قُلْ ﴾ أمر رباني يبين أهمية ما سيأتي، وضرورة الإسراع في تبليغه، ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي ﴾ فما وجه العجب الذي يوجب عداوتي وأنا إنما أعبد خالقي ورازقي ومدبر أمري؟، إني أدعوه لأنه ربي، ثم عرّض بهم لينبههم على ما هم عليه: ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾، من جن أو إنس أو حجر أو شجر....

هذا على القول الأول، أما على القول الثاني، فيحتمل أن يكون أمراً للنبي ﷺ أن يبين سبيله الذي يدعو إليه لمن أقبل يصغي لدعوته: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ ﴾، والله أعلم.

ثم بين لهم أن ليس له إلا البلاغ، فهو لا يملك لهم، ضراً ولا رشداً، ويلاحظ أن التعبير القرآني عدل عن: ضراً ولا نفعاً، حيث جعل الرشد مكانه في إشارة واضحة إلى أن الرشد هو غاية النفع. فإذا أطلق فلا يبتغى غيره مما قد يسمى نفعاً. و«في مقابلة الضر بالرشد، إشارة إلى أن الضر لا يكون إلا من متابعة الهوى، واتباع أهل الضلال، كما أن الخير لا يكون إلا من ثمرات الهدى والاستقامة والتقوى...»[(١)].

وما دام الرسول ﷺ لا يملك هذين الأمرين، وقد سبق أن الجن بينوا ذلك أيضا، فلتتجه القلوب نحو ربها، قال ابن كثير: « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي، وعبد من عباد الله، ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل»[(٢)].

ثم زاد الرسول ﷺ الأمر وضوحاً بأن بين أن لا أحد يستطيع أن يدفع عنه عذاب الله إن أنزله به، إلا أن يؤدي المهمة التي نيطت به، وهي البلاغ ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾.

ويحتمل أن يكون المراد: أني لا أملك لكم إلا أن أبلغكم ما أمرني الله بتبليغكم إياه، وإلا رسالاته التي أرسلني بها، لا أملك لكم إلا هذا، أما الرشد والخذلان فبيد الله تعالى. [(٣)]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن٢٩/ ١٢٣٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٥

(٣) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧٤، والتفسير الكبير١٥/ ١٦٥، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٥، والتفسير المنير٢٩/ ١٧٧.

والقولان - كما هو واضح - صحيحان ولا تعارض بينهما.

وإذا كان الرسول ﷺ بهذه الصفة، فكل من يعصي الله، ويعصي رسوله ﷺ الذي قد قام بالبلاغ عن ربه عز وجل، فجزاؤه نار جهنم هو ومن كان على شاكلته، والمقصود بالعصيان هنا الكفر بدليل قوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[1]، فالخطاب إذن للمشركين الذين رفضوا دعوة الرسول ﷺ وتولوا عنها، منكرين يوم البعث الذي سيكون فيه الجزاء، ولذا أتبع المولى عز وجل هذه الآية بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ وهذه الآية الكريمة تشير إلى ما يحدث من استهزاء المشركين بالمؤمنين واستضعافهم واستقلالهم لعددهم... فإنهم سيبقون على هذه الحال حتى إذا رأوا ما كانوا يوعدون به من العذاب عياناً فسيتبين لهم من المستضعفون؟ المؤمنون أم المشركون[2] وفيه تهديد شديد لهؤلاء المشركين.

ثم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقول للناس جميعاً، وبخاصة أولئك الذين إذا حدثهم عن يوم القيامة، بادروه بالسؤال عن وقت وقوع هذا الذي يخوفهم به: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١]، فأمر أن يقول لهم: ما أدري أقريب يوم القيامة الذي وعدتم به، أم سيكون بعيداً. فمرد ذلك إلى ربي.

من هدايات المقطع الثاني

في قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾، أكثر من هداية، أهمها:

الارتباط بين الاستقامة والرخاء، وأول أسبابه توافر الماء، الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي. فالخير والرزق كله بسببه. يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) انظر المحرر الوجيز ٥/ ٣٨٥.

(٢) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٣١٨، وتفسير المراغي ٢٨/ ١٠٤، والتحرير والتنوير ٢٩/ ٢٤٥.

ولعل هذا من الإعجاز الغيبي، فقد «كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف، حتى استقاموا على الطريقة، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء، وتتدفق فيها الأرزاق. ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلاباً. وما يزالون في نكد وشظف، حتى يفيئوا إلى الطريقة، فيتحقق فيهم وعد الله». [١]

الرخاء ابتلاء من الله تعالى للعباد، يتطلب منهم القيام بواجب الشكر للمنعم عز وجل.

الإعراض عن هدي الله عز وجل، الذي قد يكون سببه الرخاء سبب للعذاب الأليم[٢] وقد يتعقب على هذا بأننا نرى أمماً ممن أعرضوا عن الإيمان، ولكنهم في سعة من الرزق، والحقيقة أن هذه الأمم تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها، تسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء. [٣]

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ فيه دعوة لتوحيد الله عز وجل في أماكن العبادة، ويتضمن هذا توبيخاً للمشركين وغيرهم الذين يدعون غير الله تعالى في هذه الأماكن الشريفة، وبخاصة المسجد الحرام. [٤]

التزام المرء بدينه والقيام بواجب العبادة لربه أعظم طريق للدعوة، وهي التي قد يعبر عنها بحال الشخص، ولقد قيل: حال شخص في ألف خير من ألف مقال في شخص، وهنا لما قام الرسول ﷺ ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ أي: يعبد ربه، كاد الجن لازدحامهم عليه يركب بعضهم بعضاً حرصاً على سماع القرآن ـ على أحد التفسيرين ـ.

ينبغي على الداعية أن لا يستغرب صدود الناس ومحاربتهم له، إذ إنه في الوقت نفسه هناك

(١) في ظلال القرآن٦/ ٣٧٣٤.
(٢) انظر المصدر السابق ٦/ ٣٧٣٤ـ٣٧٣٥.
(٣) في ظلال القرآن٦/ ٣٧٣٤.
(٤) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧١، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٤، والجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٢.

من يحرص على سماع ما يدعو إليه.[1]

العبودية أشرف المقامات، ولذا وصف الله تعالى رسوله ﷺ في هذا المقام الشريف ـ مقام العبادة والدعوة ـ به، كما وصفه بذلك في مقامات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾. الآية، [الإسراء: ١].

مقام التوحيد أعظم المقامات، ولذا أمر النبي ﷺ، بأن يعلن ذلك، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾، ولا ينبغي أن يغفل الدعاة عن هذا الأمر، ولا أن يساوموا عليه....

ينبغي أن يكون توجه العبد دائماً إلى ربه في حصول نفع، أو دفع شر، فهذا رسولنا الكريم ﷺ يؤمر بأن يعلن هذه الحقيقة لمن التبست عليهم الأمور.

عظم منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه يدفع عذاب الله تعالى، وهو وظيفة الرسل عليهم السلام، كما أنه وظيفة أتباعهم ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

الحذر من الوقوع في المعاصي، إذ هي سبب دخول النار، والعياذ بالله.

ينبغي عدم الاغترار بكثرة العدد والعدة، والحذر أن يكونا صارفين عن التوجه إلى الله تعالى، فأعظم ما يدخره العبد هو الإيمان بالله عز وجل.

لا يعلم أحد متى يوم القيامة، وهذا يوجب على العاقل الاستعداد له، ولبيان قرب هذا اليوم فقد جاء التعبير القرآني عنه بلفظ الماضي، للدلالة على تحقق وقوعه، قال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ ﴾ [النحل: ١].

(١) هذا ـ كما لا يخفى ـ بناء على الجمع بين القولين الواردين في معنى قوله تعالى: ﴿ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾، وقد مر في الشرح الإجمالي ص/ ١٨.

الخاتمـة

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

مناسبتها لما قبلها

ذكر الرسول الكريم ﷺ في نهاية المقطع السابق عدم معرفته بوقت ما يوعدون به، إذ هو من أمر الغيب، والذي يعلم الغيب هو الله تعالى ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ ﴾... أما هو ﷺ فوظيفته البلاغ وقد أدى ما كلف به، فقد قرأ القرآن الكريم حتى استمع لقراءته من هم شديدو النفرة، ومع ذلك رقت قلوبهم وأذعنوا للحق، فآمنوا بربهم.

بينت الخاتمة أن الله تعالى لا يطلع على غيبه إلا من ارتضى من رسول، وقد أظهر الله تعالى رسوله المرتضى ﷺ، على بعض غيبه، فأطلعه على ما كان من أمر الجن. ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ ﴾.

في المقطع الثاني بيان واضح بأن النبي ﷺ لا يملك للناس ضراً ولا رشداً، لا يملك إلا البلاغ، بل إن أحداً لا يجيره من الله أن قصر في ذلك، ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَـٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِۦ ﴾، وهنا في الخاتمة ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾.

التفسير الإجمالي للخاتمة

إن الذي يعلم الغيب هو الله تعالى، ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ وهذا يشمل الرسول الملكي والبشري(١)، والمراد: يطلع الله بعض رسله لأجل ما أراده الله من الرسالة إلى الناس، فيُعلم من هذا الإيمان أن الغيب الذي يُطلع الله عليه الرسل هو من نوع ما له تعلق بالرسالة وهو غيب ما أراد الله إبلاغه إلى الخلق أن يعتقدوه

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٦.

أو يفعلوه، وما له تعلق بذلك من الوعد والوعيد من أمور الآخرة أو أمور الدنيا، وما يؤيد به الرسل عن الإخبار بأمور مغيبة كقوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾ [الروم: ٢-٤].

وهذا الإطلاع محاط بحفظة من أمامه ومن خلفه، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾: حرساً وحفظة من الملائكة يحفظون الوحي من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة، فيتكلمون به قبل أن يخبر النبي ﷺ الناس.[1]

﴿ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ اختلف في عود الضمير هنا فقال بعض العلماء: ليعلم الرسول ﷺ أن الرسل قبله قد بلغت عن ربها.

وقال آخرون: ليعلم الرسول ﷺ أن قد بلغت الملائكة رسالات ربهم.

وقال آخرون: ليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم[2]، والذي يظهر أن عود الضمير لله عز وجل أرجح؛ لأن الأفعال كلها الواردة في السياق لله تعالى: (يسلك، يعلم، أحاط، أحصى) وهذا أولى من تشتيت الضمائر، وقد بين الرازي أنه « اختيار أكثر المحققين»[3] والمراد بالعلم هنا: العلم الذي يترتب عليه الجزاء، أو كما يقول العلماء: ليظهر علم الله، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ ﴾ [البقرة: ١٤٣] وكقوله تعالى: ﴿ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت: ١١]، إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة، ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ ﴾[4]، أي: « علم الله ما عند الرسل فلم يخف عليه شيء. ﴿ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ

(١) انظر جامع البيان ١٢/ ٢٧٦، وزاد المسير ٨/ ١٣٥، والتفسير الكبير ١٥/ ١٦٨.

(٢) انظر هذه الأقوال وغيرها في جامع البيان ١٢/ ٢٧٦، والتفسير الكبير ١٥/ ١٧٠، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٦.

(٣) التفسير الكبير ١٥/ ١٧٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٦-٥٥٧.

عَدَدًا ﴾ قال ابن عباس: أحصى ما خلق وعرف عدد ما خلق فلم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذر والخردل»[١] .

من هدايات الخاتمة

الغيب كله لله تعالى، وهو عز وجل يظهر ما شاء من ذلك لمن يرتضيه من رسله، وهذا الغيب إنما هو فيما له تعلق بالرسالة التي من أجلها أرسلوا، ولذا ورد التعقيب ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾. وعليه، فلا يصدق بعد هذا البيان أي مدع يزعم أن عنده علم الغيب كائناً من كان، وينبغي على الدعاة إشاعة هذه العقيدة في أوساط العوام، حتى لا يستغلهم المشعوذون.

رحمة رب العالمين بخلقه، فهو لم يجعلهم عرضة لتخليط الشياطين أو غيرهم، يعبثون بعقائدهم، وإنما أنزل وحياً محفوظاً محروساً.

الثقة الكاملة بالوحي المنزل على الرسل عليهم السلام، وبخاصة ما نزل على رسولنا محمد ﷺ. الذي ارتضاه الله عز وجل، وأطلعه على ما شاء من وحيه.

سعة علم الله عز وجل. وفيه رد على الفلاسفة الذين يقولون: إن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات.

---

(١) معالم التنزيل ٨/ ٢٤٥ .

سورة المزمل

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

اسمها التوقيفي: (سورة المزمل)، وكذا كتبت في المصاحف وكتب التفسير. ومعنى المزمِّل المتلفِّف بثيابه، وسمِّيت بذلك لافتتاحها[1]، ولأنها تتحدث عن النبي ﷺ في بدء الوحي ولأنها بدئت بأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يترك التزمُّل: وهو التغطي في الليل، وينهض إلى تبليغ رسالة ربه عزَّ وجلَّ.

ب- فضائل السورة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الليل كله ناشئة، إشارة إلى قوله تعالى:﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ ﴾، فقد ذكر في تفسيرها أنها قيام الليل، وقيل: كل صلاة بعد العشاء فهي ناشئة الليل، وقيل غير ذلك[2].

قال القرطبي: بيَّن تعالى في هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار، وأن الاستكثار من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن، أعظم للأجر، وأجلب للثواب[3].

ج- مرحلة النزول:

مكية كلها، سوى آيتين؛ قوله تعالى:﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ والآية الأخيرة منها، فهما مدنيتان، فيما روي أنها نزلت في المدنية، وأن بين أولها وآخرها سنة. وذهب بعضهم إلى ثمانية أشهر، وآخرون إلى ستة عشر شهراً.

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٦.

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن الضريس. انظر: الدر المنثور، السيوطي: ٦/ ٢٧٨، وفضائل القرآن، ابن الضريس: ص: ١٥٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٤٠.

كما اختلف في عدِّ هذه السورة في ترتيب النزول، والأصح أنها نزلت بعد سورة (المدثر)[1].

د ـ أسباب نزولها:

١ـ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ أخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن جابر ﷺ قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالت: سمُّوا هذا الرجل اسماً يصدر عنه الناس، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، قالوا: يفرق بين الحبيب وحبيبه، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فتزمَّل في ثيابه وتدثَّر فيها، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ قال: نزلت وهو في قطيفة.

٢ـ قوله تعالى: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ﴾ أخرج الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ﴾ قاموا سنة حتى ورمت أقدامهم، فأنزلت: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾، وأخرج ابن جرير مثله عن ابن عباس وغيره[2].

هـ ـ عدد آيات سورة (المزمل):

ثماني عشرة آية في عدِّ المدني الأخير، وتسع عشرة آية في عدِّ البصري، وعشرون آية في عدِّ الباقي. واختلافها في أربع آيات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ عدَّها الكوفي والمدني الأول والشامي دون الباقين، و﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ ﴾ عدَّها المكي فقط، و﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ لم يعدَّها المكي بخلاف

---

(١) فتح القدير، الشوكاني: ٥/ ٤١٧، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٥٤، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٣١، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٦، وتفسير الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي: ١٢/ ٧٧٨٣.

(٢) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٨٩، والتفسير المنير: ٢٩/ ١٩٠.

عنه، وعدَّها الباقون، وهو الصحيح عن المكي، و﴿ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ لم يعدَّها المدني الأخير وعدَّها الباقون.

المنسوخ منها تسعة مواضع: قوله تعالى:﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ ﴾، و﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩ ﴾ والناسخ لها آية السيف. وقوله تعالى:﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ ﴾ والناسخ لها: ﴿ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾

وقوله تعالى:﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾والآيات الثلاث بعدها نسخها قوله تعالى:﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ﴾ الآية[1].

و- محور سورة (المزمل):

يدور محور هذه السورة الكريمة حول شخصية الرسول ﷺ، إشارة إلى إحدى أحوال المصطفى ﷺ، فجاء خطاب الانبساط مع سيد المرسلين، والإشعار بملاطفة الله تعالى رسوله ﷺ بندائه بوصفه بصفة تزمُّله، والأمر بقيام الليل، وبيان حجة التوحيد، والأمر بالصبر على جفاء الكفار، وتهديد الكافر بعذاب النار، وتشبيه رسالة المصطفى برسالة موسى، والتخويف بتهويل القيامة، والتسهيل والمسامحة في قيام الليل، والحث على الصدقة والإحسان، والأمر بالاستغفار من الذنوب والعصيان في قوله تعالى:﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾[2].

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي: ١/ ٣١١، والبيان في عدِّ آيات القرآن، الداني: ص: ٢٥٧، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٦، والزيادة والإحسان في علوم القرآن، ابن عقيلة المكي: ٥/ ٤١١.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٦، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٥٤، وقبس من نور القرآن الكريم، الصابوني: ٨/ ١٢٩.

ز- المناسبات في سورة (المزمل):

١- المناسبة بين سورة (المزمل) ومحورها:

تُعنى سورة (المزمل) بأمور العقيدة والتوجيه والأخلاق، كسائر السور المكية، وهي هنا تتناول جانباً من حياة الرسول ﷺ في تبتُّله وطاعته، وقيامه الليل يصلي ويتلو كتاب الله عزَّ وجلَّ، ومحور السورة يدور حول الرسول ﷺ، ولهذا سُمِّيت سورة (المزمل).

فقد ابتدأت بنداء الرسول ﷺ نداءً فيه شفافية ولطف، يدل على لطف الله بعبده محمد ﷺ الذي أجهد نفسه في الطاعة والعبادة ابتغاء مرضاة الله جلَّ وعلا.

ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة.

وأمرته ﷺ بالصبر على أذى المشركين، وهجرهم هجراً طويلاً، فالله سبحانه كفيل بالانتقام منهم بإهلاكهم وإبادتهم.

وختمت السورة بتخفيف الله تعالى عن رسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين من قيام الليل رحمة به وبهم، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض ضروراتهم المعيشية، فإن منهم المريض ومنهم المجاهد في سبيل الله، ومنهم الذين يضربون في الأرض طلباً للرزق والقوت، لهم ولذراريهم[1].

٢- المناسبة في افتتاحية سورة (المزمل):

شطر السورة الأول يمضي على إيقاع موسيقي واحد، ويكاد يكون على رويٍّ واحد، هو اللام المطلقة الممدودة، وهو إيقاع رخي وقور جليل، يتمشى مع جلال التكليف، وجدية الأمر، ومع الأهوال المتتابعة التي يعرضها السياق، هول القول الثقيل الذي أسلفنا، وهول

---

(١) صفوة التفاسير، الصابوني: ٣/ ٤٦٣، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: ٣/ ١٣١.

التهديد المروِّع[1].

وفي خطابه ﷺ بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سمَّوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها؛ كقول النبي ﷺ لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنها، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب، فقال له: (قم أبا تراب)، إشعاراً له بأنه عاتب عليه وملاطف له.

وكذلك قوله ﷺ لحذيفة: (قم يا نومان)، وكان نائماً، ملاطفاً له وإشعاراً بترك العتب فقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ فيه تأنيس له وملاطفة ليستشعر أنه غير عاتب عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله أن ينتبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل، واتصف بتلك الصفة[2].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المزمل) وخاتمتها:

تأتي سورة المزمل تفصل في موضوع العبادة كطريق للتقوى، وتذكر أنواعاً من العبادات ينبغي أن تؤدَّى. فقد رسمت هذه السورة طريق السير إلى الله، وبينت الطريق إلى التقوى في حدِّه الأدنى وحدِّه الأعلى؛

فحدُّه الأدنى صلاة مفروضة، وزكاة، واستغفار، وقيام ما تيسر من الليل.

وحدُّه الأعلى: صلاة، وإنفاق، واستغفار، وقيام من الليل، وترتيل قرآن، وذكر، وانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ، وصبر على أقوال الكافرين، وهجر لهم، وانتظار فعل الله فيهم إذا لم يكن جهاد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٤٣.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان: ١٠/ ١٠٨.

مأمور به، وصلة ذلك بقضية العبادة والتقوى التي هي محور السورة واضحة المعالم[1].

٤. المناسبة بين افتتاحية سورة (المزمل) وخاتمة ما قبلها:

يظهر تعلق السورة بما قبلها من وجهين:

الأول: ختم سبحانه سورة (الجن) بذكر الرسل عليهم السلام، وافتتح هذه بما يتعلق بأمر خاتمهم ﷺ بالتبليغ والإنذار، وهجر الراحة في الليالي.

الثاني: لا يخفى اتصال أولها في آخر سابقتها سورة الجن، فقد أخبر سبحانه في السورة السابقة عن ردود فعل دعوة النبي ﷺ بين قومه والجن في قوله:﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾، وقوله:﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾، ثم أمره الله تعالى في مطلع هذه السورة بالدعوة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ﴾[2].

٥. المناسبة بين مقاطع سورة (المزمل) ومحورها:

تتألف سورة (المزمل) من فقرتين: فقرة طالبت بالحد الأعلى من السير إلى الله عزَّ وجلَّ والقيام بحقوق عبوديته، وفقرة طالبت بالحد الأدنى الذي لا يسع أحداً أن ينقص منه، والملاحظ أن الحد الأعلى خوطب به رسول الله ﷺ، وأن الحد الأدنى كان ترخيصاً لرسول الله ﷺ والمسلمين. وفي توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ وحده في الفقرة الأولى إشارة إلى أن من يقوم بشأن الدعوة إلى الله عزَّ وجلَّ يُطالب بما لا يُطالب به غيره، ويتأكد الطلب في حقه أكثر منه في حق غيره[3].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٠٠، ٦٢١١.

(٢) تفسير روح المعاني، الألوسي: ٢٩/ ١٠٠، ونظم الدرر، البقاعي: ٢١/ ٣، وتفسير المراغي: ٢٩/ ١٠٩، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ١٨٧.

(٣) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٠٠.

٦ـ المناسبة بين مقاطع سورة (المزمل) بعضها مع بعض:

السورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة؛ تبدأ بالنداء العلوي الكريم بالتكليف العظيم، وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل، والصلاة، وترتيل القرآن، والذكر الخاشع المتبتل، والاتكال على الله وحده، والصبر على الأذى، والهجر الجميل للمكذبين والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة!..

وتنتهي بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير، والتوجيه للطاعات والقربات، والتلويح برحمة الله ومغفرته: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾..

وهي تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذي بذله ذلك الرهط المختار من البشرية ـ البشرية الضالة ـ ليردها إلى ربها، ويصبر على أذاها، ويجاهد في ضمائرها؛ وهو متجرد من كل ما في الحياة من عرض يغري، ولذاذة تُلهي، وراحة ينعم بها الخليون. ونوم يلتذُّه الفارغون![1].

٧ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المزمل) وافتتاحية سابقتها:

مما يلاحظ أن سورة (الجن) كان الخطاب فيها متوجهاً لرسول الله ﷺ بكلمة: ﴿ قُلْ ﴾ كذلك يتوجه الخطاب في هذه السورة لرسول الله ﷺ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾، لبيان توافقهما في الخطاب، واتصالهما بتفصيل كل منهما ما يقابلها من محورها[2].

٨ـ المناسبة بين سورة (المزمل) وما بعدها:

ينبغي أن يضع القائمون بأمر الدعوة إلى الله هذه السورة نصب أعينهم، فيلتزموا بما ندبت إليه من معانٍ، ويرفعوا الأمة إلى الكمالات التي تحدثت عنها، فذلك هو الطريق، لقد وضحت هذه السورة الطريق إلى التقوى، ولذلك فإن علينا أن نأخذ حظنا منها، بإلزام أنفسنا

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٤٣.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦١٩٥، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان: ١٠/ ٥٢٧.

وتعويدها على القيام بكل ما فيها، وتربية أنفس المسلمين على ذلك من خلال التذكرة والقدوة والبيئة والاحتيال لذلك؛ بتعويد الأنفس شيئاً فشيئاً، فالصلاة، والزكاة، والاستغفار، وشيء من القرآن، وشيء من الذكر، وشيء من قيام الليل، وشيء من الانقطاع إلى الله عز وجل، ثم وثم حتى تصبح معاني السورة خُلقاً للمسلم، ومتى أصبحت خُلقاً له فقد أصبح على الطريق الواضح الموصل إلى الجنة، إذا اجتمع له مع ذلك علم، وتأتي سورة (المدثر) لتكمل تبيان الطريق بذكر المواقف من الكفر والكافرين[1].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

المقطع الأول: (إرشاد النبي ﷺ في بدء الدعوة) الآيات: (١-١٠)

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ ﴾

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

الابتداء بهذا النداء فيه إيناس وملاطفة، وتكليف وتشريف، بمهمة ثقيلة شاقة كلف بها المصطفى ﷺ، ليكون مؤهلاً للقيام بحمل الأمانة الكبرى في هداية البشرية، وانتشالها من براثن الجاهلية، بعد أن بقيت ردحاً من الزمن في ظلمات الغي والضلال، فيبدأ بالإعداد الروحي بهجر المنام، والتشمير عن ساعد الجد، بقيام الليل، والذكر الخاشع، وترتيل القرآن، والاتكال على الرحمن[2].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢١٩.

(٢) قبس من نور القرآن الكريم، الصابوني: ٨/ ١٣٢.

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ﴾.. إنها دعوة السماء، وصوت الكبير المتعال.. قم.. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك. قم للجهد والنصب والكدِّ والتعب. قم فقد مضى وقت النوم والراحة.. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد..

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه ﷺ من دفء الفراش، في البيت الهادئ والحضن الدافئ. لتدفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشدِّ والجذب في ضمائر الناس، وفي واقع الحياة سواء.

إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً. فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير.. فماله والنوم؟ وماله والراحة؟ وماله والفراش الدافئ؟ والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح؟! ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدّره، فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام: « مضى عهد النوم يا خديجة»! أجل مضى عهد النوم، وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾.. إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة.. قيام الليل. أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه. وأقله ثلث الليل.. قيامه للصلاة وترتيل القرآن. وهو مد الصوت به وتجويده. بلا تغنٍ ولا تطرٍ ولا تخلُّعٍ في التنغيم.

وقد صح عن وتر رسول الله ﷺ بالليل أنه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة. ولكنه كان يقضي في هذه الركعات ثلثي الليل إلا قليلاً، يرتل فيه القرآن ترتيلاً.

« روى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا يحيى بن سعيد ـ هو ابن أبي عروبة ـ عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن سعيد بن هشام.. أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: إئت عائشة فسلها، ثم ارجع إليَّ فأخبرني بردِّها عليك.. ثم يقول سعيد بن هشام: قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت:

ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن. فهممت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ قالت: ألست تقرأ هذه السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ ﴾؟ قلت: بلى. قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة؛ فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم. وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهراً. ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة.. فهممت أن أقوم، ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ فقلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ قالت: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله كما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوّك ثم يتوضأ، ثم يصلي ثماني ركعات لا يجلس فيهن، إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو، ثم ينهض وما يسلم، ثم يقوم ليصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله وحده، ثم يدعوه، ثم يسلم تسليماً يسمعنا. ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك تسع يا بنيَّ. وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحبَّ أن يداوم عليها. وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من نهار اثنتي عشرة ركعة. ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان..»[(١)].

وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذي سينزله الله عليه..

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾.. هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف.. والقرآن في مبناه ليس ثقيلاً فهو ميسر للذكر. ولكنه ثقيل في ميزان الحق، ثقيل في أثره في القلب: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه.. وإن تلقي هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه، لثقيل يحتاج إلى استعداد طويل. وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة، لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل. وإن الاتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد: رقم الحديث: ٢٤٢٦٩.

النحو الذي تهيأ لرسول الله ﷺ لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل. وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب، ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات، لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل. وإن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة؛ واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي.. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول، وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ ﴾ ﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ هي ما ينشأ منه بعد العشاء؛ والآية تقول: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا ﴾[1]: أي أجهد للبدن، ﴿ وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾: أي أثبت في الخير (كما قال مجاهد) فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد كدِّ نهار، أشد وطأً وأجهد للبدن؛ ولكنها إعلان لسيطرة الروح، واستجابة لدعوة الله، وإيثار للأنس به، ومن ثم فإنها أقوم قيلاً، لأن للذكر فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها. وإنها لتسكب في القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره.. والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيؤاً، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه.

والله سبحانه وهو يعدُّ عبده ورسوله محمداً ﷺ ليتلقى القول الثقيل، وينهض بالعبء الجسيم، اختار له قيام الليل، لأن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً. ولأن له في النهار

---

(١) قرأ أبو عمرو وابن عامر: (وِطَاءً) أي أشد ملاءمة وموافقة، وقرأ الجمهور: (وَطْئًا) أي: أثقل على المصلي من ساعات النهار. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٥٨، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٣٤٤، والحجة في القراءات، لابن زنجلة: ص: ٧٣٠.

مشاغله ونشاطه الذي يستغرق كثيراً من الطاقة والالتفات:

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾. فلينقض النهار في هذا السبح والنشاط، وليخلص لربه في الليل، يقوم له بالصلاة والذكر:

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨ ﴾.. وذكر اسم الله، ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان، على عِدَّة المسبحة المئوية أو الألفية! إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر؛ أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها. والتبتل هو الانقطاع الكلي عما عدا الله، والاتجاه الكلي إليه بالعبادة والذكر، والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر، والحضور مع الله بكامل الحس والمشاعر.

ولما ذكر التبتل وهو الانقطاع عما عدا الله، ذكر بعده ما يفيد أنه ليس هناك إلا الله، يتجه إليه من يريد الاتجاه.

﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا ۝٩ ﴾[1]. فهو ربُّ كل متجه.. ربُّ المشرق والمغرب.. وهو الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو. فالانقطاع إليه هو الانقطاع للحقيقة الوحيدة في هذا الوجود؛ والتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة في هذا الوجود. والاتكال على الله وحده هو الثمرة المباشرة للاعتقاد بوحدانيته، وهيمنته على المشرق والمغرب، أي على الكون كله.. والرسول الذي ينادَى: قم.. لينهض بعبئه الثقيل، في حاجة ابتداءٍ للتبتُّل لله والاعتماد عليه دون سواه. فمن هنا يستمد القوة والزاد للعبء الثقيل في الطريق الطويل.

ثم وجه الله الرسول إلى الصبر الجميل على ما يلقاه من قومه من الاتهام والإعراض والصد والتعطيل. وأن يخلي بينه وبين المكذبين! ويمهلهم قليلاً. فإن لدى الله لهم عذاباً وتنكيلاً:

---

(١) قرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر وحمزة والكسائي: (ربِّ) بكسر الباء، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم بضمها. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٥٨، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٦٦٩.

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾.. وإذا صحت الرواية الأولى عن نزول مطلع هذه السورة في بدء البعثة، فإن هذا الشوط الثاني منها يكون قد نزل متأخراً بعد الجهر بالدعوة، وظهور المكذبين والمتطاولين، وشدتهم على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين. فأما إذا صحت الرواية الثانية فإن شطر السورة الأول كله يكون قد نزل بمناسبة ما نال النبي ﷺ من أذى المشركين وصدهم عن الدعوة.

وعلى أية حال فإننا نجد التوجيه إلى الصبر، بعد التوجيه إلى القيام والذكر، وهما كثيراً ما يقترنان في صدد تزويد القلب بزاد هذه الدعوة في طريقها الشاق الطويل، سواء طريقها في مسارب الضمير، أو طريقها في جهاد المناوئين، وكلاهما شاق عسير.. نجد التوجيه إلى الصبر. ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.. مما يغيظ ويحنق، ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾.. لا عتاب معه ولا غضب، ولا هُجر فيه ولا مشادة. وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة، وبخاصة في أوائلها.. كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر، ومجرد بلاغ هادئ ومجرد بيان منير.

والهجر الجميل مع التطاول والتكذيب، يحتاج إلى الصبر بعد الذكر. والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله، مرة ومرة ومرة؛ ولعباده المؤمنين برسله. وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده، والصبر جُنّته وسلاحه، والصبر ملجؤه وملاذه. فهي جهاد.. جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها.. وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم وكيدهم وأذاهم. ومع النفوس عامة وهي تتفصى من تكاليف هذه الدعوة، وتتفلت، وتتخفى في أزياء كثيرة، وهي تخالف عنها ولا تستقيم عليها. والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله، والذكر وهو قرين الصبر في كل موضع تقريباً!

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾.. وخلِّ بيني وبين المكذبين، فأنا بهم كفيل[(١)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٤٤.

دروس وعبر من المقطع الأول:

١ـ **فرضية التهجد**: يدل ظاهر توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ خاصة، وأمره بقيام الليل ووصفه بالتزمُّل أن التهجد كان فريضة عليه، وأن فريضته كانت خاصة به، وهذا رأي أكثر العلماء؛ لأن الندب والحضّ لا يقع على بعض الليل دون بعض؛ لأن قيامه ليس مخصوصاً به وقتاً دون وقت. وقيل: كان التهجد فرضاً على النبي ﷺ وعلى أمته، ثم نسخ بالصلوات الخمس ليلة المعراج، وقيل: إن التهجد كان نافلة لا مفروضاً.

والراجح أنه نُسخ عن الأمة وحدها، وبقي وجوبه على النبي ﷺ، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وربما كان العمل بحديث سعد بن هشام[١] صحيحاً: وهو نسخ الوجوب مطلقاً وصيرورة التهجد تطوعاً، تخفيفاً وتيسيراً، والناسخ هو الصلوات الخمس، وأما آخر سورة (المزمل) الذي نزل بعد أولها بنحو عام فقد نسخ المقدار الذي بيَّن في أولها، دون نسخ أصل وجوب التهجد، والمقدار الذي في أول السورة هو: نصف الليل، أو أنقصُ منه قليلاً إلى الثلث أو الزيادة عليه إلى الثلثين[٢].

٢ـ **وجوب ترتيل القرآن**: والغرض من ترتيل القراءة التدبر والتأمل، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢]، إذ هو السبيل إلى الخشية وخشوع القلب، ولا يمنع ذلك

---

(١) حديث طويل أخرجه مسلم وفيه: (قال سعد بن هشام: قلت لعائشة: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ فقالت: ألست تقرأ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ قلت: بلى، قالت: فإن الله عزَّ وجلَّ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة). صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، رقم الحديث: ١٢٣٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٣٤، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٥٨، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٥٥، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ١٩٥.

من تحسين الصوت بالقراءة، لقوله ﷺ: (الماهر بالقرآن مع الكرام البررة، وزيِّنوا القرآن بأصواتكم)[١]. مع التقيد بأحكام الأداء والتلاوة دون تمطيط وتزيُّد.

قال ابن مسعود: لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هَمَّ أحدكم آخر السورة[٢].

٣ـ ثقل القرآن والوحي: للمفسرين أقوال في تسميته بالثقيل:

رجح ابن العربي الثقل الحقيقي لما كان يحلُّ في رسول الله ﷺ من ثقل الجسم، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام ﷺ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدُّه عليَّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً)[٣].

ومنها أن الثقل مجازي، لاشتماله على معان وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر بكمال هديه ووفرة معانيه، وقيل: هو ثقيل على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده، وقيل: ثقيل شديد بما اشتمل من تكاليف شاقة على النفس، وفرائض وحدود صعبة على الإنسان[٤].

٤ـ التبتُّل: هو مطلق الانقطاع، وقد يكون مأموراً به كالانقطاع إلى الله تعالى بإخلاص العبادة إليه، وهو المأمور به هنا في القرآن، ومنه تبتُّل مريم البتول.

وقد يكون منهياً عنه كما في الانقطاع عن أعمال النهار، والعكوف على الذكر والعبادة

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: الماهر بالقرآن، أورده معلقاً.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي: ٨/ ٦١٠.

(٣) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث: ٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٣٩، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٦١، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٥٧، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ١٩٩.

وهو المنهي عنه في السنَّة، ومنه سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع والإعراض عن شؤون الحياة(١).

٥ـ **الصبر والهجر الجميل:** من مقومات الدعوة وأسباب نصرتها الصبر على الأذى والسب والاستهزاء.

قال قتادة وغيره: كان هذا قبل الأمر بالقتال، ثم أُمِر بعدُ بقتالهم، فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك، وهذا من منهج الدعوة الدائم، وسياستها الثابتة التي يحتاج إليها الدعاة في كل عصر.

وقال بعض العلماء: الهجر منسوخ، وأما الصبر على ما يقولون فقد يتوجه أحياناً، ويبقى حكمه فيما يتوجه من الهجر الجميل.

قال أبو الدرداء: إنا لنَكْشِر في وجوه أقوام ونضحك إليهم، وإن قلوبنا لتقليهم، أو لتلعنهم.

قال الإمام الرازي: إن الله جمع ما يحتاج إليه الإنسان في مخالطة الناس في هاتين الكلمتين، لأن المرء إما أن يكون مخالطاً فلا بدَّ له من الصبر على إيذائهم وإيحاشهم، لأنه إن أطمع نفسه بالراحة معهم لم يجدها مستمرة، فيقع في الغموم، وإن لم يَرِضْ نفسه بالصبر على أذاهم، وإن ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميل(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٤٤، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٦٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٤٥، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٦١، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٦٨، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٠٠.

المقطع الثاني: (تهديد الكفار وتوعدهم) الآيات: (١١-١٩)

قال الله تعالى: ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾
وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ
رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾
فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ
هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن ذكر الله تعالى إرشاداته لنبيه ﷺ في دعوته، هدد المشركين وأوعدهم على الإعراض عن قبول تلك الدعوة، وخوَّفهم عذاب يوم القيامة وكيفية أهواله، وعذاب الدنيا ومخاطره ثم عاد إلى وصف عذاب الآخرة، وتخويفهم به لشدته التي بلغت حداً تشيب الولدان، وتشقق السموات منه(١).

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾.. كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين.. ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾.. والمكذبون بشر من البشر والذي يتهددهم هو الذي أنشأهم ابتداءً، وخلق هذا الكون العريض {بِكُن} ولا تزيد! ذرني والمكذبين.. فهي دعوتي. وما عليك إلا البلاغ. ودعهم يكذبون واهجرهم هجراً جميلاً. وسأتولى أنا حربهم، فاسترح أنت من التفكير في شأن المكذبين! إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار، إلى هذه الخلائق الهيِّنة المضعوفة.

﴿ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ ﴾ مهما يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من المخاليق!

﴿ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾ ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلاً. وإن هي إلا يوم أو

---

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٠٣.

بعض يوم في حساب الله. وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطوى، بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار! فهي قليل أياً كان الأمد، ولو مضوا من هذه الحياة ناجين من أخذ الجبار المنتقم الذي يمهل قليلاً، ويأخذ تنكيلاً:

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾.. والأنكال ـ هي القيود ـ والجحيم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلوق والعذاب الأليم.. كلها جزاء مناسب {لأولي النعمة}! الذين لم يرعوا النعمة، ولم يشكروا المنعم، فاصبر يا محمد عليهم صبراً جميلاً، وخلِّ بيني وبينهم. ودعهم فإن عندنا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم، وجحيماً تجحمهم وتصليهم، وطعاماً تلازمه الغصة في الحلق، وعذاباً أليماً في يوم مخيف.. ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف:

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾.. فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض في أكبر مجاليها. فترجف وتخاف وتتفتت وتنهار. فكيف بالناس المهازيل الضعاف! ويلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع، إلى المكذبين أولي النعمة، يذكرهم فرعون الجبار، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

هكذا في اختصار يهزُّ قلوبهم ويخلعها خلعاً، بعد مشهد الأرض والجبال وهي ترجف وتنهار. فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا؛ فكيف تنجون بأنفسكم وتقوها هذا الهول الرعيب؟

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾.. وإن صورة الهول هنا لتنشق لها السماء، ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال. وإنها لتشيب الولدان. وإنه لهول ترتسم صوره في الطبيعة الصامتة، وفي الإنسانية الحية.. في مشاهد ينقلها السياق القرآني إلى حس المخاطبين كأنها واقعة.. ثم يؤكدها تأكيداً..

﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾. واقعاً لا خلف فيه. وهو ما شاء فعل، وما أراد كان! وأمام هذا

الهول الذي يتمثل في الكون كما يتمثل في النفس يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة.. طريق الله..

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.. وإن السبيل إلى الله لآمن وأيسر، من السبيل المريب، إلى هذا الهول العصيب! وبينما تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين تنزل على قلب الرسول ﷺ والقلة المؤمنة المستضعفة إذ ذاك بالروح والثقة واليقين. إذ يحسون أن ربهم معهم، يقتل أعداءهم وينكل بهم. وإن هي إلا مهلة قصيرة، إلى أجل معلوم.

ثم يقضى الأمر، حينما يجيء الأجل ويأخذ الله أعداءه وأعداءهم بالنكال والجحيم والعذاب الأليم. إن الله لا يدع أولياءه لأعدائه، ولو أمهل أعداءه إلى حين...)[١].

دروس وعبر من المقطع الثاني:

١ـ تمثل تهديد المكذبين المستهزئين من كفار مكة بنوعين من العذاب؛ عذاب الدنيا، وقد حدث، فقد عوقبوا في بدر وغيرها، وعذاب الآخرة الموعودين به في نار جهنم بما فيها من صنوف الأنكال والقيود، والطعام غير المستساغ من الغسلين والزقوم والضريع، والعذاب الأليم، وجاءت هذه الأجناس منكّرة لقصد تعظيمها وتهويلها[٢].

٢ـ الاستدلال بحجية القياس أخذاً من قوله تعالى:﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ فقد استقر عند العقلاء وعند المشركين في مكة وغيرهم أن الشيئين اللذين يشتركان في مناط الحكم ظناً، يجب اشتراكهما في الحكم، وإلا لما أورد هذا الكلام في هذه الصورة، وذلك لأن احتمال الفرق المرجوح قائم ههنا[٣].

٣ـ وصفُ اليوم الآخر بأنه يجعل الغلمان شيباً ضربُ مثل لشدة ذلك اليوم وهو مجاز

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٤٧.
(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٧١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي: ١٥/ ٨١٢، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٠٦.

باعتبار ما يقع فيه من الأهوال والأحزان، وهو تجوُّز وإبلاغ في وصف هوله، لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولْدان، والأصل فيه: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب كما يجوز أن يوصف اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب.

وقال قوم: هذه حقيقة، فتشيب رؤوسهم من شدة الهول، كما يُرى الشيب في الدنيا من الهمِّ المفرط كهول البحر(١).

٤ـ انشقاق السماء وانفطارها وصف آخر لشدة ذلك اليوم واختصاصها بالذكر عن غيرها من الخلائق لما تتميز به من العظمة والقوة والإبداع.

٥ـ التأكيد على تحقيق وعد الله في وقوع اليوم الآخر بعد الإنذار به، وأنه يوم حق وصدق آت لا محالة، بما وعد الرحمن فيه من مشاهد ومواقف وأحداث.

المقطع الثالث: (تذكير وإرشاد بأنواع الهداية) الآية: (٢٠)

قال الله تعالى:﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان أحوال المؤمنين السعداء وترغيبهم، وأحوال الأشقياء وتهديدهم بأنواع العذاب في الآخرة، ختمت السورة بتذكيرات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد، فمن أراد الاشتغال

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٥٠، والكشاف، الزمخشري: ٤/ ٦٤٢، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٧٥، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٦٤.

بالطاعة والاحتراز عن المعصية، فليفعل، ثم خفف عن المؤمنين مقدار قيام الليل لما يطرأ لهم من أعذار المرض، أو السفر للتجارة ونحوها، أو الجهاد في سبيل الله تعالى[(١)].

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (والآن يجيء شطر السورة الثاني في آية واحدة طويلة:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾..الآية.

إنها لمسة التخفيف الندية، تمسح على التعب والنصب والمشقة. ودعوة التيسير الإلهي على النبي والمؤمنين. وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم له. وقد انتفخت أقدامهم من القيام الطويل للصلاة بقدر من القرآن كبير. وما كان الله يريد لنبيه أن يشقى بهذا القرآن وبالقيام. إنما كان يريد أن يُعدَّه للأمر العظيم الذي سيواجهه طوال ما بقي له من الحياة. هو والمجموعة القليلة من المؤمنين الذين قاموا معه.

وفي الحديث مودة وتطمين: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾[(٢)].. إنه رآك! إن قيامك وصلاتك أنت وطائفة من الذين معك قبلت في ميزان الله..

إن ربك يعلم أنك وهم تجافَتْ جنوبكم عن المضاجع؛ وتركت دفء الفراش في الليلة القارسة، ولم تسمع نداء المضاجع المغري، وسمعت نداء الله.. إن ربك يعطف عليك، ويريد

---

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٠٨.

(٢) قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر: (ثلْثي)، و(ثلُثه) بضم اللام، وروى الحلواني عن ابن عامر: (ثلْثي) بسكون اللام، و(ثلُثه) بضم اللام، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: (ونصفِه وثلثِه) بالكسر حملوه على الجار، أي تقوم أدنى من نصفه ومن ثلثه، وقرأ الجمهور: بالنصب بوقوع الفعل، أي يقوم نصفه وثلثه. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٥٨، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٣٤٥، والحجة في القراءات لابن زنجلة: ص: ٧٣٢، وجامع البيان، الداني: ص: ١٦٦٩.

أن يخفف عنك وعن أصحابك..

﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ﴾.. فيطيل من هذا ويقصر من ذاك. فيطول الليل ويقصر. وأنت ومن معك ماضون تقومون أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه. وهو يعلم ضعفكم عن الموالاة. وهو لا يريد أن يعنتكم ولا أن يشق عليكم. إنها يريد لكم الزاد، وقد تزودتم فخففوا على أنفسكم، وخذوا الأمر هيناً:

﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾.. في قيام الليل بلا مشقة ولا عنت.. وهناك ـ في علم الله ـ أمور تنتظركم تستنفد الجهد والطاقة، ويشق معها القيام الطويل:

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ ﴾يصعب عليهم هذا القيام﴿ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾.. في طلب الرزق والكد فيه، وهو ضرورة من ضرورات الحياة. والله لا يريد أن تدَعوا أمور حياتكم، وتنقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان!

﴿ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.. فقد علم الله أن سيأذن لكم في الانتصار من ظلمكم بالقتال، ولإقامة راية للإسلام في الأرض يخشاها البغاة! فخففوا إذن على أنفسكم.

﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ ﴾ بلا عسر ولا مشقة ولا إجهاد.. واستقيموا على فرائض الدين.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.. وتصدقوا بعد ذلك قرضاً لله يبقى لكم خيره.

﴿ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ ﴾.. واتجهوا إلى الله مستغفرين عن تقصيركم. فالإنسان يقصر ويخطئ مهما جدَّ وتحرَّى الصواب:

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾. إنها لمسة الرحمة والود والتيسير والطمأنينة تجيء بعد عام من الدعوة إلى القيام! ولقد خفف الله عن المسلمين، فجعل قيام الليل لهم تطوعاً لا فريضة. أما رسول الله ﷺ فقد مضى على نهجه مع ربه، لا يقل قيامه عن ثلث الليل، يناجي ربه، في خلوة من الليل وهدأة، ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد. على أن قلبه ما كان ينام وإن نامت عيناه، فقد كان قلبه ﷺ دائماً مشغولاً بذكر الله، متبتلاً لمولاه.

وقد فرغ قلبه من كل شيء إلا من ربه. على ثقل ما يحمل على عاتقه، وعلى مشقة ما يعاني من الأعباء الثقال..[1].

دروس وعبر من المقطع الثالث:

١ـ من حكمة التشريع مراعاة أحوال المكلفين، وفي الآيات تخفيف لحكم القيام مما كان من أمر وجوبه، وتبيان علة التخفيف مما يطرأ على الجماعة من أعذار: كاختلال الصحة، أو الأشغال التي تدعو إليها ضرورة العيش كالمسافر في التجارات وغيره، أو المجاهد في سبيل الله. فخفف الله عن الكل لأجل هؤلاء[2].

٢ـ التسوية بين درجة المجاهدين والمكتسبين للمال الحلال لإنفاقه على النفس والعيال. وفي ذلك دليل على أن كسب المال بمنزلة الجهاد، لجمعه بينهما. قال ابن عمر رضي الله عنهما: ما خلق الله موتة بعد الموت في سبيل الله أحبُّ إليَّ من أن أموت بين شُعبتَي رَحْلي أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض[3].

٣ـ إقراض الله هو استلاف العمل الصالح عنده، وهو الحث على صدقات التطوع غير الواجبة، وكل ما قصد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطيب. وقيل: هو النفقة على الأهل وقيل: هو النفقة في سبيل الله، ووصف القرض بالحسن يفيد الصدقة المراد بها وجه الله تعالى والمسالمة من المن والأذى[4].

٤ـ القراءة في الصلاة من المسائل الخلافية عند الفقهاء في تحديد القدر اللازم منها؛ فذهب

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٤٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٥٥، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٨٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٥٦، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٨٦، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٦٩، والفتوحات الإلهية: ٤/ ٤٣٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٥٨، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٨٧، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ١٦٩.

الشافعية والمالكية إلى فرضية فاتحة الكتاب لا يجوز العدول عنها ولا الاقتصار على بعضها لحديث عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)[1].

وذهب الحنفية إلى فرضية مطلق القراءة، وقدروها بآية طويلة، أو ثلاث آيات قصار وأوجبوا الفاتحة، لعموم الآية، وأوَّلوا الحديث الآحاد بعدم كمال الصلاة، أي: لا صلاة كاملة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، فقالوا بوجوب الفاتحة[2].

٥ـ طلب الله تعالى من عباده مداومة الاستغفار مما عسى أن يقع في الأعمال من الخلل أو التقصير، ووعد سبحانه بالرحمة والمغفرة لمن يلجأ إلى جنابه الكريم، إذ أخبر بأنه عظيم المغفرة واسع الرحمة، وهذا تحريض على الاستغفار في جميع الأحوال، وإن كانت طاعات، لما عسى أن يقع فيها من تفريط[3].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، رقم الحديث: ٧١٤، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم الحديث: ٥٩٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٥٧، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢١٣.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢١٣.

سورة المدثر

أولاً: بين يدي السورة:

أ- أسماؤها:

اسمها التوقيفي: سورة (المدثر)، وجاءت تسميتها في كلام ابن عباس وابن الزبير، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (نزلت سورة المدثر بمكة) وعن ابن الزبير مثله[1]. وبذلك سميت في المصاحف وكتب التفسير والسنة. وسميت بالمدثر لافتتاحها بهذا الوصف الذي وصف به النبي ﷺ. وأصل المدثر: المتدثر، وهو الذي يتدثر بثيابه لينام أو ليستدفئ. والدثار: اسم لما يتدثر به.

ب- فضائل السورة:

حدثنا يحيى حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾، قلت: يقولون: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: (جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت: دثِّروني، وصُبُّوا عليَّ ماءً بارداً، قال: فدثَّروني، وصَبُّوا عليَّ ماءً بارداً، قال: فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾[2].

---

(١) أورده السيوطي في الدر، وعزاه لابن الضريس وابن مردويه والنحاس والبيهقي. الدر المنثور، السيوطي: ٦/ ٢٨٠.

(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قال ابن عباس: عسير شديد، رقم الحديث: ٤٥٤١.

ج- مرحلة النزول:

مكية، وفي نزولها روايات منها: أنها أول ما نزل من القرآن بعد سورة (العلق)، ورواية أخرى بأنها أول السور نزولاً، كما مرَّ آنفاً، وأخرى أنها نزلت بعد سورة (المزمل)، وأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي ﷺ، ويمكن التوفيق بين هذه الروايات بأن صدر سورة (المدثر) أول ما نزل بعد سورة (العلق)، وهو من أول السورة إلى الآية [٧]، وأن الآيات التالية نزلت بعد الجهر بالدعوة، وكانت تعني شخصاً معيناً هو الوليد بن المغيرة[١].

د- أسباب النزول:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زمِّلوني، زمِّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ فحمي الوحي وتتابع)[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ ﴾: أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عمّ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله، قال: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنت كاره له. فقال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا رجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه لمنير أعلاه مشرق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنه ليحطِّم ما تحته. قال: لا يرضى

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٢٩٢، وتفسير سورة الحشر والمدثر، شحاته. ص: ٦١.

(٢) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث: ٣، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، رقم الحديث: ٢٣٢.

عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فلما فكر قال: هذا سحر سؤثر، يأثره عن غيره. فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

٣ـ قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾: أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن البراء: أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم، فجاء فأخبر النبي ﷺ فنزل عليه ساعة ئذ: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

٤ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾: عن ابن إسحق قال: قال أبو جهل يوماً: يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم، فأنزل الله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾.

وعن السدي قال: لما نزلت: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ قال رجل من قريش يُدعى أبا الأشد: يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة، فأنزل الله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾.

٥ـ قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾: أخرج ابن المنذر عن السدي قال: قالوا: لئن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار، فنزل قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

هـ ـ عدد آيات سورة (المدثر):

ست وخمسون آية في عدِّ المدني الأول والكوفي والبصري، وخمس وخمسون آية في عدِّ المدني الأخير والمكي والشامي. واختلافها في آيتين: ﴿ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ عدَّها الجميع إلا المدني الأخير، و﴿ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ عدَّها الجميع إلا المكي والشامي.

والمنسوخ فيها ثلاثة مواضع: قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾نسختها آية

(١) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٩٠.

السيف.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾نسخها قوله تعالى:﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ نسخها قوله:﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(١).

و ـ محور سورة (المدثر):

سورة (المدثر) شأنها كسابقتها سورة (المزمل) إذ تتشابه في موضوعها، فقد تناولت بعض الجوانب الشخصية في حياة الرسول ﷺ، ولهذا سُمِّيت بالمدثر.

وقد جاء فيها أمْر النبي ﷺ بدعوة الخلق إلى الإيمان، وتقرير صعوبة القيامة على الكفار وأهل العصيان، وتهديد الوليد بن المغيرة بنقض القرآن، وبيان عدد زبانية النيران، وأن كل أحد رهْن بالإساءة والإحسان، وملامة الكفار على إعراضهم عن الإيمان، وذكر وعْد الكريم على التقوى بالرحمة والغفران، في قوله: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾(٢).

ز ـ المناسبات في سورة (المدثر):

١ ـ المناسبة بين سورة (المدثر) ومحورها:

ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول ﷺ بالنهوض بأعباء الدعوة، والقيام بمهمة التبليغ بجد ونشاط، وإنذار الكفار، والصبر على أذى الفجار حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه.

ثم توالت السورة في إنذار وتهديد أولئك المجرمين، بعذاب يوم عصيب، لا راحة لهم فيه، لما فيه من الشدائد والأهوال.

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي: ١/ ٣١٢، والبيان في عدِّ آي القرآن، الداني: ص: ٢٥٨، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٨، والزيادة والإحسان، ابن عقيلة المكي: ٥/ ٤١٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٨٨، وقبس من نور القرآن الكريم، الصابوني: ٩/ ١٤٥.

وبعد ذلك تحدثت عن قصة ذلك الشقي الفاجر (الوليد بن المغيرة) الذي سمع القرآن وأيقن أنه كلام الله، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرياسة، زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر.

كما تحدثت السورة عن النار التي أوعد الله بها الكفار، وعن خزنتها الأشداء، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها، وبيَّنت عددهم، وذكرت الحكمة من تخصيص هذا العدد.

وأقسمت السورة بالقمر وضيائه والصبح وبهائه على أن جهنم إحدى البلايا العظام.

ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يدور بين المؤمنين والمجرمين، في سبب دخول الكفار نار الجحيم.

وختمت السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان[1].

٢ـ المناسبة في افتتاحية سورة (المدثر):

بدأت السورة بالأمر بالإنذار وما يقتضيه الإنذار من أخلاق، وعلَّلت لذلك بمجيء يوم القيامة وشدته على الكافرين، مما يقتضي أن ينذر الناس جميعاً ليعرفوا ما أمامهم.. فسورة (المدثر) تأمر من أنزل عليه القرآن أن يقوم بواجب الإنذار، والقيام بواجب الإنذار يقتضي القيام بالتبشير، ولكن التبشير إنما يكون إذا وجد مؤمنون، وسورة (المدثر) نزلت ولمَّا يوجد مؤمنون بعد[2].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المدثر) وخاتمتها:

سارت السورة في سياقها الخاص على المسار التالي: بدأت السورة بأمر رسول الله ﷺ بالإنذار، وبيَّنت له أدب النذير، وسبب الإنذار، وهو مجيء يوم القيامة، ثم بيَّنت له أن نوعاً من

---

(١) صفوة التفاسير، الصابوني: ٣/ ٤٧١، ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي: ٣/ ١٣٥.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٣١.

الناس لا يقبل الإنذار فليدعه لله، وبيَّنت له ما أعده الله لهذا من عذاب، ثم استأنفت لتحدثنا عن موقف الكافرين والمؤمنين من المثل القرآني، ثم سارت السورة لتبيِّن أهمية أن يبعث الله نذيراً للبشر، ثم عجَّبت من موقف الكافرين من الإنذار، ثم بيَّنت العلة الرئيسة لهذا الموقف، ثم ختمت بالتذكير بهذا القرآن المنزل على النذير، وحضَّت على التذكر، وعلَّقت التذكر على مشيئة الله ليقبل العبد بقلبه على الله تائباً طالباً.

ويلاحظ أن السورة ختمت بقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾، وفي هذا المقام سرٌّ لطيف، فالسورة أنذرت من خلال التذكير باليوم الآخر حتى استغرق ذلك كثيراً من السورة، ثم ختمت بالتذكير بأن الله عزَّ وجلَّ حريٌّ أن يتَّقيه المتقون، لأنه أهل التقوى، حريٌّ أن يستغفره المستغفرون، لأنه أهل المغفرة، فأصل أصيل في التذكير أن يذكَّر بجلال الله وجماله وكماله في إنهاض الهمم إليه، والتذكير باليوم الآخر طريق لذلك[1].

٤- المناسبة بين افتتاحية سورة (المدثر) وخاتمة ما قبلها:

نلاحظ أن سورة (الحاقة) تحدثت عن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وتحدثت عن المكذبين باليوم الآخر، وأن سورة (المعارج) تحدثت عن الكافرين وموقف من مواقفهم وأن سورة (نوح) حدثتنا عن أمة رفضت الإنذار، وأن سورة (الجن) حدثتنا عن نفر قبلوا الإنذار، وان سورة (المزمل) حددت للنذير ما ينبغي فعله في علاقته مع الله، وفي مواقفه من نوع الكافرين، وتأتي سورة (المدثر) لتحدد للنذير أخلاقه التي تقتضيها عملية الإنذار، ومواقفه من أنواع من المكذبين، وعرض لحال أهل اليمين ولحال المجرمين في الآخرة، مما يذكرنا بسورة (الحاقة)، فسورة (المدثر) تكمل دور سورة (المزمل)، وهي ترتبط بمجموعتها كلها برباط وثيق، وهكذا نجد المجموعة تتكامل مع بعضها في معانيها، وتتكامل مع بعضها في تفصيلها لمحاورها من سورة (البقرة) لتفصِّل في الأساس والطريق[2].

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٤٢.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٢٨.

٥ـ المناسبة بين مقاطع سورة (المدثر) بعضها مع بعض:

هذه السورة قصيرة الآيات. سريعة الجريان. منوَّعة الفواصل والقوافي. يتئد إيقاعها أحياناً، ويجري لاهثاً أحياناً! وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر ويعبس ويبسر.. وتصوير مشهد سقر. لا تبقي ولا تذر. لواحة للبشر.. ومشهد فرارهم كأنهم حمر مستنفرة. فرَّت من قسورة!

وهذا التنوع في الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقاً خاصاً؛ ولا سيما عند ردٍّ بعض القوافي ورجعها بعد انتهائها كقافية الراء الساكنة: المدثر. أنذر. فكبر.. وعودتها بعد فترة: قدر. بسر. استكبر. سقر.. وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية في الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص. عند قوله:﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾..

ففي الآية الأولى كان يسأل ويستنكر. وفي الثانية والثالثة كان يصور ويسخر! وهكذا..)[1].

٦ـ المناسبة بين افتتاحية سورة (المدثر) وافتتاحية سابقتها:

يظهر تعلق السورة بما قبلها من ثلاثة وجوه:

الأول: توافق السورتين في الافتتاح بنداء النبي ﷺ.

الثاني: صدر كلتيهما نازل على المشهور في قصة واحدة.

الثالث: ابتدأت السورة السابقة بالأمر بقيام الليل (التهجد)، وهو إعداد لنفسه بعبادة خاصة ليكون داعية، وابتدأت هذه بالإنذار لغيره، وهو إفادة لسواه في دعوته.

وقد رأينا في مقدمة تفسير سورة (المزمل) أن سبب نزول سورتي (المزمل) و(المدثر) كان ما قابل به رسول الله ﷺ تآمر قريش، واتهاماتها من التزمل والتدثر، وأن هناك روايات أخرى

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٥٣.

ذكرت أن سبب النزول كان لفرق رسول الله ﷺ من رؤية جبريل مرة ثانية بعد المرة الأولى التي كان فيها بدء الوحي، وللجمع بين الروايتين يمكن أن يقال: إن رسول الله ﷺ قابل ظهور جبريل في المرة الثانية بفرق تدثر وتزمل معه، فنزلت عليه السورتان، وقابل تآمر قريش بنفس الوضع فذُكِّر بالسورتين[١].

ثانياً: التفسير الإجمالي:

المقطع الأول: (إرشادات للنبي ﷺ في بدء الدعوة) الآيات: (١-١٠)

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

بدأت السورة بالأمر بالإنذار، وما يقتضيه الإنذار من أخلاق، وعلَّلت لذلك بمجيء يوم القيامة، وشِدَّته على الكافرين، مما يقتضي أن ينذر الناس جميعاً ليعرفوا ما أمامهم. والقيام بواجب الإنذار يقتضي القيام بالتبشير، ولكن التبشير إنما يكون إذا وُجِد مؤمنون، وسورة (المدثر) نزلت ولما يوجد مؤمنون بعد[٢].

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (إنه النداء العلوي الجليل، للأمر العظيم الثقيل.. نذارة هذه البشرية وإيقاظها، وتخليصها من الشر في الدنيا، ومن النار في الآخرة؛ وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان.. وهو واجب ثقيل شاق، حين يناط بفرد من البشر - مهما

---

(١) روح المعاني، الألوسي: ٢٩/ ١١٥، ونظم الدرر، البقاعي: ٢١/ ٤٣، والأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٢٧، وتفسير المراغي: ٢٩/ ١٢٤، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢١٥.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٣١.

يكن نبياً رسولاً ـ فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصي من هذا الأمر، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾.. والإنذار هو أظهر ما في الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون. وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد، وهم لا ينقصون في ملكه شيئاً حين يضلون، ولا يزيدون في ملكه شيئاً حين يهتدون. غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة، ومن الشر الموبق في الدنيا.

وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله!

ثم يوجه الله رسوله في خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره:

يوجهه إلى تكبير ربه: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾.. ربك وحده.. فهو وحده الكبير، الذي يستحق التكبير. وهو توجيه يقرر جانباً من التصور الإيماني لمعنى الألوهية، ومعنى التوحيد.

إن كل أحد، وكل شيء، وكل قيمة، وكل حقيقة.. صغير.. والله وحده هو الكبير.. وتتوارى الأجرام والأحجام، والقوى والقيم، والأحداث والأحوال، والمعاني والأشكال وتنمحي في ظلال الجلال والكمال، لله الواحد الكبير المتعال.

وهو توجيه للرسول ﷺ ليواجه نذارة البشرية، ومتاعها وأهوالها وأثقالها، بهذا التصور وبهذا الشعور، فيستصغر كل كيد، وكل قوة، وكل عقبة، وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة، هو الكبير.. ومشاق الدعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور.

ويوجهه إلى التطهر: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾.. وطهارة الثياب كناية في الاستعمال العربي عن طهارة القلب والخلق والعمل.. طهارة الذات التي تحتويها الثياب، وكل ما يلم بها أو يمسها.. والطهارة هي الحالة المناسبة للتلقي من الملأ الأعلى. كما أنها ألصق شيء بطبيعة هذه

الرسالة. وهي بعد هذا وذلك ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ، ومزاولة الدعوة في وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب؛ وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس.. وهي لفتة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هذا الأمر بين شتى الأوساط، وشتى البيئات، وشتى الظروف، وشتى القلوب!

ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب:﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾[1].. والرسول ﷺ كان هاجراً للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة. فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف، وهذا الركام من المعتقدات الشائهة، وذلك الرجس من الأخلاق والعادات، فلم يعرف عنه أنه شارك في شيء من خوض الجاهلية. ولكن هذا التوجيه يعني المفاصلة وإعلان التميز الذي لا صلح فيه ولا هوادة. فهما طريقان مفترقان لا يلتقيان. كما يعني التحرز من دنس هذا الرجز - والرجز في الأصل هو العذاب، ثم أصبح يطلق على موجبات العذاب - تحرز التطهر من مس هذا الدنس!

ويوجهه إلى إنكار ذاته وعدم المن بما يقدمه من الجهد، أو استكثاره واستعظامه:﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ ﴾.. وهو سيقدم الكثير، وسيبذل الكثير، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء. ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به.. وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها. فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه. بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالله؛ شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه.

فهو فضل يمنحها إياه، وعطاء يختارها له، ويوفقها لنيله. وهو اختيار واصطفاء وتكريم

---

(١) قرأ حفص: (الرُّجْز) بضم الراء يعني الصنم، وقرأ الجمهور: (الرِّجْز) بكسر الراء يعني العذاب. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٥٩، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٣٤٧، والحجة في القراءات لابن زنجلة: ص: ٧٣٣.

يستحق الشكر لله. لا المن والاستكثار.

ويوجهه أخيراً إلى الصبر. الصبر لربه: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾.. وهي الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت. والصبر هو هذا الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة. معركة الدعوة إلى الله. المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب؛ ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعهم شياطين الأهواء! وهي معركة طويلة عنيفة لا زاد لها إلا الصبر الذي يقصد فيه وجه الله، ويتجه به إليه احتساباً عنده وحده.

فإذا انتهى هذا التوجيه الإلهي للنبي الكريم، اتجه السياق إلى بيان ما ينذر به الآخرين، في لمسة توقظ الحس لليوم العسير، الذي ينذر بمقدمه النذير:

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾.. والنقر في الناقور، هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور. ولكن التعبير هنا أشد إيحاءً بشدة الصوت ورنينه؛ كأنه نقر يصوّت ويدوّي. والصوت الذي ينقر الآذان أشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الآذان.. ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين، ويؤكد هذا العسر بنفي كل ظل لليسر فيه:

﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾.. فهو عسر كله. عسر لا يتخلله يسر. ولا يفصل أمر هذا العسر، بل يدعه مجملاً مجهلاً يوحي بالاختناق والكرب والضيق.. فما أجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير، قبل أن ينقر في الناقور، فيواجههم هذا اليوم العسير العسير!)[١].

دروس وعبر من المقطع الأول:

١- في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ ملاطفة في الخطاب من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بحاله، وعبّر عنه بصفته، ولم يقل له يا محمد، ويا فلان، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله النداء في سورة (المزمل)، ومثله قوله ﷺ لعلي إذ نام في المسجد: قم أبا تراب، وقوله ﷺ لحذيفة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٥٤.

ليلة الخندق: قم يا نومان، وقد تقدم في سورة (المزمل)[(١)].

٢ـ يتجلَّى الأمر بالإنذار في الآيات بست وصايا تعدُّ من جوامع القرآن، أراد الله تعالى بها تزكية رسوله ﷺ، وجعلها قدوة لأمته، وهي:

الأولى: وجوب الإنذار والقيام بأعباء الرسالة وتبليغها بجدٍ ونشاط.

الثانية: وجوب تعظيم أسماء الله وصفاته، وتعظيم كلامه وشعائره.

الثالثة: وجوب تطهير الثياب والبدن والمكان من النجاسة المادية والحكمية، وتطهير النفس من المعاصي المؤدية إلى العذاب، وتجميلها بمحاسن الأخلاق.

الرابعة: وجوب هجر الأوثان والمآثم التي هي سبب العذاب، ويراد بذلك الأمر بالمداومة على ذلك الهجران.

الخامسة: حرمة العجب بالعمل، وتزكية نفسه به، وعدم الامتنان على الله بالأعمال الشاقة، إنما يقدم ذلك ابتغاء مرضات الله تعالى، وطمعاً في قبوله.

السادسة: وجوب الصبر على أداء الطاعات فعلاً، وعلى المعاصي تركاً، وعلى البلاء رضاً وتسليماً[(٢)].

٣ـ هدد الله الكفار الأشقياء بأهوال يوم القيامة، فإذا نفخ إسرافيل في الصور ـ وهو كهيئة البوق ـ النفخةَ الثانية، كان ذلك اليوم يوماً شديداً على كل من كفر بالله وبأنبيائه، غير سهل ولا هيِّن عليهم، فإنهم دائماً يواجهون صعاباً أشد، بخلاف المؤمنين الذين يتجهون دائماً إلى ما هو أخفّ، حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى. وقد فهم ابن عباس من قوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ كون ذلك اليوم يسيراً على المؤمن، وهذا حجة لمن قال بدليل الخطاب أنه حُجّة[(٣)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٦١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣٠٠، وأيسر التفاسير، الجزائري: ٥/ ٤٦٤.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٢٢.

المقطع الثاني: (تهديد زعماء الشرك) الآيات: (١١-٣٠)

قال الله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن أخبر الله تعالى عن كون يوم القيامة عسيراً غير يسير على الكافرين، هدد الوليدَ بن المغيرة وأمثاله من زعماء الشرك، وسلَّى نبيه ﷺ بقوله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾، وهو كقوله في (المزمل): ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾، ثم عدد تعالى نعمه على الوليد من المال والولد والجاه والرياسة، وكفره بها، ووعيده بنار جهنم لوصفه القرآن الكريم بأنه سحر يؤثر[1].

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (وينتقل من هذا التهديد العام إلى مواجهة فرد بذاته من المكذبين؛ يبدو أنه كان له دور رئيسي خاص في التكذيب والتبييت للدعوة؛ فيوجه إليه تهديداً ساحقاً ماحقاً، ويرسم له صورة منكرة تثير الهزء والسخرية من حاله وملامح وجهه ونفسه التي تبرز من خلال الكلمات كأنها حية شاخصة متحركة الملامح والسمات:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.. وقد وردت روايات متعددة بأن المعنيّ هنا هو الوليد بن المغيرة المخزومي. قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد ابن ثورة، عن معمر عن عبادة بن منصور، عن عكرمة، أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام، فأتاه فقال له: أي عم! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٢٥.

مالاً: قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قِبله (يريد بخبث أن يثير كبرياءه من الناحية التي يعرف أن الوليد أشد بها اعتزازاً) قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً! قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له! قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن! والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا.

والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى.. قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه.. قال: فدعني حتى أفكر فيه.. فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره. فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ حتى بلغ: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

وفي رواية أخرى أن قريشاً قالت: لئن صبأ الوليد، لتصبونَّ قريش كلها! فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه! ثم دخل عليه!.. وأنه قال بعد التفكير الطويل: إنه سحر يؤثر. أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه؟

هذه هي الواقعة كما جاءت بها الروايات. فأما القرآن فيسوقها هذه السياقة الحية المثيرة.. يبدأ بذلك التهديد القاصم الرهيب. ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.. والخطاب للرسول ﷺ، ومعناه خلِّ بيني وبين هذا الذي خلقته وحيداً مجرداً من كل شيء آخر مما يعتز به من مال كثير ممدود، وبنين حاضرين شهود، ونِعَم يتبطر بها ويختال، ويطلب المزيد. خلِّ بيني وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيده. فأنا سأتولَّى حربه.. وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفزع المزلزل وهو يتصور انطلاق القوة التي لا حد لها.. قوة الجبار القهار.. لتسحق هذا المخلوق المضعوف المسكين الهزيل الضئيل! وهي الرعشة التي يطلقها النص القرآني في قلب القارئ والسامع الآمنين منها. فما بال الذي تتجه إليه وتواجهه!

---

(١) أخرجه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. المستدرك: كتاب التفسير، باب سورة (المدثر)، رقم الحديث: ٣٨٦٩، ولباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٩١.

ويطيل النص في وصف حال هذا المخلوق، وما آتاه الله من نعمه وآلائه، قبل أن يذكر إعراضه وعناده. فهو قد خلقه وحيداً مجرداً من كل شيء حتى من ثيابه! ثم جعل له مالاً كثيراً ممدوداً. ورزقه بنين من حوله حاضرين شهوداً، فهو منهم في أنس وعزوة. ومهد له الحياة تمهيداً ويسرها له تيسيراً..

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾ فهو لا يقنع بما أوتي، ولا يشكر ويكتفي.. أم لعله يطمع في أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتاباً كما سيجيء في آخر السورة:﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾.. فقد كان ممن يحسدون الرسول ﷺ على إعطائه النبوة.

وهنا يردعه ردعاً عنيفاً عن هذا الطمع الذي لم يقدم حسنة ولا طاعة، ولا شكراً لله يرجو بسببه المزيد:

﴿ كَلَّآ ﴾ وهي كلمة ردع وتبكيت ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾

فعاند دلائل الحق وموحيات الإيمان. ووقف في وجه الدعوة، وحارب رسولها، وصد عنها نفسه وغيره، وأطلق حواليها الأضاليل. ويعقب على الردع بالوعيد الذي يبدل اليسر عسراً، والتمهيد مشقة!

﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾. وهو تعبير مصور لحركة المشقة. فالتصعيد في الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقاً. فإذا كان دفعاً من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقاً. وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة.

فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الودود، يندبّ في طريق وعر شاق مبتوت ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق، كأنما يصعد في السماء، أو يصعد في وعر صلد لا ريّ فيه ولا زاد، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق!

ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية والرجل يكد ذهنه! ويعصر أعصابه! ويقبض جبينه! وتكلح ملامحه وقسماته.. كل ذلك ليجد عيباً يعيب به هذا القرآن، وليجد قولاً

يقوله فيه:

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾.. لمحة لمحة. وخطرة خطرة. وحركة حركة. يرسمها التعبير، كما لو كانت ريشة تصور، لا كلمات تعبر، بل كما لو كانت فيلماً متحركاً يلتقط المشهد لمحة لمحة!!!

لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هي قضاء:﴿ فَقُتِلَ ﴾، واستنكار كله استهزاء: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾، ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار. ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء. ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابساً، ويقبض ملامح وجهه باسراً، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة! وبعد هذا المخاض كله؟ وهذا الحَزق كله؟ لا يفتح عليه بشيء.. إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق.. فيقول:

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾! إنها لمحات حية يثبتها التعبير القرآني في المخيلة أقوى مما تثبتها الريشة في اللوحة؛ وأجمل مما يعرضها الفيلم المتحرك على الأنظار!

وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر، وتثبت صورته الزرية في صلب الوجود، تتملاها الأجيال بعد الأجيال! فإذا انتهى عرض هذه اللمحات الحية الشاخصة لهذا المخلوق المضحك، عقب عليها بالوعيد المفزع:

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾.. وزاد هذا الوعيد تهويلاً بتجهيل سقر:﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾.. إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك! ثم عقب على التجهيل بشيء من صفتها أشد هولاً:﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ﴾.. فهي تكنس كنساً، وتبلع بلعاً، وتمحو محواً، فلا يقف لها شيء، ولا يبقى وراءها شيء، ولا يفضل منها شيء!

ثم هي تتعرض للبشر وتلوح:﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾.. كما قال في سورة (المعارج): ﴿ تَدْعُواْ

مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ ﴾. فهي تدل على نفسها، وكأنما تقصد إثارة الفزع في النفوس، بمنظرها المخيف!

ويقوم عليها حراس عدتهم: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾.. لا ندري أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد، أم صفوف، أم أنواع من الملائكة وصنوف. إنما هو خبر من الله سندري شأنه فيما يجيء..)[1].

دروس وعبر من المقطع الثاني:

١ـ المال والبنون والجاه من عوامل الفتنة والطغيان، إلا أن يُسلِّم الله عبده من فتنتها وسبيل ذلك تأدية حق الله فيها، طاعةً وعبادةً وشكراً واستغلالاً في سبيل الله ومرضاته. فهي سلاح ذو حدَّين، يتحدد أثره وفق طريقة استخدامه[2].

٢ـ في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع وإبطال لطمعه في الزيادة من النعم، وقطع لرجائه. وفي هذا الردع والإبطال إيذان بأن كفران النعمة سبب لقطعها، قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]. قال الشيخ ابن عطاء الله: مَن لم يشكر النعم فقد تعرَّض لزوالها، ومَن شكرها فقد قيَّدها بعِقالها. وقد ورد أن الوليد بن المغيرة بعد نزول هذه الآية ما زال يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك فقيراً[3].

٣ـ موقف الوليد بن المغيرة مثال الكفر والعناد والإصرار على الضلال، وهو موقف يستحق صاحبه اللعن والطرد من الرحمة، وحرمانه النعمة، وتعذيبه في جهنم بأشد أنواع العذاب، جزاء تعنُّته وعناده، وتراجعه عن الحق الذي جهر به، إرضاءً لقومه، بعد اعترافه بأن ما سمعه من محمد ﷺ ليس من كلام البشر، وأن له لحلاوة، وأن عليه لطلاوة، وأن أعلاه لمثمر

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٥٦.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري: ٥/ ٤٦٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٧٢، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣٠٥، وفتح البيان، صديق حسن خان: ١٠/ ١٣١.

وأن أسفله لمغدق، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه.

٤ـ في تفسير عدد (التسعة عشر) أقوال، أقواها ما رجَّحه القرطبي أنهم رؤساء الملائكة ونقباؤهم الموكلون بجهنم، قال: وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها، كما قال تعالى:﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾، وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها)[١]. وقد تناقل أرباب المعاني في تقدير هذا العدد وجوهاً اجتهدوا في تعيينها، ورجَّح الرازي تخصيص هذا العدد لحكمة اختص الله بها. كما أن في ذكر هذا العدد تحدِّياً لأهل الكتاب يبعثهم على تصديق القرآن، إذ كان ذلك مما استأثر به علماؤهم. لذا أتبعه سبحانه بقوله:﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾[٢].

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبُعد قعرها، رقم الحديث: ٥٠٧٦، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٨٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي: ٣٠/ ٢٠٦، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣١٢.

المقطع الثالث: (الحكمة في اختيار عدد خزنة جهنم التسعة عشر) الآيات: (٣١-٣٧)

قال الله تعالى:﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن ذكرت الآيات نموذجاً لهؤلاء الخاسرين الذين ضلُّوا، ولم ينفع معهم إنذار، تأتي هذه الآيات لتذكِّرنا بالنار التي أوعد الله بها الكفار، وعن خزنتها الأشداء، وزبانيتها الذين كلفوا بتعذيب أهلها، وعددهم، والحكمة من تخصيص ذلك العدد، كذلك قدمت لنا نموذجاً على اعتراض المعترضين على أمثال القرآن، ونموذجاً لأمثال القرآن التي يضلُّ بسببها مَن يضلَّ، ويهتدي بها مَن يهتدي. ثم يأتي القسَم بالقمر وضيائه، والصبح وبهائه، على أن جهنم إحدى البلايا العظام(١).

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (تبدأ الآية بتقرير حقيقة أولئك التسعة عشر الذين تمارى فيهم المشركون:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾.. فهم من ذلك الخلق المغيب الذي لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله؛ وقد قال لنا عنهم: إنهم﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله، وأن بهم القدرة على فعل ما يأمرهم.

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ١١/ ٦٢٣٦، وصفوة التفاسير، الصابوني: ٣/ ٤٧٢.

فهم إذن مزودون بالقوة التي يقدرون بها على كل ما يكلفهم الله إياه. فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة، كما يعلمها الله، فلا مجال لقهرهم أو مغالبتهم من هؤلاء البشر المضعوفين! وما كان قولهم عن مغالبتهم إلا وليد الجهل الغليظ بحقيقة خلق الله وتدبيره للأمور(١).

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾.. فهم الذين يثير ذكر العدد في قلوبهم رغبة الجدل؛ ولا يعرفون مواضع التسليم ومواضع الجدل. فهذا الأمر الغيبي كله من شأن الله، وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل، فإذا أخبر الله عنه خبراً فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة، وشأن البشر هو تلقي هذا الخبر بالتسليم، والاطمئنان إلى أن الخير في ذكر هذا الطرف وحده، بالقدر الذي ذكره، وأن لا مجال للجدل فيه، فالإنسان إنما يجادل فيما لديه عنه علم سابق يناقض الخبر الجديد أو يغايره.

أما لماذا كانوا تسعة عشر (أياً كان مدلول هذا العدد) فهو أمر يعلمه الله الذي ينسق الوجود كله، ويخلق كل شيء بقدر. وهذا العدد كغيره من الأعداد. والذي يبغي الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أي عدد آخر وعلى أي أمر آخر بنفس الاعتراض.. لماذا كانت السماوات سبعاً؟ لماذا كان خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ والجواب: لأن صاحب الخلق والأمر يريد ويفعل ما يريد! هذا هو فصل الخطاب في مثل هذه الأمور..

---

(١) أخرج ابن إسحاق قال: قال أبو جهل يوماً: يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ الآية. وأخرج السدي قال: لما نزلت: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ قال رجل من قريش يدعى أبا الأشد: يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، فأنزل الله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ الآية. لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٩٢.

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ ﴾.. فهؤلاء وهؤلاء سيجدون في عدد حراس سقر ما يدعو بعضهم إلى اليقين ويدعو البعض إلى ازدياد الإيمان. فأما الذين أوتوا الكتاب فلا بد أن لديهم شيئاً عن هذه الحقيقة، فإذا سمعوها من القرآن استيقنوا أنه مصدق لما بين يديهم عنها. وأما الذين آمنوا فكل قول من ربهم يزيدهم إيماناً. لأن قلوبهم مفتوحة موصولة تتلقى الحقائق تلقياً مباشراً؛ وكل حقيقة ترد إليها من عند الله تزيدها أنساً بالله.. وستشعر قلوبهم بحكمة الله في هذا العدد، وتقديره الدقيق في الخلق فتزيد قلوبهم إيماناً. وتثبت هذه الحقيقة في قلوب هؤلاء وهؤلاء فلا يرتابون بعدها فيما يأتيهم من عند الله.

﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ ﴾.. وهكذا تترك الحقيقة الواحدة أثرين مختلفين في القلوب المختلفة.. فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون، والذين آمنوا يزيدون إيماناً، إذا بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقون في حيرة يتساءلون: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ ﴾.. فهم لا يدركون حكمة هذا الأمر الغريب. ولا يسلمون بحكمة الله المطلقة في تقدير كل خلق. ولا يطمئنون إلى صدق الخبر والخير الكامن في إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة..

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾.. كذلك. بذكر الحقائق وعرض الآيات. فتتلقاها القلوب المختلفة تلقياً مختلفاً. ويهتدي بها فريق وفق مشيئة الله؛ ويضل بها فريق حسب مشيئة الله. فكل أمر مرجعه في النهاية إلى إرادة الله المطلقة التي ينتهي إليها كل شيء. وهؤلاء البشر خرجوا من يد القدرة باستعداد مزدوج، للهدى والضلال؛ فمن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئة التي خلقتهم بهذا الاستعداد المزدوج، ويسرت لهم التصرف في هذا أو ذاك، في حدود المشيئة الطليقة، ووفق حكمة الله المكنونة.

وتصور طلاقة المشيئة وانتهاء كل ما يقع في هذا الوجود إليها تصوراً كاملاً واسع المدلول يعفي العقول من الجدل الضيق حول ما يسمونه الجبر والإرادة. وهو الجدل الذي لا ينتهي

إلى تصور صحيح، بسبب أنه يتناول المسألة من زاوية ضيقة، ويضعها في أشكال محددة نابعة من منطق الإنسان وتجاربه وتصوراته المحدودة! بينما هو يعالج قضية من قضايا الألوهية غير المحدودة!

لقد كشف الله لنا عن طريق الهدى وطريق الضلال. وحدد لنا نهجاً نسلكه فنهتدي ونسعد ونفوز. وبيّن لنا نهوجاً ننحرف إليها فنضل ونشقى ونخسر. ولم يكلفنا أن نعلم وراء ذلك شيئاً، ولم يهبنا القدرة على علم شيء وراء هذا. وقال لنا: إن إرادتي مطلقة وإن مشيئتي نافذة.. فعلينا أن نعالج ـ بقدر طاقتنا ـ تصور حقيقة الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة. وأن نلتزم النهج الهادي ونتجنب النهوج المضللة. ولا ننشغل في جدل عقيم حول ما لم نوهب القدرة على إدراك كنهه من الغيب المكنون. ومن ثم ننظر فنرى كل ما أنفقه المتكلمون في مسألة القدر على النحو الذي تكلموا به جهداً ضائعاً لا طائل وراءه لأنه في غير ميدانه..

إننا لا نعلم مشيئة الله المغيبة بنا، ولكننا نعلم ماذا يطلب الله منا لنستحق فضله الذي كتبه على نفسه. وعلينا إذن أن ننفق طاقتنا في أداء ما كلفنا، وأن ندع له هو غيب مشيئته فينا. والذي سيكون هو مشيئته، وعندما يكون سنعرف أن هذه مشيئته لا قبل كونه! والذي سيكون وراءه حكمة يعرفها العليم بالكل المطلق.. وهو الله وحده.. وهذا هو طريق المؤمن في التصور ومنهجه في التفكر..

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾.. فهي غيب. حقيقتها. ووظيفتها. وقدرتها.. وهو يكشف عما يريد الكشف عنه من أمرها، وقوله هو الفصل في شأنها. وليس لقائل بعده أن يجادل أو يماحك أو يحاول معرفة ما لم يكشف الله عنه، فليس إلى معرفة هذا من سبيل..

﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾.. و﴿ هِيَ ﴾ إما أن تكون هي جنود ربك، وإما أن تكون هي سقر ومَن عليها. وهي من جنود ربك. وذكرها جاء لينبه ويحذر؛ لا لتكون موضوعاً للجدل والمماحكة! والقلوب المؤمنة هي التي تتعظ بالذكرى، فأما القلوب الضالة فتتخذها مماحكة وجدلاً! ويعقب على هذه الوقفة التقريرية لهذه الحقيقة من حقائق الغيب، ولمناهج التصور

الهادية والمضللة.. يعقب على هذا بربط حقيقة الآخرة، وحقيقة سقر، وحقيقة جنود ربك بظواهر الوجود المشهودة في هذا العالم، والتي يمر عليها البشر غافلين، وهي تشير بتقدير الإرادة الخالقة وتدبيرها، وتوحي بأن وراء هذا التقدير والتدبير قصداً وغاية، وحساباً وجزاء:﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]..

ومشاهد القمر، والليل حين يدبر، والصبح حين يسفر.. مشاهد موحية بذاتها، تقول للقلب البشري أشياء كثيرة؛ وتهمس في أعماقه بأسرار كثيرة؛ وتستجيش في أغواره مشاعر كثيرة. والقرآن يلمس بهذه الإشارة السريعة مكامن هذه المشاعر والأسرار في القلوب التي يخاطبها، على خبرة بمداخلها ودروبها!

وقلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع يسري وحين يغيب.. ثم لا يعي عن القمر شيئاً يهمس له به من أسرار هذا الوجود! وإن وقفة في نور القمر أحياناً لتغسل القلب كما لو كان يستحم بالنور!

وقلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره، في تلك الهدأة التي تسبق الشروق، وعندما يبدأ هذا الوجود كله يفتح عينيه ويفيق.. ثم لا ينطبع فيه أثر من هذا المشهد وتدبُّ في أعماقه خطرات رفَّافة شفَّافة.

وقلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره، ثم لا تنبض فيه نابضة من إشراق وتفتح وانتقال شعوري من حال إلى حال، يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذي يشرق في الضمائر مع النور الذي يشرق في النواظر.

والله الذي خلق القلب البشري يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب في بعض

---

(١) قرأ نافع وحمزة وحفص: (والليل إذ) بغير ألف (أدبر) بألف، أي: ولّى وذهب، وقرأ الجمهور: (إذا دبر) أي: جاء خلفي. لأن (إذ) لما مضى، و(إذا) لما يستقبل. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٥٩، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٣٤٧، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه: ص: ٣٥٥.

الأحايين، وكأنها تخلقه من جديد.

ووراء هذه الانبعاثات والإشراقات والاستقبالات ما في القمر، وما في الليل، وما في الصبح من حقيقة عجيبة هائلة يوجه القرآن إليها المدارك، وينبه إليها العقول. ومن دلالة على القدرة المبدعة والحكمة المدبرة، والتنسيق الإلهي لهذا الكون، بتلك الدقة التي يحير تصورها العقول.

ويقسم الله سبحانه بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبيه الغافلين لأقدارها العظيمة ودلالاتها المثيرة. يقسم على أن ﴿سَقَرَ﴾ أو الجنود التي عليها، أو الآخرة وما فيها، هي إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر:

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾.. والقسم ذاته، ومحتوياته، والمقسم عليه بهذه الصورة.. كلها مطارق تطرق قلوب البشر بعنف وشدة، وتتسق مع النقر في الناقور، وما يتركه من صدى في الشعور. ومع مطلع السورة بالنداء الموقظ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ والأمر بالنذارة: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾.. فالجو كله نقر وطرق وخطر!!)(١).

دروس وعبر من المقطع الثالث:

١ـ خزنة جهنم وزبانيتها التسعة عشر هم من الملائكة الذين لا يغالبون، لا من الرجال الذين يمكن مقاومتهم بالتجمع عليهم. وإيراد عددهم التسعة عشر من الملائكة صار سبباً لفتنة الكفار، أي: اختبارهم.

قال الزمخشري: ما جعل افتتانهم بالعدة سبباً، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سبباً وذلك أن المراد بقوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر، فوضع فتنة للذين كفروا موضع تسعة عشر: لأن حال هذه العدة الناقصة واحداً من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهزئ، ولا يذعن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٥٨.

إذعان المؤمن، وإن خفي عليه وجه الحكمة، كأنه قيل: ولقد جعلنا عدتهم عدة، من شأنها أن يفتتن بها، لأجل استيقان المؤمنين، وحيرة الكافرين[1].

٢ـ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ لا يراد به أن الضلالة والهداية أمران مبتدآن من الله عزَّ وجلَّ، خلافاً لظاهره، ولا أنه تعالى يجبر فريقاً على الضلالة وفريقاً على الهدى، وإنما المراد به تقرير سنة من سنن الله في عباده، وهي ربط الأسباب التي خلقها بالمسببات فمن ضل فإنما يضل بنفسه واختياره، ومن اهتدى فإنما يهتدي بنفسه وإرادته واختياره، ثم يزيد الله الضالين ضلالاً، فيبعدهم عن معالم الهداية، لسوء اختيارهم واستعدادهم وعنادهم، ويزيد المؤمنين إيماناً بتوفيقهم إلى سبل الهداية والرشاد، لحسن اختيارهم، ولا يقع شيءٌ في الكون قهراً عن الله تعالى، وإنما بإرادته ومشيئته، وإن كان مخالفاً لمأموره ومحبوبه[2].

٣ـ الواجب على المؤمن المبادرة بالتصديق والانقياد، ولو لم يعلم الحكمة أو السر أو الغرض بناءً على أن الخبر من الله تعالى، وهو أعلم بما شرَعه وأنزله. ومجمل القول: أن الأحكام بالنسبة لحكمتها محصورة في أقسام ثلاثة:

الأول: قسم تظهر حكمته بنص؛ كما في نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر، وتطهير الزكاة وتزكيتها، وتحقق التقوى للصائم، ومغفرة ذنوب الحاج، ونحو ذلك.

الثاني: قسم لم تظهر حكمته بهذا الظهور، ولكنه لم يخلُ من حكمة؛ كالطواف، والسعي والركوع، والسجود، والوضوء، والتيمم، والغسل، ونحو ذلك.

الثالث: قسم ابتلاء وامتحان أولاً، ولحكمة ثانياً؛ كتحويل القبلة، والمسلم في كلتا الحالتين وجب عليه الامتثال والانقياد، ظهرت الحكمة أم لا. وقد تنكشف الأمور عن حكمة لا نعلمها. كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام. فلما بدت لموسى عليه السلام علم مدى

---

(١) الكشاف، الزمخشري: ٤/ ٦٥٣، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٣٨.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٣٨.

حكمتها. وهكذا الأمور بأقسامها الثلاثة تستلزم منا التسليم لأمر الله فيها ابتداءً، والإيمان بها سواء بدت حكمة التشريع فيها أم لا. قال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾ [آل عمران: ٧][١].

٤ـ مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. وهو ما ترشد إليه الآيات العديدة، منها: قوله تعالى:﴿ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا ﴾ [المدثر: ٣١]، وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى:﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]. ومن قال بأن حقيقة الإيمان لا تقبل الزيادة والنقصان فيحملون الآية على ثمرات الإيمان وآثاره ولوازمه. وأما نفي الارتياب عن أهل الكتاب والمؤمنين بعد إثبات الاستيقان وزيادة الإيمان لهم، فمن باب التوكيد، كأنه قيل: حصل لهم يقين جازم، بحيث لا يحصل بعده شك وريب، فإن الذي حصل له اليقين قد يغفل عن مقدمة من مقدمات الدليل، فيعود له الشك، وفيه أيضاً تعريض بحال مَن عداهم كأنه قيل: وليخالف حالهم حال المرتدين من أهل الزيغ والكفران[٢].

٥ـ في قوله تعالى:﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ ﴾إشارة إلى أن ما عليه خزنة جهنم لا يعلم حكمته ولا حكمة ما عليه كل جند من العدد إلى الأبد إلا الله سبحانه. وهو جواب لأبي جهل حين قال: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر! وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحُقَّ لها أن تئطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، لوددت أني كنت شجرة تعضد)[٣].

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي: ٨/ ٦٢٥.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٣٨.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الزهد، باب في قول النبي لو تعلمون ما أعلم، رقم الحديث: ٢٢٣٤.=

المقطع الرابع: (الحوار بين أصحاب اليمين وبين المجرمين) الآيات: (٣٨-٥٦)

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن توعد الله الكفار والعصاة، وهددهم بأن النار إحدى الدواهي والبلايا العظام وأنذرهم بأن النجاة مربوطة بالعمل الصالح، أكد المعنى المتقدم بأنه ليس لكل امرئ إلا جزاء عمله، وأخبر أن أصحاب اليمين ناجون، وأن المجرمين معذبون، ووصف الحوار الدائر بين الفريقين لمعرفة سبب دخول الفريق الثاني نار جهنم(١).

التفسير:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (وفي ظل هذه الإيقاعات المثيرة الخطيرة يعلن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها؛ ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها؛ ويعلن لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها، مرهونة بأعمالها وأوزارها:

= قال أبو عيسى: وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وأنس قال: هذا حديث حسن غريب. ومعنى: أطَّت: صوتت وضجت، والأطيط: صوت الأقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي: أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلتها حتى أطَّت، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثَم أطيط، وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثير: ابن الأثير: ١/ ٥٤، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٣٩.

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٤٢.

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾.. فكل فرد يحمل همَّ نفسه وتبعتها، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها، يتقدم بها أو يتأخر، ويكرمها أو يهينها. فهي رهينة بما تكسب، مقيدة بما تفعل.

وقد بين الله للنفوس طريقه لتسلك إليه على بصيرة، وهو إعلان في مواجهة المشاهد الكونية الموحية، ومشاهد سقر التي لا تبقي ولا تذر.. له وقعه وله قيمته!

وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت، المقيدة بما فعلت، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال، وإرسالهم من القيد، وتخويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير:

﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذي يبارك حسناتهم ويضاعفها. وإعلان ذلك في هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة. يلمس قلوب المجرمين المكذبين، وهم يرون أنفسهم في هذا الموقف المهين، الذي يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف، بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم في الدنيا، ولا يبالونهم، في موقف الكرامة والاستعلاء، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض في الموقف:

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾.. ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض، وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين.. وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون.. وتطوي صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماضٍ انتهى وولَّى!

والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التي انتهت بالمجرمين إلى سقر يعترفون بها هم بألسنتهم في ذلة المستكين أمام المؤمنين:

﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾. وهي كناية عن الإيمان كله، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة، وتجعلها رمز الإيمان ودليله، يدل إنكارها على الكفر، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين.

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.. وهذه تلي عدم الإيمان، بوصفها عبادة الله في خلقه، بعد عبادته سبحانه في ذاته. ويدل ذكرها بهذه القوة في مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التي كان القرآن يواجهها، وانقطاع الإحسان للفقير في هذه البيئة القاسية، على الرغم من الفخر بالكرم في مواضع المفاخرة والاختيال، مع تركه في مواضع الحاجة والعطف الخالص البريء.

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.. وهي تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة، وحقيقة الإيمان، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال. وهي أعظم الجد وأخطر الأمر في حياة الإنسان؛ وهي الشأن الذي ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أي شأن آخر من شؤون هذه الحياة، فعلى أساسها يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه. وعلى ضوئها يمضي في طريق الحياة. فكيف لا يقطع فيها برأي ولا يأخذها مأخذ الجد؟ ويخوض فيها مع الخائضين، ويلعب فيها مع اللاعبين؟

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ ﴾ وهذه أس البلايا. فالذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين، وتضطرب في تقديره جميع القيم، ويضيق في حسه مجال الحياة، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض؛ ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير، فلا يطمئن إلى هذه العواقب، ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير.. ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها. وينتهي مِن ثَمَّ إلى شر مصير.

والمجرمون يقولون: إننا ظللنا على هذه الأحوال، لا نصلي، ولا نطعم المسكين، ونخوض مع الخائضين، ونكذب بيوم الدين..

﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾.. الموت الذي يقطع كل شك وينهي كل ريب، ويفصل في الأمر بلا مرد.. ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة ولا عمل صالح.. بعد اليقين..

ويعقب السياق على الموقف السيئ المهين، بقطع كل أمل في تعديل هذا المصير: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.. فقد قضي الأمر، وحق القول، وتقرر المصير، الذي يليق بالمجرمين المعترفين! وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلاً. وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين!

وأمام هذا الموقف المهين الميئوس منه في الآخرة، يردهم إلى موقف في الفرصة المتاحة لهم في الأرض قبل مواجهة ذلك الموقف؛ وهم يصدون عنها ويعرضون، بل يفرون من الهدى والخير ووسائل النجاة المعروضة عليهم فيها، ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب:

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ ﴾[1].. ومشهد حمر الوحش وهي مستنفرة تفر في كل اتجاه، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه.. مشهد يعرفه العرب.

وهو مشهد عنيف الحركة. مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون! حين يخافون! فكيف إذا كانوا إنما ينفرون هذا النفار الذي يتحولون به من آدميين إلى حمر، لا لأنهم خائفون مهددون بل لأن مذكِّراً يذكِّرهم بربهم وبمصيرهم، ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف الزري المهين، وذلك المصير العصيب الأليم؟!

إنها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله في صلب الكون، تتملاه النفوس، فتخجل

---

(١) قرأ نافع وابن عامر: (مستنفَرة) بفتح الفاء، على أنها مفعول بها في المعنى، أي: منفَّرة مذعورة، وقرأ الجمهور: (مستنفِرة) بكسرها، على أنها فاعلة أي: نافرة. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٦٠، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٣٤٧، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٨٨.

وتستنكف أن تكون فيه، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل، ويطامنون من الإعراض والنفار، مخافة هذا التصوير الحي العنيف!

تلك هيئتهم الخارجية.﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل، وما يعتلج فيها من المشاعر:

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾.. فهو الحسد للنبي ﷺ أن يختاره الله ويوحي إليه؛ والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه المنزلة، وأن يؤتى صحفاً تنشر على الناس وتعلن.. ولا بد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحي إلى محمد بن عبد الله، فقالوا:﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾.. ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم. فكان الحنق الذي يغلي في الصدور، والذي يكشف عنه القرآن، وهو يعلل ذلك الشماس والنفار!

ثم يستمر في رسم صورة النفوس من داخلها، فيضرب عما ذكره من ذلك الطمع والحسد، ويذكر سبباً آخر للإعراض والجحود. وهو يردع في نفوسهم ذلك الطمع الذي لا يستند إلى سبب من صلاح ولا من استعداد لتلقي وحي الله وفضله:

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾[1]. وعدم خوفهم من الآخرة هو الذي ينأى بهم عن التذكرة، وينفرهم من الدعوة هذه النفرة. ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب!

ثم يردعهم مرة أخرى، وهو يلقي إليهم بالكلمة الأخيرة، ويدعهم لما يختارون لأنفسهم من طريق ومصير:

﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ ﴾.. إنه، هذا القرآن الذي يعرضون عن

---

(١) قرأ ابن عامر: (تخافون) بالتاء، وقرأها الباقون بالياء. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٦٠، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٦٧١.

سماعه، وينفرون كالحمر، وهم يضمرون في أنفسهم الحسد لمحمد ﷺ، والاستهتار بالآخرة.. إنه تذكرة تنبه وتذكر. فمن شاء فليذكر. ومن لم يشأ فهو وشأنه، وهو ومصيره، وهو وما يختار من جنة وكرامة، أو من سقر ومهانة..

وبعد أن يثبت مشيئتهم في اختيار الطريق يعقب بطلاقة المشيئة الإلهية، وعودة الأمور إليها في النهاية. وهي الحقيقة التي يحرص القرآن على تقريرها في كل مناسبة لتصحيح التصور الإيماني من ناحية طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها الكامل الأخير، وراء جميع الأحداث والأمور:

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾.. فكل ما يقع في هذا الوجود، مشدود إلى المشيئة الكبرى، يمضي في اتجاهها وفي داخل مجالها. فلا يقع أن يشاء أحد من خلقه ما يتعارض مع مشيئته، ومشيئته تسيطر على أقدار الوجود كله، وهي التي أنشأته وأنشأت نواميسه وسننه، فهو يمضي بكل ما فيه وكل مَن فيه في إطار مِن تلك المشيئة المطلقة من كل إطار ومن كل حد ومن كل قيد.

والذكر توفيق من الله ييسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق. والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. فإذا علم من العبد صدق النية وجَّهه إلى الطاعات.

والعبد لا يعرف ماذا يشاء الله به. فهذا من الغيب المحجوب عنه. ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه، فهذا مما بينه له. فإذا صدقت نيته في النهوض بما كلف أعانه الله ووجَّهه وفق مشيئته الطليقة.

والذي يريد القرآن أن يطبعه في حس المسلم هو طلاقة هذه المشيئة، وإحاطتها بكل مشيئة، حتى يكون التوجه إليها من العبد خالصاً، والاستسلام لها ممَحَّصاً.. فهذه هي حقيقة الإسلام القلبية التي لا يستقر في قلب بدونها. وإذا استقرت فيه كيَّفته تكييفاً خاصاً من داخله، وأنشأت فيه تصوراً خاصاً يحتكم إليه في كل أحداث الحياة.. وهذا هو المقصود ابتداء من تقرير

طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها عقب الحديث عن كل وعد بجنة أو نار، وبهدى أو ضلال.

فأما أخذ هذا الإطلاق، والانحراف به إلى جدل حول الجبر والاختيار، فهو اقتطاع لجانب من تصور كلي وحقيقة مطلقة، والتحيز بها في درب ضيق مغلق لا ينتهي إلى قول مريح. لأنها لم تجئ في السياق القرآني لمثل هذا التحيز في الدرب الضيق المغلق!

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾(١). فهم لا يصادمون بمشيئتهم مشيئة الله، ولا يتحركون في اتجاه، إلا بإرادة من الله، تقدرهم على الحركة والاتجاه.

والله﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾. يستحقها من عباده. فهم مطالبون بها.﴿ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾. يتفضل بها على عباده وفق مشيئته. والتقوى تستأهل المغفرة، والله سبحانه أهل لهما جميعاً.

بهذه التسبيحة الخاشعة تختم السورة، وفي النفس منها تطلع إلى وجه الله الكريم، أن يشاء بالتوفيق إلى الذكر، والتوجيه إلى التقوى، والتفضيل بالمغفرة. ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾(٢).

دروس وعبر من المقطع الرابع:

١ـ في قوله تعالى:﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ دلالة على أن الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين لشركهم وكفرهم، ومنه قوله تعالى:﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨]، ومفهوم كونها لا تنفع الكفار أنها تنفع غيرهم، كما أن فيها إثبات الشفاعة للشافعين وقد جاءت نصوص في الشفاعة لمن ارتضاهم الله، كما في قوله تعالى:﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[الأنبياء: ٢٨]. وكذلك الشفيع لا يشفع إلا من أذن له، ولا يشفعون إلا فيمن أذنوا فيه، كما في قول الله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقد ثبتت

---

(١) قرأ نافع: (وما تذكرون) بالتاء، وقرأها الباقون بالياء. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٦٠، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٦٧٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٧٦٠.

للنبي ﷺ الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود، وعدة شفاعات بعدها؛ منها: ما اختص به ﷺ كالشفاعة العظمى، ودخول الجنة، والشفاعة في غير مسلم وهو عمه أبو طالب للتخفيف عنه ومنها ما يشاركه فيها غيره من الأنبياء والصلحاء[1].

٢- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي: مرتهنة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما خلَّصها، وإما أوبقها، والرهينة اسم بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم، وليست صفة. والمعنى: كل نفس رهنٌ بكسبها عند الله غير مفكوك، ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، بل يفكون بما أحسنوا من أعمالهم.

واختلف في تعيينهم إلى أقوال؛ منها: أنهم الملائكة، أو المسلمون المخلصون، أو أولاد المسلمين وأطفالهم، أو أصحاب الحق[2].

٣- ورد في أسباب تعذيب أهل النار أنهم تركوا الصلاة والصدقة، وقال العلماء: يجب أن يُحمل هذان الأمران على الصلاة والصدقة الواجبتين، لأنه لا تعذيب على غير الواجب، وإلا لم يجُز العذاب على تركهما. ويستدل بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، كما يعذبون بأصولها، كالتكذيب بيوم القيامة، وإنما أخَّر لأنه أعظم الذنوب، أي إنهم بعد ذلك كله يكذبون بهذا الأصل[3].

٤- في تعليق التذكرة بمشيئة الله تعالى بيان أن للناس مشيئة هي مناط التكاليف الشرعية والجزاء في الدنيا والآخرة، وهي المعبر عنها بالكسب، وله تعالى المشيئة العظمى، وهي التي لا يمانعها مانع، ولا يقسرها قاسر، فإذا لم يتوجه تعلقها إلى إرادة أحد عباده لم يحصل له مراد وهي المعبر عنها بالتوفيق. وحاصل ما يتمخض من الجمع بين أدلة الشريعة المقتضية أن الأمر

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي: ٨/ ٦٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٨٦، وأضواء البيان، الشنقيطي: ٨/ ٦٢٧.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣٣٤، وفتح البيان، صديق حسن خان: ١٠/ ١٤٣، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٩/ ٢٤٦.

لله، والأدلة التي اقتضت المؤاخذة على الضلال، وتأويلها الأكبر في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩]، ولله في خلقه سرٌّ جعل بينهم وبين كنهه حجاباً، ورمز إليه بالوعد والوعيد ثواباً وعقاباً[١].

٥ـ قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي: هو أهل أن يتقيه المؤمنون، بترك معاصيه والعمل بطاعته، ﴿ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ أي: أن المغفرة من خصائصه، وأنه الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب لفرط رحمته، وسعة كرمه وإحسانه. والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم. عن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ قال: (قال الله عزَّ وجلَّ أنا أهل أن أُتقى، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له)[٢]. وقال قتادة: هو أهل لأن تتقى محارمه، وأن يغفر الذنوب[٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣٣٣.

(٢) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وسهيل ليس بالقوي في الحديث، وقد تفرد بهذا الحديث عن ثابت. سنن الترمذي: متاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المدثر، رقم الحديث: ٣٢٥١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩/ ٨٦، وتفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٩/ ٣٣٤، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٥/ ٢٠٢، وفتح البيان، صديق حسن خان: ١٠/ ١٤٣.

سورة القيامة

أولا: بين يدي السورة

السورةُ الكريمةُ دعوةٌ إلى التفكر والاعتبار في مشاهد يوم القيامة، ذلك اليوم العظيم الذي بدت أشراطُه، وتجلَّت علاماتُه، ومع ذلك فهو محلُّ إنكارِ الجاحدين واستبعاد المبطلين ومثارُ سخرية الهازئين ممن عميت قلوبُهم وزاغت أبصارُهم وغابت عقولُهم، فآياتُهُ ظاهرةٌ، وحجَجُهُ متواترةٌ، وشواهدُهُ ناطقةٌ، وأخبارُهُ صادقةٌ، ولكن كما قيل:

لقد ظهرتَ فما تخفَى على أحَدٍ إلا على أكْمَهٍ لا يعرِفُ القمرَ

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة بسورة القيامة، ومناسبة ذلك لموضوعِها واضحةٌ وظاهرةٌ ولقد وردت كلمة القيامة في القرآن الكريم سبعين مرة في سبعين موضعا، فضلا عن ورودها بأسمائها الأخرى: مثل الساعة، ويوم الدين، ويوم الفصل، ويوم الحساب، ويوم التناد، ويوم التلاق، ويوم الوعيد، ويوم الجمع، ويوم التغابن، وغير ذلك من أسمائها، التي تكررت كثيرا في القرآن وما ذاك إلا للتذكرة بها، والاستعداد لها، وتعظيمِها.

ب. فضائل السورة.

هذه السورة من المفصَّل، وهو الذي فُضِّلَ به نبيُّنا ﷺ، وقد سبق ذكرنا للحديث الوارد في ذلك عند تفسير سورة الأنعام وسبأ وفاطر.

ج. مكية السورة.

السورة مكية، نزلت بمكة، للتذكرة بأحوال الآخرة، القيامة وأهوالها ومشاهدها والموت وسكراته.(١)

---

(١) يراجع الدر المنثور لجلال الدين السيوطي ٨ / ٣٤٢ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩ / ٨٣، والمحرر الوجيز لابن عطية ١٦/ ١٧٠.

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها أربعون آية (٤٠) في عدِّ الجميع، بلا خلافٍ في شيء منها.[(١)]

هـ. محور السورة.

المحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة كما هو واضحٌ من اسمها: هو الحديث عن القيامة، وما يقترن بها من أهوالٍ، وحال الإنسان في هذا اليوم العصيب، مقارنةً بما كان عليه في الدنيا من غفلةٍ واستبعادٍ لهذا اليومِ، مع الدعوة إلى الاستعداد لها.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

مناسبة ظاهرة حيث تدور السورة كما هو واضحٌ من عنوانها: حول القيامة وأهوالها ومصير الناس في هذا اليوم الموعود.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

- في مطلع السورة الكريمة تقريرٌ وتأكيدٌ لحقيقة هذا اليوم المرتقب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦ ﴾ القيامة: ١ – ٦
- ثم في أخر السورة بيانٌ للحكمة في مجيء القيامة مع تقريرها بالأدلة الظاهرة.

قال الإمام السيوطي: «بُدئت بذكر الإعادة وإحياء الموتى، وختمت بذلك»[(٢)].

---

(١) يراجع في ذلك: «**أقوى العُدَد في معرفة العَدد**» للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ وهو ضمن كتابه **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ٢٢٣، وكتاب **البيان في عدِّ آي القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ ص ٢٥٩.

(٢) يراجع مراصد **المطالع في تناسب المقاطع والمطالع** لجلال الدين السيوطي ص ٧٦.

المناسبة بين السورة وسابقتها.

الصلة بين سورة القيامة وسورة المدثر صلةٌ واضحةٌ، تتجلى في وجوه عديدة، منها: الحديث عن القيامة وأهوالها وأحوال الناس في هذا اليوم العظيم ومصيرهم المرتقب.

ولما كان هذا اليوم محل إنكار الكفار ومثار استخفافهم، جاءت الآيات مقررةً له، ومبينةً مشاهده وأهوالَه، ومبينة وقعَهُ على من استبعده.

قال تعالى في سورة المدثر ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠].

وقال تعالى في سورة القيامة ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ [القيامة: ٣-١٢].

قال السيوطي: « لما قال سبحانه في آخر المدثر ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾ بعد ذكر الجنة والنار، وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث، ذكر في هذه السورة الدليل على البعث ووصف يوم القيامة، وأهواله، وأحواله، ثم ذكر ما قبل ذلك من مبدأ الخلق، فذكرت الأحوال في هذه السورة على عكس ما هي في الواقع»[(١)].

المناسبة بين مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها.

تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محور السورة ومقصدها، حيث تدور حول القيامة، وموقف الكفار منها، وتُطِلُّ بنا السورة الكريمة على بعض مشاهدها الرهيبة وأهوالها العظام ومواقفها العصيبة، وفي لفتةٍ بديعةٍ ينتقل السياق للحديث عن الوحي، فهو طريق النجاة من أهوال هذا الموقف وسبيل الفوز في هذا اليوم العظيم، بينما تَنْعَى الآياتُ حال أولئك المتعجِّلين

---

(١) يراجع **تناسق الدرر في تناسب السور** للإمام جلال الدين السيوطي ص ٩٠

اللاهثين وراء اللذات الفانية والسعادة المنقضية والمصالح العاجلة: تبرز لنا حال المؤمنين المنعَّمين، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض:

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحدٍ وتدورُ في فلك واحد، وهو الحديث عن أهوال القيامة وأحوال الناس فيها، ولسوف يتجلَّى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلى في وجوه عديدة منها:

* حديثهما عن القيامة وأهوالها وأحوال الناس فيها.
* في السورتين عرضٌ وبيانٌ لصورة ذلك الكافر المغرور، الذي يجحدُ نعم خالقه، فلا تزيده إلا كبرا وغرورا، وعِنادا وإعراضا عن طريق النجاة:

قال تعالى في سورة المدثر: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر: ١١ - ٣٠].

وقال تعالى في نفس السورة ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٧].

وقال تعالى في سورة القيامة: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾ [القيامة: ٣ - ٦].

وقال تعالى في نفس السورة ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٥].

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

مناسبة ظاهرة حيث تدور السورة كما هو واضحٌ من عنوانها: حول القيامة وأهوالها ومصير الناس في هذا اليوم الموعود وسكرات الموت وشدائده.

ثانيا: في رحاب السورة الكريمة

مقدمة السورة

أهوال القيامة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾.

يقول الله تعالى ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾: فالقيامة حقيقةٌ كُبْرى، ونتيجةٌ حتميَّةٌ، لا تحتاجُ إلى قَسَم، والله تعالى هو الملكُ الحقُّ، ليس في حاجةٍ إلى أن يقسم، وإنما يأتي القسم للتنبيه إلى أهمية المقسم عليه، ومن باب استيفاء جميع أساليب وفنون الاحتجاج؛ لئلا يكون للمنكرين حجةٌ، ولا يبقى لهم عذرٌ.

وهذا من سمات الأسلوب القرآني: حيث التفنن في الأساليب والتنوع في العرض والتصريف في الوعيدِ، فتارة يقسم حتى لا تبقى لمنكرٍ حجة ولا عذرٍ، وتارة يترك القسم؛ ذلك أن الأمرَ أعظمُ

من أن يحتاجَ للإقسام؛ إذ القيامةُ مسألةٌ يقنيةٌ وضرورةٌ حتميةٌ، وذلك التفنن في العبارات والتنوع في الأساليب؛ لترسيخ المعاني وتقرير الحجج وتجديد المواعظ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه:١١٣].

قال صاحب الظلال: «هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقعُ في الحس من القسم المباشر وهذا الوقع هو المقصود من العبارة، وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص، الذي يتكرر في مواضع مختلفة من القرآن.. ثم تبرز من ورائه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة»[1].

﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾

في هذا تنويهٌ لشرفِها وتعظيمٌ لقدرها، عن الحسن البصري رحمه الله قال: إن المؤمن -والله- ما نراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قُدُما ما يعاتب نفسه»[2].

والصلة بين القسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة أن هذه النفس تستحضرُ دائما هذا اليوم العظيم فيظهر أثر ذلك في شدة المراقبة ودقة المحاسبة.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾

إنكارٌ وتوبيخٌ للإنسان الكافر الذي يُنْكِرُ البعث والنشور، ويرتابُ في قدرةِ اللطيف الخبير، كما أخبر الله عنهم في مواضع كثيرة منها قوله تعالى ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٨].

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٢٧٥.

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٣].

﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾

فالذي خلقه من عدم قادرٌ على أن يعيده بأدقِّ تفاصيلِه وأخصِّ صفاتِه التي وهبها له، قال الإمام أبو السعود: « أيْ نجمعُ سُلامَياتِه ونضمُّ بعضَها إلى بعض كما كانتْ مع صغرِها ولطافتِها فكيفَ بكبارِ العظام أو على أنْ نسويَ أصابعَه التي هيَ أطرافُه وآخرُ مَا يتمُّ بهِ خلقُه»[١].

والبنانُ ألطفُ وأدقُّ عظامِ الإنسان، وبصمة الأصابع لا يتشابه فيها اثنان على وجه الأرض.

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾

إنه الدافع الأساسي وراء هذا الإنكار: تشبُّثُ هذا الإنسان بحياته الفانية وتعلُّقه بحطامها وتقلُّبُهُ في نعيمها، فهي بالنسبةِ له كالحُلُم الذي يلتذُّ به الوهان، ولا يريدُ أن يفيق منه، كذلك الكافر لا يريد أن ينتبه لتلك الحقيقةِ الكبرى، بل يسارع بجهلِهِ وظلمِهِ وعَجَلَتِهِ وغشاوته إلى تكذيبها واستبعادها.

يقول صاحب الظلال: «والسؤال بأيّان هذا اللفظ المديد الجرس يوحي باستبعاده لهذا اليوم.. وذلك تمشّياً مع رغبته في أن يفْجُرَ ويمضي في فجوره، لا يصدّه شبح البعث وشبح الآخرة.. والآخرة لجام للنفس الراغبة في الشر، ومصدٌّ للقلب المحب للفجور. فهو يحاول إزالة هذا المصد، وإزاحة هذا اللجام، لينطلق في الشر والفجور بلا حساب ليوم الحساب.

ومن ثم كان الجواب على التهكم بيوم القيامة واستبعاد موعدها، سريعاً خاطفاً حاسماً

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٦ / ٤١٤.

ليس فيه تريث ولا إبطاء حتى في إيقاع النظم، وجرس الألفاظ»[١].

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ ﴾

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ ﴾: من هول ما يرى، فيتحير ويضطرب ويزيغ ويُحدِّقُ فزعا،﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ ﴾: ذهب نوره، ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ ﴾ في منظرٍ رهيب، تصحبُه صدمةٌ عنيفةٌ مدويَّةٌ، هنالك يصحو الإنسانُ على هذا الواقعِ المفاجئ، ويدرك فداحة هذا الخطر المحدق، فيتساءل بحسرةٍ وألمٍ وخوفٍ وهلعٍ: أين المفر؟

وهيهات هيهات ! لقد انطوت الصفحات.

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ ﴾: لا مفرَّ ولا منجَى، ولا حيلةَ ولا مراوغة، ولا تفلُّت ولا تنصُّل من هذا المصير المشئوم الذي ينتظر الكافر.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ ﴾ فكلُّ الطرق مؤديةٌ إلى الحساب، بل إنه طريقٌ واحدٌ إجباريٌ يسلكُهُ الإنسانُ لملاقاةِ الملك الديَّان، فإلى الله المرجع والمآب.

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ ﴾ حينئذٍ وفي هذا الموقف العصيب يسألُ هذا الكافر عن القليل والكثيرِ، وما قدَّم وما أخَّر، يسألُ عن كلِّ شيءٍ، ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ ﴾، وهو في هذا اليوم مُقرٌّ بخطئه معترفٌ بذنبه، لا يقبلُ له عذرٌ ولا ينفعه ندمٌ، لأنَّه مسئول عن نفسه محاسبٌ عليها، هو الذي أرداها، وأوردها المهالك.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧ ﴾ [الروم: ٥٧].

وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢ ﴾ [غافر: ٥٢].

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٦٩.

الفوائد المستنبطة

* تفنن الأساليب القرآنية؛ فتارةً يأتي القَسَمُ لإكمال الحجج وإتمام البراهين، وتارة يترك القسم لبيان أن الأمر ظاهرٌ جليٌّ، فكيف يحتاجُ للإقسام.
* ما من إنسان إلا ويلوم نفسه على إفراطها أو على تفريطها: أما المؤمن فإنه دائما يلوم نفسه على إفراطه أو تفريطه، وأما الكافر والمنافق فإنه يقرع سن الندم على ما فات، والمؤمن يشعر بالتقصير فيما قدم.
* ضرورة استذكار اليوم الآخر، واستحضاره ليكون العبد على أهبة الاستعداد لهذا اليوم، وَقد كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَجْمَعُ الْفُقَهَاءَ فَيَتَذَاكَرُونَ الْمَوْتَ وَالْقِيَامَةَ فَيَبْكُونَ حَتَّى كَأَنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ جِنَازَةً.

وقد قيل:

مـثّـل لـقـلـبـكَ أيُّـهـا المـغـرورُ　　　يـوم الـقـيـامـةِ والـسـماءُ تمـورُ
قد كـوِّرتْ شمسُ النَّهارِ وأُدنيتْ　　　حتى عـلى رأسِ الـعـبـادِ تصيرُ
وإذا الجـبـالُ تقلَّعتْ بـأُصُـولِهـا　　　فرأيتَها مـثـلَ الـسَّـحـابِ تسيرُ
وإذا العشارُ تعطَّلتْ عن أهلِها　　　خَـلَـتِ الـديـارُ فـما بهـا مـغـرورُ
وإذا النجومُ تساقطتْ وتناثرتْ　　　وتـبـدلـتْ بعد الـضـيـاءِ كُـدُورُ
وإذا الجـنـينُ بـأمِّـهِ متعلقٌ　　　يـومَ الحـسـابِ وقـلـبـهُ مـذعـورُ
هـذا بلا ذنـبٍ يخـافُ لهولِـهِ　　　كيـف المقيمُ على الذنـوبِ دهـورُ[1]

* من دوافع إنكار الكفار للبعث والنشور انغماسهم في الشهوات وتمرُّغهم في أوحال الرذائل، فتراهم يبادرون إلى نسيان هذا اليوم بل وإنكاره؛ حتى لا يؤرق عليهم حياتهم الفانية قال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ

(١) الأبيات لأبي العتاهية.

ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾.

فعقلُه في سكرةٍ لا يريد أن يستفيقَ، وقلبُهُ في بحارِ الشهوات والأهواء غريقٌ:

فيا أيُّها القلبُ الذي مَلَكَ الهوى		أَعنَّتَهُ حتَّامَ هذا التَّلَوُّمُ
وحتَّام لا تصحو وقد قَرُبَ المَدَى		ودقَّت كُؤوس السَّيرِ والناسُ نُوَّمُ
بلى سوف تصحو حين ينكشفُ الغَطَا		ويبدو لك الأمرُ الذي كُنت تكتُمُ

طريق النجاة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

المناسبة

* هذا التفات من الحديث عن القيامة وأهوالها إلى الحديث عن القرآن وحفظه؛ فهو سبيل النجاة وطريق الفلاح.

* لما جاء الحديث عن كتاب الأعمال، ناسب ذلك الحديث عن القرآن وهو أشرف الكتب وأجلُّها، وكثيرا ما يرد في السياق القرآني بعد ورود ذكر كتاب الأعمال: كما ذكر ذلك الإمام السيوطي فقال: « ومنها: أن عادة القرآن إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا التي تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً»[(١)].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الإسراء: ٧١]، ثم قال تعالى﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ

(١) **الإتقان في علوم القرآن للسيوطي** النوع الثاني والستون - في مناسبة الآيات والسور ١ / ٣٦٠.

فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال تعالى ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم قال تعالى﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف: ٥٤].

* لما بيَّن تعالَى قدرتَه على جمعِ العظام وهي آيةٌ عجيبةٌ، ثم ذكر ما يحدُثُ للشمس والقمر من جمعٍ عجيبٍ رهيبٍ، ناسبَ ذلك بيانَ قدرته تعالى على جمع القرآن في قلبِ نبيه الحبيب ﷺ ووعَد تعالَى بحفظه وبيانه.

* لما ذمَّ الله تعالى عجلةَ الإنسانِ بين أن التأني مطلوب ومرغوب حتى في تلقي النبي ﷺ للوحي فلا يتعجَّل حفظه فقد تكفَّل الله له بتثبيته على فؤاده.

* و يحتمل أن يكون الاستعجال المنهي عنه، إنما اتفق للرسول ﷺ عند إنزال هذه الآيات عليه فلا جرم نهى عن ذلك الاستعجال في هذا الوقت، وقيل له: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ ﴾ وهذا كما أن المدرس إذا كان يلقي على تلميذه شيئاً، فأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالاً فيقول المدرس في أثناء ذلك الدرس: لا تلتفت يميناً وشمالاً، ثم يعود إلى الدرس، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في أثنائه، فمن لم يعرف السبب يقول: إن وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدرس غير مناسب، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب»[(١)].

* وقال صاحب فتح البيان: « والصلة بين هذه الآية وما قبلها، أن ما سبقها تضمَّن الأعراضَ عن آيات الله، وهذه تضمنت المبادرة إليها بحفظها»[(٢)].

---

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ٣٠/ ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان ١٠ / ١٥٤.

سبب النزول

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ ﴾: قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ كَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ فَكَانَ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾، إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ فَتَقْرَؤُهُ،﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾: قَالَ أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ لَهُ،﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾: أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ، فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ أَطْرَقَ فَإِذَا ذَهَبَ قَرَأَهُ كَمَا وَعَدَهُ اللَّهُ»[1].

التفسير الاجمالي

لقد تكفَّل الله تعالى بحفظ كتابه الكريم، كما تكفَّل ببيانه، ولقد كان النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي، يرددُ ما يسمعُ ويجهدُ نفسه في حفظه حتى لا يتفلَّتَ منه شيءٌ، فأرشدهُ الله تعالى إلى ترك ذلك﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾، ونظيرُ هذا قوله تعالى ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤] فلقد تعهَّد الله تعالى بجمعه وقراءته كما تعهَّد ببيانه فهو الرسالةُ الخالدة والمعجزة الكبرى، وهو النور المبين والذكر الحكيم، وهو العصمة والنجاة.

الهدايات المستنبطة

* القرآن طريق النجاة والفوز.
* حرص النبي ﷺ على تحمُّل القرآن الكريم.
* رحمة الله تعالى بنبيه ﷺ.
* تكفُّل الله تعالى بحفظ كتابه وبيانه لعباده.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه - كتاب التفسير باب ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ حديث ٤٦٤٥، ورواه مسلم في صحيحه - كتاب الصلاة - باب الاستماع للقراءة، حديث (١٤٧) - ٤٤٨.

عودٌ إلى مشاهد القيامة

﴿ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴿٢٥﴾ ﴾.

المناسبة

أبعد هذا البيان لا تزالُ محبة العاجلة في قلوبكم، والآخرة وراء ظهوركم، هل يسمعُ حديثَ القرآنِ عاقلٌ ويظلُّ قلبُه في إقبالٍ على الدنيا وإعراضٍ عن الآخرة !

التفسير الإجمالي

حبُّ الدنيا والتعلُّقُ بها رأسُ كلِّ خطيئةٍ ومنبع كلِّ إثم، وكثيرٌ من الناس يقدمون المصالح الفانيةَ العاجلةَ على المصالحِ الباقيةِ الآجلةِ، وما هذا إلا منَ السَّفه والحماقةِ وقِصَرِ النَّظر وطول الأمل في الدنيا، فهل تفكرَ الإنسان في حاله يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ، هل تفكر في مصيره، وسعى إلى أن يكون في زمرةِ أصحاب الوجوه الناضرة التي تنعم برضا ربها وتحظَى برؤيته وتتقلبُ في نعيمه ؟

هل استعاذ بربه من حالِ أصحاب الوجوه الباسرة والقلوب الواجفة التي تتوقع المكروه في كلِّ لحظةٍ، شأن من ينتظرُ حكم الإعدام، فيموت كلما سمع وقعَ الأقدام أو صوت الجلاد.

قال تعالى ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤٢]، ونظير هذا قوله تعالى﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧].

قال صاحب روح البيان: « ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ النضرة طراوة البشرة وجمالها وذلك من أثر التنعم والناضر الغض الناعم من كل شيء، وهى وجوه المؤمنين المخلصين يوم القيامة

بهية متهللة يشاهد عليها نضرة النعيم ورونقه»[١].

أما الكفرة الفجرة فوجوههم عابسةٌ واجمةٌ، كالحةٌ كاسفةٌ مظلمةٌ، قد ظهر عليها أثرُ الذنوبِ وسوَّدتها الخطايا ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾، تتوقعُ المكروهَ في كل لحظةٍ، وتنتظرُ في استسلامٍ وخنوعٍ مصيرها المشئوم وقدرَها المحتوم ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي داهيةٌ عظيمةٌ تقصمُ فقَارَ الظهرِ.

الهدايات المستنبطة

* النهي عن العجلة في الأمور، والتحذير من تغليب المصالح العاجلة.
* جاءت كلمة العاجلة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع وكلُّها في معرض ذمِّ الدنيا وحقارتها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾[الإسراء: ١٨].

وقال سبحانه﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾[القيامة: ٢٠ - ٢١].

وقال جلَّ وعلا﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الإنسان: ٢٧].

* ابتهاجُ المؤمنين وأنسُهم بالنظرِ إلى وجه الله الكريم، فيفيضُ البشرُ في وجوههم، ويزدادون حسنا ونضارة، ونورًا وبهاءً:

يزيـــدُكَ وجهُـــهُ حسْنـــاً إذا مـــا زدتَـــهُ نَظَـــرًا

والمفسرون: يقولون مضيئة مسفرة مشرقة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ هذا من النظر، أي: إلى خالقها ومالك أمرها ناظرة، أي: تنظر إليه، هكذا قال جمهور أهل العلم، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة، كما ينظرون إلى القمر ليلة

(١) روح البيان تفسير حقي ١٦ / ٣٠٣.

البدر، قال ابن كثير: وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام».

« إن روح الإنسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس تراها في الليلة القمراء. أو الليل الساجي. أو الفجر الوليد. أو الظل المديد. أو البحر العباب. أو الصحراء المنسابة. أو الروض البهيج. أو الطلعة البهية. أو القلب النبيل. أو الإيمان الواثق. أو الصبر الجميل.. إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود.. فتغمرها النشوة وتفيض بالسعادة، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة. وتتوارى عنها أشواك الحياة، وما فيها من ألم وقبح، وثقلة طين وعرامة لحم ودم، وصراع شهوات وأهواء.. ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.. وما لها لا تتنضر وهي إلى جمال ربها تنظر؟

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض. من طلعة بهية، أو زهرة ندية، أو جناح رفاف، أو روح نبيل، أو فعل جميل. فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه، فيبدو فيها الوضاءة والنضارة. فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال. مطلقاً من كل ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام، إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذي يعز على الخيال! كل شائبة لا فيما حولها فقط، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ما سوى النظر إلى الله فكيف ؟ كيف بها وهي تنظر لا إلى جمال صنع الله ولكن إلى جمال ذات الله؟...»[(١)].

* من لطف الله تعالى وستره في الدنيا أن الذنوب لا لون لها ولا رائحة؛ فلو كانت لها رائحة لأنتنت الأباطح والهضابَ، ولو كان لها لون لاسودت وجوه المذنبين:

وفي ذلك يقول أبو العتاهية:

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٧١.

أَحْـسَـنَ اللهُ بِـنـا أَن نَ الخَـطـايـا لا تَـفـوحُ
فَـإِذا المَـسـتـورُ مِـنّـا بَـيـنَ ثَـوبَـيـهِ فُـضـوحُ

ساعةُ الموت

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٤٠]

المناسبة

انتقالٌ من القيامةِ الكبرى إلى القيامةِ الصغرى وهي الموت، والموت قدرٌ محتومٌ وكأسٌ كلُّ مشروبٌ، وانتقالٌ من دارٍ إلى دار.

المـوتُ كـأسٌ وكـلُّ الـنـاس شاربُه يا ليت شعري بعد المـوتِ ما الـدارُ
الـدارُ دارُ نعيمٍ لا انـقـضـاءَ لها لمـن أطـاع ولـلـمـذنـبِ الـنـارُ
هُـمـا محِـلان مـا لـلـمـرء غـيرُهُـما فـاختـرْ لنفسِكَ أيَّ الـدارِ تختارُ

التفسير الإجمالي

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ ﴾ انتقالٌ من مشاهدِ القيامةِ وخطوبها العظام إلى حال المحتضر حيث حشرجةُ الروح في الصدور، وقد بلغت التراقي، وهي جمع ترقوة: عظم بين ثغرة النحر والعاتق، وبلوغ النفسِ التراقِيَ دلالةٌ تؤشِّرُ إلى الإشرافِ على الموتِ.

﴿ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ من يداوي هذا المريضَ ؟ فيلتمسوا له الأطباء، وقيل التساؤل عمّن

يرقَى بروحه أملائكةُ الرحمةِ أم ملائكةُ العذاب ؟ والمعنى الأول هو المختارُ.

كما قال تعالى ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾[ق: ١٩].

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾: أيقن حين بلغتْ روحُهُ التَّراقِيَ أنه الفراقُ من الدنيا ومن الأهل والمال والولد.

﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾: كنايةٌ عن اشتداد الخطب وهول الموقف، أو التفت ساقُه عند الاحتضار، أو في الكفن.

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾: مرجع العباد إلى ربهم، ومصيرهم إليه، وحسابهم لديه.

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾

لم يصدِّق بالرسول ﷺ ولم يُصلِّ، ولكن كذب ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ كذب بالقرآن والنبي، وتولَّى عن معرفةِ الحقِّ، ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ ﴾ يتبخترُ في مشيته، كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[المطففين: ٣١]، فلا يبالي بآخرته ولا ينظر في عاقبته.

﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾: وعيدٌ وتهديدٌ، لذلك الكافرِ المكابرِ، بأن يليه ما يكرهه، وقيل معناه أنك أجدر بهذا العذاب. وأحق وأولى به. يقال ذلك لمن يصيبه مكروه يستوجبه.

عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: «﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾، وَعِيدٌ عَلَى أَثَرِ وَعِيدٍ كَمَا تَسْمَعُونَ، وَزَعَمُوا أَنَّ عَدوَ اللهِ أَبَا جَهْلٍ، أَخَذَهُ نَبِيُّ اللهِ بِمَجَامِعِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾، فَقَالَ عَدوُ اللهِ أَبُو جَهْلٍ: أَتُوعِدُنِي يَا مُحَمَّدُ؟ وَاللهِ لا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلا رَبُّكَ، وَإِنِّي لأَعَزُّ مَنْ مَشِي بَيْنَ جَبَلَيهَا». فلما كان يوم بدر قُتِلَ أشدَّ قِتلة»[1].

(١) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٣٣٨، ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٢٧٩.

الهدايات المستنبطة

* تذكُّرُ الموتِ وشدتِه، فهو موعظةٌ بليغةٌ، وحقيقة لا خلاف عليها، والعاقل من تزوَّد من دنياه لأخراه: قال أبو العتاهية

أَصبَحتِ يا دارَ الأذى وَصَفاكِ مُمتَلِئٌ قَذى

أَينَ الَّذينَ عَهِدتُهُم قَطَعوا الحَياةَ تَلَذُّذا

دَرَجوا غَداةَ رَماهُمُ رَيبُ الزَمانِ فَأَنفَذا

سَنَصيرُ أَيضاً مِثلَهُم عَمّا قَليلٍ هَكَذا

يا هؤلاءِ تَفَكَّروا لِلمَوتِ يَغدو مَن غَذا

* التحذير من الغفلةِ والاغترار.

* التحذير من العُجب والكبر والخُيَلاء، ومن مِشيةِ المُطيطاء، التي تدلُّ على عدم الاكتراثِ كما في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطاءَ، وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، سُلِّطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ»(١).

* حال الكافر عند الاحتضار وقد خرج من الدنيا مثقَلا بالذنوب والآثام، محروما من الحسنات، فهو بين حُزن وحُرقة على ما فاته، وخوفٍ وجزَعٍ على ما ينتظره.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٢٦) رقم (٢٢٦١) وقال: هذا حديث غريب.

ختام السورة

وتقرير البعث

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة: ٢٦ – ٤٠].

المناسبة

بعد بيان حال الكافر الذي أعجبته نفسُه وغرَّهُ مالُه، فلم يعمل صالحا بل سوَّد صحائفه بالكفر والعصيان، بين تعالى أن الإنسان لم يخلق عبثا ولن يترك سدى، بل خلق لغاية وأجِّل لوقت معلوم.

التفسير الإجمالي

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾: هذا المغرورُ بنعم الله المفتون بزخارف الدنيا الفانية وزينتها أيظنُّ أنَّ الدنيا هي المحطَّةُ الأولى والأخيرةُ، لا دار بعدها ! فلا بعثٌ ولا حسابٌ !

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾: هل نسي أصله وجحد قدرةَ خالقه وبارئه ! ألم يكن نطفة من ماء مهين، ثم علقة، ثم سواه الله بشرا ؟ أليس القادر على خلقه بقادر على إعادته ؟﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

بلى يا ربِّ سبحانك أنت القادر وأنت القوي القاهر وأنت أحكم الحاكمين.

الهدايات المستنبطة

* البعث حقيقةٌ غيبيةٌ ونتيجةٌ حتميَّةٌ، ليجازى كلُّ إنسان بما عمل، وينصر الله رسله وسائر المؤمنين، ويُنصِفَ المظلومين، ويقتصَّ من الطغاةِ، فالقيامة نعمةٌ إلهيةٌ، ورحمةٌ ربانيةٌ، وحكمةٌ بالغةٌ، فالله تعالى لم يخلق الخلق عبثا ولن يتركهم سُدى، فهو تعالى الحكيمُ العليم، الملِكُ الحقُّ المبينُ.

* البعث من تمام عناية الله بالإنسان، ومن ألطافه به، فكما أن من لطفه تعالى رعاية الإنسان منذ أن كان نطفة في بطن الأم حتى صار علقة، فمن عنايته تعالى ومن تمام رحمته أن جعل دار البقاء لتجزى كلُّ نفس بما عملت.

* على من ابتلي بمصيبةِ الكبر وأصيب بداءِ العُجْبِ أن يتفكَّر في أصله وفي حاله، حين كان نطفةً في رحم أمه، وحين خرج من بطن أمه صفر اليدين لا يعلم شيئا، ثم حين حشرجة الصدور وزيارة القبور.

وقد قيل:

عجبتُ من مُعْجَبٍ بصُورته ... وكان بالأمسِ نطفةٌ مَذِرَه

وفي غدٍ بعدَ حُسْنِ طلعَتهِ ... يصيرُ في اللحدِ جيفةً قَذِرَه

وهْوَ على تيهِهِ ونخوَتِهِ ... ما بين جنبيهِ يحملُ العَذَرَه

سورة الإنسان

أولاً: بين يدي السورة

مع حاجةِ الإنسان الضروريةِ إلى معرفة أصلِه ونشأتِه، والتفكرِ في أطوارِ حياتِه، إلا أن إعجابَه بنفسِه واستغراقَه في إرواءِ شهواتِهِ وتحقيقِ مطامِحِهِ، واتباعِه هواه، قد شَغَلَه عن معرفة أصلِه، وَصَرَفَه عن إدراك غاية وجوده.

ولا يزالُ الإنسانُ عاجزاً عن إدراكِ ذاتِه، والوقوفِ على تلك الأسرارِ العظيمةِ المطويَّةِ بين جوانِحِهِ، ومهما تقدَّم العلمُ وتطوَّرت وسائل البحث والفحصِ: فإنها لا تزيدُ الإنسانَ إلا تعطُّشا للمعرفةِ وإحساسا بالجهلِ والقصورِ.

ولسان حاله يقول كلما غاص في بحورِ العلم:

كـلَّـما ازددتُ عـلـومـاً زِدْتُ إيـقـانـاً بـجـهـلي

فالنفس الإنسانية تحتاج إلى تفكُّر عميق وتبصُّر دقيق في وجودها المادي والروحي وغاية هذا الوجود، قال تعالى ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٠ – ٢١]، فالنفسُ الإنسانيةُ عالمٌ رحيبٌ، وبحرٌ عميقٌ:

وقد قال الإمام علي:

دَوَاؤكَ فـيـكَ ومـا تَـشْـعُـرُ وداؤكَ مـنـكَ ومـا تـبـصرُ
وَتَحْـسِـبُ أَنَّـك جِـرْمٌ صَـغِـيرٌ وَفِـيـك انْـطَـوَى الْـعَـالَمُ الأَكْـبرُ

يقول ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل ومؤلف كتاب الإنسان ذلك المجهول: «لقد بذل الجنس البشري مجهودا جبارا لكي يعرف نفسه، وبالرغم من أننا نملك كنوزا زاخرة وتراثا هائلا من نتاج العلماء والفلاسفة والأدباء والمصلحين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا... إننا لا نفهم الإنسانَ ككلٍّ...»[1].

(١) **الإنسان ذلك المجهول** ألكسيس كاريل ص ١٦.

ويقول «برتراندراسل» أحد فلاسفة الغرب: « إنه على الرغم من كونه وصل إلى كثيرٍ مما كان يحلُمُ به ويسعى للوصول إليه إلا أنه لم يعد من سعيه وراء أمنيته الأولى وهي المعرفة إلا بأوكس الحظوظ.

بينما يصرح إينشتاين أن كلَّ ما جمعه من معلومات عن هذا الكون لم يقدِّم له عنه إلا لغزا مقفلا يستعصي على الحل»[1].

«فالنفسُ البشريةُ حصنٌ أُحكِمَتْ أقفالُهُ ولغزٌ معقَّدٌ أتْعَبَ العقولَ وحيَّر الفلاسفة والمفكرين منذ أقدم العصور، وما زالت أقفالُ الحصن عصيةً لا تلين، وطلاسمُ اللغز متأبِّيَةً لا تُحَلُّ، ولقد بُذِلَتْ في العصر الحديث جهودٌ كبيرة، واهتمت المدنيةُ الحديثة بعلم النفس اهتماما بالغا، وتجرَّد له علماء وأنشئت له معاهد، ووضعت نظريات، وألفت الكتب، حتى إذا ظن الناس أنهم وصلوا إلى معرفة النفس وفهم أسرارها وعقدها ومساربها ؛ تبين لهم أن هذه النظريات والآراء ما زالت محاولات في أول الطريق، لم تصل بعد إلى المعرفة الصحيحة بالنفس، ولا إلى درجة الحقائق العلمية الثابتة.

ومعرفة النفس البشرية ضرورة لازمة لأية دعوة تخاطب هذه النفس، ولأي منهج يهدف إلى تربيتها، ولأي تشريع أو نظام يريد أن يقومها، وأيُّ جهد في هذا السبيل بغير هذه المعرفة جهدٌ ضائعٌ ؛ لأنه بُنِيَ على جهلٍ وأُسِّسَ على ضلال... ومنهج القرآن في دعوة هذه النفس منهجُ العليم بأسرارها الخبير بما يفسدها أو يزكِّيها، المطَّلع على مواطن القوة والضعف فيها»[2].

لقد صار الإنسانُ بشرا سويّاً يفكر ويجادل، يقدِّر ويناضلُ، يبني ويهدم، يعمُرُ ويخرِّبُ، ويسبُرُ الأغوار، ويمتطي صهوة البحار، ويغوصُ في الأعماقِ، ويحلِّقُ في الأجواء، ويسبحُ في الفضاء، ويشقُّ الجبالَ، فهلَّا تذكر ماذا كان قبل أن يكون ؟ هل استشعر قدرَه حين كان نطفةً

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن د. محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٣٧.
(٢) منهج القرآن في التربية محمد شديد ٦٦-٦٧.

من ماء مهين، ثم انتقل بقدرة الله وتقديره من طورٍ إلى طورٍ حتى استوت خلقته واكتملت صورته ؟

بعيدا عن منهج الله: ضلَّت تصوراتُ الإنسانِ حول إنسانيتِهِ وغايةِ وجودِهِ، ومنهاج حياته ومصيره، ومضى بعيدا في متاهاتِ الحيرةِ ودروبِ الضلالِ، يبحثُ عن إجابةٍ لأسئلته الحائرة بين الفلسفاتِ الضالة والأديان الوضعية والمحرفة، ويعبِّر عن حاله البائسِ وعجزه التامِّ عن إدراك تلك الحقائق التي لو أبصر وتجرَّد للحقيقة وأقبل على كتابِ الله لوجد لها إجابةً شافيةً وافيةً في مواضع عديدةٍ من هذا الكتاب المنيرِ، تأمَّل على سبيل المثال في هذه السورة التي نحن بصدد دراستها سورة الإنسان تجدها وقد أجابت إجابةً شافيةً وافيةً، ضلَّ فيها وتحيَّر خلقٌ كثيرٌ ؛ لطالما انحرفوا عن منهجِ الله، وأعرضوا عن ذكره جلَّ في علاه.

أ. اسم السورة.

سميتْ هذه السورة الكريمة بسورة الإنسان، وذلك لحديثها عن الإنسان [(١)]، وتسمى سورة ﴿ هَلۡ أَتَىٰ ﴾، من تسمية الشيء بجزءٍ منه، كما سُمِّيَتْ بسورة الدهر، لورود كلمة الدهر فيها، وهو الزمان.

وتسميتها سورةَ الإنسان أو سورة ﴿ هَلۡ أَتَىٰ ﴾ له ما يدلُّ عليه في كتب السنة، وكذلك كتب التفسير بالمأثور، أما تسميتُها بسورة الدهر: فلم أجدْ ما يدلُّ على ذلك في كتب السنة أو كتب التفسير بالمأثور.

والتسمية الأولى توقيفية، أما الثانية فالذي يبدو لي أنها اجتهادية، وقد أوردها الشنقيطي في أضواء البيان [(٢)].

---

(١) يراجع: جامع البيان للطبري ٢٤ / ١٢٠، ومعالم التنزيل للبغوي ٨ / ٢٨٩، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٢ / ٣٥٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ١٩٣، ٨ / ٢٨٥، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ٢٧٠، ١٩ / ١١٨.

(٢) أضواء البيان للشنقيطي ٨/ ٦٧٧.

ب. فضائل السورة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ السَّجْدَةَ وَ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾[(١)].

ج. مكية السورة.

هذه السورة من السور التي اختلف فيها: هل هي مكية أم مدنية ؟

قال القرطبي: « مكية في قول ابن عباس ومقاتل والكلبي، وقال الجمهور: مدنية وقيل فيها مكية، من قوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣ ﴾ إلى آخر السورة وما تقدمه مدني»[(٢)]، وقال السيوطي في الدر المنثور: « مدنية وآياتها إحدى وثلاثون»[(٣)].

وقال الشوكاني:» قال الجمهور: هي مدنية وقال مقاتل والكلبي: هي مكية وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وقيل فيها مكي من قوله:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝٢٣ ﴾ إلى آخر السورة وما قبله مدني»[(٤)].

وقال الإمام الحافظ ابن كثير: « تفسير سورة الإنسان، وهي مكية»[(٥)].

قلت الواضح من سياق السورة وأسلوبها أنها مكية.

---

(١) رواه البخاري صحيحه: كِتَاب الْجُمُعَةِ بَاب مَا يُقْرَأُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حديث ٨٩١، وأخرجه مسلم في صحيحه كِتَاب الْجُمُعَةِ بَاب مَا يُقْرَأُ فِي يَوْمَ الْجُمُعَةِ حديث ٨٨٠، والنسائي في السنن كتاب الصلاة باب القراءة في الصبح يَوْم الْجُمُعَة ٢/ ١٥٩ وفي السنن الكبرى كتاب التفسير – سورة السجدة حديث ١١٣٩٣ وابن ماجه في السنن – كتاب إقامة الصلاة، بَاب القراءةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حديث ٨٢٣ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٤٣٠.

(٢) **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي ١٩ / ١٠٧.

(٣) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور** لجلال الدين السيوطي ٨/ ٣٦٥ .

(٤) **فتح القدير** للشوكاني ٥/ ٤٨٢ .

(٥) تفسير **القرآن العظيم** لابن كثير ٨/ ٢٨٥ .

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها إحدى وثلاثون آية (٣١) في عدِّ الجميع، بلا خلافٍ في شيء منها.[١].

هـ. محور السورة.

المحور الرئيسي الذي تدور حوله السورة: هو تعريف الإنسان بنفسه، حتى لا يتعالَى على غيره، ولا يغترَّ بما فضَّله به خالِقُهُ، ولا يغفل مكانتَه، ويستهين بدوره المنشود في هذا الوجود، فليتذكر أنه لم يكن شيئا مذكورا، وليتبصَّرْ غايةَ وجودِهِ، وليعلمْ أن الدنيا دار فناء وابتلاء، أما الآخرة فهي دار الجزاء والبقاء، وليسلكْ سبيلَ النجاة والفوز.

وقد قيل:

ترجو البقاءَ بدارٍ لا ثَباتَ لها ... فهل سمعتَ بظلٍّ غيرِ منتقلِ؟
قد رشحوك لأمرٍ لو فطنت له ... فاربأْ بنفسك أن ترعَى مع الهَمَلِ

« قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: قوله تعالى:﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان: ١] تعريف الإنسان بحاله وابتداء أمره ليعلم أن لا طريق له للكبر واعتقاد السيادة لنفسه، وأن لا يغلطه ما اكتنفه من الألطاف الربانية والاعتناء الإلهي والتكرمة فيعتقد أنه يستوجب ذلك ويستحقه»[٢].

وقال صاحب الظلال: « والسورة في مجموعها هُتَافٌ رخيٌّ نديٌّ إلى الطاعة، والالتجاء إلى الله، وابتغاء رضاه، وتذكر نعمته، والإحساس بفضله، واتقاء عذابه، واليقظة لابتلائه وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء...»[٣].

---

(١) يراجع في ذلك: «**أقوى العُدَد في معرفة العَدد**» للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ وهو ضمن كتابه **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ١٩٠، وكتاب **البيان في عدِّ آي القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ ص ٢٦٠.

(٢) **نظم الدرر** للبقاعي ٨/ ٢٦٠.

(٣) **في ظلال القرآن** ٦/ ٣٧٧٧.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

مناسبة ظاهرة حيث تدور السورة كما هو واضحٌ من عنوانها: حول نعم الله على الإنسان نعمة الخلق ونعمة الهداية ونعمة الجزاء، وتسميتها سورة (هَلۡ أَتَىٰ) باعتبار مُستَهَلِّها، أما تسميتها بسورة الدهر: فذلك لحديثها عن مراحل وأطوار حياة الإنسان، الذي مرَّ عليه حينٌ من الدهر ولم يكن شيئا مذكورا.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

في مطلع السورة الكريمةِ حديثٌ عن خلق الإنسان وهدايته، وفي خاتمة السورة تذكير بخلقه وهو نعمةٌ جليلةٌ وآيةٌ عظيمةٌ دالةٌ على كمال قدرته تعالى.

كما خُتمتِ السورةُ بما استَهلَّت به من حديثٍ عن خلقِ الإنسانِ ومصيره المحتوم.

يقول صاحب الظلال: « تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله في هذه النشأة على أساس الابتلاء، وتختم ببيان عاقبة الابتلاء، كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء. فتوحي بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير، لا ينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره، غير واع ولا مدرك، وهو مخلوق ليبتلى، وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء. وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعيم، أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء في سورة الواقعة من صور النعيم، وهو نعيم حسيٌّ في جملته، ومعه القبول والتكريم، وهو بتفصيله هذا وحسِّيَّته يوحي بمكيَّته، حيث كان القومُ قريبي عهد بالجاهلية، شديدي التعلق بمتاع الحواسِّ، يبهرهم هذا اللون ويعجبهم، ويثير تطلُّعَهم ورغبتَهم»[1].

---

(١) نفس المرجع ٦ / ٣٧٧٨

المناسبة بين السورة وسابقتها

* الصلة بين سورة القيامة، وسورة الإنسان: صلة واضحة جلية، ففيهما حديثٌ عن نشأة الإنسان ومصيره الذي ينتظره، ولقد ذكر «الإنسان» في سورة القيامة ستَّ مراتٍ، بينما ذُكِرَ في سورة الإنسان مرتين، فضلا عن تسمية السورة بهذا الاسم «سورة الإنسان».

قال تعالى في سورة القيامة ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾.

وقال تعالى في سورة الإنسان ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾.

* كذلك من وجوه المناسبة بين مقدمة سورة الإنسان وخاتمة سورة القيامة أنه بيَّن في خاتمة القيامة أن الإنسان لم يخلق عبثاً ولن يترك سدىً، ثم ذكَّر بمراحله وأطواره الأولى قبل أن يتمَّ خلقه حيث كان نطفة من منِي ثم علقة ثم خلقه الله وسوَّاه، وجاءت مقدمةُ سورة الإنسان مقررةً لهذا المعنى.

* ومن وجوه المناسبة أيضا إشارةُ السورتين إلى فتنة العاجلة والتي تعد من أسباب الصدود عن الحق، والعزوف عن سبيل النجاة، وفوات النعيم السرمدِيِّ.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ

مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيلُ ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سِلْكٍ واحد، وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث عن الإنسان، نشأته وهدايته ومصيره، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلَّى في وجوهٍ عديدةٍ منها:

* حديث السورتين عن خلق الإنسان وهدايته ومصيره.
* حديث السورتين عن نعمة إنزال القرآن فهو سبيل الهدى والرشاد وطريق النجاة والإسعاد.
* جاءت سورة الإنسان مفصِّلةً لما ورد في سورة القيامة من بيانٍ لنعيمِ أهل الجنة.

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورةُ حول الإنسان نشأته ومصيره بدأت السورة بما يتناسب مع محور السورة وعنوانها، قال تعالى﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾.

ثانياً: في رحاب السورة الكريمة

مقدمة السورة

خلقُ الإنسان وهدايتُه

نعمة الخلق والهداية

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ [الإنسان: ١ – ٣]

التفسير الإجمالي

أجابت مقدمةُ السورة عن كثيرٍ مما يدورُ في خَلَدِ الإنسانِ من تساؤلاتٍ تتعلق بوجوده وأصله وغايته، وطريقه.

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾: قيل المراد بالإنسان: آدم عليه السلام والحين الذي مرَّ عليه هي المدة التي بقي فيها إلى أن نفخ فيه الروح، والمعنى هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً يذكر، قال الشوكاني: « المعنى أنه كان جسداً مصوّراً تراباً وطيناً لا يذكر، ولا يعرف ولا يدرى ما اسمه، ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً»(١).

وقال الطبري: « أتى عليه وهو جسم مصوّر لم تنفخ فيه الروح أربعون عاما، فكان شيئا غير أنه لم يكن شيئا مذكورا، قالوا: ومعنى قوله ﴿ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ لم يكن شيئا له نباهة ولا رفعة، ولا شرف، إنما كان طينا لازباً وحمأً مسنونا»(٢).

وقال أبو حيان: « والحين الذي مرّ عليه، إما حين عدمه، وإما حين كونه نطفة. وانتقاله

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٣٤٤.

(٢) جامع البيان، للطبري ٢٤ / ٨٨ .

من رتبة إلى رتبة حتى حين إمكان خطابه، فإنه في تلك المدة لا ذكر له»[1].

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾: المراد بالإنسان: ذرية آدم ومعنى ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾: أخلاط، والمراد: نطفة الرجل ونطفة المرأة واختلاطهما، يقال: مَشَجَ هذا بهذا، فهو ممشوج، أي: خلط هذا بهذا فهو مخلوط، هذه الحقائق الإنسانية التي خفيت على علماء الأجنة الغربيين فلم يعرفوها إلا في عهدٍ قريبٍ بعد تقدم وسائل الفحص.

وبيَّن سبحانه الحكمةَ من خلق الإنسان فقال﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾: أي نختبره بالتكليف في الدنيا وهي دار الابتلاء.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾: وذلك من مقتضيات هذا الابتلاء، وخصَّ السمعَ والبصرَ لأنهما من أهم وسائل الإدراك، ومن أشرف الحواسِّ ومن أجلِّ النِّعم.

ولما جعله بهذه المثابة، أخبر تعالى أنه هداه السبيل، أي أرشده إلى الطريق، وعرَّفه مآل طريق النجاة ومآل طريق الهلاك.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ أي بيَّنا له سبيل الحق والباطل والهدى والضلال، وعرَّفناه طريق الخير والشر، أو هديناه السبيل المُفضي إلى النجاة.

قال الرازي رحمه الله: « السبيل هو الذي يُسلك من الطريق، والمراد به ههنا سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك، ويكون معنى هديناه، أي عرَّفناه وبيَّنا كيفية كلٍّ واحدٍ منهما له، كقوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد: ١٠] ويكون السبيل اسماً للجنس، فلهذا أفرد لفظه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [العصر: ٢] ويجوز أن يكون المراد بالسبيل، هو سبيل الهدى ؛ لأنها هي الطريقة المعروفة المستحقة لهذا الاسم على الإطلاق، فأما سبيل الضلالة فإنما هي سبيل بالإضافة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١٠/ ٣٥٨.

ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٧] وإنما أضلوهم سبيل الهدى، ومن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله: ﴿ هَدَيْنَٰهُ ﴾ أي أرشدناه، وإذا أرشد لسبيل الحق، فقد نبه على تجنب ما سواها، فكان اللفظ دليلاً على الطريقين من هذا الوجه»[1].

﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ إما مؤمناً سعيداً، وإما كافراً شقياً، وقيل: معنى الكلام الجزاء يعني: بيَّنا له الطريق إن شكر أو كفر، فعرَّفْناه الطريقَ ؛ أي طريقَ الخيرِ والشرِّ.

وقيل: إمَّا للشقاوة، وإمَّا للسعادة، إمَّا شاكراً من أوليائنا، وإما كافراً من أعدائنا.

ولما كان الشكر هو الغاية من وجوده وهو الخيرُ له: قدَّمه على الكفر.

« ولما كان الشكرُ قَلَّ من يتصف به قال شاكراً، ولما كان الكفرُ كَثُرَ من يتصف به، ويكثُرُ وقوعُهُ من الإنسان بخلاف الشكر جاء كفوراً بصيغة المبالغة»[2].

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة

مقدمة السورة تذكِّر الإنسان بنعمة وجوده وحكمة خلقه، ومصيره الذي يترتب على طريقه الذي يختاره لنفسه.

الهدايات المستنبطة

* تذكير الإنسان بنعمة الوجود.
* خُلِقَ الإنسان لحكمةٍ بالغةٍ وغايةٍ عظيمةٍ.
* نعمةُ الهدايةِ الربانية التي امتنَّ بها المولى عزَّ وجلَّ على خلقه ؛ إذ بيَّن لهم طريق الخيرِ وطريقَ الشرِّ.
* حاجة هذا المخلوق إلى إدراك حقيقة ضعفه وهوانه، واستشعارِ فضلِ الله وإحسانِهِ:

---

(١) يراجع: **التفسير الكبير** للإمام الرازي ٣٠/ ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) **البحر المحيط** للإمام أبي حيان ١٠/ ٣٦٠.

كيف خلقه في أحسن تقويم، وصوَّره في أحسنِ صورةٍ، وهداه طريق الحقِّ ومنحه حرية الاختيارِ.

* من دواء التكبُّرِ والغرورِ والنسيانِ: أن يتأمَّل الإنسان في أصله ويتذكَّر مصيره الذي ينتظره.
* الابتلاء سنةٌ من سنن الله الإنسانية.
* منح الله تعالى الإنسان وسائل الإدراك، فجعله سميعاً بصيراً عاقلاً.
* أعدَّ الله تعالى للكافرين عذابا شديدا مؤلماً، عقاباً لهم على كفرهم وضلالهم.
* ثواب الله تعالى لعباده المؤمنين الأخيار ثواب عظيم لا انقطاع له.
* إعجاز القرآن الكريم في حديثه عن خلق الإنسان، حيث الإشارة إلى مراحل وأطوار خلقه والتي اكتشفها العلم في العصر الحديث.

مصير الكفار

قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾[الإنسان: ٤]

المناسبة

لما منح اللهُ الإنسانَ وسائلَ الإدراك، وأعطاه حريةَ الاختيار، وأبانَ له السبيلَ، وهيَّأَ له المسيرَ: استقامَ أُناسٌ على طريق الحق فأفلحوا، وانعطف آخرون فانحرفوا وتساقطوا في طرق الضلالِ، فبيَّن تعالى مصير الفريقينِ، وبدأ بمصيرِ الكافرين باقتضابٍ، ثم جاء الحديث بإسهابٍ عن جزاء الأبرار الذين استقاموا على الطريق وثبَتوا عليه.

التفسير الإجمالي

بيَّن تعالى ما أعده للكفرةِ من سلاسلَ يربطون بها ويُسحبون منها، وأغلالٍ يُقيَّدون بها، وسعيرٍ يصْلَوْنَ حرَّها ويُكابدونَ لهيبها، نكالا بهم وانتقاما منهم، وعقابا لهم على غفلتِهم

وإعراضهم، وإذلالا لهم بسبب كِبْرِهم واغترارِهم.

الهدايات المستنبطة

* في الآية وعيدٌ شديد لذلك الإنسان الذي تجرَّد من إنسانيته، وأغفلَ وظيفته في هذا الوجود فاغترَّ بنعمِ الله، وجحد آياته، وأعرض عن ذكره.
* عذابُ الكفار في النار عذابٌ شديدٌ مؤلمٌ لا يُطاقُ، قد أعدَّه ربُّهم جزاءً لهم، ونكالا بهم.

جزاء الأبرار

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ
ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا
وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا
﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا
عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ
مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾
عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ
نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا
﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾الإنسان: ٥ - ٢٢

المناسبة

لما بيَّن مصير الكفار، باقتضاب واختصار، أسْهَبَ في بيان جزاء الأبرار، فالنفوسُ تهفُو وتتوقُ إلى معرفةِ ما لها من كرامةٍ، وما أُعِدَّ لها من نعيم، والجنةُ هي دارُ الإسعادِ التي تنتظرُ الإنسانَ الشاكر، الذي سلك السبيلَ المُفضيةِ إليها، سبيل الحقِّ والهدى والبرِّ.

التفسير الإجمالي

بعد الحديث عن سوء عاقبة الكفار يأتي الحديث عن جزاء الأبرار، وهو المقام الكريم في دار النعيم، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ ﴾

والإخبار عنهم بهذه الصفة إشعارٌ بمزيَّتها وتنويهٌ بمنزلتها، وبيانٌ لأعمالهم التي استحقوا بها هذه الكرامات السنية والنفحات القدسية، وإشارةٌ إلى أن البرَّ هو طريق الفلاح والفوز، كما جاء التعبير عنهم بـ﴿ عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ لبيان حبِّهم وقربهم وطاعتهم لله تعالى، والعبوديةُ مقامُ سموٍّ وارتقاءٍ وتكريم.

﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ وللشراب في الجنَّةِ لذَّتُه ومتعتُه، فهو نشوةُ القلوب وبهجةُ النفوس وإمتاعُ الأذواقِ ومنادمةُ الرِّفاق.

وقد قيل في شراب الدنيا – مع ما فيه من المضرَّة والإثم – ما قيل، حتى صار للخمر لونٌ من ألوان الشعر من كثرة ما تغنَّى بها الشعراء، وبالغوا في وصفها قال أحدهم:

عاقِرْ عقارك واصْطبِحْ ... واقْدَحْ سرورَك بالقَدحَ
واخلع عذارك في الهوى ... وأَرِحْ عذولَك واسترحْ
وافرَحْ بوقتِك إنما ... عُمْرُ الفتى وقتُ الفَرَح

فما بالُنا بشراب الآخرة الذي لا يُصَدَّعون عنه ولا ينزفون، فليس كخمر الدنيا التي توغرُ الصدور وتهتك الستور، وتُورِثُ الفجور، وتُذهبُ هيبة الرجل الوقور، وتلعب بالرؤوس وتُفسد النُّفوسَ، وتُغيِّبُ العقول، وتصيبُ القلوب، وتستنزفُ الجيوب، وتعطِبُ البطونَ.

أما شرابُ الآخرة فهو أنيس الأصحاب، ومتعةُ الأحباب، وبهجةُ النفوس، ونعيم الأبرار، وتحفةُ الأخيار.

﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾: ومزجُه بالكافور ليزيد حلاوةً ولذَّةً،

وبرداً، قال قتادة ومجاهد: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك، وقال عكرمة: مزاجها طعمها وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها، وقيل: إنما أراد الكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده، لأن الكافور لا يشرب.

وقال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا، وإنما سمَّى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي له القلوب (١)

وقال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل ؛ ولهذا قال: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ أي: هذا الذي مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويَرْوَوْنَ بها.

وقال عكرمة: ﴿ مِزَاجُهَا ﴾ طعمها، وقال أهل المعاني: أراد كالكافور في بياضه وطيب ريحه وبرده، لأن الكافور لا يشرب. (٢)

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾: فهي تجري في روضاتهم وقصورهم ومجالسهم وغرفهم، كما يشتهون وحسبما يريدون ؛ راحةً وكرامةً.

من صفات الأبرار

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

المناسبة: لما تشوَّفت النفوسُ واشرأبت الأعناقُ، وتعلقت المُهجُ وهاجت الأشواقُ لهذا النعيم المقيم، حقَّ لها أن تتساءلَ عن أوصاف أولئك الأبرار الذين ينالون هذه الكرامات ويفوزون بتلك الملذات ؟ فبيَّن سبحانه أعمالَهم التي بها نالوا ذلك الثوابَ العظيم.

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٣٤٦.

(٢) معالم التنزيل للبغوي ٨ / ٢٩٣.

التفسير الإجمالي: من صفات أولئك الأبرار الذين نالوا بها هذا الوصف الكريم وحازوا الثواب العظيم: وفاؤهم بالنذور، وخوفهم من يوم النشور، وإطعامهم الطعام مع حبِّهم له وحاجتهم إليه، لا للمباهاةِ والمفاخرة، ولا لجلب المصالح، وكسبِ العواطفِ والتماس الودِّ، بل الإيثار في أروع صوره وأبدعِ مراتبه، فنفوسهم على حبِّ الخيرِ مجبولةٌ، وقلوبُهم على الرحمة بالفقير والمسكين والضعيف مفطورةٌ، لا يبتغون من الناسِ أجورا، ولا يرجون منهم ثناءً ولا شُكورا، لكنه الخوف والرجاء، الخوف من مقام الله، والرجاء في رحمته ورضاه.

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾: وهم مع ما يقدمون من وجوه الخير وما يُحصِّلون من أعمال البر تراهم يُعربون عن خوفهم وإشفاقهم من هول هذا اليوم العبوس القمطرير: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾: فهو يومٌ صعبٌ تعبسُ فيه الوجوه من أهواله وشدائده، فتذكُّرُ الآخرة والاستعداد لها بصالح الأعمال شغلهم الشاغل.

ولما كان أولئك الأبرار هُمُ الواحةُ الغَنَّاءُ التي يفيء إلى ظلِّها الفقيرُ والمسكينُ وهم القلوبُ الرحيمة والأيادي النديةِ الحانية والوجوه الباشَّة التي تسعى إلى أصحاب الحوائج بالخير، وتفيض بالبشرِ، كان جزاؤهم، النجاة من أهوال القيامة وشرورها والفوز بنعيم الآخرة، ونضرتها وسرورها وحبورها وحريرها. ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ وقاهم شرَّه ورزَقَهم خيرَه، ولقَّاهم في هذا اليومِ العصيبِ نضرةً وسرورا:

في جنَّةٍ ونعيمٍ
ومنزلٍ كريم
في خُلْدها المقيم
معْ سائر الخلان

في نَضْرَةٍ وسرور

في جنة وحرير

في فرحة وحُبُورٍ

في راحة وأمانٍ

في ساحة الرضوانِ

عودٌ إلى دارِ النعيم

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

المناسبة: بعد استرواح النفس وأنسها ببيان صفات الأبرار، يعودُ السياق إلى الحديث الممتع عن نعيم الجنة وأوصافها، ذلك النعيمُ المقيمُ الذي يحظى به الإنسان حين يترسَّمُ سبيلَ الهدى ويتوسَّمُ خُطى من سبقه إليه.

التفسير الإجمالي: بعد بيان شرابهم وأوصافهم التي حازوا بها هذا النعيم بفضل من الله ورحمة، وصف الله تعالى مجالسهم ومجتمعاتهم، فقال سبحانه﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ ﴾

فهم في راحةٍ ودَعَةٍ، قد ازدانت بيوتهم وأفنيتهم بالأثاثِ الوثير، في جوٍّ من الصفاءِ والبهجة فلا حَرٌّ يعكر صفو نعيمهم، ولا بردٌ تتأذَّى منه أبدانُهم، وقد دنت الظلال ومالت الأغصان وغردت الأطيار، وتدلَّتِ القطوفُ بأطايب الثمارِ، وقد اجتمع النُّدامى والسُّمارُ، في جوٍّ من النَّشوةِ والأنسِ، فلا ترى العينُ ولا تسمعُ الأذنُ إلا ما لذَّ وطابَ ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا

وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾.

حدائقُ مونقةٌ، ونخيلٌ باسقةٌ، وظلالٌ وارفةٌ، ورياضٌ مزهرةٌ، وقطوفٌ مثمرةٌ، في متناول أيديهم إكراما لهم.

أما عن جمال آنيتهم وورنقها وحسنها وبريقها فقال﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

ففي غمرةِ هذا الفرح والحبور وهم بين الأفنيةِ والقصور، وعلى ضفاف الأنهار وتحت ظلال الأشجار، وفي حجالِ الدور: يطاف عليهم بآنيةٍ ما أروعها وأبهاها، قد صيغت من فضة خالصة وأكوابِ رقيقةٍ متنوعة في ألوانها وقدرها وأشكالها مع صفائها، حتى أنَّها تَنُمُّ عما فيها من لذيذ الشراب: كما قيل [١]

رَقَّ الزُّجاجُ ورَقَّتِ الخَمْرُ … فتشابَها فتشاكَلَ الأمْرُ
فكأنَّما خمرٌ ولا قَدَحٌ … وكأنما قَدَحٌ ولا خمرُ

وقال الإمام القحطاني في النونية:

يُسقَونَ من خمرٍ لذيذٍ شربُهَا … بأناملِ الخُدَّام والولدانِ
لو تنظرُ الحوراءُ عند وليِّها … وهما فويقَ الفرشِ متَّكِئانِ
يتنازعانِ الكأسَ في أيديهما … وهما بلذةِ شُربِها فَرِحَانِ
ولربَّما تسقيه كأساً ثانياً … وكلاهما بِرِضَابِها حُلْوَانِ
يتحدثانِ على الأرائكِ خَلْوةً … وهما بثوبِ الوصلِ مشتملانِ

ومعنى: ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ قُدِّرَ ما في الكؤوس على قدر ريِّهم فلا تزيد ولا تنقص، أي قدرها لهم السقاةُ والخدمُ الذين يطوفون عليهم يقدرونها ثم يسقون.

---

(١) البيتان للصَّاحبِ ابنِ عَبَّاد.

وقيل التقدير في صناعتها فقد صيغتْ على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه، والله جل وعلا قادرٌ على أن يجعل الفضة بهذه الرقة والشفافية.

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ ﴾ كؤوسٌ مُترَعَةٌ بشرابٍ قد مُزِجَ بالزنجبيل فزاده حلاوةً وطلاوةً، وقد كانت العرب تستلذُّ مزجَ الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته.

قال الأعشى:

كأنَّ القَرَنفلَ والزنجبيلَ باتا بفِيها وأرْياً مَشورا

﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

هذا الشرابُ أصلُه من عينٍ صافية عذبةٍ سَلِسَةٍ تسمى سلسبيلا.

خدم أهل الجنة

ثم يأتي الحديث عن خدم أهل الجنة، فيذكرُ تعالى من خدمهم وحاشيتهم أولئك الولدان المخلَّدون ؛ إذ لا يتمُّ النعيمُ إلا بوجودِ الحاشيةِ:

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

فمن تمامِ المباهج التي تَحُفُّ بهم تلك البدور الزاهرة واللآلئ المتناثرة التي تطوف عليهم لخدمتهم وتلبيةِ حوائجهم.

ولقد ناسب ذكرهم بعد وصف شرابهم ووصف آنيتهم، فهم السقاةُ الذين يسقونهم ذلك الشراب

ومعنى﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾: باقون على ما هم عليه من الشباب والغضاضة والحسن، لا يهرمون ولا يتغيرون، ويكونون على سن واحدة على مر الأزمنة، وقيل: مخلدون لا يموتون وقيل: مسورون مقرطون، أي محلون والتخليد التحلية. [1]. وكل هذه المعاني صحيحة.

(١) يراجع: **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي ١٩ / ١٤٣.

وقوله: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أي: إذا رأيتهم في رونقهم وصباحة وجوههم وجمال هيئتهم وروعةِ ثيابهم وحليهم، وصفاء ألوانهم، وقد هبُّوا لخدمةِ الأبرارِ، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً على بساطِ سندسيٍّ، واللؤلؤ إذا كان منثوراً ولا سيَّما على بساط من حرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعا في مكان واحد.

«... وقيل شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه لأنه أحسن وأكثر ماء»[1].

سعةُ مُلْكِ أهلِ الجنةِ

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

لا تقع العيون إلا على كل بهيج فلا ترى إلا النعيم المقيم والملك العظيم، الذي لا يُقَادَرُ قدره، ولا تعتريه الآفات، ولا يلحقه الزوال، فهم في روضات الجنة يتقلبون، وعلى أسِرَّتها يتكئون وإلى ربهم ينظرون.

فلله بـــردُ الـعـيـشِ بـيـن خيامِها ... وروضاتِها، والثغرُ في الـروضِ يبسمُ
ولله أفــــراحُ الـمـحـبـين عـنـدمـا ... يخاطبُهم مـن فـوقـهـم ويـسـلِّـمُ
ولله أبـــصـــارٌ تَـــرى اللهَ جـهـرةً ... فلا الضيمُ يغشاها ولا هي تسأمُ
فيا نـظـرةً أهـدتْ إلى الـوجـهِ نـضرةً ... أمِـن بعدها يسلو الـمـحـبُّ المتيَّمُ
فـحـيَّ عـلى جـنـاتِ عـدنٍ فـإنَّـهـا ... مـنـازلُـنـا الأولى وفـيـهـا المـخـيَّـمُ
ولكننا سـبـيُ الـعـدوِّ فهل تُـرى ... نـعـودُ إلى أوطـانِـنـا ونـسـلـمُ
وقـد زعـمـوا أن الـغـريـبَ إذا نـأى ... وشـطَّـتْ بـه أوطـانُـهُ فهو مغرمُ
وأيُّ اغـتـرابٍ فـوق غربتنا التي ... لهـا أضـحـتِ الأعـداءُ فينا تحكُمُ
فبينا هـمـوا في عيشِهم وسرورِهـم ... وأرزاقُـهـم تجري عليهم وتُقْسَمُ
إذاهـم بـنـورٍ سـاطـعٍ أشرقـتْ له ... بـأقـطـارِهـا الجـنـاتُ لا يُـتـوَهَّـمُ

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١٠ / ٣٦٥.

تجلى لهم ربُّ السموات جهرةً ... فيضحكُ فوق العرش ثم يكلِّم
سلامٌ عليكم يسمعون جميعُهم ... بآذانهم تسليمُه إذ يسلِّمُ
يقول سلوني ما اشتهيتُم فكلُّ ما ... تريدون عندي إنني أنا أرحمُ
فقالوا جميعا نحنُ نسألُك الرضا ... فأنت الذي تُولِي الجميلَ وترحمُ[١]

﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾

قال الإمام الطبري: « وقوله:﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ يقول: ورأيت مع النعيم الذي ترى لهم ثَمَّ مُلْكا كبيرا. وقيل: إن ذلك الملك الكبير: تسليم الملائكة عليهم، واستئذانهم عليهم»[٢].

وقال الحافظ ابن كثير: «وقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ أي: وإذا رأيت يا محمد، ﴿ ثَمَّ ﴾ أي: هناك، يعني في الجنة ونعيمها وسَعَتها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أي: مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطاناً باهراً»[٣].

وقال السعدي رحمه الله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ أي: هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمساكن والغرف المزينة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة والأنهار الجارية، والرياض المعشبة، والطيور المطربة ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس.

وعنده من الزوجات. اللاتي هنَّ في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورا، ولذة وحبورا، وحوله من الولدان المخلدين، والخدم المؤبدين، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتتم لذة العيش، وتكمل الغبطة.

ثم علاوة ذلك وأعظمه الفوز برؤية الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربه، والابتهاج

(١) **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** لابن القيم: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ١ / ٧.
(٢) **جامع البيان** للطبري ٢٤ / ١١٢.
(٣) **تفسير القرآن العظيم** ابن كثير ٨ / ٢٩٢.

برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كل وقت وحين، فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفد خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه فلا نهاية لبره وإحسانه». (١)

﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾

أما عن ثيابهم: فهي ناعمةٌ ليِّنةٌ، أنيقةٌ زاهيةٌ، قد تفتقت عنها أشجارُ الجنة، وخرجت من أكمامها، فمنها الرقيقة ومنها الصفيقة، منها الرقيق وهو السندس، ومنها الصفيق وهو الاستبرق، وهو ما غَلُظَ من الحرير.

روى الإمام الإمام أحمد في المسند من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وفيه «... ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ ثِيَابَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَتُنْسَجُ نَسْجاً أَمْ تُشَقَّقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ قَالَ: فَكَأَنَّ الْقَوْمَ تَعَجَّبُوا مِنْ مَسْأَلَةِ الْأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ مَا تَعْجَبُونَ مِنْ جَاهِلٍ يَسْأَلُ عَالِماً ؟ قَالَ فَسَكَتَ هُنَيَّةً، ثُمَّ قَالَ أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ ؟ قَالَ أَنَا قَالَ لَا بَلْ تُشَقَّقُ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ»(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَهْلُ الْجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ كُحْلٌ لَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ وَلَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ). (٣)

﴿ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾فلهم أسورة من فضة وأخرى من ذهبٍ ولؤلؤ، قال تعالى في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٩٠١ بتصرف.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ٢/ ٢٠٣ وأبو يعلى الموصلي في مسنده ٤/ ٤٠ حديث ٢٠٤٦، ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده ١/ ٣٠٠ حديث ٢٢٧٧، والطبراني في المعجم الأوسط ٢/ ٣٥٤، والصغير ١/ ٩٠ حديث ١٢٠، والبزار في المسند ٦/ ٤٠٨ حديث ٢٤٣٤، وقال الهيثمي في المجمع: « رواه أبو يعلى والبزار إلا أنه قال: فقال الأعرابي: مم تضحكون ؟ من جاهل يسأل عالما ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا ولكنها تخلق خلقا أو تنشق عنها ثمار أهل الجنة، والطبراني في الصغير والأوسط إلا أنه قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مم تضحكون ؟ من جاهل يسأل عالما ؟ لا يا أعرابي ولكنها تنشق عنها ثمار الجنة» وإسناد أبي يعلى والطبراني ورجاله رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق» مجمع الزوائد ١٠ / ٧٦٦ وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٤ / ٦٣٩.

(٣) رواه الترمذي في السنن وقَالَ «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، ورواه الدارمي في السنن حديث ٢٨٨٢.

سورة فاطر: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾[فاطر: ٣٣] وفي سورة الحج: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ [الحج: ٢٣] فيلبسون أسورة الذهب تارة، وأسورة الفضة تارة، وأسورة اللؤلؤ تارة ويلبسون أسورة من الفضة مطعَّمة بالذهب وغير ذلك من بدائع الأساورِ وأفانينها.

ولما زيَّن الله تعالى ظاهرهم بالحليِّ والثياب بيَّن طهارة باطنهم وزينة قلوبهم بالحبِّ والرضا والودِّ والتآلف فلا غلٌّ ولا حسدٌ قال تعالى: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أي: طهر بواطنهم من الحَسَد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرّديَّة، فهو شراب طهور نقيٌّ.

بدأ بالشراب وانتهى به وذلك لأنه أروعُ ما يستلذُّ به الإنسانُ، وحاجتُه إليه أشدُّ، وأولُ ما يتلهف عليه الإنسانُ، فحرارةُ الظمأ أشدُّ من لهيب الجوع، لذا كان مقدَّما دائما.

كما قال الشاعر [1]:

وقـانـا لـفـحـةَ الـرَّمـضـاءِ وادٍ وَقـاهُ مُـضـاعَـفُ الـنَّـبْـتِ العَميم
نـزلـنـا دوحَـه فـحَـنـا علينا حُـنُـوَّ المـرْضـعـاتِ عـلى الفَطيمِ
وأرْشَـفَـنـا عـلى ظـمـإٍ زُلالاً أَلَـذَّ مـن المُـدامَـة لـلـنَّـديـمَ

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

هكذا يقالُ لأهلِ الجنةِ حفاوةً بهم وإكراماً لهم، لتتمَّ فرحتُهم وتكتملَ بهجتُهم، ويدومَ أُنسُهم، فذكر سبحانه من ألوان النعيم ما تَهَشُّ له الأفئدةُ، وتهفُو إليه الأرواحُ، وتتوقُ له النفوسُ، وتقرُّ به العيونُ، ثمَّ أعقبه بأسمى ما يتمنى العبدُ، وهو رضا مولاه:

وقد قيل:

إذا كنتَ عني يا مُنَى القلبِ راضِيا أرى كـلَّ مـن في الـكـونِ لي يتبسَّمُ
رضـاك خـيرٌ مـن الـدنـيـا ومـا فيها يـا مـالـكَ النفسِ قاصيها ودانيها

(١) الشاعر: أبي نصر المنازي.

فليس للنفسِ من أمـلٍ تحـقّـقُهُ إلا رضـاك وذا أسـمَـى أمانيها
فـنـظـرةٌ مـنـك يـا سـؤلي ويـا أمـلي خـيرٌ إليَّ مـن الـدُّنـيـا ومـا فيها

﴿ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴾: وشُكْرُه لسعيهم يتجلَّى في الثوابِ الجزيلِ على العملِ القليلِ وثناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام، وشُكْرُهم جزاؤهم على برِّهم وإحسانِهم.

ولما كان عملهم خالصا لوجه الله تعالى فلم يطمعوا في جزاء الناس ولا شكرهم كما قال تعالى عنهم ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾: قال لهم سبحانه﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

الهدايات

* فضل الوفاء بالنذر فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلا يَعْصِه**)(١).
* جواز إظهار المؤمنُ للنية ليقتدي الناس به، وليبرز مقاصد الإسلام ومحاسنه وسماحته.
* استحباب الكلمة الطيبة والموعظة اللطيفة عند إطعامِ الإطعام.
* رضا الله تعالى محورُ حياة المؤمن، ومنطلقُه إلى الخيرات، وباعثه على البرِّ والإحسان.
* تذكُّر اليوم الآخر، والتفكر في هول المطلع، ومواقف الحشر، والاستعداد بالعمل الصالح قال الإمام القحطاني في النونية:

يـومُ القيامةِ لـو علمتَ بهـولِـهِ لـفـررتَ مـن أهـلٍ ومـن أوطـانِ
يـومٌ تـشـقـقـتِ الـسـماءُ لهـولـه وتشيبُ فيه مَـفَـارِقُ الـولْـدَانِ
يـومٌ عـبـوسٌ قـمـطـريـرٌ شرُّهُ في الخـلـقِ منتشرٌ عظيمُ الـشـانِ

(١) رواه البخاري في صحيحه كِتَاب الْأَيْمَانِ وَالنُّذُورِ - بَاب النَّذْرِ فِي الطَّاعَةِ صحيح البخاري حديث (٦٦٩٦، ٦٧٠٠).

* عمل الخير لا يحمل صاحبه على العُجْبِ والاغترارِ، بل يزيده خوفا وإشفاقا.
* فضلُ إطعام الطعام، واستحباب العمل الصالح والبر والإحسان، سيَّما في المجتمعات التي تطغى فيها المادية بقسوتها وجفائها، وتغلب فيها الأثرة والأنانية، ويضيع فيها حقُّ الضعيف، في سطوةِ نُظُم جائرة، وقسوةِ ظروفٍ طاحنةٍ لا تصبُّ إلا في صالح الأغنياء، كما هو الحال في كثيرٍ من المجتمعات المعاصرة، وكما كان الحالُ عند نزول هذه الآيات في بيداءِ الجاهليةِ القاحلةِ، حيثُ الأبرارُ بمثابةِ واحةٍ ظليلةٍ حانيةٍ في قلبِ هاجرةٍ شحيحةٍ جافيةٍ، فيطعمون الطعام ببشاشةِ وجهٍ، وطلاقةِ مُحيًا، وأَرْيَحيَّةِ نفس، ورقَّة قلب، وصفاءِ نيَّةٍ، وعذوبةِ لسانٍ.
* فضلُ واستحبابُ البشاشة في وجه الفقير والمسكين، والحذر من العبوس في وجهه فإدخال السرور عليه من دواعي تحصيل السرور في الآخرة، « قيل لابن المنكدر: أيُّ العملِ أحبُّ إليكَ ؟ قال: إدخالُ السرورِ على المؤمنِ، قالوا: فما بقي مما تستلذ ؟ قال: الإفضال على الإخوان» (١).
* فضل الإحسان إلى الأسير، والمراد به: أسير المعركة من الكفار، وفي هذا ما يدل على حسن التعامل معهم والترفق بهم، وهذه الآية وإن كانت مكية لكنها باعتبار ما يكون، ومن باب تربية النفس وإعدادها لما تستقبله، والأسير أيضا هو أسير المؤمنين في معسكرات الكفر وكذلك المحبوسون في سجون الطغاة من المؤمنين الأبرياء، ينبغي المبادرة إلى إطعامهم ورعاية أُسَرِهِم، فضلا عن السعي إلى فكِّ أَسْرِهِمْ.
* الجزاء من جنس العمل، والله تعالى يجزي بالثواب الجزيل على العمل القليل.
* نعيم أهل الجنة نعيم ماديٌّ حسيٌّ، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين.
* نعيم أهل الجنة نعيمٌ كاملٌ شاملٌ، خالصٌ خالٍ من المكدِّرات والمنغصات.
* قدرة الله تعالى وبديع صنعه وواسع فضله وعظيم كرمه.
* كرامة الأبرار عند ربهم، وحفاوته ولطفه بهم.

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٢٦٤.

توجيهٌ للنبيِّ ﷺ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٣ - ٢٦]

المناسبة

* بعد أن أشارت مقدمة السورة إلى السبيل الذي هدى الله الإنسانيةَ إليه، وتبَدَّت بعضُ معالمِه ولاحت بعض مراسمه عند حديث السورة عن صفات الأبرار: عاد السياق لبيان معالم هذا السبيل.
* كذلك: بعد الحديث عن نعيم الجنة الذي به تتسامى النفوسُ وتتفتقُ المواهب وتجدُّ النُّفوس وتعلو الهمم، وتتسابق الخُطَى، يجيء السياق منوِّها على فضل القرآن ونزوله منجَّما تثبيتا للفؤاد، وترطيبا للأكباد، وتسريةً عن النفوس، فالقرآن سبيل هداية الإنسان وسعادته في الدارين، قال تعالى﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾
* وإذا كان هذا النعيم المقيم والملك العظيم ينتظر أهل الإيمان فليتحلوا بالصبر والثبات وليستعينوا بذكر الله تعالى فهو من أجلِّ القربات، والصبر والثبات مع المداومة على الذكر خير زاد وأقوى عتادٍ أمام جحافلِ الفتنِ وضروبِ النائبات.
* وفي هذه الآيات توجيهٌ وتسليةٌ وتثبيتٌ للنبي ﷺ، والمعنى: كما كرَّمناكَ بما أنزلناه عليك فاصبر على قضائه وقَدَره، واعلم أنه سَيُدَبِّرُكَ بحسنِ تدبيرِه.

التفسير الاجمالي

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾: في هذه الآيات تذكيرٌ للإنسان بمنهاج الحياة ودستورها، ومنارِ طريقها، وحادي ركبِها، وهو القرآن الكريم الذي نزَّله الله تعالى نجوماً

حسب الأحداث والنوازل ؛ تثبيتا للنبي ﷺ والمؤمنين ومجاراة للأحداث ومتابعة للمستجدات ومواكبةً وتدرجاً لسيرِ الدعوة ومسيرة التشريع.

وجاءت الآياتُ مؤكدةً نزولَه من عند الله تعالى، فهو كتابُه الخالدُ وخطابُه المتجددُ ورسالتُه السامية.

قال تعالى ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والذي أراه أنها لترتيب ما جاء قبلها من أول السورة على ما بعدها من الدعوة إلى الصبر والثبات والاستقامة على منهج الله والامتثال لحكمه، فكلُّ ما سبق من أول السورة يمهِّد ويؤكِّدُ ويرغِّب ويحببُ في الصبر - هذا الدواء المرّ لفظا ومعنى -.

قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾: فبعد أن تجلت لك تلك الحقائق وبعد هذه الجولة الطويلة في رياض الجنة، وبعد أن من الله عليك بتنزيل كتابه الخاتم على قلبك بما فيه من دعوةٍ وتكليفٍ وتوجيهٍ فاصبر، فدعوة القرآن وطريقه وإن كان يفضي في النهاية إلى النعيم المقيم، إلا أنه يحتاج إلى صبر وثباتٍ لمواجهة الفتن والعقباتِ، ومجابهةِ المكائد التحدياتِ التي يحيكُها أهل الكفر والعصيان، فلا تطعْ آثمهم على إثمه، ولا تطع كافرهم على كفره، واستمسك بكتاب الله واستعن دوما بذكره ؛ فهو ترطيبٌ للأفواهِ وتثبيتٌ للقلوبِ وضياءٌ للدروبِ وتفريجٌ للكروبِ ومجابهةٌ للمحنِ والخطوب، وكذلك قيام الليل وكثرة التسبيح فبهما حياةُ الروح، وسمو الهمة، وسناء الأمة: قال تعالى ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [المزمل:٢٥-٢٦].

« قال الطيبي الأقرب من حيث النظم أنه تعالى لما نهى حبيبه ﷺ عن إطاعة الآثم والكفور وحثه على الصبر على أذاهم وإفراطهم في العداوة وأراد سبحانه أن يرشده إلى متاركتهم عقب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلاً ونهاراً بالصلوات كلها من غير اختصاص وبالتسبيح بما يطيق، على منوال قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩][1].

الهدايات

* نزول القرآن من عند الله تعالى منجما لحكمة بالغة وهي تثبيت فؤاد النبي ﷺ ومواكبة مراحل الدعوة وتطوراتها، ومتابعة المستجدات والنوازل.
* الدعوة إلى الصبر والثبات والاستقامة على منهج الله.
* مخالفة أهل الكفر والعصيان، والصمود أمام المحن والمُلِمات.
* الاستعانة بالصلاة والذكر والدعاء.
* فضل قيام الليل، فهو نورُ المؤمن وزادُ الداعية.
* همومُ الدعوةِ ومشكلاتُها، ومِحَنُهَا وعَقَبَاتُهَا: لا ينبغي أن تشغلَ الداعية عن العبادة، فهي غاية الوجود ؛ كيف وهي الزادُ الروحيُّ الذي يعينُه ويُقوِّيه على دعوته.

لفتةٌ ووعيدٌ للمشركين

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ الإنسان: ٢٧ - ٢٨

المناسبة والتفسير الإجمالي

بعد هذا البيان الساطع والحجج الدامغة والحِكَم البالغة: بيَّن سبحانه أن هناك من يتعامَى عن سبيل الهدى ويؤثر الضلال ويختار الشقاء ويغمِّض عينيه عن هذا النعيم فلا يتفتح له قلبه وما ذلك إلا لشغفه وتعلقه وانشغاله بالمصالح العاجلة واللذاتِ المنقضية والمُتَعِ الفانية، فلا يبالِ بما ينتظره من هولٍ وبيلٍ ويومٍ ثقيلٍ وكربٍ عظيمٍ!

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٧/ ٣٨٤.

وهذا من ظلم الإنسان لنفسه وعَجلَتِهِ، وجحوده لربه الذي خلقه وأودع فيه القوةَ.

ولو شاء الله تعالى لأهلكه وطوى ذكرَه، ولكن حكمة الله تعالى في الابتلاء والإمهال ومنح العبد حرية الاختيار.

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أي: لو شئنا لأهلكناهم، وجئنا بأطوع لله منهم. وقيل المعنى: مسخناهم إلى أسمجِ صورةٍ، وأقبحِ خلقةٍ[(١)].

الهدايات

* تسلية قلب النبي ﷺ وتثبيته.
* تحليل طبيعة المشركين وسبر أغوار نفوسهم وكشف خباياهم والإفصاح عن أسباب صدودهم وإعراضهم ومن أهمها حب العاجلة.
* المقارنة بين سرعة انقضاء الدنيا وبين طول يوم القيامة، فهو يومٌ عظيمٌ قدرُهُ فضلا عن ثِقَلِهِ على المشركين.
* القادر على خلقهم قادرٌ على تبديلهم.
* كمال قدرته تعالى ومشيئته النافذة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ / ٢٩٥.

كلمةٌ أخيرةٌ

في ختام السورة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٩: ٣١]

المناسبة والتفسير الإجمالي

تختم السورة الكريمة بما بدأت به ؛ فإذا كان الإنسان الذي يصول ويجول في أرجاء هذا الكون ويغدو ويروح في أقطاره، يسبر أغوارَه ويتمتعُ بخيراته، ويحوزُ كنوزه وثرواته، ويبني ويُعمِّرُ ويسابق الرياحَ ويُصارع الأمواجَ، ويغوص في الأعماق ويسيحُ في الآفاق، هذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض وحمَّله الأمانةَ وسلَّمه مفاتحَ كنوزها ومنحه القدرة على التفكير والإبداع، ومواجهة المصاعب والتحديات، هذا الإنسان الذي انقادت له كثيرٌ من المخلوقات، لم يكن له من قبل ذكرٌ، فاستهلت السورة بتذكيره بأصله وتاريخه وغاية وجوده وطريقه، ثم جاءت الخاتمة مقررة لهذه التذكرة وداعيةً إلى سبيل الرشاد.﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

فهذا الكون إنما تحكمه إرادةٌ واحدةٌ ومشيئةٌ واحدةٌ هي إرادة الله تعالى الغالبة ومشيئته النافذة، فلا حيلة للإنسان في قضاء الله وتقديره، وهذه المشيئة الإلهية وفق علمه تعالى وحكمته، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾: أي: عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسّرها له، ويقيض له أسبابها، وعليم بمن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، ولله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾ أي: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهده فلا مضل له.

وفي الختام فإن من سلك طريق الحق فاز بالرحمة والرضوان، ومن سلك طريق الظلم والعدوان باء بالخسران العظيم، واستحق العذاب الأليم.

الهدايات المستنبطة

* لفتُ الأنظارِ إلى ما في هذه السورة الكريمة مِن دروسٍ وعبر ووعد ووعيد وحجج وبراهين، فمن شاء أن يسلك طريق الحق سلكه.
* مشيئة الله عز وجل نافذة وإرادته تعالى هي الغالبة.
* من صفات تعالى التي تجلت في ثنايا هذه السورة الكريمة وجاءت في ختامها صفة العلم والحكمة، فهو تعالى الذي أحاط بكل شيء علما، وجميع أفعاله تعالى وأقداره وفق حكمة بالغة قد تظهر لنا وقد تخفى علينا.
* مشيئةُ الخالق الباري وحكمتُهُ وقدرةُ الله فوق الشك والتهم
* الهداية رحمة إلهية ومنحة ربانية يختص بها من يشاء من عباده، فعلى الإنسان أن ينشدَها ويسعى إليها، أما الذين لا يبالون بها ولا يبحثون عنها ولا يجدُّون في طلبها فعذابهم أليم.
* اتخاذ السبيل إلى الله بالتقرب إليه والتوسل بطاعته.

سورة المرسلات

أولا: بين يدي السورة

الإيمان باليوم الآخر ركنٌ أساسيٌ من أركان الإيمان، وهو سلوى المؤمن وزاده، وعلى ضوئه يضبط الإنسان سيره ويصححُ سلوكَه، فهو محور الحياة وقوامُها.

والحديث عن اليوم الآخر تذكرةٌ لكل أذنٍ واعية، ورسالةٌ إلى كلِّ من له قلبٌ، وهِزَّةٌ عنيفةٌ لمن توانى عن الغايةِ التي من أجلِها خلِقَ، فهو إعذارٌ وإنذارٌ وعبرةٌ لأولي الأبصار.

ولقد عُني القرآن الكريم بإبراز مشاهد القيامة وأهوالها، وتقرير حقائقها وتأكيد وقوعها.

يقول صاحب الظلال: « القضية قضية القيامة التي كان يعسر على المشركين تصور وقوعها؛ والتي أكدها لهم القرآن الكريم بشتى المؤكدات في مواضع منه شتى. وكانت عنايته بتقرير هذه القضية في عقولهم، وإقرار حقيقتها في قلوبهم مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها، ثم لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعاً. فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس في العقيدة السماوية، كما أنه حجر الأساس في تصور الحياة الإنسانية، وإليه مرد كل شيء في هذه الحياة، وتصحيح الموازين والقيم في كل شأن من شؤونها جميعاً.. ومن ثم اقتضت هذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها في القلوب والعقول»[1].

وسورة المرسلات من السور المكية، موضوعُها: القيامةُ وأهوالُها ومشاهدُها وشدائدُها التي تُحِيطُ بالمكذبينَ، وبردُها وسلامُها وَرَوْحُها وظلالُها التي تكْتَنِفُ المتَّقين، تلك المشاهدُ التي سيقت تذكرةً لأولي الألباب، وعبرةً لأولي الأبصار، وإنذارًا للظَّلَمَةِ الأشرارِ.

والسورة من مستهلّها إلى ختامها تقدم الحجج والبراهين على أن هذا اليوم واقعٌ لا محالة.

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٩١.

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة بسورة المرسلات كما سيأتي في الحديث الوارد في فضلها، ومناسبةُ تسميتها لمضمونها واضحة.

ب. فضائل السورة.

عن ابن عباس ﷺ قال: قال أبو بكرﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا شَيَّبَكَ ؟ قَالَ ﷺ: (شَيَّبَتْنِي هودٌ والواقعةُ والمُرْسَلات و﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ ﴾و﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ ﴾)[1].

وفي هذا الحديث ما يدلُّ على كثرة قراءته ﷺ لهذه السورة الكريمة، وعظيم تأثُّره بها ووقع أثَرِها عليه هي وأَخَوَاتُها من السُّور التي تُبرزُ أهوالَ القيامةِ، وتُصوِّرُها رأيَ العين.

أمـــا واللهِ لـــو عَـلِـمَ الأنـــامُ   لِـَـا خـلـقُـوا لمـا هـجـعُـوا ونـامُـوا
لـقـد خـلـقـوا لأمـــرٍ لـــو رأتْـــهُ   عـيـونُ قـلـوبهـم تـاهـوا وهـامُـوا
ممــــاتٌ ثـــم قـــبرٌ ثـــم حـــشرٌ   وتـــوبـــيـــخٌ وأهـــــوالٌ عـــظـــامُ

ج. مكية السورة.

هذه السورة نزلت في مكة، قال القرطبي:» مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال

(١) رواه الترمذي في السنن كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ سنن الترمذي ٥ / ٣٩٩ حديث ٣٢١٩، وقَالَ: « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ» رواه الحاكم في المستدرك ٣/ ٤٧٦ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: « على شرط البخاري»، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٨/ ١٦٠ برقم ٨٢٦٩ ورواه ابن أبي شيبة في المصنف ٧ / ٢٠١، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٦، وعزاه إلى ابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه وابن عساكر، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب التفسير باب تفسير سورة هود ٧/ ٣٧، وقال رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ١ / ٤٨١ حديث ٧٩٣، وأبو يعلى الموصلي في مسنده حديث ١٠١.

ابن عباس وقتادة إلا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ مدنية»[1].

والذي أراه أن السورة كلَّها مكية، والصلاة كما هو معلوم فرضت بمكة، ولعل هذا يدل على نزول السورة بعد السنة العاشرة من البعثة، والله أعلم.

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها خمسون آية (٥٠) في عدِّ الجميع، بلا خلافٍ في شيء منها[2].

هـ. محور السورة.

محورها الرئيسي الذي تدور حوله هو القيامة: حتميَّتُها، وتيقُّنُ وقوعُها، وأهوالها العظام، ومواقفها المتباينة.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

اسم السورة الكريمة هي: سورة المرسلات، والمرسلات: الملائكة حين يتتابع إرسالهم بمهامٍّ جليلةٍ، فيسارعون إلى القيام بها، وهذا يذكرنا بسرعة وتتابع أهوال القيامة ومواقفِها المُذهِلةِ ومشاهدها العظيمة التي تجري بأمرٍ وتدبيرٍ وتقديرٍ من الخالق جلَّ وعلا، وتلك مناسبةٌ ظاهرةٌ بين اسم السورة ومضمونها.

فسورة المرسلات من السور القرآنية التي تسلِّطُ الضوء على يوم القيامة، وتبرز أهوالها وتصور مشاهدها، وتبينُ وقع هذا اليوم الرهيب على المكذبين، ونسماته الحانية وظلاله الوارفة التي تكتنف المتقين.

---

(١) **الجامع لأحكام القرآن** للقرطبي ١٩ / ١٣٦.

(٢) يراجع في ذلك: «**أقوى العُدَد في معرفة العَدد**» للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ وهو ضمن كتابه **جمال القراء وكمال الإقراء** ١/ ٢٢٤، وكتاب **البيان في عدِّ آيِ القرآن** لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ ص ٢٦١.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

في مطلع السورة الكريمةِ تأكيدٌ بالقسم على وقوع الساعة وتحقق الموعد، ثمَّ في ختامها إنكارٌ على المكذبين بيوم الدين مع تواتر حججه، وتجلِّي شواهده، وجلاء آياته، فبأي حديثٍ بعده يؤمنون، وبأي شيء يصدقون إن لم يؤمنوا ويصدقوا بهذا اليوم الحقِّ !

وعن الصلة بين افتتاحية السورة ومضمونها وبين خاتمتها: يقول الإمام الرازي: " اعلم أنه تعالى لما بالغ في زجر الكفار من أول هذه السورة إلى آخرها بالوجوه العشرة التي شرحناها، وحث على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق ختم السورة بالتعجب من الكفار، وبين أنهم إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع تجليها ووضوحها فبأي حديث بعده يؤمنون "[1].

المناسبة بين السورة وسابقتها

الصلة بين سورة المرسلات، وسورة الإنسان: صلة واضحة جلية، حيث جاءت سورة المرسلات مقررةً لما جاء في سورة الإنسان من وعد ووعيد، كما ورد الحديث فيها عن خلق الإنسان، وأسهبت السورة الكريمة في الحديث عن عذاب الكفار بينما يرد فيها الحديث عن نعيم المؤمنين في لمحة سريعة، وفي هذا ما يدلُّ على تكامل السور القرآنية وتنوعها: موضوعا وأسلوبا وتناولا.

وحول هذا المعنى يقول صاحبُ الظلال: « فأما الحقائق الموضوعية في السورة فقد تكرر ورودها في سور القرآن والمكية منها بوجه خاص ولكن الحقائق القرآنية تعرض من جوانب متعددة، وفي أضواء متعددة، وبطعوم ومذاقات متعددة، وفق الحالات النفسية التي تواجهها ووفق مداخل القلوب وأحوال النفوس التي يعلمها منزل هذا القرآن على رسوله، فتبدو في كل حالة جديدة، لأنها تستجيش في النفس استجابات جديدة.

(١) التفسير الكبير الرازي ١٦ / ٢٧٨.

وفي هذه السورة جِدَّةٌ في مشاهد جهنم. وجِدَّةٌ في مواجهة المكذبين بهذه المشاهد. كما أن هناك جِدَّةً في أسلوب العرض والخطاب كله. ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة. حادة الملامح. لاذعة المذاق. لاهثة الإيقاع!»[1].

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث عن مشاهد القيامة مع التركيز على أهوالها، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلى في وجوه عديدة منها:

حديث السورتين عن القيامة وأهوالها، ويلاحظ توسُّع سورة المرسلات في هذا الموضوع.

حديث السورتين عن مصير المكذبين، ويلاحظ كما أسْلفنا: توسُّعُ سورة المرسلات في ذلك.

حديث السورتين عن نعيم الجنة، ولقد توسعت سورة الإنسان في ذلك.

حديثهما عن خلق الإنسان، ليعرف الإنسان قدره ولا يغترَّ بذاته، وليوقن بقدرة الله تعالى.

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورةُ حول القيامة وأهوالها جاءت المقدمة مقررةً وقوعها بالقسم الذي جاء متناسبا مع المقسم عليه، كما تناسب مع السياق العامِّ للسورة.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٧٩١.

يقول صاحب الظلال: « ومنذ بداية السورة والجوُّ عاصفٌ ثائرٌ بمشهد الرياح أو الملائكة: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ ﴾.. وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام»[1].

ثانيا: في رحاب السورة الكريمة

مقدمة السـورة

مشاهد القيامة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ ﴾ [المرسلات: ١ – ١٥]

التفسير الإجمالي

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧ ﴾ [المرسلات: ١ – ٧]

أقسم الله تعالى بالملائكة الذين أرسلهم، فجاءوا متتابعين لتحقيق أمره تعالى، مسرعين كالريح العاصف في امتثال أمره تعالى، أو أرسلوا بالعرف أي بالمعروف فإنهم لا يأتون إلا بالخير والإحسان، فالعرف خلاف النُّكر أي أرسلهن للإحسان والمعروف، فإن هؤلاء الملائكة إن كانوا بعثوا للرحمة فمعنى الإحسان حينئذ ظاهر، وإن كانوا قد بعثوا لأجل العذاب فذلك إن لم يكن معروفاً للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله من الكفار لأجلهم.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٧٩١.

ثم أقسم تعالى بالملائكة حال نشرهن أجنحتهن خضوعا لأمر الله تعالى وإذعانا وامتثالا أو نشرن العلم في ربوع الأرض بأمر الله تعالى، ففرقن بين الحق والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذكراً، عذراً للمحقين ونذراً للمبطلين، أو القسم بالرياح المرسلة بالخير والرياح العاصفة العاتية والرياح الناشرة للخير الجامعة للسحاب والمفرقة له، وفق تقدير الله تعالى، فتقع الأمطار وتنشر الأرض الميتة أي تحييها بالنبات، قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر ٩]، وعلى هذا فمعنى إلقاء الرياح ذكرا: أي تسببن له، فإن العاقل إذا شاهد هبوبها وآثارها ذكر الله تعالى وتذكر كمال قدرته ورحمته، قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت: ٣٩].

أو ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ ﴾: الملائكة: تُلقِي الوحي على الأنبياء عليهم السلام، { عُذْرًا } للمحقين { أَوْ نُذْرًا } للمبطلين.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ هذا جواب القسم. **والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه:** أقسم تعالى بالملائكة أو بالرياح، وكلاهما من دلائل قدرته وآثار رحمته، وشواهد عظمته، فالملائكة خاضعون لأمره منقادون لحكمه وكذلك الرياح مأمورة ومسيَّرةٌ بتقديره وحكمته، وفي هذا دليل على إمكانية البعث والنشور للفصل بين الخلائق.

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: « المقسم عليه هو يوم القيامة، وهم مكذبون به فأقسم لهم بما فيه إثبات القدرة عليه، فالرياح عرفاً تأتي بالسحاب تنشره ثم يأتي المطر، ويحيي الله الأرض بعد موتها.

وهذا من أدلة القدرة على البعث، والعاصفات منها بشدة، وقد تقتلع الأشجار وتهدم البيوت مما لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم عليها، وما فيها من الدلالة على الإهلاك والتدمير وكلاهما دال على القدرة على البعث.

ثم تأتي الملائكة بالبيان والتوجيه والإعذار والإنذار، ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾. والله تعالى أعلم»[١].

ثم ذكر تعالى جملةً من أهوال هذا اليوم ومواقفه فقال ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ ﴾ مُحِقَت أو ذَهَبَ نورها، أو أزيلت عن أماكنها بالانتثار، وأذهب ضوءها بالانكدار.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ ﴾ تصدعت وتفتحت فكانت أبوابا، ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ ﴾ كما ينسف الحَب، وسيرت أجزاؤها في الهواء كما في سورة« طه » قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه:١٠٥ -١٠٧].

﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ ﴾ عين لها وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله، فإنه لا يتعين لهم قبله، أو بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره، وقرأ أبو عمرو «وقتت» على الأصل[٢].

﴿ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ ﴾ الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل وهي تعذيب من كذبهم وتعظيم من صدقهم وظهور ما كانوا يوعدون الأمم إليه ويخوفونهم به من العرض والحساب ونشر الدواوين ووضع الموازين. ثم أجاب بأنهم أجِّلوا﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ ﴾ بين الخلائق، الفصل بين الحقِّ والباطل، بين الكافر والمؤمن، بين المحسن والمسيء، بين الظالم والمظلوم.

قال ابن عاشور: « و﴿ الفصل ﴾: تمييز الحق من الباطل بالقضاء والجزاءِ إذ بذلك يزول الالتباس والاشتباه والتمويه الذي كان لأهل الضلال في الدنيا فتتضحُ الحقائق على ما هي عليه في الواقع»[٣].

---

(١) يراجع: **أضواء البيان** الشيخ الشنقيطي ٨ / ٦٨٧.

(٢) قرأ أبو عمرو بواو مضمومة مبدلة من همز ﴿ وقِّتت ﴾، وقرأ الباقون ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ بالهمز. يراجع **النشر في القراءات العشر** لابن الجزري ٢/ ٣٩٦ و**حجة القراءات** لابن زنجلة ص ٧٤٢، ٧٤٣، ومعنى أقتت «جعل هلا يوم القيامة وقتا» **الكشف عن وجوه القراءات السبع** لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي ٢/ ٣٥٧.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤ / ٤٢٦.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ ﴾ ومن أين تعلم كنهه ولم تر مثله ؟ استفهام سيق لبيان عظمة هذا اليوم وهوله.

فمهما تصوَّرنا ما يحدث يوم القيامة من انفجاراتٍ كثيفةٍ وهزاتٍ عنيفة ومهما استشعرنا هول هذا اليوم العظيم، فليس العيان كالبيان !

قال تعالى في مطلع سورة الحج ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾ ﴾، وقال تعالى في مطلع سورة الواقعة ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ فهذا موعدهم الذي استبعدوه تارة وتعجلوه تارة أخرى وكان يكذبون به.

الهدايات المستنبطة

* بديع أساليب القرآن وتنوعها في الاستدلال على القيامة، قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة طه: ١١٣].
* التناسب بين المقسم به والمقسم عليه سمةٌ عامةٌ من سمات الأسلوب القرآني.
* لفتُ الأنظار إلى عالم الملائكة هذا العالمُ الرحيبُ وهذا الخَلْقُ العجيبُ، والاعتبار بوجوده فهو من شواهد العظمة ودلائل القدرة ومظاهر الإبداع وآيات الجمال في هذا الكون.
* الرياح نعمة محسوسة وآية مشاهدة تدل على كمال قدرة الله تعالى وتدبيره.
* دقة وروعة التعبير القرآني عن الآيات الكونية مع إيجاز العبارة وروعةِ النَّسَقِ وحسن الاتساقِ.

مصارع الغابرين وسنن الله في المكذبين

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٩]

المناسبة

لما أكد تعالى حقيقة البعث وإمكانيته بالقسم، دعا إلى النظر في أحوال الغابرين ومصارع السابقين، نَظَر اعتبارٍ.

التفسير الإجمالي

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ من الأمم الغابرة كقوم نوح وعاد وثمود، ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي نظراءهم ممن جاء بعدهم، ولم يعتبروا بهم كقوم لوط وقوم شعيب وقوم موسى.

قال ابن عاشور: « والإهلاك: الإعدام والإماتة. وإهلاك الأولين: بالاستئصال مثل إهلاك عاد وثمود، أو بما سَنَّ الله عليه نظامَ هذا العالم من حياة وموت»[١].

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الفعل. ﴿ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ بكل من أجرم.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ يوم هلاكهم، حيث أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وعذبهم في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر.

الهدايات المستنبطة

* النظر في أحوال الغابرين ومصارع السابقين، والتأمل في سننه تعالى في الأولين، ففي تداول الأمور وتبدل الأحوال وتغاير الأزمنة وهلاك المكذبين عظةٌ واعتبارٌ.

كما قال قُسُّ بنُ ساعدة الإيادي:

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤ / ٤٢٨.

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلي ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة ... حيث صار القوم صائر

* عاقبة المكذبين ونهاية المجرمين هي الهلاك والخسران، والحسرة والحرمان.
* استئصال المكذبين والانتقام منهم برهانٌ جليٌّ على كمال قدرته تعالى.

تأملات في خلق الإنسان والكون

قَالَ تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٨]

المناسبة

بعد الدعوة إلى النظر والاعتبار في مصارع الظالمين والتحذير من سبيلهم الذي سلكوه فأودى بهم إلى الهلاك - وتلك هي المواعظ الصامتة؛ إذ يكفي الإنسان الوقوف على آثارهم والنظر في أطلالهم وخرائبهم -: تأتي دعوةٌ أخرى إلى إمعان النظر وإعمال العقل في آيات الله الإنسانية والكونية فهي الشواهدُ الحيةُ الناطقةُ، وقد قيل:

وَعَظَتْكَ أَجْدَاثٌ صُمُتْ ... وَنَعَتْكَ أَزْمِنَةٌ خُفُتْ
وَتَكَلَّمَتْ عَنْ أَوْجُهٍ ... تُبْلَى وَعَنْ صُوَرٍ سُبُتْ
وَأَرَتْكَ قَبْرَكَ فِي الْحَيَاةِ ... وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ

وَكَانَـــتْ فِي حَيَاتِـــكَ لِي عِظَـــاتٌ　　　وَأَنْـــتَ الْيَـــوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا [(١)]

التفسير الإجمالي

في هذه الآيات الكريمة دعوةٌ إلى النظر والاعتبار، فكلُّ ما يحيطُ بالإنسان من آياتٍ يُعدُّ شاهدا ناطقا وبرهانا صادقا على إمكانية البعث، ولو تأمل الإنسان في ذاته لأدرك كمال قدرته تعالى ولطائف حكمته.

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ نطفة مذرة ذليلة، فلماذا هذا الغرور والكبر !

﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾: أودعناه في الرحم حتى اكتملت الأطوار.

﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ ﴾: إلى مقدار الوقت الذي قدره الله تعالى لخروج الجنين من بطن أمه.

﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾: له أجله ورزقه وعمله فنعم القادرون.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾: بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة.

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ ﴾: فهي جامعةٌ لما فيها، ضامةٌ لما عليها من أحياء وأموات فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنته، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وسترا لهم، وتكريما لهذه الأجساد الهامدة، وحماية لها من الوحوش الضارية والطيور الكاسرة.

﴿ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ ﴾: من الإنسان والحيوان والنبات.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾: جبالاً ثوابت طوالاً فيها ما لم يعرف ولم يُرَ، ﴿ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ بخلق الأنهار والمنابع فيها، وانحدار المياه من الجبال إلى الوديان.

الهدايات المستنبطة

* وجودُ الإنسانِ وحياتُه الأولى دليلٌ وبرهانٌ على بعثِهِ وحياتِهِ الأُخرى، فالذي خَلَقَهُ من ماءٍ مهينٍ قادرٌ على أن يعيدَه كما بدأَهُ أولَ مرَّةٍ.

(١) الأبيات لأبي الْعَتَاهِيَة.

* آياتُ اللهِ فِي الكونِ شواهدُ ناطقةٌ وبراهينٌ جليةٌ على إمكانية البعث.

* دواءُ الكِبْرِ والعُجبِ التفكرُ في النفس والرجوع إلى الأصل وهو الماء المهين الذي خلق منه بنو آدم.

قال القشيري: « قوله جلّ ذكره: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾: أي: حقير، وإذ قد علمتم ذلك فلِمَ لم تقيسوا أمر البعث عليه ؟

ويقال: ذَكَّرَهم أصلَ خلقتهم لئلا يُعْجَبوا بأحوالهم؛ فإنه لا جِنْسَ من المخلوقين والمخلوقاتِ أشدَّ دعوى من بني آدم، فمن الواجب أَنْ يَتَفَكَّرَ الإنسان في أَصله... كان نطفةً وفي انتهائه يكون جيفة، وفي وسائط حالِه كنيفٌ في قميص!! فبالحريِّ ألاَّ يُدِلَّ ولا يفتخر:

كيف يَزْهُو مَنْ رجيعُهُ أَبَدَ الدهرِ ضجيعُه

فهو منه وإليه وأَخوه ورضيعُه

وهو يدعوه إلى الحُشِّ بِصَغارٍ فيطيعه؟!!»[1]

* « يؤخذ من الآية ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ ﴾: وجوب الدفن في الأرض إلاّ إذا تعذر ذلك كالذي يموت في سفينة بعيدة عن مراسي الأرض أو لا تستطيع الإرساء، أو كان الإرساء يضر بالراكبين أو يُخاف تعفن الجثة فإنها يُرمى بها في البحر وتثقّل بشيء لترسُب إلى غريق الماء. وعليه فلا يجوز إحراق الميت كما يفعل مَجُوس الهند، وكما كان يفعله بعض الرومان، ولا وضعُه لكواسر الطير كما تفعل بعضٌ من طوائف المَجُوس»[2].

(١) لطائف الإشارات للإمام القشيري ٨ / ١٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ٤٣٢ بتصرف.

عودٌ إلى مشاهد القيامة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٥٠]

المناسبة

بعد تقرير حقيقة هذا اليوم بالأدلةِ القاطعةِ والشواهدِ الساطعَةِ يعودُ السياقُ لأهوالِ هذا اليومِ العصيبِ وشدائدِهِ المتتابِعَةِ ومشاهدِهِ المتباينَةِ.

المشهد الأول

قَالَ تَعَالَى: ﴿ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

يُزجرُ الكفارُ ويساقون من القبور إلى أرض المحشر، قد أثقلتهم الذنوبُ وأرهقتهم الكروبُ وسوَّدتهم الخطايَا، وهم بين توبيخٍ وتقريعٍ: ﴿ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ من العذاب.

﴿ انطَلِقُوا ﴾ تكرار الأمر زيادة في التوبيخ والتهكم أو لاختلاف الوجهة فأمرهم أولا بانطلاقة عامة، ثم حدد الوجهة فقال ﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ وقرأ يعقوب[1]

---

(١) النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٩٧.

على الإخبار عن امتثالهم للأمر اضطراراً، بعد أن كانوا في الدنيا معرضين معاندين.﴿ إِلَىٰ ظِلٍّ ﴾ يعني ظل دخان جهنم، وهو في معنى قوله تعالى ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٢، ٤٤]. ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾: يتشعبُ لِعَظَمِهِ كما ترى الدخانَ العظيمَ يتفرقُ تفرقَ الذوائب.

« وشعبها الثلاث كونها من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومحيطة بهم، وعن قتادة: هو الدخان: شعبة عن يمينهم وأخرى عن يسارهم والثالثة من فوق، تظلم حتى يفرغ من حسابهم والمؤمنون في ظل العرش»[(١)].

﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾ تهكُّمٌ بهم، فهو لا يشابهُ الظلَّ إلا في اسمِهِ فهو لا يعني الاسترواحَ، بل هو ظلٌّ من دخانٍ خانقٍ ولهيبٍ حارقٍ، نكايةً بهم وانتقامًا منهم، كما انطلقوا في الدنيا إلى ظلٍّ زائلٍ

المشهد الثاني

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

لفتةٌ مفاجئةٌ إلى مشهدٍ آخر من المشاهد الرهيبة التي تحيط بالكفار، مشهد جهنم، والشرر يتطاير منها حنقا وغيظا، وهي تتربص بأعداء الله ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي كل شرارة ﴿ كَٱلْقَصْرِ ﴾ في عظمها.

﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ ﴾ جمع جمال أو جمالة جمع جمل. ﴿ صُفْرٌ ﴾ فإن الشرار بما فيه من النار يكون أصفر، وقيل سود لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، والأول تشبيه في العظم وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص { جِمَالَةٌ } وعن يعقوب { جُمَالاَتٌ } بالضم جمع جُمالة،، وهي الحبل الغليظ من حبال السفينة، شبهه بها في امتداده والتفافه[(٢)].

(١) يراجع: **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للإمام النيسابوري ٢٩ / ١٣٧.

(٢) يراجع: **النشر في القراءات العشر** ٢/ ٣٩٧.

ومن لطائف ودقائق هذا التشبيه العجيب: أنه شبّه الشرر تارة بالقصور، وهي موضع الأمن وأعظم ما يشتهيه الإنسان وينفق في تشييده الأموال، وفي هذا تهكُّمٌ بالكفرة، فضلا عن ملامسة هذا التشبيه لواقعهم وأحاديثهم وأمانيهم، « وكذلك لأن القصر موضعُ الأمن وتشبيه الشرارة به، إشارة إلى أن الكافر إنما يعذب بآفة من الموضع الذي يتوقع منه الأمن وهو دينه وملته التي ظن أنه منها على شيء»[1].

، كما شبَّهه مرة ثانية بالجمال، وهي أعزُّ ما كانت العرب تملكه ولا يزال، ووجه التشبيه: أن الإبل إذا نفرت وشردت متتابعة نال من وَقَع في طريقها بلاء شديد. فتشبيه الشرر بها يفيد كمال الضرر، أو شبه الشرر في ضخامته بالقصور الشاهقة وفي صفرته بالجمال الصفر.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ عند معاينة هذا الهول ومكابدة هذا العذاب.

المشهد الثالث

قَالَ تَعَالَى:﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ المرسلات

مواقف متباينة ومشاهد مختلفة، لكنها تتفق فيما تحمله من الويلات والأهوال، والترويع والإذلال، فمرةً يصابون بالبكم، وتارة يمنعون من النطق، ولو للاعتذار والإقرار﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾، فويل لهم هذا اليوم، وقد مُنِعُوا من الكلام.

المشهد الرابع

قَالَ تَعَالَى:﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ المرسلات

يجمع الله تعالى الأولين والآخرين ليفصل بين الخلائق، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء

(١) يراجع: **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** للإمام النيسابوري ٢٩ / ١٣٩.

بإساءته في محكمة عادلة فاصلة، وفق ميزان دقيق، ويتحداهم الله تعالى ويتهكم بهم ويوبخهم على ما كان منهم في الدنيا من كذبٍ وخداعٍ، وهم يعلمون أن الحيل يومئذ منقطعة لا سبيل لهم إليها، ولو تمكنوا منها ما نفعتهم، وهذا في نهاية التوبيخ وغاية التقريع فلهذا عقَّبه بقوله ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

المشهد الخامس

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

ينعطف السياق من الحديث عن تلك اللفحات الحارقة إلى نفحاتٍ عاطرةٍ، فينتقل من وصف الجحيم إلى وصف حال أهل النعيم.

ففي مقابل هذا المشهد الرهيب والموقف العصيب، وبينما الكفارُ يقاسون تلك الشدائد الموبقة، في هذا اليوم العصيب الذي يتبدَّى للمتقين بصورةٍ أخرى فهو بالنسبة لهم يومٌ أغرٌّ باسمٌ، يومٌ مشرقٌ وضاءٌ، لطالما انتظروه واستعدوا له بصالح الأعمال، وها هو قد أتاهم يزفُّ إليهم البشائر، ويهبُّ عليهم بالنسائم، وهم في ظلال وعيون.

وما أجمل قول القشيري رحمه الله: « اليومَ في ظلال العناية والحماية، وغداً.. هم في ظلال الرحمة والكلاءة، اليومَ في ظلال التوحيد، وغداً في ظلال حُسْن المزيد.

اليومَ في ظلال المعارف وغداً في ظلال اللطائف

اليومَ في ظلال التعريف وغداً في ظلال التشريف»[1]

ظلال وارفةٌ، وأشجار مورقةٌ، وعيونٌ متدفقةٌ، وقصورٌ مُزدانةٌ متأنقةٌ، وفواكهُ شهيةٌ طيبةٌ ونعيمٌ روحيٌّ، وحفاوةٌ بالغةٌ، وترحِيبٌ وإكرامٌ، وثناءٌ عطرٌ من القدُّوسِ السلامِ،﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

---

(١) يراجع: **لطائف الإشارات** للإمام القشيري ٨ / ٢١.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ تزداد حسرتهم وآلامهم عندما يرون المتقين في ظلال وعيون ويشهدون ما هم فيه من كرامةٍ، فيشعرون بالندم على ما فاتهم والتقصير في حقِّ أنفسهم، فالويلُ لهم من هولِ هذا اليومِ، يومِ الحسرةِ والندامةِ.

ختام السورة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ خطابٌ للمشركين وتهديدٌ لهم، فليأكلوا في الدنيا ما طاب لهم، وليتمتعوا فيها بما راق لهم، فإنها حياةٌ ذاهبةٌ وعيشةٌ منقضيةٌ ومتاعٌ قليلٌ، وأين هذه المطاعم الفانية والمتع الزائلة والأعراض الدنيوية من نعيم الآخرةِ المقيمِ ! وعيشها الكريم !

وفي الآيات تعريض وتوبيخ للكفار الذين شغلتهم الشهوات وصرفتهم الملذات عن التفكير في هذا المصير المحتوم.

وقد قيل:

وإن امـــرأً دنـيـــاهُ أكـــبرُ همِّـــهِ   لمستمسكٌ منها بـحبـلِ غـرورِ

******

لا يخـدعـنَّـك بـعـد طـول تجـارب   دنـيـا تـغـرُّ بـوصـلـهـا وستقطعُ
أحـــلامُ نـــوْمٍ أوْ كـظِـلٍّ زائـلٍ   إنَّ الـلَّـبـيـبَ بمثلها لا يُخـدَعُ

فويلٌ للمكذبين حين يرون العذاب، وويلٌ لهم عندما يرون كرامة المتقين، ثم الويل لهم حين ينادى عليهم نداء الزجرِ والتقريع، وهم بين الزقوم والضريع فيقال لهم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ يذكرون بجرائمهم التي أردتهم، وذنوبهم التي أثقلتهم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

إذا قيل لهم اركعوا في هذا اليوم لا يركعون، حيث حُرِمُوا من لذَّةِ الركوع كما حرموا أيضا من لذة السجود، كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم ٤٢- ٤٣].

كذلك وهم في الدنيا إذا دعوا إلى الركوع لله وحده أعرضوا.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾: « ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾: أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلا عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب أفاك مبين؟ »[1].

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾: بعد هذا البيان إن فاتهم الإيمان فمتى يؤمنون ! وبأيِّ حديث بعد القرآن يصدقون !

« والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهزُّ الرواسيَ، وبهذه الهزَّاتِ التي تزلزلُ الجبالَ، لا يؤمن بحديثٍ بعده أبداً. إنما هو الشقاء والتعاسة والمَصير البائس، والويلُ المدخَرُ لهذا الشقيِّ التعيس! »[2].

وقال ابن عاشور: « والمقصود أن القرآن بالغٌ الغايةَ في وضوح الدلالة ونهوض الحجة فالذين لا يؤمنون به لا يؤمنون بكلام يسمعونه عقب ذلك »[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٩٠٥.

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٩٥ بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤ / ٤٤٨.

الهدايات المستنبطة

* عذاب الكفار عذاب معنوي فوق أنه حسيٌّ، فللقلب والوجدان منه نصيب كما للحواسِّ بأسرها، فتوبيخٌ وتقريعٌ وتهكُّم، من ذلك ما ورد في المشهد الأول من ظلٍّ يدعون إليه، بيد أنه لا يشابه الظلَّ إلا في اسمه فهو لا يعني الاسترواح، بل هو ظلٌّ من دخان خانق ولهيب حارق، كما كان الكفار والمنافقون يطلقون الشعارات البراقة الجوفاء في الدنيا ويتلاعبون بالمصطلحات والعبارات فينخدع بها الناس، ويلوذُ بها الضعفاءُ وهي في الحقيقة لا تعني إلا نقيضها، إذ يشهد الواقع بخلافها كما نرى في واقعنا من أدعياء التحرير والتنوير والعلمانية والحداثة والتغريب وغيرها من الدعوات المتناقضة مع نفسها.

* نعيم الجنة نعيمٌ أبديٌّ، فيه تمتزجُ مُتَعُ الأجساد مع نعيم الأرواح، فهو لذَّةٌ للحسِّ، وبهجةٌ للنفسِ، وغذاءٌ للروحِ، وقوتٌ للقلب.

* تصوير القرآن الدقيق لمشاهد القيامة وهولها، ليعيش الإنسانُ هذا الحدث بجميع أبعاده ويراهُ بعين البصيرةِ، فيسارع إلى الاستعداد له.

* اقتران الوعد بالوعيد وتزاوج الترغيب والترهيب من الأساليب القرآنية البليغة وسماته الفريدة.

* على الداعية أن يستفيد من منهج القرآن الحكيم ويقتبس من أساليبه المتنوعة في خطاب المدعوين، بما يتناسب مع أحوالهم.

الفهرس

السورة	الصفحة
الحديد	١
المجادلة	٢٩
الحشر	٥٥
الممتحنة	٨٧
الصف	١٢١
الجمعة	١٤٣
المنافقون	١٦٣
التغابن	١٨٥
الطلاق	٢١١
التحريم	٢٤١
الملك	٢٦٣
القلم	٢٨٩
الحاقة	٣١٧
المعارج	٣٣٧
نوح	٣٦١
الجن	٣٩١

السـورة	الصفحـة
المزمل	٤٢٣
المدثر	٤٤٧
القيامة	٤٨٣
الإنسان	٥٠٣
المرسلات	٥٣٥

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com